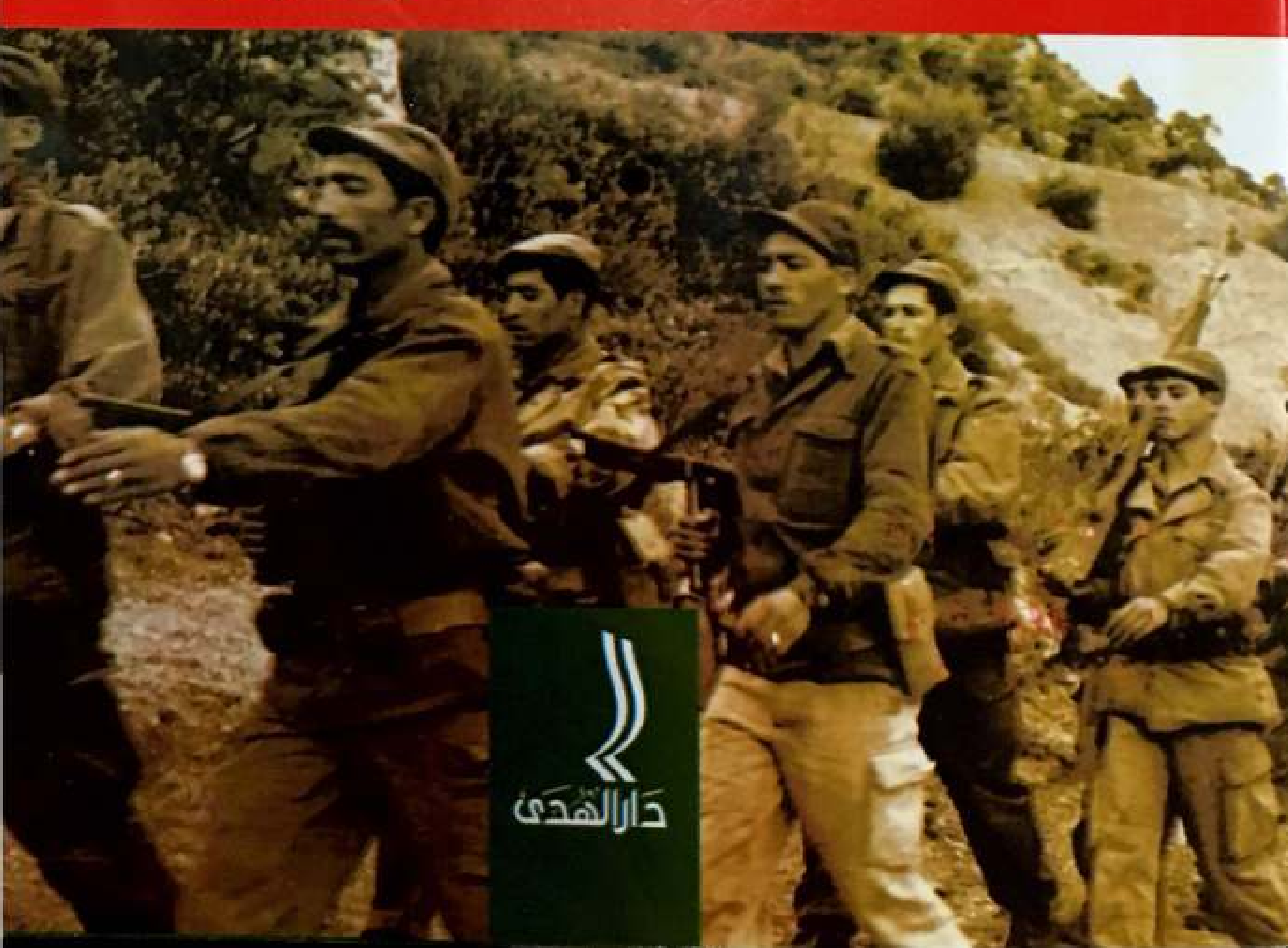
عثماني مسعود

الأوراس

مهد الثورة



الأوراس
مهد الثورة

عثماني مسعود

الأوراس مهد الثورة



المقدمة

◆ **الأوراس مهد الثورة:**

... ظلت هذه العبارة تثير تحفظات خاصة لدى شريحة من المفكرين ومن المثقفين، وحتى من قبل بعض الوطنيين المهتمين بالتاريخ الوطني، حيث يزعمون أن الأعباء كانت واحدة والإعداد للعمل العسكري وسير العمليات فيها بعد، وما ترتب عن ذلك من ردود أفعال السلطة الاستعمارية عقب اندلاع الثورة كانت كلها بنفس الحدة، وأن عبارة "أوراس مهد الثورة" تفضيل لمنطقة معينة على بقية المناطق التي كانت لها إسهاماتها، وهذا التفضيل وصفه أحد الأساتذة في جريدة الخبر ليوم: 11 ماي 2014، بالأكذوبة، لأن ذلك حسب رأيه يمس بوحدة ترابنا وتماسك أمتنا...

فمن حق الأستاذ، ومن حق غيره أن يعتقد بما يشاء، وأن يتنكر لأحداث لم يذق مرارتها وقد خلفت أصداء عميقة ليس على المستوى المحلي فقط، بل تجاوزت أصداؤها "الأوراس الملتهبة". وقد روج لها الاستعمار نفسه من خلال التصريحات والبيانات التي كانت تصدر عن القيادات المدنية والعسكرية، ومن خلال الأعمدة التي كانت تتصدر الصحف اليومية، كما كان للإعلام العربي ولرجال الفكر دور هام في الإشادة بالأوراس في شكل مقالات صحفية أو في شكل قصائد شعرية توشح دواوين الشعراء.

وسنتعرض لذلك في موضعه في محتوى الكتاب لعل ذلك يزيل بعض الشك عن كل متشكك لا يؤمن بالدور الريادي للأوراس.

كان بإمكان هؤلاء الرافضين للدور الريادي للأوراس أن يثبتوا ذلك بأدلة مقنعة تزيل من رؤوسنا نحن الأوراسيين هذا المجد الموهوم، وإذا لم يكن بإمكانهم أن يفعلوا ذلك، فليبحثوا عن الأسباب التي ألهبت حماس الأوراسيين وعن التحديات التي أظهرتها جموعهم رغم التفوق الساحق للقوات الاستعمارية. وهذا شأن معظم الحركات

التحررية في جميع الدول فهناك الأول والآخر والظاهر والباطن، تبعا للاستعدادات النفسية والتكوين السياسي، والقناعات والمثل التي تشبع بها الأفراد والجماعات.

لاشك أن المرجعية واحدة في جميع المناطق والهدف مشترك، لأن الزعامات التي حملت المشعل كانت تحمل نفس الأفكار وتعمل بنفس الحماس غير أن قدراتها على التنظيم والتعبئة داخل مناطق نشاطها تختلف بين منطقة ومنطقة، والاستجابات التي كانت تحصل عليها تختلف كذلك لأسباب وعوامل نفسية واجتماعية وتاريخية...

إذ لا يزعم الأوراسيون أنهم هبوا هكذا دون إعداد ودون توعية مسبقة واندفعوا كالمردة لقتال المستعمر، فهذا من الخطل القول به، فهم يقرون بأنهم لا يجيدون فلسفة الأحداث، ولا يستطيعون الغوص في المعاني والتحليل والتعليل والبحث عن النتائج قبل توفّر الأسباب.

فالأمر بسيط بالنسبة إليهم، فهم يدركون أن الاستعمار قد جثم على هذه الأرض، وفرض هيمنته على المجتمع، وأن رحيله لا يتم عن طريق التوسل ورفع الأكف بالأدعية، فما أخذ بالقوة لا يسترد إلا بالقوة. فتجاوبوا مع الحركة الوطنية، ومع قائد لا يعرف النكوص ولا يقر بالهزيمة، فصنعوا ما صنعوا.

إن الأوراس جزء من الوطن الجزائري الكبير، وما صنعه أهله في بداية الأحداث شرف للجزائر كوطن، وليس للأوراس وحده، وهو ناتج عن الشعور بالمسؤولية والاستعداد للتضحية، والضجة التي خلفتها هذه الأحداث خلال السنتين الأولى والثانية من الثورة هي التي صنعت مجد الأوراس وساهمت في الترويج له مختلف الصحف، وتردد اسمه في مختلف المحافل وتصدّر عناوين كثير من القصائد... فالتنكر للدور الريادي للأوراس خطأ لا يصدر عن وطني غيور على مجد هذا الوطن.

بوصالح: نوفمبر 2014.

الفصل الأول

- الموقع الجغرافي للأوراس

- الطبيعة الجغرافية للأوراس

- التركيبة الاجتماعية للأوراس

- المعتقد الديني

- التنظيم والهيكلة

الموقع الجغرافي للأوراس :

المدلول اللفظي لكلمة "الأوراس" :

الأوراس إسم علم لكتلة جبلية ضخمة تقع في الشمال الشرقي للوطن الجزائري تأخذ شكل مربع تزيد أضلاعه عن المائة كلم.

وقد ورد ذكره عند عدد من المؤرخين والرحالة المسلمين، غير أن معظمهم اقتصر على الوصف دون البحث في المدلول اللفظي للكلمة أو التوغل في أعماق هذا الجبل والكشف عن أسراره.

فقد ذكر الأستاذ: عبد الرحمن الجيلالي ثلاثة أسماء عرف بها الأوراس منذ القديم، وهذه الأسماء لها نفس الدلالة ونفس النغم وتتفق تماما مع نظم وأحكام اللغة المحلية، حيث تقوم فيها الألف المفتوحة أو المكسورة مقام "ألـ" التعريف في العربية، مثل: أذرار- للجبل وإخف- للرأس، غير أن هذا لا ينطبق على جميع الكلمات في اللغة الأمازيغية ولا ينطبق كذلك على الأسماء المؤنثة التي تبدأ في الغالب بحرفي التاء أو الهاء كأن نقول "ثيط" أو "تيط" أو "هيط" للعين و"ها جبارث" للنخلة، وهذه المرونة من محاسن اللغة وليست عيبا فيها.

والأسماء التي أوردها الأستاذ: عبد الرحمن الجيلالي لجبل: أوراس المتعارف عليه حاليا، هي "أوريس" و"أورايوس" و"أوروس" وهي كما نرى قريبة جدا مما يسمى الآن بأوراس وتكاد تتفق معه من حيث الحروف ومن حيث النغم، وإن كنا لم نتمكن بعد من معرفة المدلول اللفظي للكلمة،... يقول الأستاذ الجيلالي"وليس عندنا اليوم لكلمة "أوراس" هذه معنى معروفا، والراجح أنها كلمة بربرية لها معناها عند قدماء البربر[1].

وقد ذكره صاحب "نزهة المشتاق في اختراق الآفاق" الإدريسي الأندلسي (1099-1153) باسمه الحالي "الأوراس"، كما جاء ذكره عند البكري المتوفى في قرطبة سنة 1094م في كتابه "المسالك والممالك" بنفس الاسم، كما ورد ذكره عند ابن خلدون وعند ياقوت الحموي.

---

(1) أصالة، العددان: 60-61، ص: 104.

وقد انفرد "صاحب نزهة المشتاق المعروفة بـ/ الرحلة الورتلانية" برأي غريب لم يرد عند غيره من الرحالة والكتاب، حين زعم أن هذا الجبل كان يسمى جبل الرس"، وهو موطن خالد بن سنان وقد نقل ذلك عن الخفاجي، شارح الشفاء، وزعم أن خالدا هذا نبي ورسول أرسل بجبل الرس الملقب الآن الأوراس، وقد عبر عن ذلك حسب ما جاء في محاضرة للأستاذ: الجيلالي بقوله :"عام مشينا لزيارة النبي سيدي خالد عليه السلام" على القول بنبوته، وقد شهر غير واحد من المتأخرين رسالته بجبل الرس الملقب الآن بأوراس" فصاحب الرحلة يضفي على الكلمة معنى عربيا خالصا ويجردها من معناها الأصلي كما أنه اجتهد حين حاول إيجاد نوع من العلاقة بين كلمتين يجمعهما نوع من الجناس والتوافق في اللفظ دون الاهتمام بالمعنى واعتبر كلمة الرس التي تحتمل حسب القاموس عدة معان لا تنطبق جميعها على الأوراس، وقد ورد ذكر الرس في القرآن الكريم في قوله تعالى ﴿وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا﴾[1]، وهذه البئر حسب السيد قطب في الظلال تعني البئر المطوية التي لم تبن حوائطها، وقيل إن أصحابها كانوا بقرية باليمامة، فقتلوا نبيهم... واختار ابن جرير أنهم أصحاب الأخدود... . وقد ورد ذكرهم في سورة البروج" [2].

وما جاء به صاحب الرحلة الورتلانية يظل محل نظر، ومن الخطل التسليم به. ومما جاء في كتاب: تاريخ الجزائر القديم والحديث للعلامة: مبارك الميلي، قوله "ومن المؤرخين من أثبت دخول بعض الحواريين إلى إفريقية نقل البكري عن إسحق بن عبد الملك الملشوني أنه قال لم يدخل افريقيا نبي قط وأول من دخلها بالإيمان حواري عيسى بن مريم عليهما السلام"[3] ويعلق على الهامش بقوله: "ومن هذا النقل عن عالم جزائري صحراوي قديم مشهود له بالصدارة في العلم تعلم أن لا صحة لاعتقاد العامة وجود خالد بن سنان العبسي بوطننا، وزيارتهم لمكان زعموا أنه ضريحه... وليس في التاريخ ما يؤيد تصحيح وجود خالد بصحراء

---

(1) الفرقان، الآية: 38.

(2) الظلال، للسيد: قطب، ص: 2564 الهامش.

(3) عن تاريخ الجزائر القديم والحديث لمبارك الميلي، ص: 298.

الجزائر، وليس من المعقول أن يأتي نبي من جزيرة العرب إلى هذا الوطن البربري من غير أن يكون مرسلا إلى أهله هذا على فرض أن يكون خالد نبيا، والصحيح أيضا خلافه"[1] وهذه الكلمة "الأوراس" وردت عند كثير من المؤرخين، ممن أرخوا للعهد الروماني والبيزنطي وزمن الفتوحات الإسلامية بهذه التسمية.

الموقع الجغرافي :

تطلق كلمة "الأوراس" على الكتلة الجبلية الضخمة التي تقع جنوب شرق مدينة قسنطينة، تتفرع عنها عدة كتل صغيرة من الجهة الغربية تحمل نفس الخصائص الجغرافية، تحيط بها عدة مدن هامة هي بمثابة رؤوس أضلاع تعطى للجبل شكلا هندسيا مربعا بأطوال متقاربة تساوي أو تزيد قليلا عن: 100 كلم بين مدينة ومدينة والتي اعتبرناها كرؤوس أضلاع للرباعي فالمسافة بين باتنة وخنشلة تساوي 106 كلم وبين باتنة وبسكرة تساوي 117 كلم وبين بسكرة وخنقة سيدي ناجي تساوي 100 كلم... وهذه الأبعاد تسمح لنا بقياس مساحة الكتلة الجبلية التي تحدها بسهولة، ولهذه الكتلة كتل أخرى تنتصب من حولها في شكل أبراج للمراقبة من جهتها الشمالية الشرقية، والشرقية الغربية وتعتبر ملحقة بها لاشتمالها على نفس الخصائص الجغرافية والبشرية مثل: جبل بوعريف، جبل مستاوة، جبل الشلعلع، جبل متليلي.. كما أن لها امتدادات في شكل شرائح تمتد طولا لتشمل جبل بوطالب الذي يعتبر من الناحية الجغرافية أقرب إلى سلسلة الأطلس التلي... الخصائص المشتركة لهذه المناطق لا تتعلق بالتضاريس وحدها لكنها تخص أيضا العلاقات الاجتماعية، وأنماط الحياة التي تطبع حياة السكان لوجود ثقافة مشتركة وعادات وتقاليد موروثة ظل المجتمع محافظا عليها، لأنها حسبه تمثل الإطار الذي يحافظ على وجوده ويحدد ملمح شخصيته، وهذه الثقافة أو هذه التقاليد العريقة المستمدة من التراث القومي للمجتمع تعد من جملة العناصر التي حافظت على الروابط الاجتماعية وعلى النسيج المشترك لمجتمع تعرض لزلازل عنيفة ظلت تعصف به قرونا من قبل الغزاة.

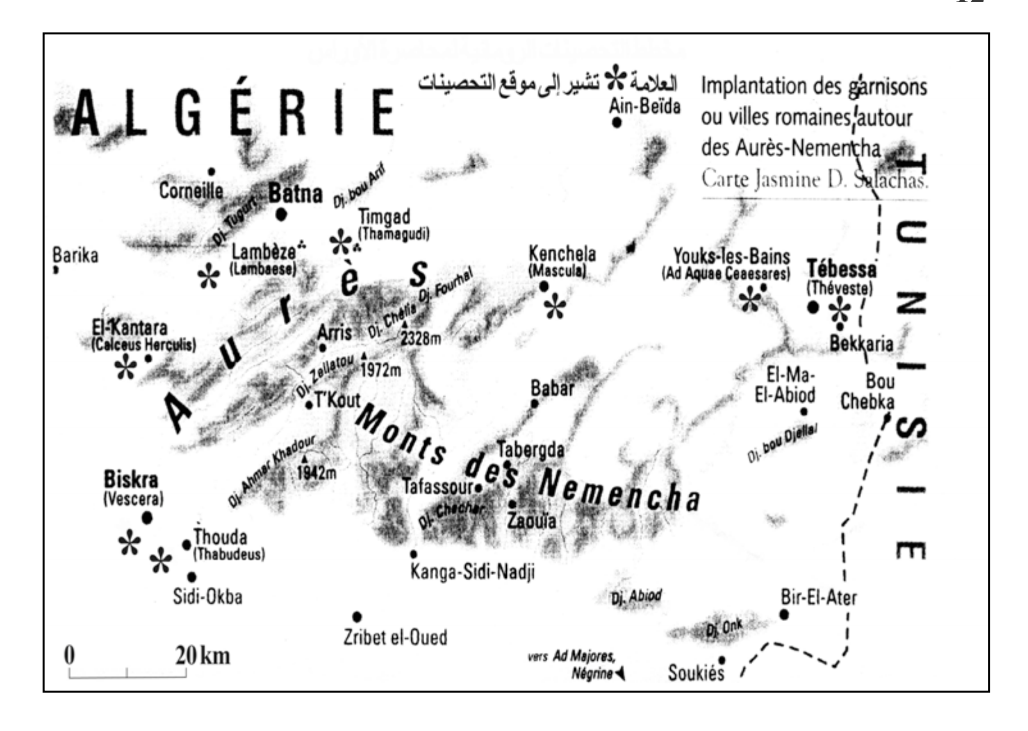
---

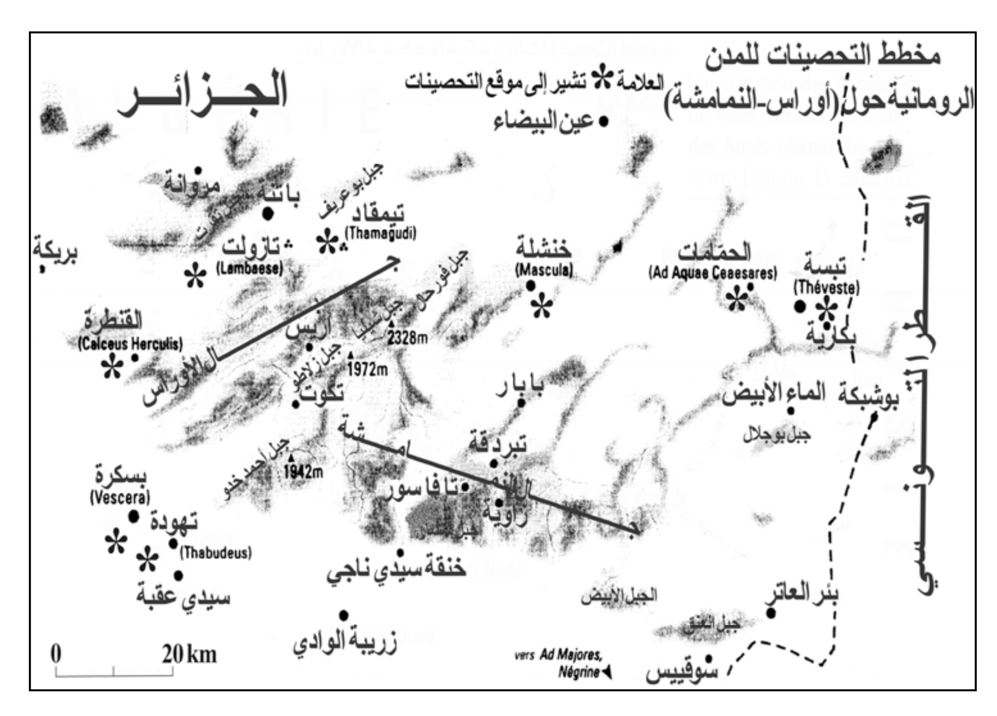
(1) المرجع السابق.

تحيط بهذه الكتلة الجبلية عدة معالم لازالت بارزة للعيان، وهذه المعالم لا يصح أن توصف بالحضارية لأنها عبارة عن حصون ونقاط مراقبة ثابتة أقامتها القوات الرومانية حول الأوراس من جميع جهاته وجددتها القوات الفرنسية قبل أن تتمكن من التوغل وسط الجبل الموحش "أوراس"، وهذه المعالم تحولت مع مرور الزمن إلى معالم حضارية وسط النسيج العمراني الذي امتد إليها، ومن ضمنها السجن المركزي بتازولت-لامبيز- الذي بناه نابليون الثالث في العقد السادس من القرن التاسع عشر الميلادي على أنقاض سجن أقامه الرومان وسط معسكر خاص بالفرقة الثالثة الرومانية لازالت معالمهُ بادية، هذه المراكز العسكرية التي أحاطها الرومان بالأوراس المدعومة بسلسلة أخرى من التحصينات أقل شأنا مثل: باغاي، وبلزمة، وطبنة، وبادس.. هي التي ستحدد ملمح العلاقة بين السكان والسلطة الرومانية، وقد اصطلحنا على تسميتها بالمعالم الحضارية-بالرغم من قناعتنا بأنها لم توضع لعمارة الأرض أو لحماية السكان-لأن معظمها تحول بعد أن فقد دوره العسكري إلى معالم أو إلى مراكز عمران مثل: خنشلة (ماسكولاي)، تيمقاد (تاموقادي)، تازولت (لمبيزيس) بسكرة (فيسيراي) وتقلص دور بعض الحصون بعد أن تمكنت القوات الرومانية من التوغل داخل منطقة الأوراس الممتنعة، وأقامت بها حصونا عسكرية حتى وإن لم تكن في مستوى الحصون الأولى التي فقدت أهميتها وتحولت إلى مراكز عمران وإلى مستعمرات رومانية.

هذه التحصينات العسكرية التي أحاط بها الرومان الأوراس كفيلة بأن تكشف لنا عن حدة الصراع القائم بين السكان الذين ظلوا يرفضون الاحتلال وبين السلطة الرومانية التي أغرتها خيرات البلاد أو ما كانت تصفه روما بمخزن الحبوب، يقول الأستاذ: عبد الرحمن الجيلالي"وكان من أبرز الشخصيات التي قاومت الاستعمار البيزنطي -والروماني- الزعيم "يابداس" رئيس قبائل جبل "أوراس" بمساعدة الرئيس "كوتسينا"، وقد اجتمع حولهم يومئذ أربعون ألف مقاتل وسار الكل تحت زعامة يابداس، فغزا نوميديا وذهبوا وسلبوا وأحرقوا البلاد وخربوها.. ويومئذ انهزم البيزنطيون والتجأوا إلى إنشاء خط ثان من الحصون المتماسكة المتصلة اتقاء هجمات البربر على قلاعهم وحصونهم الداخلية"[1].

(1) تاريخ الجزائر العام للأستاذ: عبد الرحمن الجيلالي، الجزء الأول، ص: 137.





مخطط الحصون الرومانية حول الأوراس

ولم تكن هذه المعارك هي الوحيدة بين الرومان والبيزنطيين وبين من يصفهم الكتاب الغربيون والمسلمون على السواء بالبربر استنقاصا من شأنهم بدل الأمازيغ أو السكان الأصليين للوطن الجزائري.

وقد ظهر بعد هذين الزعيمين عدة أمراء في الأوراس بالذات ذكر منهم الأستاذ: مبارك الميلي، في كتابه القيم، تاريخ الجزائر القديم والحديث.

أرثياس: كان على غربي الأوراس إلى الحضنة.

بيداس: كان على جبل أوراس.

قطزيناس: كان على شرقي أوراس.

هؤلاء الأمراء كانوا مستقلين بنواحيهم ووحدوا القبائل التي تحت سلطانهم وردوا لها قوتها الحربية لما ضعفت السلطة الواندالية. واسترجع البربر على عهدهم كثيرا من الأراضي التي كان الرومان استولوا عليها، وصار شعارهم "أرض البربر للبربر"[1]. هذه اللمحة الخاطفة من تاريخ الجزائر القديم بالرغم من إيجازها الشديد تكشف لنا على الدور التاريخي للأوراس كقلعة للمقاومة والصمود عبر العصور حتى أمسى الصراع عند سكانها قناعة من أجل البقاء واعتبروا الحرب قدرا محتوما، فما ضعفوا وما استكانوا بالرغم من نقص الإمدادات وقلة الموارد والإمكانات. ومن الطبيعي أن يتوارث الأحفاد عن الأجداد هذه الصفات يقول عنهم الميلي في كتابه المرجع-"ثوار القرن السادس الذين حاربهم البيزنطيون في أوراس وإيدوغ... كانوا مماثلين لأسلافهم الذين مر عليهم ستة قرون، وحاربوا الرومان تحت يوغرطة: طبائع متحدة وأعمال متماثلة وكراهية واحدة للأجنبي ومحبة واحدة للحرية وصفة واحدة في الحروب... هذه الأمة لم تتبدل عن حالها الأولى، ولا يخرق سياج طبائعها أي أثر خارجي"[2].

---

(1) تاريخ الجزائر القديم والحديث للشيخ: مبارك الميلي، ص: 366.

(2) نفس المرجع، ص: 366-367.

هذه الصفات ظلت راسخة في الإنسان الأوراسي متجذرة في أعماقه تجري من نفسه مجرى الدم في العروق تنتقل من جيل إلى جيل ما لم تتطور أنماط حياته المادية فتسلب منه بعض الصفات.

الطبيعة الجغرافية للأوراس:

لم يتسن للرحالة المسلمين دخول جبال الأوراس والتوغل في أعماقها ووصف الطبيعة الجغرافية للإقليم والخصائص المميزة له، فاقتصروا على الحديث عن الممرات المحاذية للسفوح الجبلية التي كانوا يمرون عليها، والوصف عندهم جاء شاملا وغير دقيق، فابن حوقل (توفي 977) يصف في كتابه: "المسالك والممالك" الأوراس بقوله: "وجبل أوراس فيه المياه الغزيرة والمراعي الكثيرة والعمارة الدائمة" دون تحديد للأماكن أو ذكر للمدن، وبنفس الأوصاف ينعته الإدريسي، حيث يقول عنه" بأن مياهه كثيرة وعمارته متصلة" والوصف عند الرحالتين يشير بوضوح إلى توفر عناصر الحياة (الماء والمرعى) وإلى وجود مظاهر العمران كمؤشر للاستقرار.

التضاريس:

تتخذ تضاريس المنطقة شكل شرائح متوازية في الغالب تتجه من الشمال إلى الجنوب تفصلها عن بعضها أودية عميقة أحيانا تتجه بدورها من الشمال إلى الجنوب، وعلى ضفاف هذه الأودية حيث يتوفر الماء -عنصر الحياة- يتجمع السكان، هذه السلاسل الجبلية تكون في الغالب مكسوة بالأشجار في الشمال والوسط وعارية في الجنوب وفي بعض القمم في الشمال، وأسباب التعرية في الشمال هي البرد القارس خلال الشتاء، أما في الجنوب، فهي نتيجة الحرارة المرتفعة والعواصف الرملية التي تَلْفَحها خلال فصل الصيف، وفي الأوراس خاصية انفردت بها دون بقية المناطق في الوطن، وهي التقارب أو التعايش بين مناخين مختلفين بل متضادين، وقد لفت ذلك نظر باحثين أوروبيين بل أثار إعجابهم هذا الانعكاس في المناخ حيث لا يفصل بين قمة شيلية 2328م، حيث المناخ القار والبرد

القارس، وحيث تنتشر أشجار السنديان، ومنخفضات مضائق: تاغيت حيث المناخ الحار، وحيث تنتشر أشجار النخيل سوى 30 كلم، وقد تكررت هذه الظاهرة في أماكن أخرى وبمسافات تقل عن 30 كلم، مثلما نجد في "تاغدة" ووادي "أمنطان" بوادي عبدي، وقد أثار هذا التقارب في المناخ إعجاب الكاتبة الفرنسية"أوديت كين (O.Detteken) " فجعلته عنوانا لكتابها: الواحة وسط الجبل"[1].

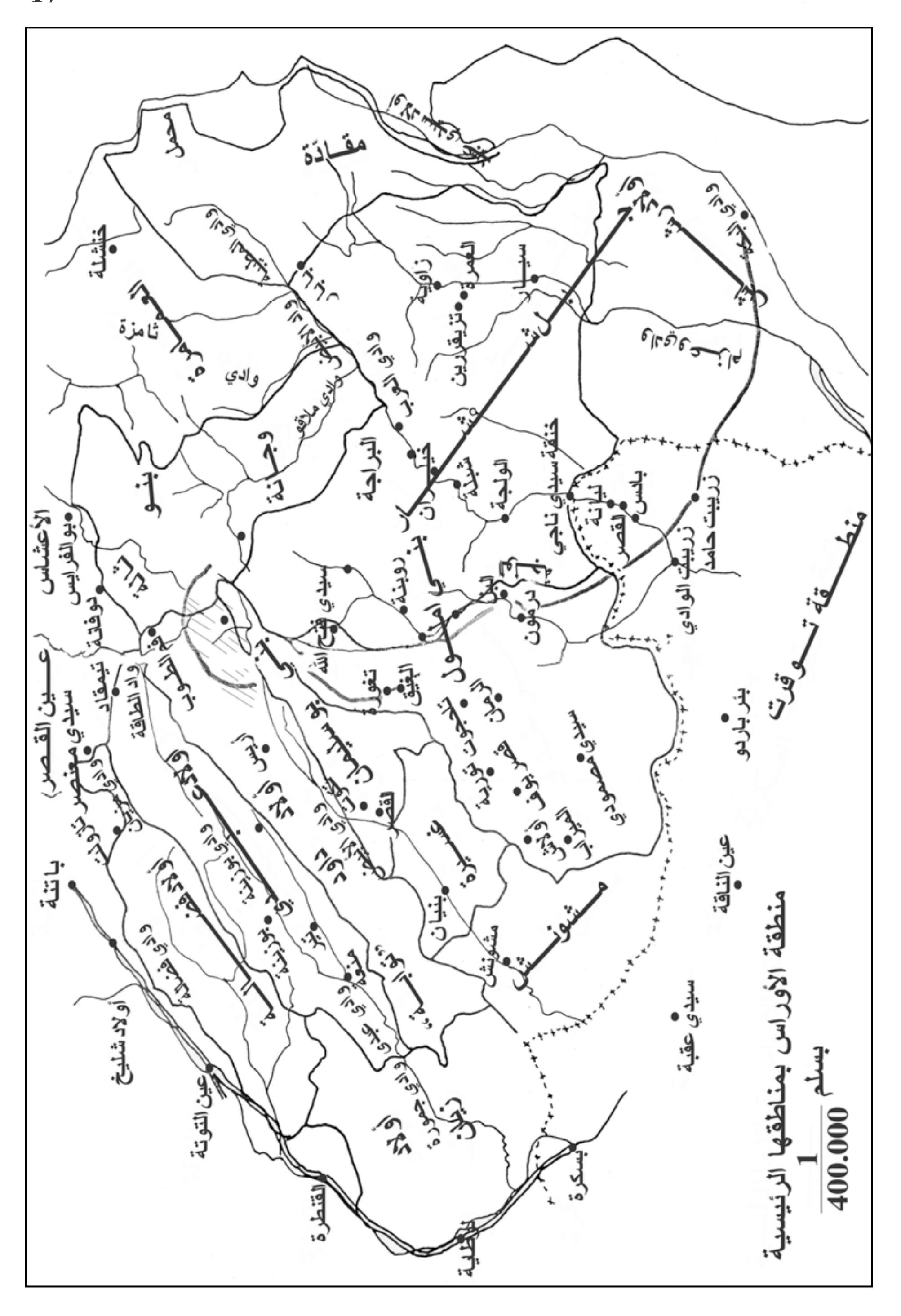
تضاريس المنطقة سوف تقوم مقام التحصينات الرومانية عند مقاتلي أول نوفمبر وسوف تكون ميدانا لملاحم لم يشهد تاريخ المنطقة مثيلا لها.

التركيبة الاجتماعية للمجتمع الأوراسي:

تصنف الأوراس على أنها واحدة من مناطق الطرد البشري عبر القرون بسبب عزلتها وصعوبة ملاحقة اللاجئين إليها، وبالرغم من أن سكانها يشكلون تجمعات توحي في الظاهر أنها وحدات مستقلة أو ممالك صغيرة أو أعراشا أو قبائل يجزم أفرادها أنهم يشكلون سلالة واحدة أبا عن جد... وقد يلمس الباحث في هذا الإدعاء من خلال الملامح الشخصية المشتركة لدى أفراد القبيلة الواحدة ما يؤكد ذلك، غير أن هذا يعد الاستثناء، ولا ينفي بأي حال وجود أسر دخيلة وسط بطون تعتقد أنها تنحدر من أصول واحدة، وهذا التمازج أملته ظروف ومعطيات محلية، كالتسخير والاستغلال بالنسبة للعناصر الوافدة على المنطقة كأفراد أو في إطار التحالف مع العناصر الدخيلة متى كانت في شكل جماعات، ومع مرور الزمن تتطور العلاقات النفعية إلى المصاهرة واختلاط الأنساب ثم إلى انصهار العناصر الوافدة واندماجها وسط المجتمع المحلي، وفكرة الانتماء أو النسب من المسائل التي يعطيها سكان الأرياف أهمية خاصة للمحافظة على نقاوة العنصر من الدخلاء. غير أن ظاهرة الاختلاط فرضت

(1) ثورة الأوراس د/ عبد الحميد زوزو، ص: 66.

نفسها على المجتمع من قرون بعيدة وقد أملتها الضرورة الملحة، كما أشرنا، سيما فيما يتعلق بالتحالفات لمواجهة الأخطار الخارجية المحدقة. لذا تجد أن بعض القبائل التي عانت من حروب محلية أو خارجية عبارة عن فسيفساء تضم عناصر من عشائر مختلفة اندمجت مع القبيلة الحليفة -الأصل- وصارت تشكل عشيرة واحدة متلاحمة تتعايش من أجل تحقيق المصالح المشتركة، ودرء الأخطار المحدقة، لكنها في ساعات الأمن والرخاء تتنابز بالألقاب وتتعاير بالأنساب.



خارطة التجمعات السكانية

أسباب هذه الهجرات المؤدية إلى الاختلاط كثيرة منها: الانهزام في الحروب والمنهزم عادة يبحث عن الملجأ ليحتمي به أو عن الحليف ليستعين به عندما لا يجد القدرة على المقاومة، وهذه الحالة هي الأعم لأنها استمرت قرونا طويلة منذ الغزو الروماني حتى العهد التركي. ولعل هذه الأمثلة كفيلة بأن توضح للقارئ ما نحن بصدد الحديث عنه، يقول الأستاذ: عبد الرحمن الجيلالي في كتابه: تاريخ الجزائر العام -الجزء الأول-... "ليس هناك ما يهم ذكره في تاريخ الجزائر في هذا العصر سوى بعض الوقائع والاضطرابات التي حدثت بالزاب، وأغلبها يرجع إلى نفور الشعب الجزائري من سوء معاملة السلطة الحاكمة المتمثل في ظلم بعض ولاتها وجورهم، وقد قام بعملية القمع يومئذ إبراهيم بن أحمد بن محمد بن الأغلب، فقضى على أهل الزاب قاطبة كبيرا وصغيرا وحملهم على العجل-عربات النقل- فألقاهم في الحفر سنة 781م (*)، كما أوقع أيضا بأهل بلد بلزمة على مسافة 27 كلم من الشمال الغربي من باتنة سنة 893م، وقام بمثل ذلك أبو العباس بن إبراهيم الأغلبي سنة 899م فأوقع ببني بلطيط ببسكرة فقاتلهم وشردهم في البلاد"[1].

فالنّاجون من هذه المجازر سوف يفرون إلى الأماكن الآمنة في الأوراس المجاورة ويندمجون مع المجتمعات المحلية ومع مرور الزمن تنصهر تلك العناصر وسط المجتمعات المحلية وتصير منها. وقد يكون الإبعاد القسري من طرف السلطات الحاكمة لبعض الأسر أو القبائل عملية مقصودة الغرض منها نفي بعض العناصر المثيرة -للشغب- أو إضعاف بعض القبائل التي تظهر التحدي للسلطة الحاكمة، أو لأسباب أخرى-رفض تسديد المغرم- التجنيد ...

ففي العهد الإسلامي مثلا كان الولاة يعملون على تجريد القبائل الكبرى من قوتها بتفكيك وحدتها وتجزئتها وتوزيعها على الأقطار حتى لا تتمكن من تجميع عناصر قوتها وإظهار التحدي مرة أخرى، كما حصل مع قبيلة "هوارة" وموطنها

(*) إذا صحَّ أن تأسيس الدولة الأغلبية كان في شهر جوان من سنة 800م، ص: 280، فهذا التاريخ محل نظر.

(1) تاريخ الجزائر العام للأستاذ: عبد الرحمن الجيلاني (مرجع سابق)، ص: 264.

الأصلي -جبل نفوسه- شمالي شرق ليبيا- فقد تم تفكيكها إلى قبائل صغيرة وتهجيرها إلى مناطق مختلفة من الوطن يصعب عليها إعادة بعث وحدتها وإحياء عناصر القوة فيها،وقد نقلت منها قبيلة إلى الأوراس -لازالت تحمل اسم- "هوارة" في ناحية "مروانة"، وانتشرت منها فروع أخرى في مختلف مناطق الوطن وحتى في المغرب الأقصى، وللعلامة: ابن خلدون رأي في أصل تسمية منطقة "الهقار" أو بلاد الهقار، حيث يقول: "إن أصلها "هوارة" قلبت العجمة واوها كافا"[1]. وهناك حالات أخرى تدفع بالمضطهدين في المناطق المجاورة إلى اللجوء إلى الأوراس للاحتماء بها، كالعجز عن تأدية المغارم ودفع الجباية وخشية التعرض لعقوبة التسخير أو المصادرة أو حتى الاستعباد من طرف الدائنين أو النظام، يضطر معها الشخص أو الأشخاص إلى الفرار إلى المناطق الصعبة حيث يصعب على السلطة ملاحقتهم، وهناك حالات أخرى معزولة يقول الأستاذ: عبد الرحمن الجيلاني: "إن أهم ما أضر بهذه الدولة (الأغلبية) وكان سببا مباشرا في سقوطها هو معاملتها القاسية للشعب وأخذها له بالعنف، والتضييق عليه في ضرب المغارم والآتاوات الباهضة وإثارة مشاعره بالعصبية العربية والتعصب المذهبي..."[2] فهؤلاء الأشخاص المضطهدون يكنون دوما للسلطة الكراهية والعداء، ويسعون باستمرار للبحث عن ذرائع لإسقاطها أو الانتقام منها، وهؤلاء يشكلون شريحة لا بأس بها وسط المجتمع الأوراسي، وقد امتد هذا الاضطهاد حتى العهد التركي. وقد ظلت منطقة الأوراس خلاله منطقة مغلقة وممتنعة، ولما لم تكن السلطة في عهد الأتراك قادرة على بسط سلطتها على الأوراس لجأت إلى حيل اعتقدت أنها ستتمكن عن طريقها من ترويض السكان، فمنحت الامتياز لبعض رجال الزوايا بمنحهم أراضي واسعة في مناطق زراعية هامة، مثل: زاوية ابن بلعباس بمنعة، وزاوية ابن

---

(1) مجلة الأصالة (مرجع سابق)، السنة: 1979، عدد: 72، ص: 23.

(2) تاريخ الجزائر العام (مرجع سابق) ص: 274.

ناصر في ناحية جبل: ششار، فعن طريق هذه الزوايا ذات النفوذ الديني استطاعت أن تستميل بعض القبائل حيث يكثر مريدو هذه الزوايا. ولما لم يكن ذلك كافيا لإخضاع منطقة تعج بالاضطرابات -حسب فهمها- راحت تراود بعض الأسر الأرستقراطية في المجتمع الأوراسي وجميعها على خط التماس مع المناطق السهبية المجاورة، ولما كانت هذه الأسر بحكم الامتياز المادي الذي تحظى به وسط المجتمع، ورغبة منها في ربط صلات بالسلطة الحاكمة للمحافظة على الامتيازات-أدناها الإعفاء من الضريبة-قبلت بالدور المنوط بها في تأطير المجتمع الأوراسي، والتأطير هنا لا يعني التأهيل أو الترقية، فهذا ما لا ترغب فيه السلطة نفسها لأنه يؤدي إلى الاستفاقة والاستفاقة أولى خطوات النهضة، لكنه (التأطير) يهدف إل تسخيره وتجنيده "لخدمة البايلك" وإلى ضبط القوائم من أجل التحصيل الضريبي... فاستمالت بذلك عدة قبائل لخدمة أغراضها في محيط الأوراس، مثل: الزمول، الحراكتة، العشاش، ريغة... عرفت فيما بعد بقبائل المخزن، وعندما لم تتمكن سلطات "البايلك" التركية من تطويع شعب الأوراس لإرادتها وإخضاعه لسلطتها لغرض تحصيل الضريبة -دون أدنى خدمة عمومية للسكان- لجأت إلى أسلوب الترهيب عن طريق الحملات العسكرية التي كانت تشنها مرتين في السنة على الأوراس انطلاقا من حاميتيها الثابتتين في "تبسة" و"بسكرة" بالتعاون مع مجندين شبه نظاميين من قبائل المخزن المذكورة أعلاه، فكانت هذه الحملات التي تشنها على السكان تعرف باسم "المحلة" ولا زالت في الأوراس أماكن تعرف بهذا الاسم أي تنسب إلى المحلة، مثل: عين المحلة، وثنية المحلة تكون هذه "المحلة" قد حطت بها أو ارتكبت فيها بعض الجرائم، فهذا الأسلوب التأديبي-لغير ذنب ارتكب- هو الذي عمق كراهية السلطة في نفوس السكان في الأوراس والحقد على سلطة لا تقدم لمواطنيها سوى القمع والاضطهاد والاحتقار... ترسخت هذه الصورة في نفوس الأجيال بوجوب محاربة السلطة أي سلطة لأن الأنظمة ملة واحدة في نظر

السكان الذين أوذوا وشردوا من قبل هذه الأنظمة التسلطية.ولم تعمل أي دولة من الدول التي حلت بهذا الإقليم على ترقية أحوال المجتمع وكسب وده عن طريق المشاريع الإنمائية، كشق الطرقات وفتح قنوات للري وبناء المعابر والجسور، ناهيك عن المؤسسات التعليمية والمرافق الصحية، وغيرها، ولا ينطبق هذا على الإمبراطورية الرومانية التي خلفت معالم حضارية ذات طابع معماري مميز أقامتها وسط المستوطنات أو المعسكرات كالقلاع الضخمة والبنايات الفخمة والمسارح والهياكل والحصون بالإضافة إلى قنوات شقت وسط الصخور لجلب المياه إلى المطاحن أو للسقي ويبرر الأستاذ: عبد الرحمن الجيلاني عدم قيام الأمة العربية التي فتحت هذه البلاد والدول الإسلامية التي توالت عليها بتشييد إنجازات مماثلة، بقوله: "فنحن نجيب عن ذلك بكلمة موجزة كان قد أجاب بها مصطفى الشهابي عن مثل هذا التساؤل، والذي قال: "إن السخرة التي كان يعرف بها الرومان وأمثالهم من كبار الدول والأمم السابقة هي ممنوعة عند أجدادنا العرب، ولذلك لم يبنوا أمثال ما يستهوينا من هذه المعابد والهياكل الضخمة التي شيدتها أمم أخرى فأهلكت في بنائها آلافا مؤلفة من البشر""[1]. فلعمري، فهذا عذر أقبح من ذنب، لأن الاستعباد نوع من التسخير بل هو شر من التسخير وقد لازم الأمة العربية قرونا طويلة حتى بعد أن تم تحريمه حديثا من قبل المجتمع الدولي، فالتسخير ظرفي والاستعباد دائم.

وقد فهم السكان أن السلطة تسعى فقط إلى استيلاب خيرات بلادهم واستعبادهم وتسخيرهم لخدمة الأسياد، وظلوا يكنّون لها الحقد والكراهية وينتظرون حلول ساعة تسمح لهم بالانتقام لكرامتهم المداسة وشرفهم المهان.

---

(1) المرجع السابق، ص: 139.

ومن الإنصاف أن نعترف بأن فرنسا التي جاءت متأخرة قد حاولت أن تحدث بعض التحول في الذهنيات ببناء بعض المؤسسات التعليمية لفئة خاصة لغرض الاستعانة بها في تثبيت سلطتها في البلاد، وكانت تطعم برامجها التعليمية بأفكار مسمومة تثير شك الإنسان في هويته وفي انتمائه الحضاري وفي معتقده الديني لأنه متى تجرد من هذه المقومات سهل وضعه في الخدمة.

وهكذا تظل العلاقة بين جميع السلط التي مرت بالبلاد وبين السكان علاقة حذر وترقب تتخللها مراحل من الصراع المعلن، فتزعزعت بذلك ثقة السكان في جميع الأنظمة وأساؤوا الظن في الحكم أيا كان مصدره، وظلت هذه الأحقاد تتنامى جيلا بعد جيل وظل المواطن يترقب حلول ساعة الحسم لينتقم للشرف الضائع وللكرامة المهانة، ولعل عبقرية دوغول وحدها هي التي تمكنت من اكتشاف حقيقة الأسرة الجزائرية عموما، يقول الرئيس: دوغول"فقد فات الأوان لفرض أي نوع من التبعية، ذلك لأن منبت الأسرة الجزائرية ودينها وطرق معيشتها ومعاملتها ردحا طويلا من الزمن كفئة دنيا، مهملة مهزومة جعلها تتمتع بشخصية قوية جدا ومؤلمة جدا بحيث لا تدع أحدا يمزق كيانها أو يسودها"[1].

المعتقد الديني:

المعتقد الديني عند عموم سكان الأوراس هو الإسلام، فالجميع يقر بوحدانية الخالق، وبنبوة محمد عليه الصلاة والسلام، غير أن فهمهم للإسلام بسيط جدا لبساطة أفكارهم وسذاجة عقولهم، فهم ملتزمون بأداء الشعائر الدينية حسب فهمهم لها، لاتصالها بعالم الغيب الذي يخشونه أشد الخشية، ويقومون (في القديم) بطقوس أخرى تعد مظهرا من مظاهر الشرك، كزيارة الأضرحة وإقامة الولائم في المغارات، وفي الأماكن التي تثير في نفس الإنسان الخشية والرهبة، ويتبركون بأماكن

(1) مذكرات الأمل للجنرال: دوغول، ص: 54.

خاصة ويعتقدون فيها الشفاعة والبركة، كظلال أشجار استراح فيها الشيخ... أو كهوف استظل بها الوالي أو الشيخ أو سيدي فلان.. فاستغل فيهم شيوخ الزوايا هذا الوهم الزائف وأوهموهم بأنهم أولو الأيدي والأبصار وأصحاب الشفاعة والمنة، فاعتقد الناس فيهم ذلك واعتبروا زيارة الأضرحة عبادة وتقربا إلى الله زلفى... وهكذا تكون هذه الزوايا التي وجدت أصلا كمراكز إشعاع وتنوير للعقول قد انحرفت عن دورها تماما وتحولت إلى مصحات لمعالجة من بهم مس من الجن... عن طريق الشعوذة وكتابة التمائم وقراءة الكف، وخط الرمل، ولعل أبرز دور لعبه شيوخ هذه الزوايا هي تسوية النزاعات بين القبائل والحد من الصراعات المحلية. وهكذا تكون هذه الزوايا التي يفترض أنها تساهم في إشاعة الروح الدينية الصحيحة في نفوس السكان قد استغلت الدين لإشاعة أفكار جاهلية لا تمت للدين بصلة، وقد تفطن الاستعمار لمكانة هذه الزوايا عند السكان فاستغلها أيما استغلال، بعد أن ثبت له أنها مصدر القلاقل والفتن والمحرضة على العصيان والتمرد- حسب تعبيرهم-، فراح يحصي جميع مريدي هذه الزوايا بصفتهم مناضلين لدى شيوخ الزوايا حسب المصطلح الذي ظهر فيما بعد، وتمكن المفتش"ديبو"- مفتش البلديات خلال انتفاضة 1916- من إحصاء جميع الزوايا وعدد مريديها وتحديد توجهاتها الطرقية والسياسية وموقفها من الإدارة الاستعمارية، وقد أثنى على الدور الذي لعبته هذه الزوايا-لصالح الإدارة- وصنف بعضها في دائرة المخبرين (العملاء) المتعاملين مع السلطة الفرنسية.

فقد كانت كل زاوية تحمل أفكارا أو منهاجا أو تنتسب إلى طريقة من الطرق تميزها عن غيرها. ولما لم يكن لشيوخها سعة من العلم والتفقه في الدين تسمح لهم بالاجتهاد والنظر ابتدعوا طقوسا خاصة راحوا يوهمون الناس أنها من الدين والدين منها بريء. وبما أن الروح الدينية التي تشبع بها السكان لم تكن خالصة من الشوائب نتيجة الصراع بين المذاهب التي تعاقبت على الأوراس كالشيعة

والإباضية وظهور دعاة لمذاهب مختلفة، لعل أبرزهم في الأوراس خاصة"أبو يزيد مخلد بن كيداد" المشهور بصاحب الحمار ومذهبه النكارية من فرق الخوارج، نهض في وجه الشيعة وتلقب بأمير المؤمنين وسط قبيلة بني يفرن بناحية أنقاوس، وفتن الناس... لا شك أن فلسفة الدين وظهور تيارات فكرية وسط أقوام لا يتعاطون إلا المسائل البسيطة ولا يفقهون في الدين إلا ما ظهر منه هي التي أوجدت هذا الركود، فاقتصر أغلبية الناس على الفرائض الدينية المجمع عليها والتي تحفظ له صلته بربه كالصلاة والصيام والزكاة والحج، وانساق قسم من المجتمع وراء الزوايا طلبا للشفاعة والبركة في العمر والزيادة في الرزق، ولعل أحسن وصف لما كان يجري في هذه الزوايا هو ما جاء مختصرا في كتاب "الثورة الجزائرية، في عامها الأول" للدكتور: العربي الزبيري، حيث يقول: "وأن الذي يطلع على ما كان يتم داخل تلك الزوايا من ضرب على الدفوف ونشر للبدع وتأليه للشيوخ، وتقديس للقوى الخفية التي لا يعرف حقيقتها غير الدراويش، لا يسعه إلا أن يصدق ما يقال خاصة وأن بعض الطرق قد دخلت ابتداء من الثلاثينات في حرب لا هوادة فيها ضد رجالات جمعية العلماء"[1].

أما دورها السلبي في الثورات فيؤكده الوالي العام، "ليتو" الذي أبرق إلى حكومته في 23 نوفمبر 1916، قائلا :"إننا لم نستطع أن نكتشف حتى الآن أي شيخ من مشايخ الطرقية"[2] وهذه البرقية هي خلاصة تحقيق أجرته السلطات الفرنسية في المناطق التي شملتها الاضطرابات في الأوراس.

غير أنه من الخطل التعميم، فهناك زوايا عبرنا عنها في كتابنا "الثورة الجزائرية أمام الرهان الصعب" بالملتزمة ونعني "بالالتزام هنا" ثباتها على المنهج الديني

(1) الثورة في عامها الأول للدكتور: محمد العربي الزبيري، ص: 66-67.

(2) مجلة الأصالة (مرجع سابق)، العدد: 25.

والخط الوطني، تشبع شيوخها بالروح الدينية المثلى، وبالفكر الوطني الخالص غير أن هذه الزوايا تعد على الأصابع، يذكر المؤرخون من بينها، زاوية بلحداد، وزاوية: شلاطة خارج إقليم الأوراس(في بلاد القبائل) وزاوية بلحملاوي بالأوراس، يقول الدكتور: الزبيري "علمت من بعض مسؤولي الحركة الوطنية -دون ذكر للأسماء- في الشرق الجزائري أنهم كثيرا ما كانوا يعقدون اجتماعاتهم بمحلات الزوايا الحملاية التي كان شيخها يوصي فقط بالحذر والتستر"[1]، والمؤكد أن موقف الزوايا كان يخضع للتقلبات السياسية وللضغوط الاستعمارية وللقناعات الشخصية لشيوخ الزوايا أنفسهم.

وقد اخترنا الزوايا كإطار في معرض حديثنا عن المعتقد الديني وأثره في حياة السكان نظرا للدور الذي لعبته خلال الانتفاضات التي كانت تعبر عن الرفض الشعبي للاحتلال، وكانت الزوايا في البداية تقوم بدور المحرض على المقاومة، قبل أن تستميل السلطة الاستعمارية قسما منها ليعمل لفائدة الاحتلال.

التنظيم والهيكلة :

حافظ المجتمع الأوراسي على نظام حياته ووحدته في إطار النظام العشائري المبني على صلات القرابة أوّلا بأول ثم على التحالفات عند اللزوم لدرء الخطر المشترك، وقد تمسك بهذه التقاليد الموروثة من قرون طويلة لعدم وجود مؤثرات أو نظم خارجية تعمل على تطوير نظام حياته، بحيث توفر له الأمن والاستقرار حتى يتخلى بالتدريج عن هذه الأساليب التقليدية. غير أن فكرة التحالفات بدأت تتلاشى مع ظهور أنظمة إدارية مسيطرة على الوضع خلال الحقبة الاستعمارية الأخيرة، وهذا النوع من التنظيم بالرغم من مشروعيته للحفاظ على البقاء، فهو يؤدي إلى مجموعة من السلبيات تحول دون تطور المجتمع في الاتجاه المرغوب فيه، والتي منها: 1)- التنافس بين العشائر على المراعي واستغلال الموارد الطبيعية. 2)-

(1)الثورة في عامها الأول (مرجع سابق) ، ص: 66-67.

التنافس على استغلال الموارد المائية. 3)- التنافس على مراكز النفوذ وتعد هذه النقاط من أهم الأسباب التي تؤدي إلى اشتعال الفتن المحلية. 4)- عقدة الإنية "أنا الأعلى" التي يشتهر بها سكان الريف عادة حيث تزعم بعض الأسر أنها تنحدر من أصول شريفة تنتهي عند الصحابي الجليل... أو الأمير... فتتطاول بهذا الوهم الزائف على غيرها، فيؤدي هذا إلى الضغائن والأحقاد. 5)- الانغلاق بدل الانفتاح على المحيط الواسع مما أدى إلى الركود في جميع المجالات الفكرية-الثقافية-الاقتصادية، كما أدى إلى إضعاف الصلات التجارية والروابط البشرية بين الأوراس وبين بقية المناطق في الوطن...

وبمجيء الأتراك إلى المنطقة حاولوا إدخال نوع من التغيير في حياة المجتمع من حيث الهيكلة والتنظيم، وهذا التغيير لا يهدف إلى ترقية السكان للخروج من دائرة التخلف، لكنه يهدف إلى إيجاد مجموعة من الضوابط تسمح لسلطة البايلك بمراقبة الوضع في المنطقة عن كثب بواسطة أعوان عموميين تُعيّنهم السلطات التركية. فاستحدثوا نظام المشيخات الذي نعتبره نوعا من الهيكلة الإدارية لكن بوظائف محدودة تقتصر على: 1)-إحصاء السكان لغرض تحصيل الجباية. 2)-مراقبة الأوضاع الأمنية خشية التمرد على السلطة، ورؤساء هذه المشيخات تختارهم سلطة البايلك بنفسها، وليس للمجتمع المحلي حق إبداء رأيه، وعناصرها يعدون في الغالب إما: شيوخا للزوايا أو عناصر أوروستقراطية يتمتعون بسلطة مادية ونفوذ أدبي وسط المجتمع الذي يتواجدون بينه، أساس هذا النفوذ هي الحيازة، حيازة أملاك شاسعة وامتلاك ثروة طائلة وسط مجتمع فقير يتوفر على قابلية الاستغلال، وبالتالي، فالعلاقة التي تربط المواطن بالشيخ -شيخ المشيخة- هي علاقة السيد بالعبد حتى وإن لم يصرح بذلك، وقد تتمتع هذه الشخصية بسلطة أدبية مستمدة من الدين عندما يظهر الشيخ ولاءه وانتسابه إلى طريقة من الطرق تكون محل تقدير واحترام الناس، كما هو الحال بالنسبة لزاويتي: ابن ناصر في جبل ششار، وابن بلعباس بمنعة التي تحولت إلى مشيخة واختارت الطريقة القادرية منهاجا لنشاطاتها الدينية(نسبة إلى الشيخ: الصوفي عبد القادر الجيلاني، (1078-1167) دفين العراق،

والتي كانت محل تقدير الناس في الأوراس حتى أنهم كانوا يَخُصّونه بأوّل كيلة من الطعام تبركا بفضله على أمل أن تحصل لهم البركة في الرزق... مع أنه كان على مذهب غير المذهب الذي التزم به السكان فهو حنبلي والسكان مالكيون: المخاض العسير الذي مرّ به السكان الذين صاروا محل تجاذب أصحاب المذاهب تسبب في إراقة أنهار من الدماء:

المشيخات المشهورة في قلب الأوراس هي: 1)-مشيخة أولاد بلقاسم ببني أوجانة بجبل: شلية، 2)-مشيخة أولاد بوضياف بعرش أولاد داود، 3)- مشيخة ابن بلعباس -بمنعة-أولاد عبدي، 4)-مشيخة ابن ناصر في جبل ششار بالأوراس الشرقي وهناك مشيخات أخرى في الحدود الإقليمية للأوراس امتد نفوذها ليشمل أجزاء من الأوراس نفسها وكان لها صدى واسعا تجاوز حدودها الإقليمية، مثل: 1)-مشيخة العرب في الزاب الغربي على رأسها بوعكاز (ابن قانة) وقد تم تعيينه شيخا للعرب بتاريخ: 18-1-1839، بعد أن خذل صهره "أحمد باي"، 2)-مشيخة الزاب الشرقي -بسيدي عقبة- وكان على رأسها: ابن شنوف، 3)-مشيخة أولاد بوعزيز بالأوراس الغربي وتحديدا بأولاد سلطان ومن حولهم. وقد اقتصر دور هذه المشيخات كما سبق أن قلنا على مراقبة الأوضاع الأمنية، وإحصاء السكان قصد التحصيل الضريبي أو التجنيد والتسخير عند اللزوم، وقد ارتبطت هذه الأسر ببعضها بواسطة علاقات المصاهرة لتقوية نفوذها، ضمنت لها التكامل والتضامن في الملمات، فاستطابت قيادة مجتمعات هزيلة لا تملك من وسائل الرفض أو المقاومة إلا الدعاء. وقد تناولت مجلة الثقافة (العدد: 29)-1975 الموضوع بإيجاز شديد. جاء فيه "... كان العثمانيون يحتكمون في كل صغيرة وكبيرة إلى سلطتين مقدستين في القطر الجزائري، ويحسبون لها ألف حساب، سلطة (شيخ البلد) في المدينة، و(شيخ العرب) في البادية، وقد سارت فرنسا على نفس النظام، فاستمالت كلتا السلطتين وأخضعتهما بالوعد والوعيد، وأصبحت التسمية الرسمية لـ(شيخ العرب) تصدر من الولاية العامة فهي التي تقلده شعار المشيخة وتمنحه شهادتها حسب إخلاصه في

خدمة الدولة الفرنسية، واشتهرت بيوتات في هذا المضمار، عاشت تتوارث سدانة المستعمر أبا عن جد"[1].

وفور تأكد رؤساء بعض هذه المشيخات من حصول فعل الاحتلال الفرنسي للجزائر وانهيار المقاومة وظهور مؤشر تحرك القوات الفرنسية نحو الأوراس، سارعوا إلى إشعار السلطة الجديدة (الفرنسية) باستعدادهم لخدمة الدولة الفرنسية في حالة احتفاظهم بمناصبهم، وهو ما كانت تطمح إليه سلطة الاحتلال التي لم تتغلغل بعد في عمق المجتمع الأوراسي عن طريق مخبريها وأعوانها لانشغالها بالحملات العسكرية لكسر شوكة المقاومة. فوجدت فيهم سلطة الاحتلال ضالتها المنشودة.

فكان أول قائد يتم تعيينه في الأوراس الغربي: محمد بن بلعباس من زاوية بلعباس -بمنعه- إذ تم تعيينه على وادي عبدي ووادي الطاقة منذ: 9 أفريل1846. وقد اختارته السلطة الجديدة نظرا لما كان يتمتع به من نفوذ ديني على وادي عبدي بصفته شيخ زاوية، ونفس الشروط روعيت في اختيار "محمد الطيب" من عائلة: ابن ناصر قائدا على جبل: ششار، وكان قد سبق هذان القائدان في التعبير عن الولاء والاستعداد للخدمة، سي محمد العربي بن بوضياف في رسالة بعث بها إلى الجنرال: "نقريبه" حاكم قسنطينة في 1842 يعرض فيها خدماته بصفته شيخ جبل أوراس خلال العهد التركي. وقد حظي طلبه بالموافقة من طرف السلطة الجديدة الحاكمة، حيث أبقاه الفرنسيون في منصبه إلى غاية سنة 1850، وتقلد عدد من أفراد أسرته مناصب القيادة في الأوراس، وشغلوا مناصب قيادات: بني أوجانه، العمامرة، أولاد داوود، العشاش. وهكذا نرى أن الانتقاء أو الاختيار لا يقوم على أساس الكفاءة أو المقدرة بل على أساس الولاء والاستعداد للخدمة، وهو أبعد ما يكون عن إرادة المجتمع، فتفانى هؤلاء القياد (الاسم الجديد، لوظيفة قديمة) في خدمة السلطة وسعوا جاهدين إلى إخضاع السكان لإرادة الاستعمار والتسليم بالهزيمة.

(1) مجلة الثقافة، العدد: 29، السنة: 1975، الملحق ص: 10.

ولما لم يكن نمط التسيير قد تطور بظهور مجالس شعبية على غرار ما سيحصل فيها بعد، فقد كان لكل قائد حق اختيار عناصر من وسط المجتمع المحلي كممثلين "للعرش" أو "القبيلة" أو "الدوار" على أن يكونوا أعوانا له، وهذا الاختيار يعد امتيازا بالنسبة للشخص ويتم على أساس الولاء كذلك أو الخدمات السابقة كالخدمة العسكرية وسط القوات الفرنسية بصفة مجند أو على أساس النفوذ أو الانتماء... والذي يعنينا هنا هي الممارسات الحقيرة التي كان يقوم بها هؤلاء العناصر المعروفون باسم "الوقافة" جمع "وقاف" بين المواطنين من إهانات وابتزاز للأموال والتسخير للخدمات الخاصة والتمييز في المعاملات بمضاعفة الضريبة، فامتلأت نفوس المواطنين غيظا وحقدا على هؤلاء وعلى السلطة التي توفر لهم الحماية، فراحوا يتطلعون إلى اليوم الذي يسود فيه العدل وتتحقق فيه المساواة، وهذا العدل الذي يحلمون به لن يأتي في شكل منحة مهداة، نظرا لسوء حالهم وضعف قوتهم فجور السلطة وطغيان ممثليها لا تزيله كثرة الأدعية والتضرّع والابتهال، وسيظل جاثما على رقاب العباد ما لم تبلغ الدماء الركاب، فسوء المعاملة والاحتقار والإهانات والتسخير للخدمات الخاصة وتسليط العقوبات بسبب أو بدون سبب والتجريد من الممتلكات وانتهاك الحرمات وإلزام الناس بإقامة ولائم فاخرة لأعوان السلطات الاستعمارية... كانت تشحن النفوس بالتذمر وتدفع بها للبحث عن الظرف المناسب للتمرد والعصيان الذي أمسى عندها قناعة بعد قرون طويلة من الصراع مع أمم مختلفة ظلت تُصِر على استعباده يقول الأستاذ: عبد الحميد زوزو في كتابه: ثورة الأوراس 1879" في وصف الإنسان الأوراسي" إن التكوين النفسي للإنسان الأوراسي انعكاس صادق للبيئة الطبيعية..إذ تجد فيه صفاء السريرة وصراحة القول وصدق الكلمة، بالقدر الذي تلمس فيه وعورة الانصياع بالقوة وصعوبة الانقياد بالجبر، وبقدر ما يحتمل قساوة الطبيعة وشظف العيش يضيق بظلم الإنسان وقيوده وتسلطه كما تجده يركن إلى اللين وطيب المعاملة، وهذا

التكوين الخاص يفسر لنا من ناحية جانبا من اندفاعات الإنسان الأوراسي وانتفاضاته بشكل تلقائي وبدون حساب للعواقب في أغلب الأحيان"[1].

وإذا كان ثمة من فارق يمكن الإشارة إليه كمظهر حضاري تحقق خلال فترة القيادات التي خلفت المشيخات على العهد التركي، هو ظهور تطور هام في وظائف مكاتب القيادات لم يكن معمولا به على عهد المشيخات، ويتمثل في ظهور مكاتب الحالة المدنية التي تعد نظاما مستحدثا لدى المكاتب الإدارية للقيادات، وبظهور نظام الأحوال الشخصية وذلك بتسجيل المواليد والوفيات، وهذا يستوجب أيضا تسجيل عقود الزواج... وهذا التطور يعد خطوة هامة في حياة السكان الذين كانوا لا يعرفون مثله، وبالرغم من ضعف الاستجابة في البداية، سيما بعد أن تفطن السكان إلى أن السلطات الفرنسية إنما تسعى إلى إحصاء السكان من أجل تسليط المغارم وإلى ضبط قوائم المواليد الذكور من أجل أداء الخدمة العسكرية الإجبارية في صفوف القوات الاستعمارية، فامتنع الكثير عن تسجيل أبنائهم، وراح بعضهم يتحايل على الإدارة بتسجيلهم ثم التصريح بوفاتهم، فيما بعد... ومهما تكن نوايا السلطة بإدخالها لهذه النظم الحضارية إلى حياة المواطن، فليس من السهل أن تكسب ثقته، بعد أن سلبت منه حريته وأغتصبت أرضه وأرغمته على الرضوخ لإرادتها بعد سلسلة من الهزائم، وسيظل يتحين الفرص وينتظر حلول الساعة لينتقم لكرامته المداسة.

(1) ثورة الأوراس 1879 (مرجع سابق) لعبد الحميد زوزو، ص: 28-29.

الفصل الثّاني

- الدخول الفرنسي إلى الأوراس
- الغزاة ملة واحدة
- من أمشونش إلى أولاد سلطان
- محمد الصغير يبيد حامية عسكرية ببسكرة
- أول عملية اقتحام لعمق الأوراس
- لجوء أحمد باي إلى كباش بـ/ أولاد عبد الرحمن)
- استسلام الباي
- مساهمة الأوراسيين في أحداث الزعاطشة
- حملات انتقامية منسّقة
- هل هي تحولات أم تطور في حياة السكان؟

الدخول الفرنسي إلى الأوراس :

لا شك أن قيادة القوات الفرنسية كانت تقدر صعوبة غزو منطقة الأوراس، نظرا لطابعها الجغرافي المميز... فراحت تتابع تطورات حرب معلنة بين ثلاثة أطراف تتنازع ملكا ضائعا ووطنا في مهب الريح، وهذه الأطراف هي: 1-أحمد باي-باي قسنطينة- الشرق الجزائري الممثل الشرعي لنظام آل إلى السقوط، بعد سقوط قسنطينة عاصمة الإيالة. 2-محمد الصغير بلحاج -شيخ سيدي عقبة- ممثل الأمير: عبد القادر في الزابين الغربي والشرقي، بعد أن انخدع الأمير لصلح كان قد أبرمه مع الفرنسيين اعترفوا بسيادته على كامل أنحاء البلاد، وظن أن فرنسا سوف تلتزم بالمعاهدة، فراح يبعث إلى العرب -حسب تعبير، أحمد باي- يطلب منهم أن يتخلصوا من سلطاني ويدخلوا في طاعته، وينقل أحمد باي هذه العبارة من مراسلة الحاج عبد القادر-كما يصفه مستكنفا عن وصفه بالأمير-، حيث يقول: (الكلام للأمير) "وإن لم تفعلوا ذلك فإني أثير عليكم الفرنسيين، وفي وقت وجيز سوف تسحقكم قواتي وقواتهم"[1] فالأمير حسب منطوق هذه العبارة عازم على بسط سلطانه على الناحية الشرقية ولو اضطره ذلك إلى الاستعانة بالفرنسيين الذين أوهموه بالإمارة بعد الاتفاق المبرم مع المارشال: "فالي" حسب المؤرخ: "فيرو".

3-فرحات بن سعيد، وقد كان شيخا للعرب على عهد إبراهيم باي الذي عُزل وعُين مكانه "أحمد باي"، فقام هذا الأخير بعزل "فرحات بن سعيد" وعين مكانه خاله "بوعزيز بن قانة" شيخا للعرب، فأثار هذا حفيظة بن سعيد، وراح يترقب الساعة ويتحين الفرصة للانقضاض على أحمد باي انتقاما للسيادة وللملك الضائع... راحت القوات الفرنسية تلاحق أحمد باي حيثما حل بعد أن تيقنت من عزمه على المقاومة من أجل استرجاع الملك والسيادة، فكانت تهاجمه أحيانا وتعرض عليه الصلح أحيانا أخرى مقابل امتيازات رخيصة، فيرفض الباي العرض، فراح ينتقل من منطقة إلى منطقة، فمن النمامشة شرقي الأوراس إلى وادي ريغ ثم إلى الحضنة ومنها إلى جبال أولاد سلطان بالأوراس الغربي خلال سنة 1843م، والتي مكث بها ما يقرب من سنة ونصف.

---

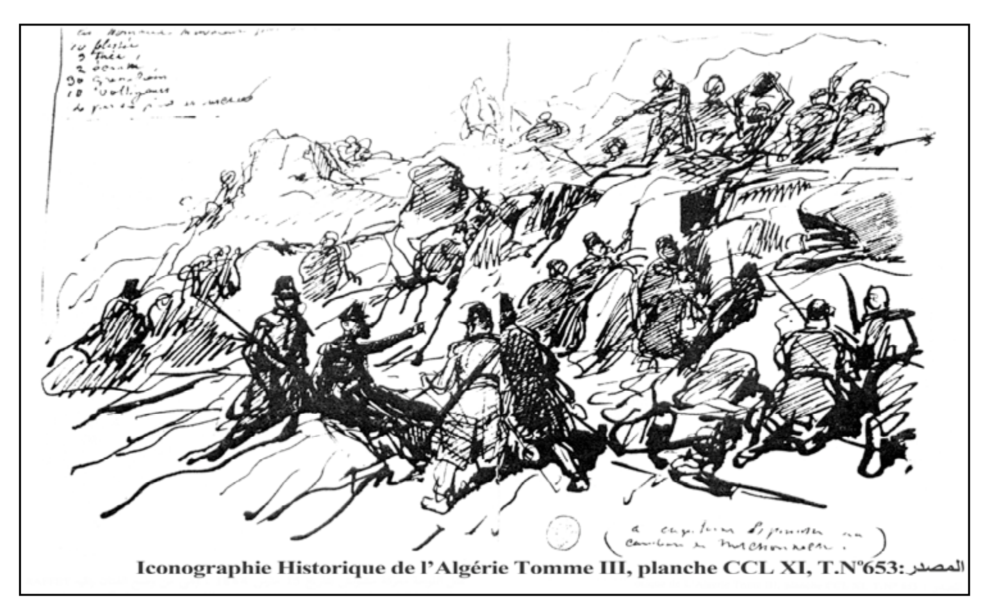
(1) مذكرات أحمد باي، ص: 80.

فرنسا صارت تعرف بعد سلسلة من المعارك خاضتها مع السكان عند غزوها لباتنة خصائص المنطقة الجغرافية والبشرية، وما يتمتع به أهلها من بأس في القتال وصعوبة الانصياع ورفض الإذعان. فبعد فترة من التريث مكنّت أعوان إدارة الاحتلال من تأزيم الموقف بين عدة أطراف وطنية تتنازع الشرعية الموهومة وتخوض من أجلها حربا شرسة... فلما تأكّدت قوات الاحتلال أن هذه الأطراف قد أدركها الوهن والضعف، ولن يكون بإمكانها التصدي للقوات الفرنسية مجتمعة أو متفردة. قررت هذه القوات الزحف نحو الجنوب-وقد وجدت الدعم والمساندة من قبل بعض القبائل في محيط الأوراس والتي روضت على الإمعية والولاء خلال العهد العثماني.

تمركزت القوات الفرنسية بالعين الكبيرة -باتنة حاليا- وسط موقع مكشوف يسمح لها بمراقبة المحيط الدائر بالمعسكر، وقد ظل مركز المدينة إلى وقت قريب يحمل اسم: (CANP) أي (المعسكر) ومكان تمركز الوحدات الفرنسية في هذا الموقع هو الذي سيحمل فيما بعد إسم: "باتنة"الحروف الأولى للتسمية التي كانت تعرف بها الوحدة التي احتلت الموقع "فيلق القناصة شمال إفريقيا"Bataillon Anti Terroriste Nord Africain وقد خلدت القوات الفرنسية عملية الغزو هذه في لوحة تذكارية على المدخل الشمالي للمدينة تشتمل على معلومات قيمة غير أن هذه اللوحة اختفت مؤخرا بعد أن امتد إليها العمران ولا نعلم مصيرها بالرغم من أهميتها التاريخية.



أصرت فرنسا على ملاحقة أحمد باي آخر رموز السلطة الرسمية في الدولة الجزائرية والذي مازال يظهر العناد ويبدي التحدي طمعا في استرداد ملكه الذي أمسى شيئا من الماضي... استقرت وحدة قناصة شمال إفريقيا في العين الكبيرة –باتنة– وراحت تترصد المعلومات وتستقي الأخبار لتحديد إمكانات الخصم الذي ظل يرفض الاستسلام ويصر على المواجهة طمعا في النصر... وما لبثت فلول من الموالين لأحمد باي أن هاجمت نقاط مراقبة القوات الفرنسية في العين الكبيرة ليلتي 19 و 20 فيفري 1844م، حيث رشقت مراكز الحراسة بطلقات نارية، لكنها كانت مجرد عمليات تحذيرية أو استعراضية إذ لم تكن من القوة بمكان يسمح لها باقتحام المركز أو تدميره. وقد تزامن هذا الهجوم مع عملية هجوم أخرى لأتباع الباي شنّه أنصاره على قافلة من الجمال بعث بها ابن قانة من الجنوب لتحمل مؤنا ومعدات للجيش الفرنسي الذي ظل ينتظر المدد لمواصلة الزحف نحو الجنوب واحتلال قاعدته –بسكرة– والتي سيحتلها يوم 14 مارس 1844م. اعترض الثوار القافلة على مستوى مضايق القنطرة، وفقدوا (15 رجلا). شعر الدوق: دومال، قائد القوات الفرنسية بِقسنطينة بِوجود خطر على محور: باتنة/بسكرة وأهم موقع فيه فجاج القنطرة، فقرر إرسال جيش جرار يتولى قيادته بنفسه انطلاقا من قسنطينة إلى باتنة ومن باتنة إلى بسكرة التي سيحتلها دون أي مقاومة، بعد أن انسحب منها ممثل الأمير: عبد القادر محمد الصغير بِلحاج دون قتال قاصدا قرية "أمشونش" شمالي شرق بسكرة والتي ستبدي صمودا مثاليا ضد الغزاة خلده الفنان: (رافيت RAFFET) في لوحة فنية رائعة، اتضح الآن أن الغرض من إرسال هذه القوات هو تأمين الطريق نحو الجنوب من جهة ومن جهة أخرى قطع الطريق على أحمد باي الذي مازال مصرا على الصمود، وما من شك في أن القوات الفرنسية تكون قد حددت بواسطة أعوانها المندسين وسط السكان مكان تمركز الباي وسط جبال أولاد سلطان المنيعة –القبيلة– التي وفرت له الأمن والحماية..



المصدر: Iconographie Historique de l'Algérie Tomme III, planche CCL XI, T.N°653

تمثل اللوحة معركة أمشونش بتاريخ 15 مارس 1849 وهي من وضع الفنان: "رافيه" Raffet ويظهر فيها النقيب "أسبيناس" مصابا بطلقتين ناريتين والسكان يواصلون المعركة بالوسائل المتوفرة البسيطة الحجارة والعصي

وفي هجمة ثالثة، باغت أتباع أحمد باي من القبائل المحيطة بمكان تمركزه "وحدة قناصة إفريقيا" الفرنسية بهجمة كانت أكثر قوة لكنها أقل تنظيما مقارنة بالهجمتين السابقتين، ولم تلبث هذه الهجمة مع وصول الإمدادات أن تحولت إلى معركة عنيفة دامت أيام: 10-11-12/ مارس 1844م. شارك فيها حسب تعبير الأستاذ: زوزو، سكان الأوراس سهليين وجبليين وقد قدر عددهم بأربعة آلاف مقاتل. وكان بإمكان هذه القوات الضخمة أن تنزل الهزيمة بالقاعدة الفرنسية التي تمركزت في العين الكبيرة -باتنة- لو توفرت فيها مجموعة من العوامل نستطيع أن نصفها بأسباب النصر الموضوعية، ومنها:

1)-الانضباط والنظام العسكريين، وهما شرطان أساسيان لضمان وحدة المقاتلين. فالمقاتلون متطوعون وغير مهيكلين في فرق نظامية ذات مهام واضحة مؤطرة من قبل عناصر مؤهلة تراقب وتوجه وتشجع، وتحرّض على القتال.

2)-التدريب على القتال، يعتبر من أولى الأولويات بالنسبة للجندي... فالجيش الفرنسي لا شك أنه يكون قد تلقى تكوينا عسكريا خاصا وتدريبا على فنون القتال وأساليبه ويمتلك تجارب قتالية في حروب خاضتها القوات الفرنسية في أماكن أخرى ولابد أن تكون هذه القوات قد درست نقاط ضعف مقاتلينا وعرفت كيف تستغلها.

3)-التخطيط للمعركة يكاد يكون منعدما عند السكان منذ الغزو الروماني، لأن الحرب كانت تفرض عليهم من قبل القوات الغازية، فكان دورهم في الغالب يتمثل في الدفاع حتى وإن أخذ شكل هجوم، كما هو الحال في معركة عين الكبيرة -باتنة-

4)-من أساليب التخطيط، اختيار زمان ومكان المعركة.. والمكان هنا اختارته القوات الفرنسية التي تمركزت في مكان مكشوف لتتمكن من مراقبة الجبال المحيطة بالمكان وعلى ضوء ذلك تتخذ الإجراءات الاحتياطية اللازمة.

5)-مكان تمركز القوات الفرنسية يمنع المقاتلين من استخدام أسلحتهم التقليدية المتمثلة في دحرجة الصخور من المرتفعات لمنع تقدم القوات الغازية أو سد المعابر.

6)-السلاح ويعد الأداة الأهم في الحرب والوسيلة التي تحقق النصر إذا أحسن استخدامه فالقوات الفرنسية كانت مزودة بأسلحة وذخائر لا تتوفر عند السكان الذين كانوا في الغالب يستخدمون العصي والفؤوس ودحرجة الصخور من أعالي الجبال وقليلاً من البنادق القديمة التي تقدح بالحجارة.

7)-الاندفاع غير المنظم عند الهجوم يدل على توفر إرادة القتال عند السكان ويدل أيضا على قلة الانضباط والنظام ويكون غالبا سببا في تحطُّم الأمواج الأولى مما يؤثر سلبا على بقية القوات.

8)-عنصر المباغتة مهم جدا في تحقيق المفاجأة وإمكانية النصر إذا كان مرفوقا بجودة التسليح وقوة التنظيم.

وهذه المسائل التقنية يفتقر إليها السكان جملة وتفصيلا، فهم متحمسون للقتال لتطهير أرض الإسلام من رجس الكفار -التعابير المستعملة في تلك الفترة- غير

أنهم لا يتوفرون على الإمكانات المادية أو التقنية التي تحقق لهم النصر المبين، فكانت لقاءاتهم مع القوات الغازية سلسلة من النكسات المتعاقبة.

الغزاة ملة واحدة :

اتضح أن قوات الغزو الفرنسية تسعى إلى تطويق الأوراس بسلسلة من التحصينات كما فعل الرومان قبلها، وقلدهم الأتراك بإقامة حاميات عسكرية في "تبسة" و "بسكرة" لتضمن لوحداتها حرية الحركة على أطراف الجبل الموحش الذي ظل منغلقا على نفسه ممتنعا على غيره، وبمجيء القوات الفرنسية أعادت بعث المشروع من جديد، بالرغم من تغير بعض المعطيات وتوفر الإمكانات التي تسمح لها باقتحام أدغال هذا الجبل... فعندما علم محمد الصغير بلحاج ممثل الأمير: عبد القادر في الزابين بزحف القوات الفرنسية اتجاه بسكرة أخلى حصونه قبل وصول القوات الفرنسية بـ/ 5 أيام، والتجأ إلى "مشونش" -36 كلم- شمالي شرق بسكرة، وقبل أن يعيد تنظيم صفوفه وهيكلة جيشه كان الدوق :"دومال" القائد العام للقوات الغازية قد أوفد أربعة ضباط يتقنون العربية إلى المناطق المجاورة للتحري بشأنه وملاحقته لأنه بالنسبة للقوات الفرنسية يمثل السلطة الشرعية للبلاد -ممثل للأمير- التي يجب أن تزول تماما حتى تضمن سلطة الاحتلال لنفسها الاستقرار وهؤلاء الضباط هم حسب -الدكتور: يحيى بوعزيز- 1-طوماس 2-دونوفو 3-ديفو 4-فورنني... وقد استطاع هؤلاء الضباط من خلال عمليات التحسيس في القرى المجاورة أن يحددوا مكان تمركز محمد الصغير بلحاج، في قرية: أمشونش كما سبق أن بينا، فقاموا بمهاجهته على غرة قبل أن يتحصن بجبل أحمر خدو المنيع المتصل بالقرية من جهته الجنوبية، فخاض السكان بوسائلهم التقليدية معركة ضارية داخل الواحة وخارجها أبدى فيها السكان شجاعة فائقة أذهلت "الدوق دومال" وقد أشار إليها في تقريره إلى الحاكم العام "بيجو" بالرغم من الخسائر التي لحقت بالسكان... وقد خلد الفنان رافيت RAFFET هذه المعركة "معركة أمشونش في لوحة جميلة سبق أن أشرنا إليها.

من أمشونش إلى أولاد سلطان :

أغرت هذه الانتصارات الدوق: "دومال" فعزم على تصفية جميع العناصر التي تدعي الشرعية وتستنجد بالسكان للمطالبة باسترداد الحكم، بالرغم من أن ملمح الخارطة السياسية للجزائر (المستعمرة) أمسى واضحا، فلن يكون بمقدور فلول من الوطنيين يفتقرون إلى التنظيم العسكري و إلى التسليح وإلى مصادر التموين الوقوف في وجه قوات غازية تتدعم كل يوم من مصادر مختلفة وتقف إلى جانبها قبائل مساندة رُوضت على العمالة منذ العهد العثماني.

فبعد كسر شوكة الجموع التي حاولت اقتحام مخيم باتنة ليلة (19-20) فيفري وبعد المحاولة اليائسة من طرف قوات أخرى كانت أكثر مددا وأعزّ نفرا تحولت إلى معركة ضارية استمرت طوال أيام (10-11-12) مارس 1844م سمحت لقوات الغزو بتحديد مصدر الخطر ومن تقويم شامل للوضع العسكري للخصم، قررت بعد أن استكملت استعداداتها مواجهة هذا القائد المتمرد الذي يرفض الرضوخ ويصر على العناد، وهي تعرف أنه بسقوط "أحمد باي" تزول صفة الشرعية عن جميع العناصر التي ما انفكت تظهر المقاومة و "ترفض" التسليم، وهي في نظر سلطة الاحتلال التي تقمصت الشرعية تعتبر متمردة... وهكذا وبتاريخ: 21 أفريل 1844، تتحرك من باتنة قوة عسكرية قوامها: 6 ألوية و 500 حصان اتجاه معقل "أحمد باي" بأولاد سلطان، واتخذت من أنقاوس -الحاضرة- القريبة من ملجإ الخصم قاعدة لها لمنع الباي، ربما من الانسحاب اتجاه جبل بوطالب الحصين وللحيلولة دون تلقي الإمدادات من الناحية الغربية.

وبتاريخ 24 أفريل 1844 بدأت القوات الفرنسية الهجوم على جبل أولاد سلطان، حيث يتمركز أنصار "أحمد باي"، واصطدمت بالسكان الذين كانوا في حالة يقظة قصوى، فتحول الصدام إلى اشتباك ومع وصول التعزيزات إلى معركة مهولة دامت يوما كاملا خسر فيها السكان ما يزيد عن 100 قتيل، فلجأ الفرنسيون كعادتهم إلى أسلوب الأرض المحروقة للتأثير على معنويات السكان وإضعاف روح المقاومة في نفوسهم، إصرار سلطة الاحتلال على القضاء على السلطة الشكلية "للباي" جعلها تطلب من الجنرال: "سيليق" بسطيف إمدادها بالنجدات

العسكرية بداية من يوم: 26 أفريل... وبوصول النجدات العسكرية من سطيف تجدّد هذه القوات مجتمعة هجومها المنسق بداية من أول ماي 1844، واستطاعت أن تحتل مواقع جديدة، بل وأن تسيطر على قمة الجبل -مركز الرقابة والاستطلاع- وأمام هذه الحملات الشرسة لقوات الاحتلال لجأ السكان أتباع"أحمد باي" إلى إجراء تكتيكي لتخفيف الضغط على معسكر الباي، وذلك باستئناف الهجوم مركز القيادة في باتنة، فتراجع قسم من الجيوش المهاجمة لحماية المعسكر الفرنسي، غير أن وصول نجدات من سطيف، واشتداد حمى المعارك التي لم تتوقف طول أسبوع بدأ يرهق عناصر المقاومة التي وجدت نفسها محاصرة، وبدأ مؤشر الاختلال بل السقوط يلوح في الأفق، نظرا للفارق الكبير بين القوتين، ولنوعية الأسلحة والتنظيم والإمدادات التي ظلت تتدفق على قوات الاحتلال المهاجمة.

وفي الثامن من ماي تجددت المعارك بعد فترة من التوقف سمحت للطرفين بمراجعة مخططاتهما وتنظيم وحداتهما، سجلت القوات الفرنسية خلالها تقدما آخر حيث تمكنت من الاستيلاء على خيام وأمتعة "أحمد باي" الذي كان قد أبعد عن المكان بسبب المرض، ثم نقل إلى جبل متليلي بعد اشتداد ضغط القوات الفرنسية خشية القبض عليه، وبإبعاد "أحمد باي" عن جبال أولاد سلطان يكون قد خسر أهم قاعدة للمقاومة، ولن يجرؤ بعد اليوم على المواجهة بنفس الحدة وبنفس العزم والإرادة.

محمد الصغير ممثل الأمير يبيد حامية "بسكرة" :

اختلفت الروايات بشأن مجريات الهجمة الخاطفة التي شنها محمد الصغير بلحاج ممثل الأمير: عبد القادر على مدينة بسكرة مستهدفا الحامية التي تركتها قوات الاحتلال في المدينة والتي تتألف من 8 عسكريين فرنسيين وعدد من القوم، بالإضافة إلى الطباخة، وقد أورد الدكتور: يحيى بوعزيز في كتابه: موضوعات وقضايا الجزء الأول -ثلاث روايات- تتفق من حيث الإطار بحصول الهجمة والاستيلاء على القاعدة إلا أنها تختلف من حيث المسار والنتائج وفي الكيفية التي تمت بها عملية الاقتحام، وفي الغنائم، بعض هذه الروايات يطبعها الغلو الفاحش في السرد يدفع بالقارئ إلى الشك في صحة العملية أصلا. والأقرب إلى الصواب أن

محمد الصغير بلحاج الذي انهزمت قواته أمام القوات الفرنسية المتفوقة من حيث العدد والعدة في قرية أمشونش، راح يفكر هو و أتباعه في الطريقة التي تمكنه من الثأر من القوات الغازية... فلما علم بانشغال قوات الجنرال: الدوق دومال في حربها المستعرة في جبال أولاد سلطان منذ: 24 أفريل وتسربت إليه معلومات بأن الحامية التي تركها في بسكرة قليلة العدد لا تقوى على الصمود عزم على الانتقام، وقرر الهجوم على الحامية... وقد يكون ما أورده بلقاسم بن عبد الكريم أحد الرواة في رسالة نقلها الدكتور: بوعزيز في كتابه -المرجع السابق- ما يثبت وجه الصواب للصيغة التي تم بها الاستيلاء على القاعدة وقتل عناصر الحامية. حيث يقول بلقاسم بن عبد الكريم هذا أن محمدا الصغير لما علم بوجود النوبة (الحامية) ببسكرة دعا من كان معه من الجنود الموالين له على أن يهربوا من عنده إلى الحامية وأن يتظاهروا بالاستسلام مع الطعن في محمد الصغير (قائدهم)، وعندما وصل- العدد: (25) (جنديًّا هاربًّا) أرسلوا إليه من يخبره بإمكانية تنفيذ مخطط الهجوم على النوبة (الحامية) فأتاهم ليلا ففتحوا له الباب، فدخل مع جنوده إلى الحصن وأبادوا من كان فيه من القوم والجنود الفرنسيين عدا الضابط "بيليس" الذي نجا وفر إلى طولقة حيث احتمى بشيخ الزاوية، والطباخة "ماري" التي أخذها (محمد الصغير) أسيرة ثم تزوجها وأنجب منها، حسب المؤرخ "فيرو"... هذا موجز الرواية، وهي مكتوبة بلغة ركيكة هي أقرب إلى الدارجة منها إلى الفصحى، ولا تخلو بدورها من المبالغة في بعض جوانبها... إذ لا يقبل العقل أن تكون حامية لا يتعدى عدد أفرادها 8 جنود وبعض من القوم -عملاء- وضعوا في الخدمة تتوفر على أربعمائة حصان وأربعة مدافع حسب الرسالة. أما محمد الصغير (بلحاج) الذي نفذ العملية بصفته قائدا للمقاومة، فقد جاء في رسالته حسب الدكتور: بوعزيز، نفس المرجع، ص: 385 "إننا هجمنا على عسكر عدو الله الذي تركه بقصبة بسكرة ومكننا الله منهم بجميع الخزنة من مدافع وسلاح (قنابل) وبارود، وأما الأطعمة من بر وشعير وروز و أنواع الخبز لا تحمله ذوات الأربعة ولا يحصى عدده إلا الله ومسكنا علجية؟ وستين فرسا وقتلنا القباطين... والحمد لله ذلك من فضل الله علينا والله ينصر دين الإسلام" [1].

---

(1) موضوعات وقضايا للدكتور: يحيى بوعزيز -الجزء الأول-، ص: 385.

وقصد تفادي ملاحقة القوات الفرنسية له فور علمها بما وقع للحامية التي تركتها في بسكرة، تعجل الرحيل وغادر المدينة لأنه لم يكن في وضع يسمح له بالمقاومة، بعد أن حمل ما كان قد حصل عليه من الغنائم على ظهور البغال التي وجدها في القصبة حيث يوجد مقر الحامية، وبتاريخ: 17 ماي 1844 يغادر بسكرة متوغلا داخل عمق الأوراس الذي لم تكن القوات الغازية قد احتلته بعد، ومن الأوراس يتجه نحو البلاد التونسية عبر نقرين ومنها إلى نفطة، ويزعم الدكتور: بوعزيز ص: 384 من كتابه (المرجع) أن محمد الصغير اشترك على رأس 700 فارس في أحداث الزعاطشة سنة 1849 ثم عاد إلى نفطة التي توفي بها سنة 1856، وهذا الكلام فيه نظر، فمشاركة محمد الصغير بهذه القوة في أحداث الزعاطشة غير مؤكدة، نظرا لبعد المسافة وقصر المدة التي استغرقتها هذه الأحداث، ولم يشر الدكتور: بوعزيز إلى أي سند أو مرجع يجعل القارئ يثق في صحة الرواية، فبعد هذه الهجمة الخاطفة لمحمد الصغير على النوبة (الحامية) في بسكرة، وخوفا من أن تصل الإمدادات العسكرية الفرنسية إلى المكان حمل معه ما كان بوسعه أن يحمله وتوجه نحو الجبل الأزرق إحدى القلاع الشامخة جنوبي الأوراس، واستقر في قرية: نارة التي تربض على السفوح الشمالية الغربية للجبل وسط عائلة "ابن حباره" وتشاء الصدف أن يتجه "أحمد باي" لذات المكان وأن ينزل بدوره في قرية: منعه عند أسرة: ابن بلعباس (زاوية) حيث لا يفصل بين القريتين سوى 4 كلم. وهكذا يجتمع الخصمان المنهكان اللذان أصبحا منذ الآن في وضع المشردين في حيز جغرافي ضيق لا تتعدى مساحته عدة كيلومترات، وسيلفت وجودهما نظر القوات الفرنسية الغازية إلى المنطقة لتنقل إليها الدمار على غرار ما حصل في أولاد سلطان وأمشونش وغيرهما، ولاشك أنهما كانا يدركان ذلك ويتوقعان مصيرا مشؤوما، لأن سلسلة المعارك التي خاضاها مع القوات الفرنسية أكدت لهما التفوق الساحق للقوات الغازية كقوة نظامية تتوفر على مجموعة من المواصفات تؤهلها للسيطرة على المعركة والانتصار على الخصم، خلافا للقوات المحلية التي تتكون من عناصر متطوعة قليلة الانضباط والنظام غير ملزمة بمواصلة القتال،

تقاتل طمعا في النصر فإذا لاح لها مؤشر الهزيمة انصرفت... وسائل المقاومة عندها بدائية في الغالب، عصي، حجارة، بنادق تقليدية.

فالصراع إذا كان صراعا حضاريا بين أمة تفكر وتعمل، تنتج وتستخدم ما تنتجه بمهارة، وأمة تعيش على وقع (انتصارات، خالد بن الوليد، وطارق بن زياد، وصلاح الدين...) وتنتظر المدد من السماء بآلاف من الملائكة مردفين والأسوأ من هذا كله هو هذا الصراع الذي احتدم على إيالة أو كرسي لم يعد له وجود و على سيادة أمست في خبر كان: فلو اجتمعت الكلمة وتسامت النفوس عن الضغائن والأحقاد، واعتبرت المصلحة الوطنية فوق كل اعتبار، وتوحدت الجهود جهود الأمير والباي وآخرين من دونهم لما حصل ما حصل، ولا شك أن مصالح الاستخبارات الفرنسية قد عرفت فيهم ذلك، فراحت تؤلب الواحد على الآخر، فلما وهنوا وضعفوا راحوا يلتمسون النّجاة ويبحثون عن الحماية.

أول عملية اقتحام لعمق الأوراس :

كانت القوات الفرنسية تبحث عن الرجلين منفردين فوجدتهما مجتمعين في حيز جغرافي ضيق -إنها الصدفة- غير أن الوصول إليهما لن يكون بالأمر الهين، فالطبيعة الجغرافية للأراضي التي سوف تجتازها تربك القوات الفرنسية وتمنعها من التقدم نحو خصميها اللدودين في حالة وجود مقاومة شرسة من قبل السكان، نظرا لكثرة الفجاج والمعابر الضيقة التي ترغم القوات المهاجمة على التجمع، فتصبح بذلك هدفا سهلا للرماة، غير أن الانتصارات العسكرية التي حققتها في عدة أماكن خلال معارك خاضتها مع السكان كانت تغريها بالإقدام على المغامرة ومهاجمة مكان تحصن القائدين. وعلى ضوء المعلومات التي كانت تستقيها من مصادرها الخاصة، قررت قوات الاحتلال الدخول إلى الأوراس لتتبع هذين الشخصين، وتحسبا لاحتمالات متوقعة قد تعرض الحملة للمقاومة قررت أن يكون ذلك بجيش ضخم يقوده عشرة ضباط سامين وعلى رأسهم، الجنرال: "بيدو" "BEDEAU" قائد فرقة قسنطينة، ومن بين الضباط الذين شاركوا في العملية، الجنرال: "لوسفار" والعقيد:

ماكماهون الذي سيصبح فيما بعد واليا عاما على الجزائر. بدأت الحملة مع مطلع ماي 1845، واستمرت طوال شهري ماي وجوان، وقد اصطدمت قوات الاحتلال بالسكان في أكثر من موقعة وفي معارك دامية، استخدم الفرنسيون فيها أساليبهم الحربية، بعد أن اكتسبوا تجارب قتالية مريرة مع السكان من خلال المعارك التي خاضوها على مختلف الجبهات، كما استخدموا أسلحتهم المتفوقة التي لا يوجد لها نظير عند السكان، ونظرا للمقاومة المستميتة التي أظهرها السكان باستغلالهم للطبيعة الوعرة للأرض بالقيام بدحرجة الصخور من المرتفعات لمنع تقدم القوات المعادية. ولكي تزعزع هذه القوات معنويات السكان وتجبرهم على الكف عن المقاومة وطلب الأمان، راحت تعمل على هدم القرى وإحراق المداشر والمزارع ومصادرة الموارد الأساسية للسكان كمخازن الحبوب وقطعان الماشية لتضع السكان على شفير هاوية، مع الشروع في عملية الإبادة الشاملة للتجمعات التي تصر على المقاومة، وحتى تتمكن هذه القوات من الحيلولة دون وصول التعزيزات من المناطق الشرقية للأوراس إلى الجبهة لدعم المقاومة التي ظلت صامدة طوال شهرين كاملين، تبنت خطة أخرى بارعة بشنها لعدة حملات دفعة واحدة على الأوراس الشمالية الشرقية لإرغام عناصر المقاومة التي ظلت تتدفق لتعزيز المقاومة على جبهة القتال الرئيسية -محور وادي عبدي-ناره ومنعه- حيث يقيم القائدين المطلوبين، على التراجع لحماية أسرها ومناطق نفوذها، مما يضعف المقاومة في الجبهة الغربية.

وأشهر اللقاءات بين السكان الذين تبنوا خططا دفاعية لضعف الوسائل المستخدمة في القتال حسب الأستاذ: زوزو في كتابه: ثورة الأوراس 1879.

1-لقاء مجاز عمار بجبل العشرة بتاريخ: 3 ماي 1845، وقد شاركت فيه جميع فرق وادي عبدي لإيقاف الزحف ومنع تقدم القوات المهاجمة في اتجاه منعة.

2-لقاء بوحمامة 8 ماي 1845، وقد اشتركت فيه قبائل: أحمد خدو وبني بوسليمان وبنو أوجانة والعمامرة وعناصر من أولاد داود.

3-لقاء ملاقو بتاريخ: 10 ماي 1845 في أراضي بني أوجانة أيضا -حسب زوزو-.

4-وأخيرا لقاء حيدوسة بوادي عبدي بتاريخ 20 ماي 1845"[1].

و إذا علمنا أن حيدوسة لا تبعد كثيرا عن منعة حيث يقيم "أحمد باي" نستطيع أن نقول بأن القوات الفرنسية استطاعت أن تُحَطِّم كل الحواجز التي كانت تعترضها وأن تتغلب على عناصر المقاومة، وهي الآن تقترب من هدفها -القبض على الباي- بالرغم من الاستماتة التي أظهرها السكان في الدفاع عن حرمة أراضيهم ولإيقاف الزحف، يصف الأستاذ: عبد الحميد زوزو في كتابه -المرجع السابق- المقاومة بأنها كانت عنيفة، ويقول، بأن السكان "استغلوا فيها كل إمكاناتهم بما فيها الكر والفر والعصي، وحتى الصخور التي كانوا يدحرجونها على أعدائهم، فإن المدافع سر تفوق الفرنسيين كانت بالنسبة إليهم سلاحا مستحدثا حال دون الالتحامات المباشرة التي تتناسب مع بساطة أسلحتهم ومكن الجيش الفرنسي من انتهاك حرمة أراضيهم"[2].

إذ لا شيء يؤكد الهزائم المتكررة التي كانت تلحق بجموع الأهالي في جميع المعارك التي خاضوها مع القوات المعتدية مثل: سلاح المدفعية، وقد أدرك الطرفان منذ البداية خطورة هذا السلاح، فاستغله الفرنسيون أيما استغلال لأهميته بالنسبة إليهم، لأنه يمثل سير تفوقهم ونقطة ضعف بالنسبة لمن يصفونهم بالأهالي، فهو يمثل وسيلة إبادة جماعية مقارنة بما لدى الأهالي من أسلحة بالية، كما أنه يحول دون حصول الالتحام المباشر مع العدو والذي يتناسب مع الأسلحة التقليدية التي يستخدمها السكان، بغض النظر عن الخطط الحربية التي يتولى تنفيذها جنود نظاميون منضبطون وملتزمون، في حين يفتقر السكان إلى الأسلحة تماما عدا بنادق صيد التي لم يعد لها تأثير فعّال على سير المعركة مثل تلك التي تستخدم في الأعراس -عجيج بلا طحين- ويعتبر المقاتلون من السكان أنفسهم متطوعين للدفاع عن حرمة أراضيهم وعن الشرف وعن غزو النصارى لأرض الإسلام... لكنهم غير مجبرين على التقيد بالانضباط العسكري الذي يميز القوات المعادية... فهذا سر

---

(1) ثورة الأوراس 1879 (مرجع سابق) ، ص: 21.

(2) نفس المرجع، ص: 21.

تفوق القوات الغازية، وليس من السهل تداركه. انتهت هذه اللقاءات كسابقاتها بهزائم شنيعة لحقت بالسكان، غير أن ثمة خاصية تميز سكان الأوراس خاصة أنهم لا يقبلون بالهزيمة بل لا يقرون بها بتاتا، مهما كانت طبيعة النكسات التي لحقت بهم، فكلما واتتهم الفرصة أعادوا الكرة على أعدائهم... فقد أظهروا رفضهم للجباية والانصياع للقيادات الجديدة التي أقامتها سلطات الاحتلال، فاعتبرت السلطة ذلك تمردا من قبل السكان فجردت لذلك حملة تأديبية سنة 1848 قادها الكولونيل "كاروبير" "CANROBERT" قائد شعبة باتنة العسكرية لإخضاع هذه القبائل المتمردة وحملها على الطاعة، فتصدت لها من جديد قبائل بني أوجانة وأولاد داود والعمامرة وأولاد عبدي. غير أن هذه الحملة التأديبية لم تحقق أهدافها، لأن السكان عندما أدركوا سر تفوق الفرنسيين صاروا يتفادون المواجهة المباشرة.

لجوء أحمد باي إلى كباش "بأولاد عبد الرحمن":

غادر أحمد باي جبال أولاد سلطان -المعقل الحصين- بعد سلسلة من المعارك خاضها السكان ببسالة، والتي يصفها في مذكراته الشخصية بأنها من أكبر المعارك التي شهدها في حياته ويأسف لعدم مشاركته فيها -لأنه كان مريضا- قام أتباعه بنقله إلى جبل: "متليلي" جنوبي أولاد سلطان حتى لا يقع في قبضة قوات الاحتلال وهو منهك القوى، ومنه إلى الضاية، فجبل بني فرح، ولم يمكث به طويلا، فانتقل إلى منعه للإقامة في الزاوية عند أسرة ابن بلعباس الذي تربطه بها علاقات مصلحية قديمة وتحظى عنده باهتمام متميز. غير أن أعوان الاستعمار والوشاة ممّن يفضلون الخبز على الكرامة راحوا يتابعون تحركات الباي، فما أن علموا باستقراره في منعه حتى سارعوا إلى إعلام السلطة الفرنسية بذلك، فجردت لأجل القبض عليه حملة عسكرية ضخمة -كما سبق أن أشرنا- فاعترض السكان هذه القوات وحاولوا منعها من التقدم على مستوى حيدوس، فج القاضي، ثنية العابد. غير أن مستوى التنظيم كان رديئا، فتحولت المقاومة إلى فوضى سرعان ما أدت إلى نشوب خلافات بين قادتها، ذكرها أحمد باي في مذكراته -"ترجمة العربي الزبيري" ص: 95-96 وعندما لاحظ الباي تأزم الخلاف بين قادة المقاومة أدرك خطورة الوضع واستحالة

منع القوات الغازية من التقدم للقبض على "الباي" فأعد عدته للرحيل إلى المجهول، وفي سرية تامة، ليتفادى اعتراض القوات الفرنسية له وليضمن لنفسه قدرا من الاستقرار قبل أن تصل المعلومات إلى مكان وجوده إلى السلطات الفرنسية. وهكذا انتقل الباي بأسرته إل كباش -إسم مكان-، عن طريق أمشونش واستقر وسط قبيلة لا تقل بأسا عن قبيلة أولاد سلطان، وهي قبيلة أولاد عبد الرحمن المقيمة جنوبي شرق "أحمر خدو"، وربما تكون آخر محطة له.

حملات متعاقبة على الأوراس :

راحت القوات الاستعمارية تتابع مجريات الأحداث عن طريق مخبريها والمتعاونين معها ممن استقرت في أعماقهم الهزيمة على مستوى المناطق التي اجتاحتها قواتها وتتابع بعناية خاصة تحرك قادة المقاومة على اعتبار أنهم المحرضين للسكان ومن يد عمهم ويقدم لهم العون من الأهالي -كما يصفونهم- وبالرغم من معرفة السكان المسبقة للنتائج التي سوف تترتب عن المعارك قبل وقوعها بعد أن لاحظو الفرق الشاسع بين القوتين من حيث التنظيم والتسليح والإمدادات، وأن هذه الفروق الواضحة لا تسمح لهم بتحقيق النصر الحاسم ضد عدوهم.

غير أن الحس الوطني والعاطفة القومية والشعور الديني كانت تثير في قلوبهم الحمية وتدفع بهم بعد كل هزيمة إلى استئناف القتال وتجبرهم على التضامن مع أي جهة تتعرض للغزو... إن القيود المفروضة على السكان بعد الهجمة الأولى وما لحق بهم من خسائر بشرية ومصادرات للأموال والممتلكات وإلزامهم بدفع تعويضات الحرب تفرض عليهم أن يختاروا بين أمرين لا ثالث لهما :

1)-الاستكانة للعدو ولزوم الطاعة التامة لإثبات الولاء المطلق للسلطة من خلال أدائهم المنتظم للضرائب التي تفرض عليهم والقبول بالتسخير للخدمات عند الحاجة لضمان بقائهم على الحياة دون تلقي أي خدمة عمومية من قبل هذه السلطة.

2)-الرفض أو التمرد مع الاستعداد لتحمل ما سوف يترتب عن ذلك من مضاعفة الضريبة أو السجن أو التسخير لمدة شهور أو النفي، وفي حالة ما إذا أظهروا الرفض والمقاومة وهو نوع من المجازفة والمخاطرة بالحياة فسوف يتعرضون إلى ما هو أسوأ من ذلك أدناه الإبعاد.

نزل "أحمد باي" ضيفا كريما وسط قبيلة: أولاد عبد الرحمان كباش على السفوح الجنوبية للأوراس غير بعيد عن كتلة "أحمر خدو" الحصينة، وبالرغم مما تتمتع به هذه القبيلة من سمعة طيبة وبأس ونفوذ لتتزعم المقاومة في الجهة الجنوبية الشرقية من الأوراس. غير أن الفتور بدا واضحا على شخصية الباي، فقد انطفأت في قلبه جذوة المقاومة ولم يعد العنصر المثير للحرب، بعد أن أمسى مشردا ينتقل من مكان إلى مكان لضمان سلامته، فراحت أحواله تسوء بعد أن فقد الملك والأمن والاستقرار، ولم يعد يفكر بعد الآن في استرداد الإيالة الضائعة (الولاية) ولعله كان ينوي الذهاب إل تونس التي سبقه إليها ممثل الأمير في الزاب: محمد الصغير بلحاج- بعد فترة من الراحة يقضيها وسط قبيلة أولاد عبد الرحمن.

ظل هاجس معارك جبال: أولاد سلطان وما لحق القوات الفرنسية فيها من خسائر يؤرق الدوق: "دومال" فخشي أن يكون الباي الذي غادر منعة في سرية تامة قد لجأ إلى بعض القبائل ليحتمي بها فيهيج عواطفها الوطنية لتهاجم مراكزه وحامياته في الجنوب، فأصدر أمراً إلى حاكم شعبة باتنة العسكرية بتكليف مصالحه الاستخباراتية بالبحث عنه وتحديد مكان تحصنه، وبعد سنة من البحث والتحري بشأنه تصله أخبار بوجوده في قرية: كباش جنوبي شرق أحمر خدو، فكلف فورا قائد حاميته ببسكرة الرائد: "سانت جيرمان" بتحديد مكان وجوده بدقة وإعداد خطة محكمة تمكنه من القبض عليه هذه المرة.

فسعى "سانت جيرمان" إلى تطويق المكان وسد كل المعابر التي يمكن أن يتسلل الباي عبرها للتوغل في الصحراء فتصعب ملاحقته أو يدخل إلى تونس التي مازالت تتمتع بالاستقلال... علم أحمد باي بهذه التحركات من حوله وعرف أنه المستهدف من ورائها... فحاول الانسحاب بهدوء مع عناصر من أولاد عبد الرحمان تتولى حمايته إلى الشرق، غير أن هذه المحاولة باءت بالفشل عندما اصطدمت بنقاط مراقبة أقامها قائد حامية بسكرة "سانت جيرمان" بالتنسيق مع القائد :ابن ناصر- شقيق أحمد باي بن شنوف- وعندما تأكد بأن جميع الأبواب قد سدت من حوله وبات محاصرا من جميع الجهات عاد إلى كباش، وقد استولى عليه ا ليأس، وراح يفكر في صيغة أخرى ينهي بها حياة التشرد والمعاناة بعد سلسلة من الهزائم تلقاها على يد الغزاة كلفته الكثير.

استسلام الباي :

لم تكن الصيغة التي توصل إليها الباي لترضي ضميره، فهي تنال من كرامته ومن شرفه وتسيء إلى تاريخه كقائد، لكنها كانت الحل الممكن الذي يضمن له الحياة، مع أنه لا يعيد إليه المجد الضائع. وبتاريخ: 2 جوان 1847، يحرر رسالة إلى حاكم بسكرة "سانت جيرمان" يعلن له فيها قبوله بالاستسلام مقابل الأمان الذي ظل يرفضه طوال 10 سنوات قضاها بين التشرد والمقاومة غير المجدية، وبمجرد أن استسلم الرائد "سانت جيرمان" المراسلة أوفد إليه على الفور "الجاويش" عمر بن عبد الله وحمله رسالة شفوية تعهد فيها بالالتزام بالشروط التي كان قد عرضها عليه "أحمد باي" ولكي يطمئنه الرائد: جيرمان أعطاه الخاتم والساعة كدليل ملموس يؤكد له صدق النية. وقد عجل رسول الحاكم باستسلام الباي الذي طلب مهلة للتفكير في الرد على المقترح الذي ورد عن الرائد: جيرمان حين أوهمه بأنه محاصر من جميع الجهات والأفضل له أن يستسلم بمحض إرادته خير من أن يلقى عليه القبض ويعامل كأسير، فقبل الباي بمقترح "الجاويش" عمر بن عبد الله وقبل بالاستسلام دون شروط وسار خلف مبعوث الحاكم "سانت جيرمان" إلى بسكرة ومنها إلى باتنة فقسنطينة ثم نقل عن طريق البحر إلى الجزائر -العاصمة- التي غادرها طائعا وعاد إليها مكرها، وكان قد قال عنها حسب أحمد



Hadj Ahmed dernier dey de Constantine
Lithographie (Ph. Archives nationales et
(d'outre mer, Aix en Provence)

الحاج أحمد باي آخر دايات قسنطينة الصورة من أرشيف ما وراء البحر (إيكس بروفانس)

بوضربة الذي كتب عن حياة "الحاج أحمد باي" "لن أعود إليك سواء عدت إلى المسلمين أو بقيت في يد النصارى فهذا أسعد يوم في حياتي إنه اليوم المنشود"[1].

هذه اللمحة المختصرة عن حياة أحمد باي لا تكشف للقارئ بالكامل عن جوانب من أسرار حياة رجل عاش سلطانا ومات أسيرا فالمذكرات الشخصية لأحمد باي تكشف للقارئ عن جوانب أخرى من سيرة الباي تحتمل قراءات مختلفة، فحين نقرأ مثلا: في مذكرات الباي "أما أنا فقد استقريت في "أحمر خدو" وقضيت فيه حوالي عامين،... وذات يوم "كتب لي القائد الفرنسي في بسكرة يقول بأنه من المستحسن أن نضع حدا للعداوة القائمة بيننا، وتبادلنا عدة رسائل أدركت على إثرها أن السلم محبب عند الله وارتحت للقرار"[2] نفهم من هذا الكلام بأن تطورا مذهلا بل تراجعا خطيرا في مواقف الباي وتحولا عميقا غير منتظر كشف عن قناعة أخرى مغايرة، بعد أن فقد الأمل تماما في استرداد ملكه، ويضيف الباي، فيقول :"ثم كتب لي قائد: باتنة ووعدني باستقبال صادق، وبالأمان، كما أنه سيحبب لي سلطان فرنسا التي تعيد لي أملاكي ومكتسباتي، وامتلأت نفسي حبورا بهذا الوضع الجديد"[3].

أسالت هذه المغريات لعاب "أحمد باي" ليكشف عن سر ظل يخفيه عن أتباعه، وهو أن المسألة بالنسبة إليه مسألة أموال وممتلكات وحياة هنيئة وعيش رغد، وليست مسألة وطن اغتصب، وشعب ذل، وسيادة انتهكت، وكرامة ديست، فالعاطفة الوطنية العميقة لا يتحلى بها إلا المواطنون الأقحاح، والباي ليس منهم، ويواصل الباي الحديث عن ظروف استسلامه حيث يقول: "كان من اللازم أن أكتم السّر لأنهم ما كانوا يتركونني أنفذ مشروعي، وربما اغتنموا هذه الفرصة وأجهزوا علي- فهو يسيء الظن حتى بمن كان قد وفر له الأمن والحماية لمدة سنتين- وهكذا أرسلت إلى حاكم باتنة من كان يحظى بثقتي وطلبت منه أن يبعث برجل يمكن أن أتفاوض معه... وبعد يومين جاءني الرسول وسرني كلامه، ثم

(1) مذكرات الشيخ: محمد خير الدين، الجزء الأول، ص: 57.

(2) مذكرات أحمد باي، ص: 18.

(3) نفس المرجع.

أفهمته بأنه ينبغي المحافظة على السرية... وأن ترسلوا جيوشا تحاصرني من كل جهة حتى لا تبقى فكرة المقاومة عند العرب"[1] استدارة شبه كاملة وانقلاب كلي في الموقف أظهره الباي في آخر أيامه في كباش وهو ينسج مع بعض المقربين منه مؤامرة الاستسلام، فبعد أن كان يحفز من كان يصفهم بالعرب على القتال لحمايته والذود عن حريمه بصفته رمز للسلطة الشرعية في البلاد صار يبحث عن المكائد التي تشل القدرة عند المقاومين العرب، ويستطرد الباي "وعندما علمت بأن اقتراحاتي قبلت وفي سرية تامة أمرت بالاستعداد للرحيل، فاستعدت أسرتي وتوجهت شخصيا إلى مكان عين لي مسبقا، وكنت أعلم أني سألتقي فيه بقائد- باتنة- الذي جاء على رأس جيش عرمرم"[2].

هذه الاعترافات من قبل شخصية محورية في الصراع الذي نشب في إيالة قسنطينة، وفي الأوراس بالذات خلال العقدين الأول والثاني من الاحتلال، وكانت تصنف (الشخصية) على أنها قمة في الوطنية وفي التضحية أظهرت إخلاصا منقطع النظير للخلافة العثمانية، وظلت تنتظر منها المدد والدعم، غير أن النجدات التي راح الباي ينتظرها قد تمت مصادرتها من قبل "باي" تونس ومنع الجنود العثمانيون من النزول إلى البر، فتوترت العلاقة بين الشخصيتين سيما بعد أن أغرت فرنسا باي تونس بإعطائه امتيازات استثنائية في شرق الجزائر وفي وهران بنية إثارة الصراع بين الإيالتين، فأثارت هذه المناورة أطماع باي تونس في التوسع فأرسل ابنه خير الدين إلى وهران ليكون واليا -بايا- ممثلا للإيالة في تونس، وزعم باي تونس في رسالة موجهة إلى أحمد باي بأن تصرفه هذا أملته عليه الظروف الراهنة التي تمر بها المنطقة وخوفه من فرنسا التي أصبحت تخافها جميع الأمم"[3].

هناك عدة مؤشرات توحي جميعها بحتمية زوال نظام البايات والدايات الذي أدركه الهرم وأصبح يشكل عائقا أمام نهضة الشعوب التي تطمح إلى التطور

(1) مذكرات أحمد باي، ص: 98-99.

(2) نفس المرجع.

(3) نفس المرجع ، ص: 62.

والرقي، إذ لم يعد بإمكانه تطوير نظم حياته رغم الأخطار المحدقة به. فقد كشفت الهجمة الفرنسية على أن دار الجهاد كما كانت تعرف في السابق مجرد فقاعة صابون، نتيجة ما كان يسود أجهزة الحكم من التطاول والفساد وروح التعالي والفوضى والمحسوبية، فلو عرفنا حقيقة ذلك لاتضح لنا أن سبب الهزيمة لا يرجع إلى قوة الحملة التي جردتها فرنسا لتأديب الإيالة أو دولة الجزائريين، كما كانت تسمى والتي أظهرت التحدي منذ ثلاثة قرون، فلما وجدت ضعف المقاومة وضعف التسيير استغلت الفرصة واحتلت العاصمة للقضاء على نظام الحكم وإزالة الشرعية عن السلطة بل وإزالة صفة الدولة عن الجزائر، كما سوف تزعم فرنسا فيما بعد.

فقد جاء في مجلة الثقافة العدد: 29/ 1975 الصفحتان (15 و16) ملحق ما يلي: "وجاءت محنة الاحتلال، وحامت النسور الأجنبية على الجزائر عندما بدت السلطة العثمانية (الرجل المريض) متهالكة القوى متثاقلة الخطى توشك أن تسقط صريعة، فاجتاز الأسطول الفرنسي الغازي عرض البحر المتوسط من غير أن يعترضه قارب تركي، كأن البحر لم تهدر أمواجه بقرصنة عروج وخير الدين ثم بدا له أن يطعن العاصمة من ظهرها"... "كان الأسطول الفرنسي في منتهى الطمأنينة يدرس خططه في وعي وتؤدده وكأنه يقوم بمناورات بحرية، وكانت السلطة التركية تجمع فلولها في "أسطاوالي" متثائبة كأنها استفاقت من نوم عميق"... "ووضع الحكم المضعضع أمام الأمر الواقع... فكان عند حسن ظن الغزاة... فلم تثبت قدماه في الميدان أكثر من يومين أو ثلاث، ولم يتسع صدر الدفاع لأكثر من معركتين لأنه حكم عاري الظهر مبتور الصلة بالشعب لا يهدأ روعه إلا للقوة التي يجلبها من إزمير -إقليم في تركيا- ولا يغفو جفنه إلا للإنكشارية تسهر عليها"[1] واستنادا إلى نفس المجلة نقرأ، "فقد كانت السلطة العثمانية في الجزائر تحمي ظهرها بقوتين عسكريتين تجلبهما من تركيا-الجنود (اليولداش) يستقدمون من "أزمير" وهم الذين يكونون قوة الانكشارية، وكانوا يتمركزون في العاصمة ويحيطون بالإدارة

(1) مجلة الثقافة(مرجع سابق)، ص: 15-16 (الملحق).

المركزية، ولهم في العاصمة وحدها 12 ثكنة أما السبايس فهم الحرس الخاص بكل داي داخل القطر، وكانت الحكومة تستعين بالفرسان العرب أغلبهم من قبيلة (الدواير والزمالة) ولا عجب فهما القبيلتان اللتان تعاونتا مع جيش الاحتلال ومكنتاه من ترسيخ قدمه في البلاد[1]. حدث هذا بسبب التمييز بينهم وبين الأتراك مع سوء المعاملة فكانت بالنسبة إليهم فرصة مناسبة للانتقام.

كان أحمد باي حاضرا عند سقوط العاصمة، ومكث بها ثلاثة أيام وهي تحت الاحتلال كما حضر مراسيم الاستسلام المذلة، وبها أزيلت صفة الدولة عن الجزائر، غادر الباي الجزائر واصطحب معه 1200 جندي من الجيش الانكشاري من أصول تركية ومن متطوعين أوروبيين امتطى جواده والتفت خلفه مخلدا الذكرى الأليمة بعبارة خاطب بها مدينة الجزائر "لن أعود إليك سواء عدت للمسلمين أو بقيت بيد النصارى، فهذا أسعد يوم في حياتي إنه اليوم المنشود"[2].

عاد الباي إلى قسنطينة بعد أن حضر سقوط الحكم المركزي وزوال دولة (دار الجهاد) وراح يسعى إلى إقامة نظام في الإيالة -شرق الوطن- تكون له خصوصيات دولة مستقلة اعتقد أنه تطوير لنظام الحكم، فاهتم بالبنية السياسية والتنظيم الإداري حسب مفهومه واستبعد من ذهنه تماما إمكانية الهجوم الفرنسي على عاصمة ملكه، فضرب السكة باسمه وسمى نفسه الباشا وأدخل عدة إصلاحات على تنظيم الحياة الاجتماعية... في وقت كانت الأخبار تصله بأن قوات الاحتلال راحت تطرق باب الإيالة من بابها الشرقي عبر عنابة. وكان بإمكانه فور عودته من العاصمة بعد سقوطها في الخامس من جويلية 1830م وبصحبته 1200 جندي من الجيش الإنكشاري الذي يعد جيشا محترفا أن يشرع فورا في تكوين جيش نظامي وتجنيد ميليشيات شعبية وسط القبائل تكون على أتم الاستعداد لمواجهة أي خطر محتمل للتقليل من فعالية الهجوم في حالة وقوعه، مع أننا نقر مسبقا بأن فعل الاحتلال سوف يحصل لا محالة، نظرا للفارق الكبير بين القوتين ونوعية التسليح والتنظيم.

---

(1) المرجع السابق، ص: 16 (الملحق).

(2) مذكرات الشيخ: محمد خير الدين (مرجع سابق) ص: 57.

وقبل أن نسدل الستار عن مقاومة أحمد باي في الأوراس أو عن لجوئه للاحتماء بالأوراسيين، نتساءل ودون أي خلفية، لماذا اختار الأوراس بالذات؟ إذا كان ذلك بسبب طبيعته الجغرافية الوعرة فإن في سلسلة الأطلس التلي المحاذية لقسنطينة - عاصمة ملكه- مناطق أشد وعورة وأكثر مناعة، وإذا كان ذلك بسبب ما عرف عن أهلها من غلظة وجفاء وبأس في القتال وكثرة الرجال فالمنطقة التي ينحدر منها - أحمد باي- والتي يحلو لمناوئيه أن يصفوه لغرض الاستنقاص من قدره "بأحمد القلي" -نسبة إلى القل- لا يقل أهلها بأسا عن سكان الأوراس ولعلهم أوفر مالا وأعز نفرا... كان بإمكان أحمد باي أن يلجأ إلى هذه المناطق التي لا يفصلها عن قسنطينة حاجز ويستثير في أهلها العاطفة الوطنية والقومية فلن يتوانى سكان هذه المناطق في الوقوف إلى جانبه. غير أن الباي اختار الأوراس بالذات، لأنها مهد للثورات منذ الغزو الروماني ثم البيزنطي مرورًا بالفتوحات الإسلامية... للبلاد، وأهلها أكثر إقبالا على القتال، وستتوضح الصورة بجلاء أكثر في الأحداث التي سوف تتوالى على الأوراس خاصة من خلال الانتفاضات التي راحت تندلع كالشرارات في المنطقة أو خلال ثورة التحرير الكبرى، والقائلون بذلك ليسوا أهلها فقط بل هم خصومها أيضا.

مساهمة الأوراسيين في أحداث الزعاطشة :

سبق أن أكدنا بأن العاطفة الدينية لا يشملها حدود، وأن مسألة المساس بالعقيدة أو المقدسات -حسب قناعات المواطن- تفوق كل تقدير، والزوايا الدينية تعد من ضمن هذه المقدسات، وبالتالي فإن السكان إذا شعروا بوجود مساس بهذه المقدسات، فهم يندفعون للدفاع عنها دون حاجة إلى استيثارة أو توعية أو تجنيد.

جرت أحداث الزعاطشة أو ثورة الزعاطشة كما توصف مجازا في واحة "ليشانة" غير بعيد من مدينة طولقة، متزعم هذه الحركة هو الشيخ: بوزيان... فبمجرد أن وصلت الأخبار إلى الأوراس تتحدث عن حصول صدامات بين السكان وبين قوات الغزو التي انتهكت حرمة الزاوية حتى هبت القبائل المقيمة على السفوح الجبلية للأوراس، وهي -حسب الأستاذ: عبد الحميد زوزو في ثورة

الأوراس "بنو فرح، أولاد زيان، بنو معافة، أولاد زكري، أولاد فضالة، الأخضر حلفاوي، أولاد علي بن صابور، وأولاد سلطان"بالتعرض للإمدادات العسكرية الفرنسية التي كانت تتدفق عبر محور: باتنة -بسكرة- لتعزيز قواتها التي تحاصر السكان في ناحية الزيبان وحاولت عرقلتها، كما التحق أهل ناره بهذه الحشود حسب زوزو دائما، وتتحدث بعض المراجع على أن الشيخ: بوزيان، قائد الانتفاضة كان قد بعث برسائل إلى عدة جهات من البلاد يطلب فيها من الزوايا خاصة كونها الخلايا التي يلتّف حولها الجميع إرسال تعزيزات عسكرية لدعم الانتفاضة، وأن عدة جهات في الوطن لبت طلبه -دون تعيين- ولم نعثر على نماذج مخطوطة أو مصورة لهذه المراسلات غير أن رد فعل سكان الأوراس الجنوبية يوحي بوجود إشعار مسبق للسكان عبر شيوخ الزوايا بضرورة الإسراع لتقديم المساعدة للسكان المحاصرين بقرية الزعاطشة -واحة ليشانة- والمؤكد لدينا هو تحرك شيخي زاوية: سيدي عبد الحفيظ الرحمانية، بخيران، والشيخ: سي الصادق أو الحاج، شيخ زاوية تيبرماسين الرحمانية كذلك لمؤازرة الشيخ: بوزيان في حركة منسقة للهجوم على بسكرة، اعتقادا منهم بأن ذلك سوف يحمل القوات التي تحاصر الشيخ بوزيان على التراجع لحماية طرق إمداداتها وقد تدفق السكان من مختلف القبائل المقيمة بالأوراس الجنوبية الشرقية، سيما بعد أن علموا بتحرك الشيخين: سيدي عبد الحفيظ، والشيخ سيدي الصادق في محاولة منهما لفك الحصار عن الشيخ: بوزيان، وفور وصول خبر تحرك السكان إلى القائد: ابن شنوف -قائد سيدي عقبة- سارع إلى إشعار قائد الحامية الفرنسية ببسكرة الرائد: "سانت جيرمان" فاستنفر هذا القائد قواته لاعتراض جموع الأهالي بقوات من حامية بسكرة معززة بعملاء من أتباع ابن شنوف فالتقى الجمعان في قرية "سريانة" شمالي "تهودة" القرية التاريخية يوم: 17-9-1849، ودارت بين الطرفين معركة عنيفة أدت إلى سقوط قتلى وجرحى من كلا الجانبين يقدر كل طرف عدد قتلى الطرف الآخر بما يعزز موقفه، غير أن المؤكد هو سقوط الرائد: سانت جيرمان، قائد الحامية في هذه الموقعة، وسقوط قائد الحملة يشير إلى ضراوة المعركة وإلى عنف القتال واشتداده مما أدى بالمقاتلين إلى الالتحام، والوصول إلى القائد ليس بالأمر الهين من كلا الطرفين ولن يكون ذلك

إلا بعد سقوط عشرات، ربما مئات القتلى دونه وبمجرد وصول الخبر إلى الجنرال: "هيربيون" قائد فرقة قسنطينة عين مكانه وبسرعة العقيد "كربيسا" بطل مجازر "نارة" لمواصلة عمليات القمع، ولما لم تكن وسائل الاتصال السريعة متوفرة لدى السكان في تلك الفترة، فإن الأخبار كانت لا تصل إليهم إلا بعد فوات الأوان غير أنه وبمجرد أن تناهت الأخبار إلى السكان في عمق الأوراس، سيما بعد أن علموا بوجود شيخي الزاويتين الرحمانيتين على رأس القوات المحلية المحاربة تعلق أملهم بالنصر أكثر وتدفقوا كالسيول عبر المسالك والأودية المؤدية إلى مكان المعركة "من أولاد سعادة، وأولاد داود، وأولاد زيان، وبني فرح"كما نشطت مجموعات أخرى تعد بعيدة نسبيا عن مكان وقوع المعركة في عرقلة طرق الإمدادات بالإغارة على القوافل التي تنقل التعزيزات والتموين إلى مركز الأحداث، وخاصة عبر مضايق القنطرة التي تسمح للسكان باستخدام وسائلهم التقليدية، كسدّ المعابر ودحرجة الصخور من المرتفعات، وقد ظل السكان عموما مصرين على القتال، رغم محدودية الإمكانات وقلة التنظيم، فقد كانوا يبدون الاستعداد الكامل للمواجهة دون اعتبار للنتائج، بالرغم من أن الأمل في النصر أمسى ضعيفا بل غير ممكن، إلا أنهم كانوا يفعلون ذلك، وكان الفناء عندهم أهون من شماتة الأعداء.

هناك شيئان مقدسّان عند سكان الريف عامة وعند الأوراسيين خاصة، وهما: 1-حرمة العقيدة. 2-وحرمة المساس بالشرف. فلما علموا أن الغزاة ينتهكون حرمة المقدسات ويستبيحون الأعراض، هانت عليهم أنفسهم، وراحوا يلقون بأنفسهم إلى التهلكة دون إعطاء الحياة قيمة والوجود وزنا دفاعا عن الكرامة وعن الشرف. ولعل هذه الصورة المروعة التي نقلها إلينا الأستاذ: عثمان الكعاك من خلال محاضرة ألقاها حول الموضوع في ملتقى الفكر الإسلامي، ونشرتها مجلة الأصالة في عدديها (14-15) لسنة: 1973، ص: 140. عنوان المحاضرة: موقف المؤرخين الأجانب من تاريخ الجزائر... يقول الأستاذ: الكعاك، "فقد جاء في مجلة العالمين Revue des deux mondes... وذكرت تفاصيل واقعية موضوعية مجسمة خالية من كل زيادة أو نقصان واقعة الزعاطشة قرب سيدي عقبة من أحواز بسكرة في الجنوب الشرقي الجزائري، فأنصفت وروت الأحداث كما هي،

وهي أحداث هائلة مريعة فظيعة تقشعر من هولها الجلود وتحمر الشمس وتربد السماء يبكي الناس بدم قلوبهم على كنة فضحها الجند أمام حميها، وعلى شيخ عابد محترم ناسك جعلوا رأسه كرة للترفيه على الجنود، وعلى حامل بقر بطنها وأخرج جنينها وأجبرت على طبخه وأكله، وماذا أقول أيضا؟ لكن العرب بالباب والمجلة موجودة، وهي شاهد عدل لا مطعن فيه"[1]. ومما جاء في المختصر في تاريخ الجزائر للدكتور: صالح فركوس "لقد كان لهذه الثورة بعدها الإسلامي، فقد وجد الفرنسيون بين شهداء الثورة عناصر كثيرة جاءت من المغرب ومن تونس والمشرق استجابة لنداء الجهاد في سبيل الله الذي لا يعرف الحدود: بل كان من المجاهدين من لا يريد أن يعرف الناس اسمه ولا أصله"[2]، ونحن نشك في ما نقله الدكتور صالح فركوس عن أبي القاسم سعد الله لبعد المسافة وقصر المدة التي جرت فيها المعركة غير أن الدكتور: سعد الله أشار في كتابه: الحركة الوطنية الجزائرية إلى شخص قال عنه إنه مصري البلد، وقد عرف باسم موسى بن علي بن حسين ويعرف بالدرقاوي نسبة إلى الطريقة التي كان قد انتسب إليها... انتقل من مصر إلى طرابلس -ليبيا- ثم إلى الجزائر مع بداية الاحتلال لغرض الجهاد التقى بالأمير: عبد القادر غير أن لقاءهما لم يفض إلى نتيجة حارب الأمير الشيخ موسى وأخرجه من المدية وشرده... وقد استمر الحاج موسى في تأليبه الأعراش على محاربة فرنسا... لم يشر سعد الله إلى كيفية وصوله إلى الزعاطشة سنة 1849 لغرض الجهاد، غير أنه أكد أنه الشخص الثالث الذي قتل وعلق رأسه إلى جانب كل من الشيخ بوزيان وابنه الحسين بعد سقوط ثورة الزعاطشة.

حملات انتقامية منسقة:

اتضحت للقوات الغازية مناطق التوتر في الأوراس، فوضعتها بواسطة مخبريها تحت المجهر، وراحت تراقب الأوضاع فيها بعناية وتتحين الفرص، فإذا ما شعرت

---

(1) مجلة الأصالة (مرجع سابق)، العددان: 14-15، السنة: 1973، ص: 140.

(2) المختصر في تاريخ الجزائر للدكتور: صالح فركوس، ص: 185.

باحتمال تحرك السكان فيها استبقت الحدث، وجردت لها حملة أعنف، والأسلوب المتبع لديها دائما هو القمع والتنكيل والقهر بهدف الإذلال، وربما الإبادة الكاملة للسكان في حالة وجود إصرار على المقاومة، مثل ماجرى في قرية: نارة، بوادي عبدي القرية التي آوت ممثل الأمير :عبد القادر في الزاب :محمد الصغير بلحاج، وساهمت بفعالية في ثورة الزعاطشة أوت 1849، واستقبلت الناجين من فعل الدمار الذي سلط على سكان الزعاطشة مما يجعل سكانها يصنفون لدى المصالح الخاصة للغزاة في خانة (خطر). ومن باب استيباق الحدث عند الغزاة التعجيل بمهاجمة السكان والتنكيل بهم قبل التحصن أو إخلاء القرية... وقد كان لهذه القرية شرف احتضان رفاة الشهيد: مصطفى بن بولعيد، فحافظت بذلك على رمزيتها التاريخية وتحولت إلى مزارة دائمة للوطنيين.

هذه القرية المناضلة سوف تتعرض لحملتين شرستين قاد الأولى، العقيد: كاربيسا –حسب تقرير مفصل بتاريخ 29 أفريل 1849 من الجنرال: هيربيون قائد: فرقة قسنطينة إلى الوالي العام– قام كاربيسا بهجمته الشرسة على وادي عبدي بصفة عامة وقرية: نارة على وجه الخصوص حسب معطيات كانت قد توفرت لديه، وكان هذا المحور قد تعرض لحملات عنيفة خلال صائفة 1845، عندما حاولت القوات الفرنسية اختراق خطوط الدفاع للوصول إلى: أحمد باي المتحصن بالزاوية القادرية بمنعة ومحمد الصغير بلحاج بقرية نارة، فأظهر السكان على عادتهم عنادا وتحديا كبيرين سمح للقائدين باتخاذ الإجراءات الضرورية عند الانسحاب، وبانسحاب قائدي المقاومة المفترضين (أحمد باي، ومحمد الصغير) وجد السكان أنفسهم عرضة لهجمات انتقامية بسبب إيوائهم لرموز السلطة والمقاومة.

ولما لم تثن هذه الهجمات سكان نارة المتمردة على الغزاة عن مواصلة التحدي من خلال مساندتها العلنية–التلقائية– لانتفاضة الزعاطشة خلال صائفة 1849 جرد لها الجنرال: كاروبير حملة ثانية بداية من 6 جانفي 1850، وقد عزم هذا السفاح على أن يجتث القرية من أصولها، وهذا ما فعل... فتقريره الموجز إلى الوالي العام يكشف عن جزء يسير من الفظائع التي ارتكبها وراح يتباهى بها، يقول:

كاروبير في تقريره إلى الوالي العام بتاريخ: 7 و8 جانفي 1850 "إن قرية نارة قد سقطت وأن سكانها قد سقطوا بالجنان الواقعة بالمنحدرات، وقد تتبعناهم من دار إلى دار حتى قضينا عليهم، وقد قضينا سبع ساعات في حرق وهدم القرى الثلاثة التي تتكون منها نارة"[1] ويذكر الجنرال: "كاروبير CANROBERT" في بعض تقاريره أن نصف عدد المحاربين البالغ عددهم 700 محارب قد سقطوا مقابل 8 قتلى و30 جريحا من القوات الفرنسية.. من بين القتلى المهاجمين: نقيب وملازم" - المرجع السابق- ونحن لا نستبعد أن تكون هذه الأرقام صحيحة إذا أخذ السكان على غرة، بالإضافة إلى أن القوات الفرنسية كانت تعتبر كل شخص قادر على حمل السلاح محاربا فيجهزون عليه ويقتلونه حتى ولو كان مريضا أو متنسكا أو طالب أمان أو شيخا طاعنا في السن.

فمشروع الإبادة الذي تحمله الدولة الغازية-رسول حضارة للعالم المتوحش- كان يدعو إلى ذلك... هذه الصورة المروعة التي نقلها الجنرال: كاروبير قائد الحملة بالرغم من فظاعتها فهي تمثل جزءا يسيرا مما حصل من انتهاكات واعتداءات على الحرمات ومصادرات للممتلكات وسلب ونهب للأموال حولت حياة السكان بعد الغزو إلى جحيم فقد تشرد الناجون من أهل القرية وتوزعوا على القرى المجاورة... ولم يكتب لهذه القرية أن تعود إلى الظهور من جديد إلا بعد عشرين سنة من ذلك التاريخ.

ومن غريب الصدف أن تنتقل الأحقاد والضغائن التي استحكمت بين القائدين اللذين استضافتهما قريتا منعه ونارة وآوتهما زاوية ابن بلعباس القادرية بالنسبة لأحمد باي وأسرة ابن احباره في قرية ناره إلى الأحفاد، فقد آوت أسرة ابن بلعباس القائد: أحمد باي لارتباطات علائقية قديمة بينما آوت أسرة ابن احبارة ممثل الأمير، محمد الصغير بلحاج لأغراض وطنية أو إنسانية، وبما أن هذين القائدين كانا على علاقة سيئة أساسها التنافس على إمارة لم يعد لها وجود، وبالرغم من قصر المدة التي قضياها في القريتين، فقد ورَّثا الأسرتين ضغائن وأحقادا امتدت عقودا من

(1) ثورة الأوراس (مرجع سابق)، ص: 24.

الزمن بعد ذلك التاريخ، ولا أبالغ إذا قلت بأن وميضها ما فتىء يشع من بعيد، فمنذ سنوات قليلة قال لي شاب من قرية "نارة" بعد أن صدر كتابي: "أوراس الكرامة" سنة: 2008، وكنت قد أشرت فيه إلى الموضوع ونشرت على صفحاته وثيقة هي عبارة عن رسالة: شكوى بعثت بها أسرة "ابن حباره" إلى الحاكم العام. قال لي هذا الشاب: وضعت إصبعك على الجرح، ففهمت القصد وعرفت أن قرنا ونصف قرن من الزمن لم تعد كافية لإطفاء هذه الضغائن التي ترسبت في النفوس... ولما كانت أسرة ابن بلعباس قد تفردت بمركز اجتماعي وإقطاعي وديني في الجهة كلها، فقد سمحت لها مكانتها الدينية ومركزها الاجتماعي بالاحتفاظ بمكانتها، وامتد نفوذها على عهد الاستعمار الفرنسي بتبوإ مركز القيادة والارتباط بالسلطة الجديدة فهذا الدهاء من قبل السلطة الفرنسية هو الذي ضمن لها بعض الاستقرار وأضعف روح المقاومة تحت تأثير النفوذ الديني للزاوية في نفوس السكان وأجبرهم على الخضوع لإرادة سلطة الاحتلال.

فعندما يكون ممثل السلطة شيخ زاوية أو واليا أو عنصرا من الطبقة الارستقراطية في الوسط الاجتماعي يكون عادة محل تقدير واحترام الناس، فإرادته من إرادة السلطة التي يخضع لها ولا تصح مخالفتها... ولم تكن أسرة ابن احبارة المقيمة في قرية "نارة" تتوفر على نفس الحظوظ... تفاقم الخلافات بين الأسرتين هو الذي أدى إلى سفك للدماء بسبب مسائل أخلاقية توضحها رسالة ابن احبارة إلى الحاكم العام.

وقد أشار اللواء: (هيربون HERBILLON) قائد فرقة قسنطينة العسكرية – إلى الوالي العام– إلى هذا الخلاف بين الأسرتين في تقريره حيث يقول: "بأن أهل نارة قاموا بقتل سي أحمد بن عبد الله وأخيه عبد الله وكلاهما من عائلة ابن بلعباس ويبدو أن الصراع بين العائلتين ابن بلعباس وابن حبارة كان موجودا لكنه احتدم مع وصول الفرنسيين"[1].

---

(1) المرجع السابق، الهامش، ص: 22.

مقطع من رسالة طويلة لأسرة ابن حباره إلى

الحاكم العام تشكو إليه ظلم القائد: ابن بلعباس

هل هي تحولات أم تطورات في حياة السكان؟ :

أعقبت هاتين الحملتين المدمرتين فترة من الهدوء المشوب بالحذر، سادت منطقة الأوراس الجنوبية خاصة- مصدر القلاقل بالنسبة للسلطة الاستعمارية- سمحت لهذه السلطة بتكريس فعل الاحتلال من خلال النظم الإدارية الجديدة التي سوف تمكنها من التحكم في الوضع بواسطة عناصر انتقتها بعناية، فكانت قمة في الولاء وفي الإخلاص للسلطة الجديدة، وهذه العناصر يتم انتقاؤها وفق أساليب مدروسة حتى تتمكن من التأثير على مجريات الأحداث على ضوء منظور السلطة الاستعمارية، والتي منها: 1)-النفوذ الديني 2)-الانتماء الأرستقراطي3)-المركز الاجتماعي4)-إثبات الولاء عن طريق خدمات سابقة وهذه الهيكلة التقليدية لاسيما ما يتعلق بالنفوذ الديني هي السائدة في المجتمع الأوراسي لغلبة الشعور الديني وسيطرته على النفوس من جهة، ومن جهة أخرى لعدم وجود نظم أخرى تتكفل بتأطير المجتمع وتحظى بتأييده متجاوزة نظام العشيرة أو القبيلة.

استكانت بعض الزوايا وقبلت بالمشروع الاستعماري، بينما ظلت معظم الزوايا تعمل على تغذية الروح الوطنية عن طريق المشاعر الدينية في نفوس السكان وتلهب عواطفهم لقتال النصارى الذين استباحوا أرض الإسلام فدنسوا المقدسات وقتلوا وشردوا... فراح الاستعمار يعمل على مراودتها وكسب ودها بطرق شتى إلى أن استمال معظمها مع مطلع القرن العشرين، فحسب إحصائيات دقيقة قام بها مفتش البلديات "أوكتاف ديبون" خلال انتفاضة 1916 بالأوراس الغربي خاصة فإن معظم الزوايا كانت إلى جانب السلطة وذكر عدة زوايا بالإسم بأنها كانت تمارس الجوسسة لصالح السلطة الاستعمارية[1].

ففي مجال تأطير المجتمع فالسلطة الفرنسية لم تأت بجديد عدا التسميات فقد كرست نظام سلطة الأتراك التي لم تتمكن من بسط نفوذها على المنطقة حسب الأستاذ: زوزو في ثورة الأوراس 1879 إلا عن طريق ربط صلات خاصة برجال الزوايا في المنطقة... عن طريق منحهم بعض الامتيازات أو اقتطاعهم لأراضي

(1) مجلة الأصالة(مرجع سابق)، العددان: 62-63، السنة: 1978 ص: 25-26.

واسعة، وضرب لنا مثلا، بحصول زاوية ابن بلعباس القادرية بمنعة في عهد أحمد باي على إقطاعية بالقراح "القرزي حاليا" بلغت مساحتها 3000 هكتار، وبهذه الطريقة فقط أمكن لأحمد باي أن يوصل نفوذه إلى المنطقة ولو بشكل رمزي"[1].

لا شك أن الخلفية التاريخية -النفعية- عن طريق الامتياز هي التي حملت الباي على اللجوء إلى أسرة ابن بلعباس، وهي نفسها التي دفعت الزاوية إلى استضافته، غير أن هذه المواقف المتقلبة التي تطبع سياسة الزاوية من الولاء للبايلك واستضافتها للباي إلى إظهار الولاء للسلطة الاستعمارية وتقلد منصب القيادة باكرا منذ التاسع من شهر أفريل 1846 تعد ظاهرة غريبة وفريدة في المنطقة. وهناك أسرة أخرى تتمتع بنفوذ أرستقراطي واسع في الناحية الشمالية الشرقية وهي أسرة بلقاسم التي أظهرت استعدادها عن طريق رسالة موجهة من سي العربي بن بوضياف إلى الجنرال: "نقريية"حاكم قسنطينة مع بداية الاحتلال وقبل وصول الفرنسيين إلى الأوراس، كان هذا سنة 1842. وقد أثبتت هذه الأسرة وفاءها للحكم منذ العهد العثماني، فكانت مثالية في إنجابها لعدد كبير من القياد ومن مستخدمي الإدارة الاستعمارية... وقد أدخلت السلطة الاستعمارية نوعا من التطوير على التنظيمات المعهودة خلال العهد التركي في الأوراس بهدف التحكم أكثر فاستحدثت تنظيمات إدارية ذات طابع عسكري على النحو التالي: من 22 جوان 1844 إلى 1 فيفري 1847، كانت المنطقة تخضع للقيادة العسكرية العليا ثم تحولت إلى شعبة عسكرية، مركز قيادتها -باتنة- ومن سنة 1847 إلى 1905 وضمن الشعبة العسكرية استحدثت الدوائر المختلفة دائرة باتنة من 1846 إلى 1886 ودائرة خنشلة منذ: 1873، بعد أن كانت مركزا عسكريا يتبع دائرة: باتنة وقد ألغيت دائرة خنشلة في نوفمبر 1912 أما دائرة بسكرة العسكرية، فقد تأسست سنة 1847، وبقيت إلى سنة 1902 حيث ألحقت أجزاء منها بمناطق الجنوب وأجزاء أخرى بدائرة

---

(1) ثورة الأوراس (مرجع سابق)، ص: 27.

خنشلة"[1]. وضمن هذه الشعب أو الدوائر استحدثت السلطة الجديدة أنظمة لقيادات تعمدت وضعها على ضوء تقاليد موروثة للمجتمع، ونظم حياته بالمحافظة على نظام التركيبة الاجتماعية للقبيلة، وعلى أساس الانتماء المشترك وهذه الأنظمة التقليدية التي تتنافى مع أسس الحياة المدنية كانت قد تبنتها السلطة العثمانية، فلما جاءت السلطة الفرنسية حافظت على هذا النمط من التسيير تقريبا بالإبقاء على نظام العشيرة أو القبيلة كإطار لوحدة الجماعة، ووضعت على رأس كل قبيلة قائدا يتم تعيينه رأسا من قبل السلطة، ويتمتع بصلاحيات واسعة بعضها من تفويض الإدارة التي تحكمه وبعضها تجاوزات تتغاضى عنها الإدارة عن قصد بهدف إرهاق السكان، كالضرائب التي تفرض على الأفراد أو على الجماعات بدون سبب أو باختلاق أسباب واهية، والولائم الفاخرة وعمليات التسخير للخدمات الخاصة والتوقيف والحجز وغيرها ... معظم القياد ينحدون من طبقات نخبوية تنظر إلى الطبقات المسحوقة نظرة استخفاف واستعلاء، فهم كما سبق أن أشرنا إما، شيوخ زوايا شاع عنهم أنهم أصحاب كرامات وخوارق تتنافى مع السنن الكونية، فأذعن الناس لهم اعتقادا منهم بأنهم من طبيعة بشرية أخرى تسمو فوق طبيعة البشر العاديين، فاستغلت فرنسا هذا الوهم الذي امتلأت به نفوس الطرفين في إسناد القيادة إليهم. وإما أرستقراطيون إقطاعيون اعتادوا على الاستغلال البشع والتعامل مع الطبقات الهشة من المجتمع تعامل السادة مع العبيد فأذعن الناس لهم، وأظهروا لهم التزلف والطاعة مع الترقب ليوم تشخص فيه الأبصار. فهذه الفوارق في المستويات هي التي سوف ترغم السكان على الانقياد للقياد طوعا أو كرها.

الوظيفة الأساسية لهؤلاء القياد هي المحافظة على الأمن بواسطة عناصر استخبار مبثوثة في أوساط المجتمع تعرف محليا باسم "الوقافة" ج/ وقاف - وتتمتع بنفوذ كبير وسط قبائلها واحترام مصطنع يلتزم به الجميع، بالإضافة إلى

(1) المرجع السابق، ص: 33.

مهام أخرى تقوم بها هذه العناصر مثل: إعداد قوائم للعائلات لإخضاعهم للضرائب على الدخل أدناها الضريبة على الدخان كما هو شائع بين الناس، ويعني صعود الدخان من المنزل دليل على وجود حياة، أو ما نستطيع أن نسميه بالضريبة على الحياة.

فقد تحول هؤلاء المحظوظون -الوقافة- بالترقيات، كممثلين للسلطة عن طريق المنفعة المتبادلة وسط قبائلهم إلى أعوان عموميين للسلطة مقابل امتيازات استثنائية أقصاها الإعفاء من الضريبة، ومارسوا بقوة السلطة التي يمثلونها جميع الأساليب التي ترغم المواطن على الاستكانة، مثل: * إحصاء الممتلكات * تسجيل المجندين * التحصيل الضريبي * التسخير للخدمات العمومية * السهر على الأوضاع الأمنية * تتبع حركة المشبوهين أو المارقين على القانون * تكوين قناعات تخدم مصلحة الاستعمار، مثل: * الفرنسيون ليسوا غزاة إنما جاءوا لتخليصنا من ظلم الأتراك * اعتبار الفرنسيين الوافدين من وراء البحر رسل حضارة ودعاة سلام * الاحتلال الفرنسي للجزائر مقدر في مشيئة الله الأزلية التي لا ينبغي أن تقاوم، كما جاء في منشور صدر عن الإمبراطور: نابليون الثالث بعد زيارته للجزائر خلال شهر ماي 1865، فصاغ هؤلاء التبع أقوالا أخرى على منوالها، وراحوا يرددونها أمثال: "أولها رومية وآخرها رومية"... وقد لا يزعم عاقل من أن هذه الأقوال التي تمجها الآذان الواعية لم تستسغها بعض النفوس الضعيفة، لكنها كانت ضعيفة التأثير، لأن الممارسات التي كانت تصدر عن السلطة الاستعمارية لا تعكس الأقوال التي يروج لها هؤلاء التبع. ولعل أهم تطور سجل خلال تلك الفترة هو ظهور نظام الحالة المدنية وذلك بفتح سجلات على مستوى القيادات لتسجيل المواليد الجدد والوفيات أيضا وقد ظل السكان يتحفظون من تسجيل أبنائهم فيما كان يعرف عند العامة (بالزايد والمزيود) عندما تفطنوا إلى أن الغرض من هذا التسجيل لا يهدف إلى توفير الرعاية الصحية للصغار أو فرص التعلم لهم، لكنه يهدف إلى ضبط قوائم المواليد الجدد، وعن طريق هذا الإحصاء يتم استدعاء المجندين في إطار التجنيد الإجباري والزج بهم

في حروب لا ناقة لهم فيها ولا جمل. وقد شرعت فرنسا في تجنيد الجزائريين مباشرة بعد وقوع الاحتلال.يقول الإمبراطور: نابليون الثالث في السطر الرابع ما قبل الأخير من المنشور السابق "ووقف أولادكم بإزاء أبنائنا في المعارك الواقعة بالقرم وإيطاليا والصين والمكسيك، ولا ينحل الارتباط الواقع في ميدان الحرب"[*].

ولأجل امتصاص غضب السكان وتوفير قدر من الاستقرار سنَّت الإدارة الاستعمارية قانون "سوناتوس كونسيلت" المخطط المشائخي في الثاني والعشرين من شهر أفريل 1963 الذي يقضي بتمليك الجزائريين أرضهم سواء كانت أملاكا مستغلة أو مشاعة (عروشية)، حاول الإمبراطور نابليون الثالث دغدغة مشاعر الجزائريين بهذا المرسوم الإمبراطوري (السانوتيس كونسيلت) في أثناء زيارة له إلى الجزائر "فأصدر أمرا بوقف مصادرة الأراضي، كما تضمن هذا الأمر إعلان المساواة بين الجزائريين والفرنسيين رغبة منه في إقناع الجزائريين بأن فرنسا لم تأت إلى الجزائر لاضطهاد أهلها، ولكن لتجلب لهم "الحضارة"!... كما أعلن أن الجزائر ليست مستعمرة فرنسية بل هي مملكة عربية" وأعلن نابليون نفسه إمبراطورا على العرب والفرنسيين في آن واحد"[1] ويعلق الدكتور: صالح فركوس الذي اقتبسنا من كتابه هذه الفقرة بقوله "والحقيقة هذه الفكرة لا أساس لها من الواقع بل هي مجرد تهدئة لخواطر السكان والمحافظة على الأمر الواقع"[2].

أغضب هذا القانون المعمرين الذين أغراهم السفاح "بيجو" عند بداية الغزو عندما راح يردد "احتلال الجزائر بالسيف والمحراث، السيف في رقاب العرب والمحراث في يد المستعمر الفرنسي"[3]. فأصدر الأمبراطور قانون 7 جويلية 1864 أعاد فيه السلطة للحكام العسكريين على مستوى المقاطعات الثلاثة، فاشتدت قبضة العسكريين مرة أخرى كما كانت في بداية الاحتلال، ولا يتولد عن الضغط إلا الانفجار.

(*) منشور نابليون الثالث، 5 ماي 1865.

(1) المختصر في تاريخ الجزائر (مرجع سابق)، ص: 230.

(2) نفس المرجع.

(3) كتابنا الثورة التحريرية أمام الرهان الصعب، ص: 23.

الفصل الثالث

- انتفاضة سيدي الصادق أولحاج بتبرماسين
- قوات الاحتلال تعمل على توطيد الحكم في الأوراس
- مجاعة وأوبئة
- مساهمة سكان الأوراس في انتفاضة المقراني **1871**
- ثورة الأوراس لسنة: **1879**
- بداية الأحداث
- أسباب الهزيمة
- مأساة قبيلة اللحالحة
- انتفاضة عين التوتة **1916**
- ردود أفعال السلطة الفرنسية
- ظهور الطيران لأول مرة في الأوراس
- أسباب فشل الانتفاضة
- تشكيل لجان تحقيق لتحديد أسباب الانتفاضة

انتفاضة سيدي الصادق أو لحاج "بتيبرماسين" :

انطوى المجتمع الأوراسي على نفسه فترة وأظهر التقية والتسليم بما حدث، بعد أن فشلت جميع الانتفاضات ضد المحتلين، فقد أدرك سر تفوق أعدائه وعرف مصدر قوتهم كما عرف سر ضعفه وأسباب هزائمه، غير أنه ظل يرفض الاستسلام، وراح ينتظر الفرصة لينتفض من جديد، ويعبر عن استنكاره وعن رفضه للمشاريع التي تعدها إدارة الاحتلال لغرض احتوائه وتقييد حريته، والتي تحمل أسماء مشحونة بالعنصرية وبالتمييز العرقي، وهي عبارة عن مجموعة من الاستثناءات يخضع لها السكان وجوبا، وبموجبها يتم رفع الضمانات عن حريات الأفراد وإخضاعهم لقيود خاصة.

فبعد تسع سنوات من الهدوء المشوب بالحذر التي أعقبت الغارة التي شنها الجنرال "كاروبير" على قرية "نارة" في السادس من شهر جانفي 1850 انتقاما من سكانها بسبب تضامنهم ومشاركتهم في انتفاضة الزعاطشة وإيوائهم للثائرين ضد الاحتلال.

لعل هذا الهدوء قد أوهم السلطة الاستعمارية بأن البطش والتنكيل والحرق والتدمير الذي مارسته بقساوة بالغة متجاوزة كل الأعراف وكل الشرائع يكون قد دفع بهم إلى التسليم لإرادتها والاستسلام لمشيئتها، وبالرغم مما لحق بالسكان من العنت والتشرد والضياع. غير أن فكرة المقاومة وروح الانتقام ظلت تتوهج في قلوبهم، ولما لم تكن هناك قيادات أو تنظيمات محلية تحظى بالتأييد والمساندة يلتف حولها السكان بعد "أحمد باي" و"محمد الصغير بلحاج" غير الزوايا الدينية، راح المواطن يتطلع إلى ما سوف تقرره وتدعو إليه باعتبارها منارات إشعاع وملاجئ للمعوزين والفقراء.

كانت زاوية تيبرماسين بسيدي المصمودي التي أسسها الشيخ: سيدي عبد الحفيظ بخيران ثم انتقلت إلى خنقة سيدي ناجي. وتفرّعت عنها هذه الزاوية "تيبرماسين" وهي بمثابة مركز إشعاع فكري ومنارة علم يؤمها الطلبة من مختلف أنحاء الأوراس وبخاصة أهل "الوادي الأبيض" وكان شيوخها يحظون بالتقدير والاحترام من قبل السكان ولم يكن دورهم مقتصرا عل نشر العلم وإطعام الجائعين والمعوزين من السكان، بل اكتسبوا ثقة الناس من خلال مساهماتهم في حل

النزاعات وتسوية المشاكل والخصومات التي كثيرا ما كانت تنشب بين السكان بسبب المراعي والأملاك الشاغرة أو بسبب التجاوز لرسم الحدود. وقد تكون بسبب عمليات القتل المتعمد. فدور شيوخ الزوايا كان متعدد الأبعاد، فهم دعاة عقيدة وناشروا علم وقضاة وقراراتهم وأحكامهم نافذة، لأنها مستوحاة من الشريعة أو هذا ما كانوا يعتقدون. هذه المزايا هي التي استقطبت المجتمع الأوراسي فالتف حول الزوايا الدينية. الراجح أن المشاعر الدينية كانت في تلك الفترة أسبق من المشاعر الوطنية، إذ لم تكن فكرة الوطن كمفهوم واضحة عند السواد الأعظم من الناس فكان الوطن عندهم يعنى المساس بحرمة حدود القبيلة. ولا شك أن المشاعر الدينية هي التي أججت العواطف النبيلة عند كل عن سيدي عبد الحفيظ وسيدي الصادق أو لحاج فاختارا الجهاد على الاستكانة واندفعا بجموع كبيرة من سكان الأوراس الجنوبية للهجوم على حامية بسكرة في أثناء حصار فرنسا للزعاطشة في الزاب الغربي. فكانت واقعة سريانه بتاريخ 17-12-1847 التي قتل فيها الرائد: "سانت جيرمان" قائد حامية بسكرة.. وبما أن سي الصادق شيخ زاوية "تيبرماسين" بصفته (طرقيا رحمانيا) فقد تبنى مبادئ الطريقة التي تعتبر الجهاد ضد المعتدين واجبا مقدسا وترفض التبعية ولا تجنح للتقية مع القدرة، كما هو الحال بالنسبة لكثير من الزوايا، فقد ظل يستحضر باستمرار المشاهد التي آلت إليها انتفاضة الزعاطشة، وظلت صور تلك المأساة تؤرق الشيخ الناسك، كلما حلت الذكرى أو كانت موضوع حديث الناس، وتتراءى أمامه تلك المشاهد الفظيعة فتحثه على القيام بعمل ما ضد أولئك الذين يدنسون المقدسات وينتهكون الحرمات ويزرعون الرعب ويثيرون الهلع في نفوس العزل من الناس... فاستغل مركزه الديني كشيخ للزاوية، وراح يبث في أوساط الطلبة والمريدين للزاوية أفكارا معادية للاحتلال ويدعو إلى الجهاد ضد الكفار الذين استباحوا أرض الإسلام فراحوا يقتلون ويأسرون ويدمرون ويشردون، حيثما حلوا، فامتلأت نفوس الطلبة ومريدي الزاوية غيظا وحقدا على المعتدين وبما أن كلام الشيخ في اعتقاد الطلبة إلهام مقدس وقراراته نابعة من إرادة الله التي لا تقبل النقض قبل بها الطلبة والمريدون وراحت هذه الأفكار تتوسع وتنتشر في الأوساط وقد استطاع بواسطة خطبه الدينية

أن يشحذ الهمم وأن يثير الإحساس بالظلم في قلوب السكان ويحرضهم على القتال لنصرة العقيدة .. وكان ابنه إبراهيم الذي ذاع صيته فيما بعد يكتب الرسائل إلى القبائل المجاورة يدعوها لنصرة الإسلام والوقوف إلى جانب الشيخ ودعمه في نصرته لدين الله... وحدث أن بعث برسالة مع أحد المريدين إلى قرية سيدي عقبة لغرض قراءتها على الناس في سوق القرية، ولما حاول هذا الشخص المريد أن يفعل ذلك اعترضه بعض الناس وسعوا إلى إذايته، فلما أحس بالخطر هرب إلى مقدم الزاوية الرحمانية بسيدي عقبة.

وهنا تطورت الأحداث لتأخذ أبعادا أخرى، بعد أن خرجت من إطارها السري التنظيمي، فكانت هذه الحادثة القطرة التي أفاضت الكأس... أبلغ المخبرون (الجواسيس) القائد: الموهوب بن شنوف بما حدث، وتوقع تكرار ما جرى في سريانة سنة 1847 فأشعر القيادة العسكرية بسرعة لاستباق الحدث المحتمل لغرض اتخاذ الإجراءات اللازمة... أخذت قيادة الحامية العسكرية في بسكرة المسألة بجد، وقررت القضاء على المحاولة (الانتفاضة) في المهد قبل أن تتوسع في حالة وجود استجابات لها من قبل السكان... ولتطويق الحدث المحتمل تحرك كل من الجنرالين: "قاستو" "GASTO" و"ديسفو""DESVAUX" في حركة التفافية منسقة تمنع عناصر هذه الحركة من التسرب إلى خارج النطاق الجغرافي الضيق الذي تتواجد به، كما تحول دون وصول تعزيزات من أنصار هذه الحركة ومؤيديها من مختلف المناطق.

وهكذا استطاعت القوات الفرنسية أن تستدرج أنصار سي الصادق: شيخ الزاوية إلى مكان المعركة الذي اختارته بنفسها على ضوء مقاييس تضمن لها النصر المبين وأن تفرض عليه المنازلة بالكيفية التي تضمن لها التفوق الساحق باستغلال عاملي الزمان والمكان. فكان اللقاء في واحة "أمشونش" حيث جرت معركة 15 مارس 1844 خلال ملاحقة محمد الصغير بلحاج... وسائل القتال وأساليبه عند السكان لم تتطور أبدا لقلة الإمكانات وضعف التجربة وانعدام العناصر المؤهلة للتخطيط للمعركة، فكانوا يلجأوون إلى الطبيعة ليستمدوا منها قوتهم بدحرجة الصخور من الأعالي وسد المعابر واستخدام العصي والفؤوس عند حصول

الالتحام، وهذه الأساليب التقليدية لا تكافئ ما هو متوفر لدى عدوهم من أسلحة ومدافع. والأسوأ من هذا كله وقوع بعض القبائل في حبال القياد بالعمل إلى جانب القوات الفرنسية. فبعد المعركة العنيفة التي جرت في واحة أمشونش وكانت مهولة وفاصلة في نفس الوقت إذ لم ينج من أتباع سي الصادق قائد الانتفاضة إلا قدر كتيبة من الرجال، فضلت الانسحاب إلى الجنوب الشرقي خوفا من الوقوع بين أيدي قوات العدو، وقبل أن تصل هذه الجماعة إلى وادي العرب وجدت نفسها مطوقة من قبل قوات "القوم" المجندين من قبل "أحمد بولخراس" حفيد شيخ: العرب بالزاب الشرقي، والموهوب بن شنوف قائد: سيدي عقبة وأحمد بن ناصر، قائد: جبل ششار أحاطت بهم هذه القوات التي تدفقت عبر ثلاثة محاور، فمنعتهم من مواصلة السير، وبما أن هذه القوات من العملاء كانت مؤطرة ومسلحة كونها مسخرة لخدمة الاحتلال، وبالتالي، فإن مقاومتها لن تكون مجدية، سيما بعد أن نال العياء من أتباع سي الصادق، مع نفاذ الزاد ومشقة السفر فقد تمكنت قوات "القوم" من الإحاطة بهم وسد كل المنافذ في وجوههم وإرغامهم على الاستسلام بوادي "تونقالين" حيث أسر قائد الانتفاضة بتاريخ 20 جانفي 1859 ومعه 88 رجلا من رجال المقاومة ممن نجو من معركة أمشونش ووادي تونقالين وسيقوا جميعا إلى قرية "لقصر" حيث مركز قيادة العمليات للجنرال: "ديسفو""DESVAUX" أما ما ستفعله القوات الاستعمارية بعد الهزيمة فلم يعد سرا على السكان فالتهجير والتشريد والنفي وسلب الأموال، ومصادرة الممتلكات وتدنيس لأماكن العبادة وللحرمات عموماً هو الأسلوب المفضل لدى قادتها لترويع السكان وإرغامهم على الاستكانة، ولا شيء يمنع هذه القوات التي تجردت من القيم الإنسانية ومن كل الفضائل من ارتكاب أفظع الجرائم ضد القيم الدينية للمجتمع بحرق الزاوية بتاريخ: 14 جانفي 1859، قبل أيام معدودة من سحق الانتفاضات.

مصير قائد الانتفاضة؟ :

استنادا إلى وثيقة أهلية هي عبارة عن كتاب صدر عن ابن شيخ الزاوية قائد هذه الانتفاضة (الشيخ: إبراهيم بن أدهم بن محمد الصادق بن الحاج بن منصور نسبا) أحمر خدو منشأ ومولدا وديارا وسكنا. هكذا يعرف صاحب كتاب: حكمة

المغانم نفسه. هذه الوثيقة كشف عنها الدكتور: عبد القادر زبادية ونشرها في مجلة الأصالة العددين (60-61) بمناسبة انعقاد الملتقى الثاني عشر للفكر الإسلامي بباتنة.

يشير المؤلف في ثنايا الكتاب إلى أن أباه قد اشترك على سبيل الجهاد حسب تعبيره في ثورة 1859 التي شملت منطقة الأوراس الجبلية بكاملها، ألقي عليه القبض ونفى إلى الجزائر العاصمة حيث أودع السجن بالجزائر (يصف المؤلف سجن الحراش بأنه يحتوي على المجرمين وقطاع الطرق، ورغم ذلك فقد سجنت فرنسا أباه به، ونقلت أولاده وكثيرا من أتباعه إلى "كورسيكا"[*]، لم يشر المؤلف صاحب كتاب: حكمة المغانم إلى مصير أولئك المنفيين إلى خارج الوطن لكنه يواصل الحديث عن أبيه الذي أطلق سراحه "بعد سنتين من السجن فرجع إلى الأوراس وفي أثناء الطريق إلى مسقط رأسه وزاويته بتبرماسين"مر بالمسيلة وبسكرة حيث تجمع حوله أتباعه الكثيرون ورافقوه وأكرموا وفادته" ويحدد المؤلف تاريخ تلك الانتفاضة بـ 1276 هـ (1859-1860م) -على الهامش- يعلق الدكتور: زبادية على الوثيقة، فيقول: "يحتوي أرشيف فرنسا لما وراء البحار الموجود في مدينة "إكس آن بروفانس" على وثائق عديدة بأسماء الذين نكل بهم ونفوا إلى "فرنسا" وإلى "كايين" عاصمة "غويانا الفرنسية" بأمريكا الجنوبية نتيجة مشاركتهم في هذه الثورة"[1] وقد علق الدكتور: زبادية بعد تقديمه للوثيقة بأن تلك السنة كانت قد شهدت تمرّدا شمل جميع جبال الأوراس ومدنه وقراه، وتزعم تلك الثورة رؤساء وشيوخ الطريقة الرحمانية-دون ذكر للأسماء أو تحديد للأماكن- وقد نكل بهم بعد فشل تلك الثورة.

تقييم حركة سي الصادق في جنوب الأوراس :

يقيم الدكتور: يحيى بوعزيز نتائج هذه الحركة بأنها تعبير على استعداد الناس للثورة والتمرد ضد الاحتلال الفرنسي في كل وقت وظرف وعلى أي حال دون النظر للعواقب أو دراسة نتائجها، وهذا يؤكد رفض الجزائريين القاطع للاحتلال الفرنسي، مهما تكن السياسة المنتهجة من قبل هذه السلطة باعتبارها حكما أجنبيا...

(*) جزيرة في البحر المتوسط، عاصمتها، "أجاكسيو" مسقط رأس نابليون بونابرت.

(1) مجلة الأصالة (مرجع سابق)، العددان: 60-61، السنة: 1978، ص: 207-208.

وهذه الميزة لا تخص حركة سي الصادق -كما أسماها الدكتور: بوعزيز وحدها، لكنها الخاصية المشتركة بين جميع الانتفاضات التي اندلعت في الوطن والتي تتميز دائما بضعف التخطيط وسوء التنظيم وقلة الموارد والإمدادات الحربية...

ويضيف الدكتور: بوعزيز "بأن حركة سي الصادق... عبارة عن تمرد محلي فجرته الأوضاع المحلية والمشاكل الشخصية لسي الصادق وأفراد قومه وعشيرته"[1] دون أن يشير إلى طبيعة هذه المشاكل ليقتنع القارئ بصحة الرواية أو الاحتمال، ولكنه وجد الاستجابة حسب الدكتور: بوعزيز لدى سكان المنطقة"[2] لاعتبارات تتعلق بالولاء للعُصبة لدى البعض وباستغلال المشاعر الدينية الفياضة عند البعض الآخر، وهذه أهم في نظرنا لاعتقاد الناس بقدسية الرسالة التي تحملها الزاوية، وبالتالي فإن نصرتها واجب تمليه العقيدة، ومهما يكن الباعث الذي دفع بسي الصادق إلى هذه المغامرة فلن يكون نتيجة خلافات وصراعات محلية كما يرى الدكتور: بوعزيز إذ لا علاقة بين المشاكل الشخصية التي يمكن أن تثير حساسية الشيخ: سي الصادق وما حصل من تطور للأحداث.

قراءة متأنية للوثيقة التي كشف عنها الدكتور زبادية :

إن القراءة المتأنية للوثيقة التي كشف عنها الدكتور: زبادية، وللوقوف عند أهم النقاط فيها تدفعنا إلى إصدار أحكام خطيرة في مسائل هامة تعد من صميم الموضوع إذ لا يمكن لشخص مثل: -سي إبراهيم -الزعيم الثاني للانتفاضة بعد أبيه أن يجهلها- الأولى* تتعلق بتاريخ اندلاع الانتفاضة، فحسب معظم المراجع التي اعتمدنا عليها في هذا السياق فإن تاريخ الانتفاضة محصور بين شهري ديسمبر 1858 وجانفي 1859، يوضح ذلك الأستاذ: عبد الحميد زوزو في كتابه: ثورة الأوراس 1879، فيقول: " ابتدأت دعوة سي الصادق إلى الجهاد في شهر أوت 1858 ضمن القبائل الأوراسية والصحراوية، وبحلول شهر نوفمبر تأزم الموقف بسيدي

(1) موضوعات وقضايا (مرجع سابق)، ص: 592.

(2) نفس المرجع.

عقبة عند أولاد فرقة الأخضر، وابتدأت مواجهة الجنرال: داسفو"DASVAUX" بتاريخ: 5 جانفي 1859، وكانت المعركة الحاسمة التي أدى فيها القياد الموالون لأحمد بولخراس حفيد: شيخ العرب والموهوب بن شنوف وابن ناصر دورا كبيرا. قد جرت بوادي "تونقالين" وفي 14 جانفي 1859 أحرقت زاوية "بتبرماسين" بسيدي المصمودي وفي 20 منه انتهت الانتفاضة"[1] بينما تتحدث الوثيقة التي يفترض أن تكون أهم مصدر للمعلومات حول الموضوع على أن ذلك كان سنة (1276 هـ/ 1859-1860م) دون تعيين للشهور أو الفصل.

ونقطة الخلاف الأخرى بين محتوى الوثيقة المنسوبة إلى الشيخ: إبراهيم بن الأدهم والمراجع التاريخية الأخرى التي تعرضت للموضوع تتعلق بالمدة التي قضاها والده في السجن بالحراش، فالمراجع التاريخية تقول بأن زعيم الانتفاضة سي الصادق توفي في سجن الحراش سنة 1862، قبل أن ينقل إلى جزيرة (سانت مرغريت)، بينما نجد أن الوثيقة تتحدث عن إطلاق سراحه بعد سنتين قضاهما في سجن الحراش، وعاد إلى الأوراس من جديد حيث لقي الترحاب والتكريم من قبل أنصاره ومن قبل مريدي الزاوية.

وتتحدث الوثيقة كذلك على أن هذه الانتفاضة قد عمت معظم مناطق الأوراس ولقيت التأييد من قبل السكان، وهذا مناف لما حدث في هذه الانتفاضة، ومع إطارها الزماني والمكاني المحدود، فقد جرت وقائعها على الشريط الحدودي مع الصحراء الممتد من زاوية سيدي عبد الحفيظ بخنقة سيدي ناجي إلى قريتي: أمنطان أقصى حد لها، ولم يشترك فيها معظم سكان الأوراس بسبب عدم التبليغ وقصر المدة.

---

(1) ثورة الأوراس 1879 (مرجع سابق)، ص: 24 الهامش.

والمعتقد أن الدكتور، زبادية الذي أخرج الوثيقة، واعتبرها سندا تاريخيًّا هاما ومصدرا موضوعيا للمعلومات فيما يتعلق بهذه الانتفاضة، سيما وأنها صدرت عن شخص ساهم بنفسه في تأجيج نار الثورة في قلوب السكان وأدى دورا محوريا في تأطير العمليات القتالية التي انتهت بالفشل، يعتقد أن الدكتور لم يدرس الوثيقة ولم يتمحصها مقارنة مع بقية المصادر، أو كان خالي الذهن، ولم تتوفر لديه أدنى المعلومات أصلا حول الموضوع.



شاب من الأوراس
لحظات تأمل في المصير المشؤوم بعد الهزيمة

إني وإن كنت لا أشك في صحة الوثيقة بقدر ما يخالجني شك في احتمال تعرض الوثيقة (النسخة الأصلية) إلى إعادة النسخ دون مراجعة أو تدقيق فكتب شيوخ الزوايا كثيرا ما كانت تتعرض للتحريف والتصحيف، بهدف الإشادة أو الإشهار من قبل الطلبة أو المريدين.

أسباب الهزيمة المادية والمعنوية :

تكاد أسباب الهزائم في جميع الانتفاضات أو المعارك أو المقاومة التي يبديها السكان خلال عمليات الاجتياح تكون واحدة، وتعود أغلب الحالات فيها إلى أسباب وعوامل هي نفسها في جميع المناطق، وأشير إلى بعضها هنا باختصار.

1-التفوق في العدد والعدة وفي الإمدادات اللوجيستيكية عموما... إذ لا مجال للمقارنة بين جيش دولة منتجة لأسلحة تعد متطورة مقارنة بأسلحة السكان ومستخدمة لها، وبين عصابات من السكان أو حتى جموع غفيرة من الأهالي تفتقر إلى قواعد النظام والانضباط وتقاتل بأسلحة بدائية كالعصي والفؤوس والحجارة،

وتسعى إلى اعتراض تقدم جيوش غازية بسد المضايق والمخانق، والفجاج، ولا شك أن الأسلحة النارية تعد وسائل مستحدثة في المعارك مع السكان، حتى وإن توفرت لها نظائر عند الجيش الرسمي للدولة الجزائرية وأعني به الجيش الإنكشاري، وقد استخدم أحمد باي المدفعية بمهارة سنة 1836 وأفشل مخطط الهجوم الأول عن عاصمة الإقليم -قسنطينة- ولا يمكن للسكان أن يتداركوا هذا النقص أو هذا العجز بالاستيراد أو الإنتاج وهم يتعرضون لحملات متعاقبة من طرف الجيش الاستعماري بهدف إضعاف روح المقاومة عندهم وإرغامهم على الاستسلام، وتعتبر الأسلحة النارية سر تفوق الفرنسيين.

2-التخطيط، معظم المعارك التي خاضها السكان دفاعا عن حرمة أراضيهم كان العدو فيها هو البادئ بالهجوم، والبادئ عادة يمتلك زمام المبادرة ويصبح بإمكانه أن يفرض القتال على خصمه متى شاء وأن يدير المعركة كيف شاء، ليجد السكان أنفسهم في حالة دفاع على ضوء خطة حربية مفروضة تفرض عليهم الهزيمة لعدم الاستعداد.

3-الإمدادات والدعم اللوجيستيكي، القوات الفرنسية تتلقى الدعم بانتظام من جهات مختلفة وتعوض النقص أو العجز في الوقت المناسب، وتداوي الجرحى، وتسعف المرضى ولا شيء من هذا لدى السكان عدا الإمدادات بالرجال في حملات غير منتظمة.

4-فرنسا كانت تقاتل بواسطة جيوش نظامية وعناصر محترفة تخضع لقيادات مسؤولة. تلقت تكوينا عسكريا وتدريبا خاصا على القتال في مدارس عسكرية متخصصة، مهيكلة وفق أحدث النظم العسكرية حسب المهام وتخضع لقيادات ملتزمة تحرس على مراقبتها وتوجيهها وتشجيعها، وتلزمها الطاعة والانضباط العسكريين وتكرهها على القتال مهما تكن الظروف. بينما المقاتلون من السكان كلهم متطوعون تدفعهم الحمية الوطنية أو الشعور الديني للقتال، لا يخضعون في الغالب لقيادات سُلّمية تلزمهم الانضباط والطاعة، فهم يقاتلون بحماس أملا في النصر، فإذا لاحت بوادر الهزيمة انسحبوا من المعركة وتفرقوا طلبا للأمان، لا يمتلكون من أساليب القتال إلا الحماس والاندفاع غير المنظم دفاعا عن الكرامة وعن الشرف.

5- التأطير، يلعب التأطير دورا فعالا في سير العمليات العسكرية، فعندما تكون القيادة مؤهلة تشارك المقاتلين في العمليات العسكرية وتقتحم بنفسها ميدان القتال إلى جانب الجنود تثير في نفوسهم الحماس والرغبة في القتال والأمل في الانتصار، بالإضافة إلى ذلك، ولعل هذا أهم: الالتزام بالانضباط العسكري وتطبيق التعليمات حسب ما تمليه التطورات الحربية والمعطيات الزمانية والمكانية التي تفرض نفسها على المقاتلين أحيانا... كان وضع القوات الفرنسية المهاجمة كوحدات نظامية مهيكلة وفق نظم عسكرية حديثة -آنذاك- يتفق مع المهام المسندة إليها، فرق للرماة، فرق للهندسة العسكرية، فرق للاستطلاع، فرق للدعم. تلقت تكوينا عسكريا حسب الاختصاص، وتمارس القتال تحت قيادات تخضع لنفس الشروط، وهذه المزايا التي ألمحنا إليها لا تتوفر عند مقاتلينا -من السكان- والغزاة يعرفون عنهم ذلك فكانت معظم المعارك التي خاضوها مجرد استعراضات وبإمكانات لا تضمن لهم النصر. غير أن ذلك كان أفضل من الاستسلام... فعناصر تأطير المقاومة من السكان هم غالبا إما شيوخ زوايا أو أعيان أو رؤساء قبائل أو قادة شبه عسكريين مثل: أحمد باي ومحمد الصغير بلحاج، وهؤلاء جميعا يفتقرون إلى الخبرة التي تسمح لهم بإدارة العمليات والتكيف مع الوضعيات وتطوير أساليب القتال حسب مقتضى الحال، فاقتصر دورهم على إثارة النعرات وتهييج العواطف الدينية أو الوطنية في نفوس السكان والزج بهم في الميدان دون تكوين ودون تأطير، وكانوا في الغالب يديرون المعارك من بعيد خشية الوقوع في قبضة العدو.

6-التعبئة والتجنيد، التعبئة عند السكان تتم في الغالب بشكل تلقائي في محيط القبيلة التي يجري على أرضها القتال بدافع من الغيرة على حرمة الأراضي ومن أجل الدفاع عن الحمى أو عن شرف القبيلة، فإذا طال أمد الحرب إنتقلت أخبار المعارك إلى القبائل المجاورة فتحركت هذه القبائل تلقائيا لنصرة القبيلة التي تتعرض للغزو لدرء الخطر المشترك وبدون تنسيق محكم. والمشاركون في هذه المعارك يكونون في الغالب من أعمار مختلفة، شباب، كهول، شيوخ، مما يقلل من فعالية القتال لقلة الانسجام بين العناصر التي تتحمل الأعباء... معظم الانتفاضات التي اندلعت في الأوراس منذ الغزو الاستعماري إلى ثورة نوفمبر 1954، كانت تقوم بأسماء

أشخاص هم إما شيوخ زوايا أو أعيان أو ممثلي سلطة تجري الأحداث بأسمائهم وتظل بعد الهزيمة تحمل أسماءهم وتخلد ذكراهم، عدا انتفاضة 1916 التي تحمل أبعادا أخرى سنتعرض لها فيما بعد... أما من جانب العدو فإن قدراته على التعبئة كبيرة باعتبار قواته قوات نظامية مرابطة في الثكنات في حالة تأهب دائمة تتحرك بمجرد صدور الأمر إليها من القيادة... ومن حيث التموين، فقد استباحت المخزونات الغذائية وقطعان الماشية التي يمتلكها المواطنون عن طريق المصادرة والنهب والسلب واعتبرتها تعويضات حرب لتموين جيوشها، فألجأ هذا السكان إلى حفر مطامير وسط الغابات لتخزين محصولاتهم الزراعية ولازالت آثار هذه المطامير بادية للعيان في بعض مناطق الأوراس.

ويمكن أن ندرج في باب القدرة على التعبئة والتجنيد قدرته على استمالة جزائريين أصلا وفصلا للقتال إلى جانبه وتعزيز صفوفه بل وإقحامهم في الصفوف الأولى عند اشتداد القتال، وذلك مقابل لقيمات انتزعها من أفواههم سائغة شريفة ليعيدها إليهم ممزوجة بالذل والخزي، فراحوا يقاتلون من أجل أن يكونوا عبيدا لعدو استباح أرضهم وامتهن كرامتهم فتجردوا عن طواعية من القيم النبيلة وراحوا يتباهون بخدمة الغزاة، فضمنوا له النصر بأقل تكلفة في معركة كانت الفاصلة عندما راحوا يطاردون شيخا جليلا ورعا في أعماق الصحراء، فلما تمكن منه العياء انقضوا عليه كالوحوش المفترسة واقتادوه إلى سيدهم الجنرال: ديسفو DESVAUX. الذي عسكر بقصر أولاد أيوب مركز نشاط قائد الانتفاضة ليكافؤوا بنياشين الخيانة، وأعني بهم رموز العمالة ومن تشمئز النفس حتى لمجرد ذكر أسمائهم وهم: أحمد بولخراس، حفيد: شيخ العرب بالزاب الشرقي، والموهوب بن شنوف قائد: سيدي عقبة، وابن ناصر، قائد: جبل ششار، ومن سار خلفهم من الأوباش، وإلى هذا النوع من البشر تنسب معظم المآسي التي عرفتها البلاد منذ أن حل الاستعمار بهذه الأرض، وهؤلاء ينتمون إلى أسر ارستقراطية، ومن يوصفون خطأ بالأشراف وضعوا أنفسهم في خدمة السلطة العثمانية، فأغدقت عليهم ألقابا أوهمتهم بالعظمة شيخ البلد في الحواضر، وشيخ العرب في البادية، فاستطابوا هذه المناصب والألقاب.

وعندما جاءت فرنسا تبنت نفس النظام عندما لمست فيهم سرعة الاستجابة والتضحية بالكرامة وتفضيل الهوان على العز، فعاشت هذه الأسر تتوارث سدانة الحكم عند المستعمر أبا عن جد. والمتتبع لمورد العمالة في المجتمع سواء كان ذلك خلال الانتفاضات أو في أثناء الثورة التحريرية يجد أنها تنبع تقريبا عن نفس الشرائح -ولا نغتر بالاستثناءات إذ الاستثناء يتبع العموم- وطلائعها ظهرت بمجرد استيلاء القوات الاستعمارية على العاصمة.

فقد جاء في مجلة الثقافة العدد: 29 (الملحق) الصفحة: 16-هـ ما يلي: "وكانت الحكومة تستعين بالفرسان العرب أغلبهم من قبيلتي (الدوائر والزمالة) ولا عجب فهما القبيلتان اللتان تعاونتا مع جيش الاحتلال ومكنتاه من ترسيخ قدمه في البلاد"[1].

ولو اقتصر الأمر على الجهلة من الناس والسفلة من الخلق لهان، لكنه تعدى إلى بيوتات العز والشرف وإلى الوجهاء والفقهاء والأدباء... أمثال: حموده بلفقون الذي قلده المحتلون والي قسنطينة بداية من اليوم السابع للاحتلال، والقاضي محمد الشاذلي القسنطيني الذي استقبل الدوق دومال ومدحه بقصيدة ملؤها الذل والعار، مطلعها :

قـــدوم جميـــل لا يفارقـــه الســـعد ويصـــحبه التعظـــيم والعـــز والرشـــد

قوات الاحتلال تعمل على توطيد الحكم في الأوراس :

عاشت الأوراس بعد ثورة سي الصادق بن الحاج فترة هدوء، سمحت لفرنسا بتكريس فعل الاحتلال ومحاولة إدخال نظم جديدة على حياة السكان لا لهدف ترقيتهم لكن لغرض مراقبة حركية المجتمع وتفاعل الأحداث وسط هذه القبائل التي تنزع إلى التمرد دوما، وحاولت أن تصوغ هذه النظم في شكل قوانين ملزمة للسكان تبيح للكولون المستقدمين من أوروبا بامتلاك أخصب الأراضي رغم قلتها في محيط الأوراس بهدف تعميم وصية الاستعماري "بيجو" الذي يوصي بـ/ : "السيف في رقاب العرب والمحراث في يد المستعمر،" والشروع في استغلالها،

---

(1) مجلة الثقافة العدد: 29، السنة: 1975، ص: 16 (الملحق).

وتغري بالمقابل السكان بتمليكهم للأراضي التي بقيت بين أيديهم سواء كانت ملكية شخصية أو أملاكا مشاعة (جماعية أو عروشية) وقد استدعى ذلك إصدار قانون من قبل السلطة العليا في البلاد بتاريخ 22 أفريل 1863 من قبل الإمبراطور: نابليون الثالث عرف بقانون (سونانيس كونسيلت)- المخطط المشائخي ويسمى أيضا بالمرسوم الإمبراطوري، والمخطط من حيث الشكل يعطي للوضع العام مظهرا حضاريا، بحيث يعطي للملكيات الخاصة الصفة القانونية -الشرعية- لكنه يرغم في نفس الوقت الأهالي كما يوصفون بدل المواطنين على التخلي على تركة الأجداد لشذاذ الآفاق الوافدين من وراء البحر، غير أن هذا القانون أغضب المعمرين وأثار استياءهم، فهم يريدون أراضي بلا حدود وموارد بلا نفاذ، فاضطر نابليون إلى إصدار قانون جديد سنة 1864 أعاد فيه السلطة للعسكريين مرة أخرى، فاستسلم السكان للوضع الراهن على مضض وراحوا يتابعون إجراءات السلطة بما تحمله من نظم جديدة تسعى من خلالها إلى إحداث تغييرات جوهرية على نمط حياة السكان بإخضاعهم للرقابة الإجبارية، اعتبرها السكان تعسفا وعدوانا على حرياتهم وممتلكاتهم، وفي هذا الإطار قامت سلطة الاحتلال بـ/ *إنشاء قيادات جديدة. *تمليك الأراضي الخاصة *تطوير وتنظيم المساحات الغابية *الاستيلاء على الأملاك العامة *إحصاء وتقييد الممتلكات الخاصة... وبالرغم من أن هذه النظم الحضارية في ظاهرها لا تخلو من بعض الإيجابيات سيما في ما يتعلق بإحصاء وتقييد الممتلكات وحماية الغابات على وجه الخصوص، لكنها وضعت لتخدم المستوطنين الجدد وتكرس وجودهم على هذه الأرض وتنقل إليهم مظاهر الحياة الأوروبية التي ألفوها لتضمن لهم الاستقرار.

وبالموازاة مع هذه القوانين التي لم يكن للمواطنين دخل في وضعها أو قدرة على رفضها.سنّت الإدارة الاستعمارية قانونا آخر عرف بقانون الأهالي code de l'indigina وضعت بموجبه المواطن بين المطرقة والسندان من خلال سلسلة من الإجراءات تتحول على إثرها السلطة القضائية إلى سلطة إدارية، وبموجبها يتم رفع الضمانات عن حرية الأفراد، وتتلخص هذه الاستثناءات في المسائل التالية :

1)-تسمح للحاكم العام الفرنسي في توقيع العقوبات على الجزائريين دون محاكمة من أجل المحافظة على الأمن العام.

2)-تأخذ بمبدأ المسؤولية الجماعية عند وقوع جناية في حي من الأحياء دون حكم قضائي.

3)-تسمح للإدارة بحبس الأشخاص ومصادرة ممتلكاتهم دون حكم قضائي.

4)-تفرض على الجزائريين حمل ترخيص خاص إذا أرادوا التنقل من إقليم إلى إقليم.

5)-توسع سلطة قاضي الصلح وتمنحها لمدير البلدية في حالة عدم وجود قاض، بحيث تشتمل على الغرامات لمجرد وجود أحد الأسباب التالية :

* رفض السخرة أو العمل في المزارع الأوروبية في أثناء الحصاد وجمع المحصول الزراعي.

* التلفظ بعبارات معادية لفرنسا.

* عدم الرضوخ لأوامر القياد.

* إذا حدث أي نوع من الشغب أو مخالفة التقاليد المهذبة، كالبصق في الطريق العام.

* التأخر في دفع الضريبة العامة[1].

(1) عبد الحميد بن باديس جهوده وفلسفته لرابح تركي، ص: 50-51 الهامش.



من مظاهر التسخير في مزارع المعمرين

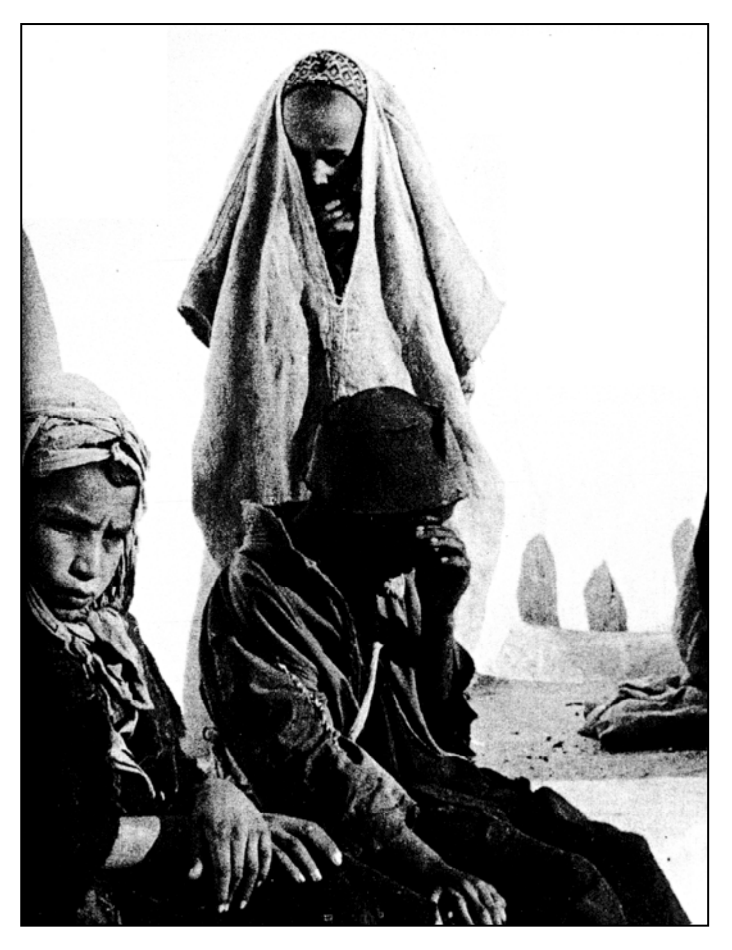
وبما أن هذه القوانين كانت لا تصل إلى المواطن الذي لا يحسن القراءة ولا تربطه أي علاقة بالإدارة ولا توجد لديه وسائل أخرى لتلقى التبليغ ليتخذ الاحتياطات الضرورية حتى لا يقع ضحية هذه الإجراءات التعسفية، فقد ظل عرضة لإجراءات عقابية من قبل سلطة الاحتلال دون أن يعرف لها سببا.

مجاعة وأوبئة:

وقد تزامنت هذه القيود المفروضة على السكان قصد إرهاقهم لدرجة لا يقدرون معها على رفع التحدي مرة أخرى في وجه السلطة الاستعمارية فيظهرون لها الطاعة طوعًا أو كرها بل والاستسلام والإذعان مع موجة جفاف قاتلة وأوبئة فتاكة اجتاحت المنطقة لتضع السكان على شفير هاوية... تضاعفت نكبتهم حين داهمتهم المجاعة وحاصرتهم الأوبئة مع بداية عام 1864... إذ لم يعد المردود الزراعي الذي كان يجنيه السكان من الأشرطة الضيقة على سفوح الجبال أو على ضفاف الأودية يسد حاجاتهم اليومية، فانعكس ذلك بسرعة على قطعان الماشية لقلة الأعلاف.

فتسابق الناس خفافا وثقالا إلى الغابات لجمع ثمر البلوط وحب الطاقة والعرعار وإلى الحقول للبحث عن جذور النباتات الدرنية لإطفاء ألم الجوع، بل اضطرت قبائل أخرى بأن تخيم وسط غابات العرعار لتجمع منها محصول ثمارها، وراحت تتنقل من إلى مكان. وازداد الأمر سوءا عندما انخفض منسوب المياه وجفت معظم الينابيع، فرحل السكان وخيموا قرب الينابيع المتبقية وتجمعوا حولها، ويزعم بعض الشيوخ إلى أن الإناث من الحيوانات كانت تدر حليبا أسود لانعدام مظاهر الحياة (الاخضرار) في الطبيعة وقبل أن تخف حدة الجفاف ليعود السكان إلى مواطنهم للاستقرار بها تجتاح المنطقة أسراب من الجراد، بدأت طلائعه مع حلول موسم الربيع لسنة 1866 لتلتهم ما تبقى من مظاهر الحياة في الطبيعة فشعر الناس بالخطر وبدنو الأجل، وبلغت القلوب الحناجر، واستولى اليأس على الجميع، فانحدرت معظم الأسر إلى الدرك الأسفل من البؤس، فاضطرت إلى الهجرة إلى الهضاب العليا، ولا زال الناس في الأوراس يتحدثون عن هجرة ذويهم إلى تاملوكة وإلى العلمة وسدراتة -(سنوات الشر)، كما كانت توصف مع انقطاع كامل للصلة بسبب عدم وجود وسائل الاتصال، فانقرضت أسر بكاملها بسبب المجاعة، وانعدام الرعاية الصحية، فانتشرت ظاهرة التسول بل عمت الأرياف والقرى لأناس يمشون مثنى وفرادى شبه عراة، وعراة أحيانا يبحثون عن لقمة العيش، وما فتئ الكبار يتحدثون بامتعاض وألم شديدين بأن بعض الفارين من هول المجاعة باعوا أزواجهم مقابل الحصول على لقمة العيش حيث زعموا بأنهم أخواتهم، ويتحدث آخرون بأن بعض الأسر أكلت أبناءها عندما اشتدت بها وطأة الجوع. هذه الصور المرعبة التي ظل الأحفاد يروونها نقلا عن الأجداد، تركت جروحا غائرة في كيان مجتمع هزيل تحالفت ضده الطبيعة مع قوى الشر التي تزعم أنها إنما جاءت لتخلصه من الظلم المترادف عليه منذ أحقاب -حسب منشور نابليون الثالث- لتكرس ظلمات أدهى وأمر أدت إلى زعزعته، فكان الامتحان عسيرا حمل الناس على امتهان اللصوصية عندما لم يجد التسول نفعا. إن الأضرار التي لحقت بالسكان نتيجة هذه النكبة والتي استمرت ما يقارب الخمس سنوات من: 1864 إلى

1868، فاقت كل تصور، وقد اختلفت التقارير المقدمة من قبل الهيآت الرسمية ولجان البحث والتحقيق مع تلك التي أشار إليها المؤرخون والباحثون حول الخسائر التي لحقت بالسكان. بعض هذه الأرقام متناقضة ويصعب على القارئ أن يوفق بينها لعدم تجرد أصحابها من عامل الذاتية أو عدم الوصول إلى المصادر الصحيحة للمعلومات أو التوغل في أعماق المجتمع بهدف التقصي والبحث عن الحقيقة في أثناء صياغة هذه التقارير. وهذا التباين في الأرقام لا يمنعنا من أن نشير إلى تقرير الجهة الرسمية (السلطة) المقدم من قبل (الكومت لوهون) مقرر لجنة البحث والتحقيق سنة 1869 بعد سنة من النكبة، يقول التقرير: " إن الأهالي هلكوا بسبب النظام المفروض عليهم وأن خسائر سنة 1868 وحدها بلغت 4500000 رأسا من الأغنام و217000 عربي على مستوى القطر، وفي نفس السياق يورد كل من الأب "بورزي" و"شارل كوفي" وهما محققان حياديان يوردان أرقاما وشواهد فظيعة عن المجاعة تعجز الأقلام عن وصفها ويقدران ضحاياها على مستوى إقليم قسنطينة الذي يعد الأوراس جزءا منه وحده بـ 150000 نسمة.



من مظاهر البؤس التي خلفتها المجاعة

ولم تكد تختفى صور المعاناة اليومية -الرهيبة- ويخف أثرها على السكان ليعودوا إلى الحياة الطبيعية منهوكي القوى حتى اندلعت الحرب الإمبريالية بين فرنسا وبروسيا (ألمانيا فيما بعد) على جبهة "الألزاس واللورين"، فكان على فرنسا الاستعمارية أن تلجأ إلى الشعوب المقهورة المستعبدة لتستمد منها قوتها، ولعل أكبر سوق بشرية مفتوحة تملكه في تلك الفترة هو الوطن الجزائري، فساقت إلى الحرب ما يربو عن 20.000 مواطن جزائري بين متطوع لقاء لقمة العيش ومجبر على القتال في حرب لا ناقة له فيها ولا جمل، وقد مات نصفهم حسب اعترافات الرسميين

الفرنسيين وعاد النصف الآخر يجر وراءه الخيبة والهزيمة. فجردت بذلك كثيرا من الأسر من طاقاتها المنتجة لضمان أدنى قدر من العيش.

مساهمة سكان الأوراس في انتفاضة المقراني 1871:

لم يحل الوهن الذي أصاب السكان نتيجة النكبات الطبيعية التي ترادفت عليهم كما لن تحول القيود الإدارية التي فرضها الاستعمار على السكان من إظهار تعاطفهم بل تضامنهم الفعلي ومشاركتهم في ثورة المقراني خلال صائفة 1872.

اندلعت هذه الثورة بعد فترة قصيرة من الهزيمة المذلة التي ألحقها القائد الألماني "بسمارك" بفرنسا سنة 1870، مما أساء إلى سمعتها الحربية وسقوط هيبتها، فأرادت أن تستغل الخلافات المحلية مع السكان لتضرب بقوة الحديد والنار لتؤكد بذلك قوتها وجبروتها "أسد علينا وفي الحروب نعامة" متزعم الانتفاضة الشيخ: المقراني موظف لدى إدارة الاحتلال بصفة "باشاغا" في ناحية برج بوعريريج تقلص دوره بعد صدور مرسوم 24 أكتوبر 1870 الذي ألغى النظام المدني، وضعفت مكانته بعد إنشاء بلدية البرج المختلطة سنة 1868، وتعيين اليوطنان "أُليفي" رئيسا لها، وتعرض لضغوطات من قبل الإدارة الفرنسية أفضت به إلى مراجعة علاقته مع السلطة الفرنسية التي كان أحد أعوانها منذ أن توفي جده الباشاغا "أحمد المقراني"، سيما بعد أن تلقى رسالة توبيخ قاسية من الجنرال: "ديفو" بسبب محاولة مساعدة صديق أبيه "بوعكاز"... اختلف المؤرخون في الأسباب والدوافع التي دفعت بالحاج المقراني وهو في حالة ثورة وغضب إلى إعلان التحدي والعصيان والقيام بمحاصرة برج بوعريريج... وقد كان المؤرخ الفرنسي صريحا إلى أبعد الحدود، عندما قال " بأن رؤساء هذه الأسر لم يريدوا أن يفهموا بأنهم أوتي بهم من أجل خدمة السلطة الفرنسية فقط وتنفيذ أوامرها"[1].

ويرفض "رين" في مقدمة كتابه أن تكون انتفاضة 1871 تمرد المضطهد (بفتح الهاء) ضد المضطهد (بكسرها) ولا تعتبر مطالب وطنية ولا هي حزبا أو حركة دينية

---

(1) مجلة الأصالة(مرجع سابق)، العدد: 2، السنة: 1971، ص: 24.

أو عرقية... ولقد قام الباشاغا المقراني وحده بإثارة هذا التمرد الضخم وهو الذي دفع السكان الذين كانوا يخضعون منذ قرون لنفوذ عائلته، وكان السكان الخاضعين لتأثير العمل السياسي والديني لإخوان الرحمانية، واستطاع أن يجند الشيخ الحداد ابن شيخ: الطريقة الرحمانية بتأجيج أطماعه".

"رين" يعطي للانتفاضة أسبابا أخرى لاتمت للوطنية أو للدين بصلة. وللمؤرخين الجزائريين آراء مخالفة لأقوال "رين"، منها: المجاعة الحادة التي حصدت آلافا من السكان، وامتناع السلطات الاستعمارية عن تقديم المساعدات الضرورية للمنكوبين ثم إعطاء الجنسية الفرنسية لحوالي 38 ألف يهودي مقيم بالوطن، وأسباب أخرى أهملت الحديث عنها عن قصد، لأن موضوع حديثنا يتعلق بالمشاركة الفورية لسكان الأوراس في هذه الانتفاضة. إن الغضب الشعبي والتوتر كانا عامين والسكان كانوا مهيئين للانفجار دون تعبئة ودون توعية أو إعداد متى توفر المثير للأحدث... وهكذا، وبتاريخ 16 مارس 1871 زحف الشيخ المقراني بقوات ضخمة على مدينة "برج بوعريريج"، ويعد هذا التاريخ بداية الانتفاضة، تطايرت بعدها شرارات الثورة بسرعة كبيرة إلى مختلف المناطق في الوطن فتجاوب معها السكان، وبتاريخ 18 أفريل من نفس السنة ينضم إلى حركة الانتفاضة الشيخ الحداد، فأعطى هذا الانضمام نفسا جديدا، وأجج في قلوب السكان العواطف الوطنية والدينية معا، نظرا للسمعة التي كانت تحظى بها زاوية الشيخ الحداد، والتي كانت تعلن صراحة بأن الدفاع عن حرمة الوطن جهاد. ولم تكن فروعها ولا كان مريدوها وأتباعها في الأوراس بمنأى عن تلك الأحداث. وبانضمام الشيخ: الحداد إلى الانتفاضة ازدادت ضراوة وشمولية، واتسعت رقعتها مع وصول رسل الشيخ: الحداد إلى مختلف مناطق الوطن. وفي هذا المسعى توجه إلى "بلزمة" بالأوراس الغربي عدد من المقدمين الرحمانيين، من بينهم: 1)-أحمد بن عبد الله 2)-يخلف بن مرة 3)-علي بوالشوارب... حاملين معهم إعلان الشيخ: الحداد الثورة والجهاد ضد الاستعمار، وكانت قبيلة أولاد سلطان بغربي الأوراس هي محطة نزولهم الأولى، واختيارهم لهذه القبيلة لم يكن اعتباطيا، فقد أبدى فرسانها خلال شهري أفريل

وماي من سنة 1844 تحديا كبيرا ومقاومة شرسة ضد قوات الجنرال: "سيليق" التي قدمت من سطيف لتعزيز القوات المهاجمة على محور -باتنة- وخاضوا معارك الشرف أيام 24 أفريل ومن 1 إلى 8 ماي 1844، وبالرغم من أن الغلبة كانت لقوات الاحتلال لعدة أسباب وعوامل، غير أن فرسان أولاد سلطان أكدوا كفاءتهم القتالية وأثبتوا شجاعتهم وصمودهم دفاعا عن الوطن وعن الشرف. وكان في استقبال هؤلاء الموفدين من قبل الشيخ: الحداد، نظرائهم من هذه القبيلة من بينهم: محمد الصديق، وسي سليمان بن علي ابن عيسى، ولما كان الموضوع يتعلق بمسألة على هذه الدرجة من الأهمية والخطورة، فقد استشاروا في الأمر كلا من: أحمد بن رحمون، وسليمان الدروعي، وكان هذان الشخصان فارين من وجه السلطة الاستعمارية معتصمين مع عصابات أخرى بالجبل. وكانوا يوصفون لدى الدوائر الاستعمارية بلصوص الشرف، بينما تزعم أطراف أخرى أن ضمائرهم الوطنية استفاقت مبكرا فرفضوا الخضوع والخنوعة للحكم واعتصموا بالجبال متحدين السلطة الاستعمارية. وعندما لم يحصل الإجماع بين هؤلاء الأشخاص، ونظرا لحساسية المسألة فقد تم إشعار ممثلي القبائل المجاورة لتوحيد الموقف، وبتاريخ: 21 أفريل 1871، انضم إلى هذه الجماعة عناصر من قبائل: أولاد فاطمة/أولاد شليح/الحليمية، واشترك الجميع في إعداد خطة عمل مشتركة، سيما بعد أن وصلتهم أخبار تتحدث عن تسجيل الثوار لانتصارات في عين تاغروت ومجانة أرغمت الفرنسيين على الانسحاب من مواقعهم ولما لم يكن بإمكان هذه القبائل المتضامنة مع الثوار إرسال نجدات إلى الميدان لبعد المسافة، واحتمال تعرضها لهجمات في أثناء عبورها للمسافة الفاصلة بين مواطنها وبؤر التوتر الحالية لتعزيز المقاومة. وبما أن العدو واحد ارتأت مهاجمة مراكز العدو ومنشآته حيث تقيم لتمنعه من تقديم الدعم للوحدات التي تخوض الحرب ضد المقاومة الوطنية، وكان لهذا التكتيك أثر إيجابي، حيث أرغم القوات الاستعمارية على فتح جبهات قتال جديدة في ضواحي باتنة موطن هذه القبائل... فاختار هؤلاء الثوار مجموعة من الأهداف وشرعوا في مهاجمتها. وفي هذا الإطار تمت مهاجمة مؤسسة النجارة العامة التي

تملكها الفرنسية السيدة: "سالرينSalrine"، وعندما علم عمال مؤسسة: "بروهام" للنجارة، في واد الماء بذلك غادروا المؤسسة على الفور وحاولوا الالتحاق بالحامية العسكرية -بباتنة- فاعترض الثوار طريقهم قبل الوصول إلى الحامية، وقتلوا منهم 12 شخصا وجرحوا آخرين.

فهذه الاستجابات السريعة من قبل السكان هي تعبير عن التذمر الناتج عن سوء المعاملة والاحتقار والقهر والإذلال الذي أضحى عملا روتينيا تمارسه السلطات جهارا نهارا، وهذه التعسفات بالتأكيد هي التي جعلت الشعب الجزائري يصاب بحمى التمرد على حد تعبير الجنرال: "بيجو".

هذه الحوادث السريعة والعنيفة دفعت بشيخ بلدية باتنة -الفرنسي- إلى اتخاذ قرار حجز كل السكان المتجولين متّهما إياهم بالجوسسة والتخطيط لمهاجمة الحامية، كما حدث تماما في أثناء عملية احتلال قسنطينة، عندما اتهم المتسوقون من الأوراس بالجوسسة فأوقفوا واحتجزوا.

ومن باب الحيطة والحذر، دعا " الكابتن" "جواست"GOAST إلى القيام بتحصين المدينة خشية تعرضها لهجوم مباغت من قبل الثوار، وبتاريخ: 23 أفريل 1871 يهاجم الثوار مزارع المعمرين بعنف في كل من: المعذر وفيسديس، غير أن المعمرين عندما علموا بمهاجمة مؤسسة النجارة العامة بوادي الماء ومقتل 12 من عمالها توجسوا خيفة، والتجأوا إلى قصر الشيخ: مسعود بن عبد الصمد ببوعريف، ثم نزلوا في حماية قائد: الحراكتة، فسعى هذا إلى إيصالهم إلى حامية: باتنة، وعندما تأكد لمجلس بلدية: باتنة تأزم الوضع قام بداية من 25 أفريل 1871 بتكوين ميليشيات مسلحة لدعم وتشديد الرقابة على منافذ البلدية، ولما ثبت للسلطات العسكرية الفرنسية أن كثافة العمليات قد تركزت في المعذر أقامت حامية ثابتة وقوية في القرية تحت قيادة ضابطين، هما "أودلير" و"ماري" وقد حدثت أول مواجهة بين الثوار وعناصر الحامية الفرنسية يوم 20 أفريل 1871... انسحب الثوار بعد المواجهة إلى ناحية عين ياقوت.. فخشي قائد الحامية أن يشكل استقرار المقاومة على هذا المحور تهديدا خطيرا لجسر الإمدادات التي ظلت تتدفق بانتظام من

قسنطينة فانتقل "أودلير" قائد: الحامية على الفور إلى الناحية -عين ياقوت- وفي أثناء الطريق وغير بعيد عنها أقدمت عناصره على ارتكاب مجزرة حين أعدمت 23 شخصا من السكان بعد أن قيدوهم مثنى مثنى، فأثار هذا السلوك استنكارا السكان وغضبهم فانضموا إلى الانتفاضة بالمئات... وكان لعزل القائد: أحمد بن القاضي وتقديمه للمحاكمة بتهمة التعاون مع الثوار ما زاد من غيظ السكان وسخطهم فلجأوا إلى العنف، وبعد أن علم عناصر المقاومة باستشهاد الحاج: المقراني يوم 5 ماي 1871 تجمعوا بجبل "مستاوة" لتقييم الوضع بصفة عامة، ودون انتظار وصول خبر تعيين قيادة جديدة للانتفاضة، أقدم الثوار بتاريخ 14 ماي 1871 على اعتراض قافلة فرنسية على مستوى وادي الشعبة، فانتقمت القوات الفرنسية لهذا العمل بإقدامها على إضرام النار في قرية المقدم الرحماني: أحمد الصديق، كما اصطدمت مجموعة الدروعي بقوات "أودلير" بتاريخ 17 ماي بالثنية البيضاء فالتحم الطرفان وتحولت المصادمة إلى معركة حقيقية دامت من 17 إلى 20 ماي 1871 قال عنها الجنرال: "لالماند" بأنها كانت من أكثر المعارك دموية... وتقول الروايات الفرنسية بأن الثوار خسروا ما يزيد عن مائتي قتيل وألف ومائتي جريح وقد تحدث الدكتور: بوعزيز عن مجموعة من الرسائل عثر عليها في الأرشيف في مدينة قسنطينة تصف الأحداث التي عرفتها منطقة الأوراس وصفا حيا خلال انتفاضة المقراني... هذه الرسائل كانت موجهة -حسبه- من قائدي أولاد سلطان وأولاد بوعون إلى الكابتن "لويس رين" رئيس المكتب العربي -بباتنة- يصف فيها الموظفان الأحداث في المنطقة وصفا دقيقا، وينقلان إليه نشاط كل قبيلة ومساهمة كل مجموعة في هذه الأحداث، ولم يكتفيا بذلك بل ذكرا أيضا أسماء بعض الأشخاص من المحرضين -الداعين إلى الجهاد- ومعظمهم من مقدمي الطريقة الرحمانية. مركز الأحداث حسب تقرير القائد: محمود باش تارزي، قائد: أولاد سلطان كان قرية: أنقاوس، والقبائل المغذية لهذا الصراع -حسبه دائما- هي: أولاد سلطان، أولاد شليح، أولاد فاطمة، أولاد رحاب، أثلاث، الحليمية، أولاد علي بن منصور والحيدوسيين... وقد أشار في موضع آخر في رسالة من رسائله التي بلغت

18 رسالة إلى نشاط قبيلة بني يفرن في صناعة البارود وترويجه، وأنه -القائد- قام مع بعض الأعيان بتحطيم الأواني الطينية التي اتخذها بنو يفرن أدوات لصناعة البارود"[1]. وقد شملت حدة الصراع الكتلة الجبلية الممتدة على مستوى محوري بوعريف شرقا وجبل بوطالب غربا والتي اقتصرت من جانب الثوار على الهجمات السريعة والضربات الخاطفة وتدمير ممتلكات المعمرين، كان أعنفها تلك التي حدثت في عين ياقوت حيث قتل عشرون معمرا، وفي كاسرو -بباتنة- وغيرها.

عمل القائد: بشتارزي من خلال هذه المراسلات على تشخيص الأوضاع بدقة أمام سلطة الاحتلال لتتمكن من تحديد المسؤوليات فيما بعد، ولغرض تصفية الحسابات كذلك، ففي رسالة له إلى "الكابتن" لويس رين بباتنة، بتاريخ: 18 أفريل 1871 يسجل فيها العودة التدريجية للهدوء والتزام الناس النظام منذ أن خرجت "المحلة" القوة العسكرية غير أن هذا الهدوء لم يدم طويلا، فبمجرد أن استعاد السكان أنفاسهم عادوا إلى النشاط من جديد. وقد سجل القائد ذلك في رسالته المؤرخة في 11 أوت 1871 حيث أشار إلى أن حشودا من أولاد رحاب "فرقة من أولاد سلطان" وفرسانا من ريغة لقبالة والحامة أعادت الهجوم على أنقاوس أيام 7-8-9 أوت 1871... غير أن هذه الهجمات تراجعت عندما وصلت نجدات فرنسية إضافية إلى أنقاوس، وأقامت بها مركزا عسكريا ثابتا (حامية) .. إلا أن حدة الصراع خفت بعد أن علم السكان في الأوراس بتشتيت جموع الشيخ المقراني ولجوئها إلى الصحراء، وتحولت إلى أحداث معزولة عديمة التأثير قليلة الفاعلية.

والملاحظ في هذه الانتفاضة أن عمق الأوراس بقي هامدا إذ لم تسجل فيه سوى أحداث معزولة غير مؤثرة كالتي جرت في الناحية الغربية من الأوراس... وقد يكون ذلك بسبب عدم وجود مستثمرات للمعمرين أو حاميات داخل الأوراس تشكل أهدافا مثالية لهجمات الثوار، ويعزو الدكتور: يحيى بوعزيز ذلك إلى أن بقية الأوراس كان تابعا لزاوية "طولقة" التي كان لها موقف مناوئ لثورة

(1) موضوعات وقضايا (مرجع سابق) ، ص: من 653 إلى 661.

المقراني"[1] غير أن صدى الأحداث سرعان ما تردد في ناحية: بوحمامة التي لجأ إليها "عمر بن مسعود الخماتي" الذي سجل حضورا مميزا في معركة جبل: مستاوة، وقد عرف عنه أنه كان شجاعا ومغامرا وعنيدا ومشاغبا أيضا خلال أعوام الشر كما يصفها السكان سنوات: (66-67-1968) فبعد أن انفضت جموع الثائرين في الأوراس الغربي عاد إلى موطنه، وبالذات إلى قبيلته "البراجة" فانضم إليه عدد من أقاربه، ومن عناصر أخرى كانت توصف في الدوائر الاستعمارية بلصوص الشرف وبالخماتين وبالمنافقين عند عامة الناس، فأظهروا التحدي في منطقة تعتبر محمية طبيعية، نظرا لكثافة غاباتها وعزلتها أيضا... وما لبثت هذه الجماعة بعد أن تطورت من حيث العدد أن راحت تهدد الحركة بصفة عامة عبر الممرات والطرق الرئيسية في قسم من الأوراس الشرقية... حاول الجنرال: "دولاكروا" أن يستميلهم عن طريق الإغراءات والوعود عندما أوعز إلى الشيخ: محمد أورغال على رأس جماعة من أعيان المنطقة أن يتصل بهم وأن يحاول إقناعهم بالعدول عن نشاطاتهم المناوئة للسلطة الاستعمارية... غير أن اتصالات "أورغال" لم تسفر عن أية نتيجة، فقرر الجنرال: "دولاكروا" مهاجمتهم حين أوعز إلى قائد :جبل ششار "أحمد بن ناصر" صاحب المهام الصعبة بأن يتولى قيادة العملية وكان هذا القائد قد أكد إخلاصه للسلطة الاستعمارية خلال الحملات التي كانت تشنها قوات الاحتلال شمالي الصحراء، كان آخرها انتفاضة سي الصادق أولحاج (1858-1859)، فأمسى الشخص المعول عليه بعد أن نال تزكية القادة الفرنسيين- تكلف أحمد بن ناصر بالمهمة وأداها بتفان، حيث أسند مهمة قيادة فرقة من القوم من بني عشيرته إلى ابن أخيه "محمد بلحاج" فراحت هذه الجماعة تترصد حركة المتمردين -الخماتيين- واقتفاء آثارهم ومطاردتهم... وبينما كانت هذه العناصر التي أذعنت لإرادة الاحتلال وسخرت نفسها لخدمته. في جلسة استراحة في جبل: "ملاقو" هاجمتهم جماعة "الخماتي" وقتلت "محمد بلحاج" قائد المجموعة، كما هاجمت وسيط الجنرال :"دولاكروا" محمد أورغال... ولم تتمكن منه إلا أنها أصابت جاره.

(1) المرجع السابق، ص: 645.

ولغرض الثأر لمقتل محمد بلحاج أقدم عمه "أحمد بن ناصر"(*)على تجنيد أعوان آخرين من (القوم) للبحث عن الخماتي وجماعته، حيث وجدوا، وقد لقي تشجيعا من طرف الجنرال: وقاليفي على هذا العمل. تمركز القائد: ابن ناصر على رأس هذه الجماعة في جبل: روشة، ببني ملول غير بعيد عن مركز تحرك الخماتي وجماعته، كما تمركز النقيب: "كاردو" ببوحمامة بداية من الخامس من شهر أفريل 1879 وحاول هذا الأخير أن يجدد الاتصال بالخماتي، فبعث له رسالة مع رسولين فقتلهما وانسحب إلى ناحية "شليا" محاولا الخروج من دائرة نشاط القوات الفرنسية والموالية لها، فاتجه إلى "ملاقو" ثم إلى "قرن كباش" ليوهم القوات الفرنسية بعزمه على مغادرة المنطقة نحو الجنوب التونسي، لكنه عاد فجأة إلى ناحية "إينوغيسن" "بشيليا" ثم إلى "تامزا" وهناك وقع في كمين أسفر عن مقتل الخماتي وحارسه عبد الله بن الساحل، فحزت رأساهما وأخذتا إلى الضابط الفرنسي المسؤول... وبموت الخماتي تنتهي ارتدادات ثورة المقراني في الأوراس.

وهذه الانتفاضة كما مر معنا تفتقر إلى التنظيم وإلى وحدة القيادة، ودون أن تحدد لنفسها أهدافا واضحة تقاتل من أجلها، فكانت هذه بعض أسباب فشلها.

ثورة الأوراس لسنة 1879 :

توصف هذه الانتفاضة بثورة: اللحالحة نسبة إلى القبيلة التي احتضنت نواتها وتوصف بثورة: ابن جار الله نسبة إلى الشخص الذي تزعمها، وهو: محمد أمزيان ابن جار الله، كما توصف بثورة صاحب القدر: ويعنون به متزعم الثورة، حيث زعموا أنه كان يطهي الفول في القدر ثم ينثره أمام السكان فتتراءى لهم وكأنها أشباح لفرسان وهي تتسابق للقتال، وزعم أن هؤلاء الفرسان مدد من السماء، سوف تقاتل إلى جانب السكان، فأيقنوا من النصر، وتعرف بثورة الأوراس المنطقة التي جرت فيها الأحداث.

(*) لم يشر الدكتور: بوعزيز إن كان أحمد بن ناصر هذا هو القائد الذي ساهم في القضاء على ثورة سي الصادق بن الحاج سنة 1859 والذي صنع مأساة اللحالحة في الصحراء الشرقية جوان سنة 1879. هو نفسه الذي أشرف على عملية البحث عن الخماتيين والقضاء عليهم سنة 1921 فالفارق الزمني كبير ومن الصّعب القول به.

فبعد أقل من عشر سنوات من الهدوء المشوب بالحذر بعد انتفاضة المقراني، تندلع أعمال عنف مرة أخرى في قلب الأوراس -هذه المرة- لتؤكد للسلطات الاستعمارية من خلال هذه السلسلة من التمردات أو من الثورات التي لا تكاد تهدأ، رغم النكسات التي كانت تنتهي إليها عن الرفض المطلق للسيطرة الأجنبية ولمحاولات المسخ التي تتبناها سلطة الاحتلال بالتنكر لهوية أمة سبقت وجود الأمة الفرنسية ومحاولة احتوائها والتنكر لماضيها، كل ذلك من أجل استباحة الأرض والنهب والسلب وما يتبعه من مصادرات وإهانات تنال من كرامة الإنسان، وبالرغم من الظروف التعسة التي كان يمر بها السكان، فهم يرفضون على الدوام التخلي عن هويتهم وعن معتقدهم الديني، مهما تحامل عليهم الأعداء ومن يشايعهم "فقد كانت جبال الأوراس عبر التاريخ قلعة للصمود وملاذا ومعتصما للأحرار الوطنيين الذي قاوموا الغزو الأجنبي خاصة في عهد الرومان والبيزنطيين وفي بداية الفتح العربي الإسلامي وخلال الاحتلال الفرنسي الأخير -حسب الدكتور يحيى بوعزيز.

تحمل هذه الثورة -كما سبق أن أشرنا- عدة أسماء مع أن الحدث واحد، فهي تسمى بثورة: الأوراس، حيث جرت الأحداث، وتعرف أيضا بثورة: اللحالحة نسبة إلى القبيلة التي آوت زعيم الانتفاضة، كما تعرف بثورة: ابن جار الله نسبة إلى الشخص الذي تزعم الانتفاضة، وتعرف أيضا بثورة: "تاسيلي" أو "هاقنوشت" وهي أسماء محلية للقدر استنقاصا من شأن صاحبها حيث يقولون "ثورة بوبرمة" إذ زعموا أن قائد الانتفاضة وهم معلم قرآن كان يطهى الفول في قدر ثم يُخرجه وينثره فتتراءى للناس كأنها خيل تركض وفرسان تتسابق إلى الجهاد فيوهم الناس بأنها فرسان نجدة تأتي من السماء وعليها ملائكة مردفين وهي التي ستحسم المعركة ضد أعدائهم.

مركز الانتفاضة -قرية الحمام- بدوار إيشمول، دائرة باتنة العسكرية.

أسباب الانتفاضة :

يصعب على الباحث حين يتجرد من الذاتية - الكشف عن الأسباب الخفية التي توضح التداعيات المباشرة التي حملت السكان على العصيان الذي تحول بسرعة إلى تمرد معلن ثم إلى ثورة ومواجهات، نظرا لغياب الوثائق الأهلية التي توضح الأسباب المباشرة وغير المباشرة التي هزت المشاعر الدينية والوطنية في نفوس السكان، فأعلنوا الانتفاضة، عدا تلك الرسائل التي بعث بها السكان إلى المسؤولين بعد الهزيمة طلبا للإغاثة أو الاستعطاف، ويمكن أن ندرج معها تلك الرسالة الطويلة للخوجة: محمد الصالح لمحية، وبالرغم من أن الرجل كان قد أظهر موقفا عدائيا صريحا للمجتمع الذي ينتمي إليه وكشف عن تحيزه المطلق للإدارة غير أن محتوى الوثيقة يكشف لنا عن جانب من جوانب الانتفاضة بنظرة مغايرة، وبإمكان القارئ أو المهتم أن يستخلص بعض الأسباب من المراسلات التي كان شيوخ القبائل يبعثون بها إلى الحاكم العام (القوفيرنور) حسب تعبير المراسلات بعد الهزيمة لتبرير حركة الانتفاضة، وتتمحور شكاوي المواطنين حول :

❋مسائل تمس بكرامة المواطن الذي كان يهان بسبب أو بدون سبب من طرف ممثلي الإدارة الاستعمارية- ولا يمكن هنا تبرئة الإدارة الفرنسية الممثلة في المكاتب العربية، فمعظم الحالات كانت ترتكب باسمها أو بدعم منها، وهكذا، وبالرغم من أن السلطة المباشرة المتمثلة في القياد والباشاغات، والأغوات تتكون من عناصر جزائرية تنحدر من أسر أرستقراطية أو شيوخ زوايا منحرفة اختارت مساندة إدارة الاحتلال لتحقيق أهدافها بالعمل على إذلال السكان وإماتة الروح الوطنية في نفوسهم ودفعهم إلى الاستسلام واللجوء إلى التقية والرضوخ للقوانين الجائرة التي دأبت عليها سلطة الاحتلال. فعمل هؤلاء القياد بتفان وإخلاص لتحقيق مشاريع

مجلة الأصالة(مرجع سابق) العددان: 60-61، السنة 1978، ص: 224.

إدارة الاحتلال وبالغوا في الإساءة للمواطنين ظنا منهم أن ذلك يرضي سادتهم رؤساء المكاتب العربية عن طريق سلسلة طويلة من التجاوزات مثل:

1-الاعتداء على الحرمات.

2-الإساءة إلى كرامات الرجال ومعاملتهم معاملة البهائم -كما يروى عن الهاشمي بوضياف قائد أولاد داود (1878-1879) الذي كان يلجم الرجال كالحمير بهدف التشفي والاستمتاع.

3-ابتزاز أموال المواطنين بطرق مختلفة.

4-الدعوة إلى إقامة ولائم فاخرة وتقديم أنواع من الأطعمة في وقت كان أبناء المواطنين يتقاسمون الأعلاف مع الحيوانات.

5-الإكراه على جمع الأموال لتقديمها إلى مسؤول المكتب العربي في شكل رشاوي"[1]

6-تشجيع الرشوة والدعوة إلى تقديم هدايا فاخرة للمسؤولين.

7- الإرهاق بالغرامات المالية مما اضطر الكثير من الأسر إلى بيع ممتلكاتها لتسديد المبالغ المفروضة.

8-التوقيف أو الحبس مع التسخير في أعمال شاقة تخص القائد أو الأعوان العموميين.

9-استغلال الضغائن والأحقاد التي سادت بين الأسر أو بين الطوائف منذ أحقاب وإحيائها بهدف الانتقام من الأبناء أو الأحفاد.

10- الاعتداء على الممتلكات الخاصة... مثل ما كان يفعل القائد: بشتارزي في أنقاوس وتكوت...

فهؤلاء القياد كانوا يمارسون السلطة في أبشع صورها وكانوا يزعمون أنهم يمثلون الصفوة المختارة من المجتمع، وأن بقية الناس رعاع لا شأن لهم في هذه الحياة وحظهم منها إبقاؤهم على الحياة، فعاملوهم حسب تصورهم وفهمهم، وقد غرسوا في نفس المواطن بهذه السلوكات العدوانية صفة الدونية، لكنه ظل ينتظر أن تتاح له الفرصة لينتفض وينتقم من هؤلاء الطغاة الذين ساموه سوء العذاب. فقد

(1) ثورة الأوراس (مرجع سابق)، ص: 66.

توالت عليه النكبات والهزائم فأظهر التقية وراح ينتظر الفرج، وكلما لاح له بصيص من الأمل عبر الزوايا الدينية التي كان يعتقد فيها البركة والشفاعة على أنها الجهة المنصورة من السماء، انتفض بعنف دون إعداد ودون تخطيط ودون تنظيم، وبإمكانات لا تكافئ في شيء ما يتوفر عليه الخصم... وهذه الانتفاضات ظلت تعكس فقط الرفض المطلق للاحتلال ولمشاريع الاستعمار مهما كان شكلها. وسيظل التذمر والحقد ضد الاستعمار وممثليه يتنامى لدى السكان نتيجة عوامل القهر والإذلال التي يتعرضون لها بلا حدود، وكلما أتيحت لهم الفرصة لتحقيق أدنى قدر من الانتصار انتفضوا من جديد. فكانت التمردات جزءا من حياتهم الدائمة. يقول الدكتور يحيى بوعزيز حول هذه النقطة "وخلال معظم الثورات التي خاضها السكان ضد الاستعمار الفرنسي في الشرق الجزائري والواحات الشرقية، كانت جبال الأوراس ملجأ ومعتصما، كما كانت منطلقا كذلك لكثير من الثورات "[1].

بداية الأحداث :

بؤرة التوتر الأولى كانت قرية الحمام -دوار إيشمول- حيث يقيم محمد أمزيان بن عبد الرحمن بن جار الله يشتغل معلم قرآن وإماما في مسجد القرية منذ سنة 1875، وكان قبلها قد شغل منصب إمام قرية جار الله التي ينتسب إليها جنوبي -تكوت- رغم حداثة سنه... درس محمد أمزيان علوم الفقه والدين في زاوية"تيبرماسين"المعروفة بنهجها الوطني، والتي كانت قد انتفضت في نهاية سنة 1858، وانتهت تلك الانتفاضة إلى مأساة تأثر لها الطالب: محمد أمزيان سيما بعد أن أحرقت الزاوية في 14 جانفي 1859، ونقل شيوخها إلى سجن الحراش. هذه النهاية المؤلمة التي آلت إليها انتفاضة سي الصادق بن الحاج والصور الحزينة التي يكون اِبناسي الصادق (الطاهر وابراهيم) اللذين سجنا بدورهما في سجن الحراش مع والدهما قد نقلاها إلى المريدين والطلاب بعد أن أفرج عنهما سنة: 1872، تكون قد ساهمت في رسم معالم شخصية الفتي محمد أمزيان الذي سوف يحاول بدوره التعبير

(1) أصالة: 60-61 (مرجع سابق)، السنة: 1978، ص: 225.

عن غضبه في ثورة أخرى تنتهي كذلك بالفشل ويكون مصيره بدوره النفي والإبعاد، فكان تأثره بالنهج الذي سلكته الزوايا الرحمانية التي كانت تحرض المسلمين على الجهاد بالغا، بعد أن عرف شيوخ هذه الزوايا بأن العنصر الديني يعد المحرك القوي لفاعلية المجتمع الجزائري والجامع لوحدته، فاستغل دعاة هذه الطريقة في المجتمع ميله للدفاع عن حرمة الدين، إذ لم تكن فكرة الوطن آنذاك واضحة في أذهان عموم الناس، كما استغلوا فيه سذاجته وسرعة تصديقه لكل أمر غيبي له صلة بالدين، فطعموا دعواتهم بأفعال ليست من الدين في شيء لإضفاء طابع القدسية على دعواتهم... وقد تعرض الأستاذ: عبد الحميد زوزو لهذه النقطة في كتابه عن ثورة الأوراس في معرض حديثه عن شخصية محمد أمزيان، حيث يقول :... "بالنظر إلى ماله من سلطة دينية مؤثرة وقدرة قيادية ملهمة في اعتقاد الناس تعمل على دعم صف المؤمنين، بفضل الخوارق التي لا تتأتى لغيره إلا لأمثاله من رجال الدين (استنطاق البرمة) "تاسيلي" باللهجة المحلية" [1].

هذه القناعة التي تشبع بها الشاب، محمد أمزيان دفعته إلى محاولة زرع أفكار ظلت تخالج فكره وسط مجتمع ريفي يكن له كل التقدير والاحترام فلما لمس لديهم الاستعداد ولقي منهم الاستجابة والتشجيع جاهر بالفكرة ودعا إلى نشرها بين السكان... وخلال هذه المرحلة ولغرض استيلاب عقول المؤمنين والمتشككين بإمكانية النصر على الأعداء... تأتي الأسطورة التي تتحدث عن القدر المزعوم والتي ظلت الانتفاضة تحمل اسمه فترة من الزمن وانخدع الناس لما وصف بالخارقة وتهافتوا على المهدي المنتظر كما وصف نفسه في بعض مراسلاته(ع/ زوزو ص: 69) للإعلان عن الطاعة والامتثال للأمر، وهذه الحيلة إن ثبتت تعد الدافع القوي للسكان على الالتفاف حول زعيم الانتفاضة، ونرجح صحة ما روي بالنظر إلى ما جاء في رسالة بعث بها

(1) ثورة الأوراس 1879 (مرجع سابق)، ص: 62-63.

إلى أحد الشيوخ لإعلان الجهاد، نشرها (لوسياني) الحاكم المدني لبلدية: عين أمليلة وصف فيها نفسه بالمهدي المنتظر. غير أن للاستعمار أذنابا لهم قدرة فائقة على التزييف والتلفيق لغرض التشويه والإساءة إلى تاريخ الأمة والحط من شأنها ولا يصح الجزم بصحة الرسالة بنسبتها إلى الشيخ: محمد أمزيان. سيما وأن الرسالة مختومة بخاتم واضح يعطيها الصبغة الرسمية وهذا النوع من التفكير لا يَتَحَلّى به معلمو الكتاتيب القرآنية وحتى الأئمة في تلك الفترة.

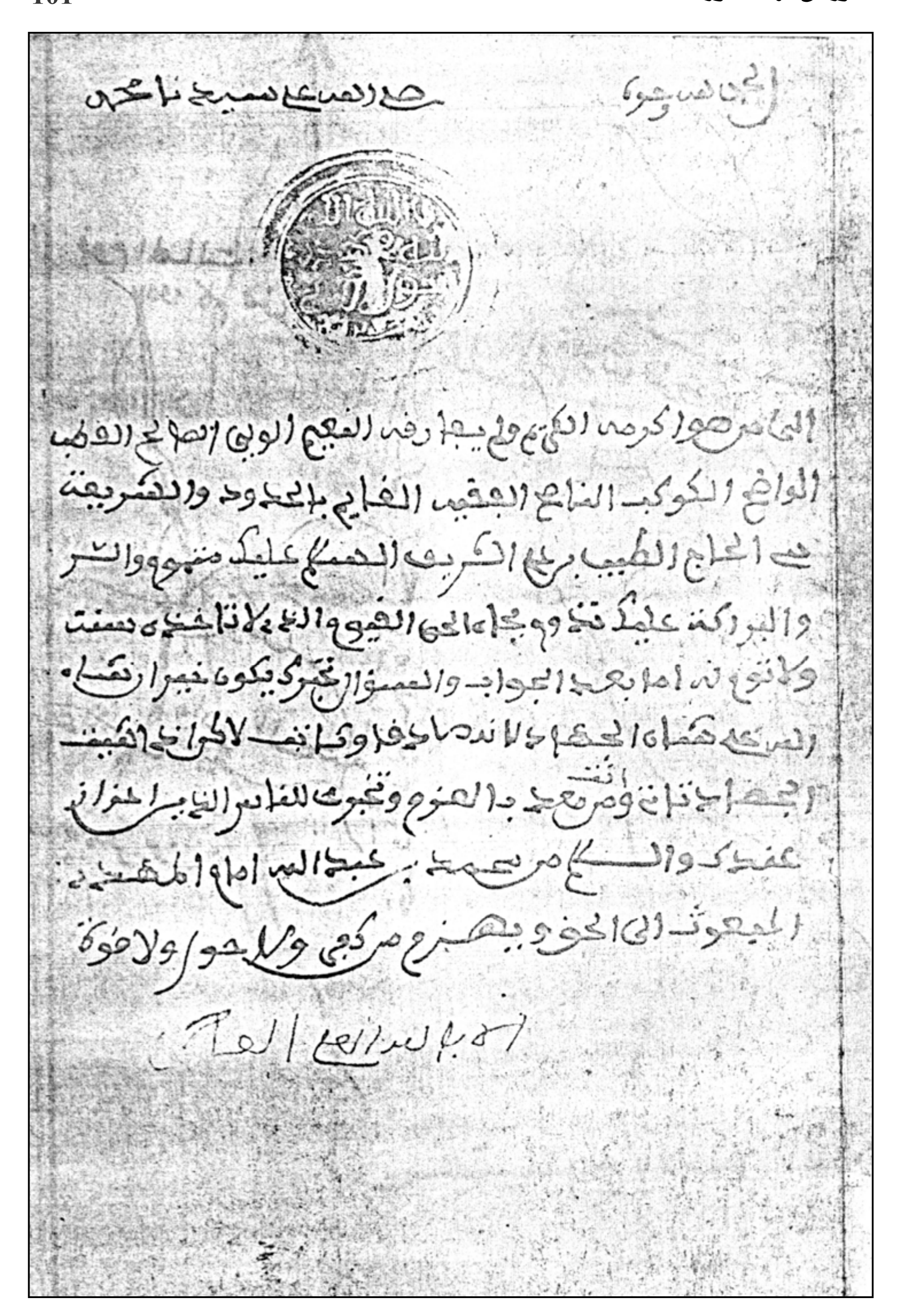
نموذج من الرسائل للثورة والجهاد

الحمد لله وحده صلى الله على سيدنا محمد .

الى من هو أكرمه الكريم، ولم يفارقه النعيم الولي الصالح، القطب الواضح، الكوكب الناصح، الفقيه القايم (كذا) بالحدود الشرعية سي الحاج الطيب بن علي الشريف السلام عليك متموم والسر والبركة عليك تدوم بجاه الحي القيوم الذي لا تأخذه سنة ولا نوم له (كذا) .

اما بعد الجواب والسؤال نخبرك يكون خير (كذا) ان شاء الله على شأن الجهاد لانه صادق وكاتب لكن اذا شئت الجهاد تأتي أنت ومن معك بالعزم وتخبر (به) للناس الذين اعزاز عندك. والسلام من محمد بن عبد الله امام المهدي، المبعوث الى الحق ويهزم من كفر، ولاحول ولا قوة الا بالله العلي العظيم.

*تشير التقارير الفرنسية الى ان تاريخ هذه الرسالة هو 14 جوان 1979 وهو تاريخ متأخر بالنسبة الى تاريخ الرسالة السابقة المكتوية في أوائل جوان، اما عن الموجه اليه، سي الحاج الطيب بن علي الشريف فلا نعرف من هو، ولعل هذه الرسالة هي التي وجهها محمد بن عبد الرحمن الى بلاد القبائل.



الحمد لله وحده   صلى الله على سيدنا محمد

الى من هو اكرمه الكريم ولي يجازيه الفقيه الوجيه الصالح القطب
الواضح الكوكب الناصح المحقق القايم بالحدود والشريعة
سي الحاج الطيب [illegible] الشريف السلام عليك منا والسر
والبركة عليك تدوم [illegible]
ولا [illegible] اما بعد الجواب والسؤال نخبرك يكون خبرا ان شاء الله
[illegible]
[illegible]
عندك والسلام من محمد بن عبد الله امام المهدي
المبعوث الى الخلق بهذا الامر من ربي ولا حول ولا قوة
الا بالله العلي العظيم

نص الرسالة

القطرة التي أفاضت الكأس :

ففي الثلاثين من شهر ماي 1879، وبينما كان القائد: الهاشمي بوضياف بمقر قيادته بقرية: "إيشمول"، جاءه خبر بواسطة الصالح بن عمار لمحية- وقد كان خليفة له- بحصول شبه تمرد في قرية: الحمام يتولى قيادته محمد أمزيان بن عبد الرحمن إمام ومعلم قرآن بذات القرية مدعوم من قِبل عناصر أخرى من سكان القرية، فأوفد القائد على الفور عونين من أعوانه المعروفين باسم: الدواير–حرس خاص-، وهما: 1–محمد شوشان، 2–عمار بن عبد الله، حيث أمرهما بإلقاء القبض على قائد: التمرد، وقيادته إلى العناصر –مقر قيادة القائد- ولما حاول هذان العونان القبض على قائد التمرد –كما زعموا- حال بينه وبينهما أفراد من أتباعه من فرقة اللحالحة بقرية الحمام، وأمام إصرار أعوان القائد على تنفيذ الأمر، والذي قوبل بإصرار مماثل من قبل السكان –حماة الزعيم- ثبتت صفة التمرد، لأن أمر القائد في السابق كان لا يقبل النقاش... تطورت الأحداث بسرعة رغم تدخل محمد بن عثمان شيخ القبيلة لمحاولة التهدئة والبحث عن صيغة للتسوية، غير أن هذا الإصرار لم يدم طويلا ليتولد عنه انفجار للوضع، عندما قام أحد أتباع زعيم الانتفاضة بإطلاق رصاصتين اتجاه العونين، فاستقرت إحداهما في رأس العون عمار بن عبد الله فسقط صريعا وأصابت الثانية العون الثاني محمد شوشان، ولم تكن قاتلة فتمكن من الفرار في اتجاه قرية "الحجاج... أسرع شيخ القبيلة لإطلاع القائد: الهاشمي بوضياف عما حدث للعونين، ففهم أن الأمر جد، لكنه وبدل أن يستعد لمواجهة الموقف قبل أن تأخذ الأحداث منعرجات أخرى ركب فرسه ولاذ بالفرار، فتبعه الصالح لمحيه –خليفته- وذهبا إلى قرية "الربع" ليخبرا محمد بوضياف قائد: بني أوجانة ووالد الهاشمي بوضياف بما حصل من تطورات سلبية في إيشمول، وبوضياف هذا يُصنف على أنه الرجل القوي في عائلة عريقة توارثت القيادة والمشيخة منذ عهد الأتراك، وكان قد ولي شؤون أولاد داود بإيشمول من سنة 1850 إلى 1878... اغتاظ بوضياف غيظا شديدا فأخبر على الفور مسؤول المكتب العربي النقيب "لويس رين" بباتنة، كما بعث برسالة مماثلة إلى الجنرال: "لوجرو"

قائد العمليات العسكرية لدائرة باتنة، ولغرض الوقوف على حقيقة الوضع في عين المكان قبل إعداد الحملة أقدمت هذه القيادة (العسكرية) على تكليف الضابط: "كوربو" بالتوجه إلى قرية "الربع" بمعية مجموعة من الخيالة، حيث مركز قيادة بوضياف، ومنها إلى قرية "لعناصر"، حيث يوجد مكتب القائد: الهاشمي بوضياف... فجهز القائد قوة قوامها "70" فارسا من الأعشاش وأولاد فاضل وسار رفقة الضابط: "كوربو" إلى ناحية إيشمول منطقة التوتر... عرج القائد بهذه الحملة الصغيرة على قرية "يابوس" إحدى حواضر قيادته للاطمئنان على الوضع ثم سار في اتجاه إيشمول منطقة التمرد حيث وصلها عشية 31 ماي 1879. زيارة القائد: بوضياف لإشمول ولعرش وأولاد داود بالذات الذي تولى قيادته مدة 18 سنة لم تكن ودية على أي حال، ولم يكن خلال السنوات التي قضاها قائدا على عرش أولاد داود، قد واجه عنادا أو تحديا، شبيها بما حدث... مما دفع به إلى المجازفة، فاختار المواجهة بدل الحوار والبحث عن الأسباب... فهو سليل أسرة توارثت القيادة منذ العهد العثماني وتشربت القيم النخبوية والنظرة الفوقية أوهمتها مع مرور الزمن أنها فوق مرتبة البشر... فقرر على الفور معاقبة وتأديب هؤلاء المارقين عن سلطة القائد، ومما زاد من حنقه أن زعيم المتمردين حسب ما بلغه طالب قرآن- وكان الطالب "معلم قرآن" آنذاك رغم قداسته مهمته في- أدنى درجة في السلم الاجتماعي، ويعد من المستضعفين في الأرض- لضيق ذات يده- سيما وقد تجرأ هذا الطالب "المعلم"وبعث للقائد برسالة عند نزوله بقرية "لعناصر" حيث يوجد مقر قيادة ابنه يدعوه فيها للدخول في طاعته والتسليم بأمره-قيادته- على عادة الفاتحين المسلمين- فاغتاظ القائد لهذا التصرف من قبل محمد أمزيان متزعم حركة العصيان واعتبره امتهانا له وسوء أخلاق، وتعجل القتال وأعد العدة له دون أن يجري أي اتصال بالمتمردين الثائرين لمعرفة نواياهم. ومما يفسر حدة طبع هذا القائد وصلفه وسوء تقديره للعواقب واستهانته بالموقف وغروره أيضا أنه وهو القائد المسؤول والمهاب أول من برز للقتال لإشفاء غليله وإطفاء لهيب الأحقاد المتأججة بين أضلعه ضد المستضعفين في الأرض، عندما بدأ الثوار هجومهم في

الثلث الأخير من الليل. اعتمدوا فيه على عنصر المفاجأة كعامل من العوامل التي يمكن أن تضمن لهم النصر وتحقق لهم التفوق حيث اختاروا هذا الوقت بالذات حيث يعتقد أن يكون أفراد الحملة غارقين في نوم عميق، فشنوا هجمة سريعة على القوة التي جاء بها بوضياف لتأديب الثائرين، وكان ذلك صباح يوم 1 جوان 1879، غير أن عنصر المفاجأة لم يحقق النتيجة المتوقعة، لأن المجموعة المكلفة بالحراسة كانت في حالة استنفار قصوى، ولعلها كانت تتوقع الهجوم بناء على معلومات استخباراتية تكون قد وصلتها عن طريق عملاء القائد، أطلق الحارس عدة طلقات تحذيرية تنذر بوجود خطر مع ظهور طلائع عناصر الهجوم على معسكر القائد فبرزت هذه القوات متأهبة للدفاع عن نفسها ولحماية عناصر القيادة... وبالنظر إلى ما جاء في وثيقة أهلية لخليفة القائد: الصالح بن عمار لمحية، وبالرغم من أن وظيفته تنفي عنه صفة الحياد المطلق، غير أنها تتوفر على قدر لا بأس به من المعلومات النادرة... حيث يقول محرر الوثيقة بأن الهجوم تم على مرحلتين.

المرحلة الأولى: "أثارت الفزع والهلع وسط القوم في المعسكر فأطلق معظمهم أعنة خيولهم ولاذوا بالفرار في كل اتجاه، ولم يثبت مع القائدين سوى الفرنسيين الثلاثة وبعض الخدم المقربين وقليل من الصبائحية"[1] حيث تصور هذه الوثيقة القائد: بوضياف بطلا أسطوريا وصانع ملحمة .. بحيث تصدى حسب المصدر السابق للهجوم المباغت على المباشر، فراحت أمواج المهاجمين تتحطم أمامه وفرسانهم تتهاوى من حوله إلى أن أتته رصاصة طائشة لا يعلم مصدرها اصابته في صدره فسقط صريعا.

المرحلة الثانية: وكانت أشد من الأولى حسب الوثيقة، حيث حصل التلاحم بين المتحاربين واختلط الجمع واشتدت رحى المعركة وكثر القتل، فلما عرف أعوان القائد الناجون من الموت أنهم لا يستطيعون الصمود وأنهم معرضون للفناء في حالة الإصرار على المقاومة، ركبوا خيولهم وطلبوا النجاة... وقد انجلت المعركة في آخر

---

(1) الوثيقة المرفقة.

الليل عن مصرع القائد: بوضياف، قائد بني أوجانة وجندي فرنسي كان في خدمة الملازم: "كوربو" بالإضافة إلى ثمانية فرسان من الدوائر والصبائحية وثمانية جرحى.. مع أسر كاتب القائد: الهاشمي بوضياف "الحسين بن حمو"، وقد نجا القائدان ابن سديرة والهاشمي بوضياف، كما نجا الملازم "كوربو" وانفضّ الصبائحية والدوائر الذين جيء بهم من الأعشاش وأولاد فاضل لردع المتمردين حسب وصفهم، فاعتبرت فرنسا منهم الانسحاب بدون قتال تحيزا وتأييدا للثوار... تناقل الناس هذه الأخبار السارة من قرية إلى قرية، فاستأسد المستضعفون في الأرض والتفوا حول زعيم الانتفاضة الذي راح يعدهم ويمنيهم بالنصر والتمكين، فأظهروا الاستعداد للمقاومة والقتال لوضع حدّ لمسلسل الإذلال والقهر والانتهاكات التي كانت تمارس ضدهم سرا وعلانية من طرف ممثلي الإدارة الاستعمارية.

لاشك أن المهمة التي جاء من أجلها الملازم "كوربو" لغرض التحري في الموضوع واصطحب معه بوضياف قائد بني أوجانة بصفته قائد سابق على عرش أولاد داود لمدة عشرين سنة تقريباً مُلمٌّ تماما بشؤون أهلها تكون قد انتهت بعد المعركة التي جرت صباح يوم 1 جوان 1879، وقد أكد المهاجمون من خلالها إصرارهم على خوض المعركة مع الاستعمار المدعوم بعشائر سخرت نفسها لتحقيق أهدافه... وما ستخلفه هذه المعركة التي لم تكن حاسمة من ردود أفعال سلطة الاحتلال سيكون هولا، لأن القوات الفرنسية المعززة دوما بأجناد من العملاء تتخذ منهم دروعا بشرية في كل مواجهة ترفض التحدي مهما يكن شكله.

ففي تكوت، قامت عناصرودون تنسيق واضح مع الثوار في إيشمول بمحاصرة القائد: مصطفى بشتارزي وقتله وحزِّ رأسه، مما يدل على أن المعاناة واحدة وممثلي الإدارة الاستعمارية ملة واحدة أسعد اللحظات عندهم ساعة وقوف المواطن أمامهم منكَّس الرأس مهزوما ذلولا مستسلما لإرادة السلطة الجائرة، عبدا مملوكا لا يقدر على شيء. وقد عرف القائد: بشتارزي الذي تولى قيادة تكوت منذ: 16 جانفي 1875 أنه ينتمي بدوره إلى أسرة موالية للحكم مثل: بوضياف وكان يميل إلى العنف ويمارسه ويحتقر الناس، يصادر الممتلكات ويستولي على الحقوق

الشخصية... تتحدث بعض المراجع على أن الذين قاموا بالهجوم على قرية العناصر بإيشمول مكان تمركز القيادة التي جاءت للتحري في الموضوع هم من عرجوا على قرية تكوت وقاموا بقتل مصطفى بشتارزي، بينما يؤكد الدكتور: يحيى بوعزيز في "موضوعات وقضايا" أن الذين قاموا بقتل القائد: بشتارزي هم عناصر ثائرة في قرية: تكوت نفسها، وهذا أقرب إلى الصواب في نظري لسببين:

1-إن مقتل القائد: بشتارزي وقع يوم 31 ماي 1879 دون تحديد للفترة، والهجوم الذي تم على قرية العناصر جرى صبيحة يوم 1 جوان 1879 أي بعد مقتل القائد بشتارزي.

2-المسافة التي تفصل بين تكوت وقرية العناصر التي جرت فيها الأحداث تساوي أو تزيد عن الخمسين كيلومتر وقطع هذه المسافة يتطلب يوما كاملا من السير، وهذا سوف يلفت انتباه القائد إلى ما يجري في المحيط القريب من تداعيات تجعله يبحث عن الحماية أو يتخذ التدابير اللازمة للفرار والمرجح أن الذين قاموا بقتل القائد: بشتارزي هم عناصر من تكوت ذاتها، وكان هذا القائد موضوع شكاوى من قبل السكان، ويؤكد هذا الاحتمال الدكتور: يحيى بوعزيز فيقول،"وفي 31 ماي تجمع الثوار في قرية تكوت لدى سي سليمان بن الحاج وهاجموا القائد: مصطفى بشتارزي وقتلوه في منزله وحزّوا رأسه وقتلوا بعض أعوانه"[1].

الهجوم على القائد: ابن بلعباس بوادي الطاقة:

أغرى هذان الانتصاران السكان في القبائل المجاورة التي انتقلت الأخبار إليها بسرعة البرق، فسارعت غالبية بني بوسليمان وفرقا من بني أوجانة وعناصر من أولاد عبدي إلى الانضمام إلى الانتفاضة، سيما بعد أن حظيت بتزكية شيخ زاوية "مدرونة" الهاشمي دردور الذي وصفها "بأنها ثورة إسلامية وأن صاحبها كان فعلا منتظرا لرد الظلم وإنهائه"[2] علم ابن القائد: محمد بن بلعباس بحركة التمرد

(1) مجلة الأصالة(مرجع سابق)، العددان: 60-61، السنة: 1978 ص: 228.

(2) ثورة الأوراس 1879 (مرجع سابق)، ص: 43-44.

كما توصف في الدوائر الحاكمة، وبمقتل كل من قائدي: تكوت وبني أوجانة، فخشي أن يكون والده المستهدف بعدهما لما عرف عنه من انحرافات أخلاقية، فتهيأ للقتال.. وتحصن بقصره الصيفي بوادي الطاقة، كما أسرع في نفس الوقت إلى تعزيز ودعم الحراسة بتجنيد ما يناهز 200 عنصر من الدوائر، ومن الأعوان والموالين للقائد، واتخذ جميع الاحتياطات حتى لا يؤخذ على غرة، فرتب العسس في الحدود وفي المرتفعات وتهيأ لكل احتمال... وخلال ليلتي الخامس والسادس من جوان وصلت طلائع الثوار إلى حدود البلدية حيث توجد مجموعات الرصد والمراقبة، وبدأت المناوشات مع العناصر القائمة بالحراسة... لم يستطع أتباع القائد الصمود طويلا أمام ضغط الثوار، فتراجعوا إلى الخلف في حركة تكتيكية ليحيطوا بالقصر حيث يوجد ابن القائد المسن الذي كان يعاني من مرض ألزمه الإقامة بباتنة، وتحصنوا به.

إنه وبالرغم من كثافة عناصر الحراسة ومن النجدات التي لحقت بهم ومن الاستماتة التي أظهرتها في الدفاع عن حرمة القصر، فقد تمكن الثوار من اقتحامه وكثر القتل بين الطرفين وأصر الثوار رغم الخسائر التي تلحق بالمهاجم عادة على الوصول إلى من كانوا يوصفون برموز الفسق والعار... فوصلوا إلى ابن القائد: ابن بلعباس، وتمت تصفيته، كما تمت تصفية حاشيته بالجملة، وكان من بينهم شيخ: أم الرخاء، وباش عدل: معيوف لمحية، وخليفة القائد: دعاس... وقد تحسر الثوار عندما لم يجدوا القائد: محمد بن بلعباس المستهدف الأول من الهجوم، والذي يقال عنه حسب "زوزو""بأنه كان أفسق مخلوق فوق البسيطة"[1]... تقدر المصادر الفرنسية عدد الثوار الذين قاموا بالهجوم على قصر ابن بلعباس بحوالي 1200 ثائر مقابل 200 عنصر من الدوائر والقوم الذين كانوا في حماية القصر، وهذا التقدير ممكن جدا، فقد كان الثوار في قمة نشوة الانتصار فتهافتوا من كل حدب وصوب لإطفاء نار الحقد المتأججة في صدورهم نتيجة الانتهاكات والاعتداءات على الحرمات والاغتصاب الذي يمارسه القياد وأعوانهم في ظل الحماية الكاملة للسلطة

---

(1) المرجع السابق، ص: 54.

الفرنسية، كما تقدر المصادر الفرنسية الخسائر بالإضافة إلى الأشخاص الأربعة التي ذكرنا أسماءهم من قبل بتسعة من القوم وخادمين، أما من جانب الثوار، فقد فقدوا سبعة أفراد.

محاولة تعميم الثورة :

أوهمت هذه الانتصارات الأولية زعيم الانتفاضة محمد أمزيان بإمكانية تحقيق النصر ضد قوات الاحتلال ومن يشايعها، فسعى إلى تعميم الثورة بإيفاد رسل إلى القبائل المجاورة يدعوها فيها إلى الجهاد والانضمام إلى الثورة، وقد أضفى على الانتفاضة كما أشرنا في أكثر من موضع الطابع الديني، وحاول من خلال مراسلاته أن يحرك الشعور الديني في نفوس مقدمي ومريدي الطريقة الرحمانية التي ينتسب إليها، وفي نفوس جميع السكان، وفي هذا السياق أوفد مبعوثين إلى مقدمي الطريقة الرحمانية والمنتمين إليها في كل من: وادي عبدي وبوزينة وبني أوجانة وغسيرة وبني أملول، والبعادشية، كما أرسل مبعوثين آخرين يحملون رسائل إلى الحراكتة بـ (أم البواقي ومسكيانة وصدراتة) وإلى السقنية وقرفة يحثهم فيها على الثورة ويحرضهم على حمل السلاح وإعلان الجهاد"[1] ويضيف الأستاذ: زوزو على الهامش من الصفحة ذاتها "زيادة على الدعوة إلى الجهاد التي نشرها الحاكم المدني لبلدية عين أمليلة: (لوسيان LUCIANI) في (مجلة أفريكان Revue Africaine) والموجهة إلى قبائل: لعواسي (الحراكتة)، وكان (لوسيان) قد تسلمها من أحد مقدمي الطريقة الرحمانية ويضيف على لسان (لوسيان)، وجدنا رسالة ثانية وجهت إلى قائد مدينة: عين البيضاء علي بن العربي، وثالثة إلى من وصف في الرسالة بالولي الصالح القطب الواضح (الكوكب) الناصح الفقيه سي الطيب بن علي الشريف" ويعلق على ذلك بقوله: "ويلاحظ عند مقارنة الرسالتين ببعضهما أن الخط يختلف بسبب استكتاب محمد بن عبد الرحمن لأكثر من كاتب واحد ولكن الطابع (الخاتم) واحد وبداخله (لا إله إلا الله محمد رسول الله)، والملفت للنظر أن هذه الرسائل كانت موقعة باسم: محمد بن عبد الله -الإمام المهدي- أما لما ذا أخفى اسمه الحقيقي واستعار اسم محمد

---

(1) ثورة الأوراس 1879 (مرجع سابق)، ص: 44-45-61.

بن عبد الله، فغير واضح، وقد نفى محمد بن عبد الرحمن بعد القبض عليه أن يكون هو صاحب الطابع والرسائل ونسبهما إلى محمد بن عبد الله الذي قال عنه بأنه اختفي مع أصحابه بالجريد التونسي"[1] والمتتبع لمسار حياة الشاب محمد أمزيان ذي الثلاثين عاما ينتابه الشك في نسبة هذه الرسائل إليه، فقد قضى فترة الطفولة في قرية "جار الله" التي ولد بها على الأرجح سنة 1849. وبعد أن بلغ سن الدراسة أرسله أبوه إلى زاوية "تيبرماسين"، وهناك تشبع بالفكر الديني، عاد إلى القرية وهو شاب يافع واشتغل بتدريس القرآن والإمامة في مسجد سيدي عيسى بوقبرين بقرية جار الله غير بعيد عن "تكوت" ثم التحق بقرية الحمام بأولاد داود طالبا (معلما) للقرآن وإماما بمسجدها سنة: 1877، ولم تتح له فرصة الخروج إلى المناطق المجاورة للتعرف على الشخصيات الدينية ونسج علاقات وتبادل أفكار معها، ولم يكن ذلك ممكنا بحكم سنه، فكيف وأين ومتى تعرف على شخصيات دينية وعلى أعيان ورؤساء عشائر خارج المحيط الذي نشأ وترعرع فيه يافعا وشابا لتكون محل ثقته وموضوع مراسلاته عندما حركت مشاعره الدينية فكرة الخروج عن طاعة السلطة وإظهار العصيان الذي تحول إلى انتفاضة نتيجة توفر شروط التمرد عند السكان الذين انخدعوا لوعوده بما شاع عنه من استخدامه لكائنات غيبية لإيهام الناس بقدوم فرسان من السماء لنصرة دين الحق، وكانت فكرة صائبة تماما كونها تتناسب مع ضحالة أفكار السكان وسذاجة عقولهم، بل الأكثر من ذلك زعمه بأنه المهدي المنتظر المنصور من السماء... فاعتقد الناس فيه القوة الروحية التي تمكنهم من التخلص من جور القياد ومن يشايعهم، فتهافتوا إليه معلنين التأييد والمساندة.

ومما يثير في النفس الشك في نسبة المراسلات إليه الخاتم الذي استخدم في دمغ (ختم) هذه المراسلات لإعطائها طابعا إداريا رسميا. إن الوسط الذي نشأ فيه، والذي كان يتواجد به عندما خالجت فكره مسألة التمرد على أعوان الاستعمار وإعلان الثورة كان في غاية التواضع والبساطة والجهل أيضا، واستعمال الخاتم في

(1) المرجع السابق، ص: 44-45-61.

دمغ المراسلات من المسائل التي لا تثير اهتمامهم ولا تعني شيئا عندهم... ومحمد بن عبد الله الذي ذكره المتهم أمام المجلس القضائي في قسنطينة خلال جلسة المحاكمة المنعقدة خلال شهر جوان 1880 شخصية غير معروفة تماما، ولم يرد ذكره عند شهود آخرين غيره، كما لم يذكر اسمه بين العناصر النشيطة والمحرضة والمحركة للأحداث... ومما يدعم صحة وجود هذه المراسلات فعلا بغض النظر عن الجهة المرسلة لها ما جاء في محاضرة للدكتور: يحيى بوعزيز منشورة في مجلة الأصالة عدد: 60-61/ 1978 يقول الدكتور: بوعزيز "وأورد لوسياني" نموذجا لهذه المراسلات من خلال رسالة موجهة إلى أولاد عيسى ادعى أنه تسلمها من أحد مقدمي الطريقة الرحمانية بالمنطقة الذي رجاه ألا يعلن عن اسمه (النسخة السابقة)، كما ادعى أن رسالة مماثلة لها انتزعها القائد: علي بن العربي بن بوزيد من أحد الرسل الذين أوقفهم وسلمها إلى رئيس المكتب العربي بـ/ عين البيضاء، ونصها:

تبلغ إلى يد كبار أولاد عيسى

"الحمد لله وحده يتعرف به كبار أولاد عيسى السلام عليكم والرحمة والبركة، من المسلم إمام المهدي، يخبركم أنه قد جاءه النصر من عند الله لقتال الكفار، ولابد لكم أن تقوموا للجهاد لتكون كلمة الله هي العليا، ومن كذب في هذا الأمر فقد كذب (على الله) ورسوله، ولكم أجر عظيم بذلك والسلام ممن كتب عن إذنه محمد بن عبد الله المهدي نصره الله"[1]. ويعلق الدكتور: بوعزيز لغرض التوضيح "بأن هذه الرسالة ممضاة باسم محمد بن عبد الله المهدي، ولكن "لوسيان" صحح ذلك وأورد الاسم الحقيقي وهو محمد أمزيان بن عبد الرحمن، وذكر أنه يعرف لدى سكان المنطقة باسم: محمد بن جار الله ويلقبونه الشيخ: "بوبرمة"[2] وحسب الدكتور: بوعزيز فإن محمد أمزيان لم يكتف بمراسلة السكان ومكاتبتهم، فقد اتخذ بالإضافة إلى ذلك إجراءات تنظيمية أخرى، بحيث عيّن المسمى: ابن محمد

---

(1) مجلة الأصالة(مرجع سابق): العددان: 60-61 السنة 1978 ص: 229.

(2) نفس المرجع: العددان: 60-61، السنة 1978، ص: 229.

الطرابلسي، خليفة له وكلفه بأمور الحرب والجهاد - وهذا الشخص نفسه غير معروف لدى عامة الناس- واتخذ من قرية الحمام مركزا لنشاطه ورفع علم الجهاد على منارة مسجد سيدي فتح الله بالقرية! وخلع على نفسه لقب عبد الله الفاطمي ليوهم الناس بأنه الإمام المهدي المنتظر"[1]-نفس المرجع-.

الاستعدادت العسكرية لمواجهة الموقف :

مر أسبوع عن بدء الانتفاضة كان حافلا بالحركة والنشاط من الجانبين، سجل الثوار خلاله ثلاثة انتصارات مع خسائر طفيفة أغرتهم على مواصلة السير في هذا الاتجاه، قتل خلال هذه المناوشات فرنسي واحد في قرية "العناصر" بإيشمول أما بقية القتلى فهم ممثلو الإدارة الاستعمارية وأعوان عموميون، وأبرز شيء ميز هذه الهجمات هو الاندفاع غير المدروس والحماس الفياض من قبل السكان مستهينين بأرواحهم لإطفاء نار الغضب المتأججة في صدورهم نتيجة المعاملات القاسية والمهينة التي كانوا يعاملون بها من قبل القياد ومستخدمي إدارة الاحتلال.

أما من الجانب الفرنسي، فالمكاتب العربية، قد راحت تتابع تطور الأحداث بمنتهى العناية وتتحسس الأخبار وتدرس كل المعطيات التي كانت تصل إليها، سيما فيما يتعلق بالهجمات المنسقة الخاطفة التي استهدفت مراكز ثلاث قيادات برهنت لإدارة الاحتلال عن وفائها ومنتهى إخلاصها، وقبل أن تمتد يد الثوار إلى أطراف أخرى التي أحست بأنها مستهدفة بدورها، سيما بعد أن علمت المكاتب العربية في بعض المدن الشرقية بوجود مراسلات تحرض السكان على الجهاد وتتوقع هذه المكاتب أن تكون الاستجابة واسعة، لأن السكان أصبحوا لا يخشون من الموت لأنهم في وضع الموت أهون منه ولا يخافون من الذل لأنهم لم يذوقوا طعم الحرية منذ أن وطئت أقدام المستعمرين أرضهم، ومع أن ما حدث لا يخيف الفرنسيين أنفسهم لوجود عناصر عميلة مستعدة للموت حفاظا على أرواحهم الشرّيرة، فقد راحوا يخططون للعملية من بعيد وبهدوء لحسم المعركة عن طريق

---

(1) المرجع السابق.

الضربة القاضية معتمدين في ذلك على المعلومات التي كانت تصل إليهم حيث تتولى عناصر مختصة في المكاتب العربية القيام بتحليلها وصياغة فرضيات أو بناء توقعات على ضوء معطيات تتعلق بحركية الثوار وتنظيماتهم والإمدادات المتوقعة لضمان استمرارية الحرب والقدرات القتالية التي يتوفرون عليها من تنظيم وتأطير وتسليح، حتى يتمكنوا من إعداد خطة محكمة متكاملة الجوانب تسمح لهم بتطويق المنطقة المتمردة وسحق الثورة بأقل تكلفة ممكنة، وعلى ضوء هذه المعطيات أصدرت القيادة الفرنسية بقسنطينة بعد أن أكملت استعداداتها أمرا بالتحرك بقوة قوامها (6) ألوية عسكرية تحت قيادة الجنرال: "فورجمول" قائد فرقة قسنطينة يساعده اللواء"لوجروا" لدعم القوة المتمركزة بباتنة، والتي كانت تقدر بـ/ 948 رجلا و30 ضابطا بوسائل نقل تساوي 168 حصانا و80 بغلا لتقوم هذه القوات مجتمعة بالتمركز في قرية "الربع" حيث مقر مكتب القائد: بوضياف الذي قتل في أول مواجهة بالعناصر بـ/ إيشمول غير بعيد عن "فم الطوب"، وبعد أن تصلها المعلومات بدنو الألوية الأخرى على محوري، خنشلة-إيشمول، وبسكرة-إيشمول، تشق طريقها إلى ذات المكان بؤرة التوتر ومركز الانتفاضة ويعد هذا الطابور (طابور باتنة) المدعوم بفرق من قسنطينة تحت قيادة الجنرال "فورجمول" FORGEMOL دبوسكينار أقوى هذه الطوابير.

*أما الطابور الثاني فقد تحرك انطلاقا من بسكرة تحت قيادة العقيد: كاجارCAJARD ويتكون من ثلاثة فيالق، ومهمة هذا الطابور احتلال المضايق مثل: تيغانمين ومنع الثوار من استغلالها والحيلولة دون تسرب الثوار إلى المناطق الجنوبية أو تلقي الإمدادات من سكان هذه المناطق، معظم عناصر هذا الطابور الذي يتكون من ثلاثة فيالق من القناصة السينغاليين المتمركزين في بسكرة وعرب السحارى، اجتاز هذا الطابور مضايق "تيغانمين" بعد أن تمكن من القضاء على عدد من السكان وكان أول عمل قام به بعد عبوره للمضيق أن أحرق قرية: تيغانمين، وواصل السير في اتجاه إيشمول عبر الوادي الأبيض، وغير بعيد عن قرية: بليهود وجد مجموعة من الفلاحين تقوم بعملية الحصاد فأبادهم عن آخرهم، وقبل

أن يصل إلى هدفه مر بقريتي سانف والحجاج غير بعيد عن آريس فأضرم فيهما النار بعد أن أتلف محتوياتهما.

*أما الطابور الثالث، فقد انطلق من خنشلة بقيادة العقيد: "قوم" GAUME واجتاز أراضي بني أوجانة الذين تجاوبوا مع حركة الانتفاضة عبر "ملاقو" كما اجتاز أراضي بني بوسليمان، وقد كانوا طرفا فاعلا في الأحداث، وذلك عبر سفوح "شيليا" حيث جرت أول مصادمة مع السكان عندما حاولوا منع تقدم القوات الفرنسية على هذا المحور باستخدام وسائل بدائية لم تعد لها الفاعلية المطلوبة، وذلك بدحرجة الصخور من الأعالي بهدف عرقلة القوات الزاحفة من التقدم وبسد المعابر.

ففي حركة منسقة مدروسة ومخطط لها بإحكام تمكنت الطوابير الثلاثة من الالتفاف حول مركز الأحداث والإحاطة به من كل جهة، في انتظار ظهور مستجدات من قبل عناصر المقاومة تسمح للقوات الفرنسية بالتعامل معها على ضوء المعطيات المتوفرة.

اختار الطابور الذي انطلق من باتنة حيث القيادة الإقليمية التمركز في منبسط من الأرض يسمح للقيادة والجنود معا بمراقبة حركة الثوار على مستوى القمم القريبة من المكان، وقد يكون ذلك مناورة من قبل هذه القوات سوف تظهر نتائجها فيما بعد. ويبدو أن القوات الفرنسية كانت تتوقع هجوم الثوار، فاختارت التموقع في مكان مكشوف بعيدا عن التحصينات الطبيعية ضمن السلاسل الجبلية المطلة على المكان حيث يتمركز الثوار. أما الثوار من جانبهم فقد كانوا يراقبون تحرك القوات الفرنسية على بعد كيلومترات قليلة من أماكن تحصنهم، فانخدعوا للخطة التي رسمها "فورجمول" فاختاروا الهجوم على أرض مكشوفة بدل الدفاع... وهذا ما كان يتوقعه قادة الألوية الفرنسية، فتعاملوا مع المعطيات بذكاء، حيث قاموا بنقل خطوط الدفاع الأمامية مع أول الليل بعيدا عن مركز القيادة وسط الظلام، وراحوا ينتظرون وهم في حالة يقظة قصوى هجوم الثوار، وهذه الخطة لا شك أنها تعد تكتيكا حربيا لم يعهده الثوار الذين لا يتوفرون على عناصر تأطير كفأة تتعامل مع المعطيات بدهاء ومع تطور الأحداث، وخلال الثلث الأخير من الليل حدث ما كان متوقعا إذ شن الثوار هجومهم الأول على مخيم الجنود الفرنسيين في السهل

لكنهم قبل أن يصلوا إليه صُدموا عندما اصطدموا بجدار دفاع صلب حطم الموجة الأولى للمهاجمين بسهولة، فضاع بذلك عنصر المفاجأة، فتحول الهجوم إلى تلاحم واقتتال مباشر وسط الظلام ثم إلى دفاع من قبل عناصر الهجوم لتغطية الانسحاب، فسقط خلال هذه المعركة كثير من القتلى لانعدام الرؤيا وعدم وجود شارات خاصة للتمييز بين المتحاربين... وتقول التقارير الفرنسية بأن الهجوم تم على مرحلتين، كما حدث ليلة 31 ماي في قرية "لعناصر" حيث وقعت الهجمة الأولى في السدس الأخير من الليل، حسب ما جاء في وثيق أهلية حررها "الصالح لمحية" شهد المعركة إلى جانب القوات الفرنسية وهو عنصر لم يخف تحيزه الواضح للقوات الفرنسية، يلمس القارىء ذلك في كل فقرة من فقرات التقرير-الطويل- الذي حرّره، وكانت خسائر المهاجمين -الثوار- في هذه المعركة فادحة مما أجبرهم على التراجع والانسحاب إلى الجبل ليعيدوا الكرة مرة أخرى في أول النهار، فكانت المواجهة في هذه المعركة أعنف من تلك التي حصلت خلال الليل، فاضطر المهاجمون إلى الانسحاب مرة أخرى، بعد أن خلفوا وراءهم قتلى وجرحى في ساحة المعركة، ويقول الصالح لمحية صاحب الوثيقة المعتمدة كمرجع أن القبطان "آش" كلفه بعد المعركة بإحصاء جثث القتلى من المهاجمين فأحصى 112 جثة، كانت حصيلة الهجمتين من قبل الثوار، مقابل 05 قتلى و10 جرحى من القوات الفرنسية، ولم يعد الثوار بعدها -حسبه- لمناوشة القوات الفرنسية على هذا المحور، وتقدر التقارير الفرنسية عدد المهاجمين ما بين 800 إلى 900 ثائر. تأكد الجنرال "فورجمول" بأن الصدمة التي تعرض لها الثوار لن تسمح لهم بإعادة هيكلة وتنظيم صفوفهم بسرعة فقرر التقدم عبر عدة محاور إلى إيشمول مركز الأحداث، وقصد إثارة الفزع وزرع الرعب في نفوس السكان الذين يمثلون القواعد الخلفية للثائرين كانت القوات الفرنسية تغتال كل مشتبه فيه وتدمر المساكن وتحرق المزارع وتتلف المحاصيل، وتصادر المواشي خلال عملية الزحف على محور فم الطوب/ إيشمول، وفي أم عشرة (اسم مكان) تجددت الاشتباكات غير أنها كانت أقل حدة من المرتين السابقتين، رغم أن التقارير الفرنسية تقول بأنها دامت عدة ساعات حدث هذا

بتاريخ: 15 جوان 1879 وقد خلفت هذه الاشتباكات حسب المصادر الفرنسية دائما مقتل 34 شخصا من جانب الثوار مقابل لاشيء من جانب القوات الفرنسية، وهي صدمة أخرى تصيب الثوار على يد قوات "فورجمول" على هذا المحور، ولابد أن يكون الثوار قد استخلصوا العبرة من هذه الانتكاسات المتتالية، وعرفوا أنهم يواجهون قوات لا طاقة لهم بها. قوات تتفوق عنهم كثيرا من حيث العدد والعدة ومن حيث التنظيم والتأطير والكفاءة القتالية بالتحكم في استعمال المعدات الحربية التي لا يتوفر عليها المقاتلون من الثوار، وبالتالي فإن الاستمرار في هذه المواجهات غير المتكافئة مع القوات الفرنسية ضرب من المجازفة.

وقد ساهم القائد: محمد أمزيان -زعيم الانتفاضة- في إضعاف روح المقاومة في نفوس أتباعه إذ لم يظهر في الميدان منذ المعركة الأولى التي جرت صباح يوم 1 جوان في قرية العناصر، حيث قتل القائد: بوضياف وعدد من جنوده ولاذ الآخرون بالفرار كان من ضمنهم الملازم: "كوربو" الذي جاء لغرض التحري واستطلاع الوضع، ولعل آخر أثر له "زعيم الانتفاضة" تلك المراسلة التي بعث بها إلى القائد: بوضياف عندما حل بقرية "لعناصر" بإيشمول يوم: 31 ماي 1879، دعاه فيها للدخول في طاعته والتسليم بأمره على عادة الفاتحين الأولين "أن آتوني مسلمين" فاعتبر القائد هذا الفعل الصادر عن رعية من رعاياه وقاحة، فاغتاظ لذلك وتعجل القتال، فحصل ما حصل، فالقائد بوضياف متشبع كبقية "القياد" بالروح النخبوية التي تصنفهم فوق مرتبة البشر العاديين، وهذا السراب الخادع هو القاسم المشترك بين جميع "القياد"... لم تشرالتقارير الفرنسية إلى الدور القيادي لزعم الانتفاضة خلال العمليات العسكرية عند الهجوم على قرية: لعناصر وعند الهجوم على قصر ابن بلعباس بوادي الطاقة ولا في معركتي "الربع" و"أم عشرة"، وبعد النتائج السلبية لهاتين المعركتين، غادر مع عائلته أرض الوطن ولجأ إلى نفطة بالجريد التونسي، ومما يدل على هشاشة التنظيم وغرور القائد انقياد جيش قوامه ما بين 800 إلى 900 رجل -حسب التقارير الفرنسية- إلى قائد واحد مع انعدام وسائل الاتصال، فإذا مات أو قتل سادت الفوضى بين المقاتلين وتلاشت قوتهم، وهذا ما

حصل إذ لم يبرز قائد أو قادة آخرين لقيادة المقاتلين لاستمرار المعركة، بعد أن لاحت في الأفق بوادر هزيمة الثائرين.

لم تجد جيوش الجنرال :"فرجمول" مقاومة بعد معركة "أم عشرة" تعترض سيرها، فراحت تشق طريقها نحو إيشمول مركز الإضطراب وإلى قرية الحمام بالذات التي غادرها سكانها بالجملة خوفا من المذبحة، فأضرم عساكر الاحتلال النيران في القرية ولم يرحلوا عنها إلا بعد أن استحالت إلى حطام تتصاعد منها أعمدة من الدخان الكثيف... أما ما كان من شأن الطابورين الآخرين القادمين من بسكرة وخنشلة، فتقول المصادر نفسها أي التقارير الفرنسية أن الطابور الذي انطلق من مدينة بسكرة لم تعترضه أية مقاومة إلا بعد أن اجتاز مضايق تيغانمين، حيث جرت محاولة عرقلته من قبل الثوار، غير أن المقاومة كانت ضعيفة فتمكن رجال الطابور من إخمادها بسرعة وأبادوا خلالها 27 رجلا و12 امرأة و14 طفلا"[(1)]. ومن الخطل أن يعتقد المرء أن النساء والأطفال كانوا يقفون في صف المحاربين الذين حاولوا منع الطابور من التقدم والزحف عبر أراضيهم، غير أنها سياسة الفناء التي تبناها الاستعمار الذي جاء لتمدين أمة متوحشة!، كما يزعم ساسته، وقد ظلت علاقة التعامل مع السكان نفسها حتى بعد مرور أكثر من نصف قرن من الزمن ولم تتطور عقليات قادته وجنوده من حيث الجانب الإنساني قيد أنملة، رغم النصوص والمعاهدات الكثيرة التي وقعت خلال هذه الفترة لتقنين الحوادث خلال الحرب، فقد كنا نسمع منهم باستمرار خلال الثورة التحريرية عبارة (Tous Fellaga كلهم محابون) ليبيحوا لأنفسهم حق الإبادة الجماعية.

أما الطابور الذي انطلق من مدينة خنشلة، فلم تعترضه بدوره أية مقاومة إلا بعد أن بلغ "وادي نورسن" وإلى "تيزوقاغين" بسفوح "شيليا" حيث أبدى السكان بعض المقاومة لإيقاف زحف الطابور بوسائل لم ترق إلى مستوى الوسائل

(1) ثورة الأوراس (مرجع سابق)، ص: 48 الهامش.

التي يستخدمها العدو في القتال، وقد أصابوا تسعة جنود فرنسيين واثنين من القوم. ونحن هنا نجاري التقارير الفرنسية عند ذكرنا للخسائر، إذ كان قادتها يصنفون الخسائر هكذا (الجنود الفرنسيون، الأحصنة، ثم القومية) الذين هم دون مرتبة الجياد، بالرغم من أنهم يحملون السلاح ويحاربون إلى جانب القوات الفرنسية، بل ويتقدمونها في كثير من الأحيان)- وهم أهل لهذا الترتيب- وقام هذا الطابور بقتل عدد من السكان ممن قاوموا زحف هذه القوات. وبالنظر إلى حجم الخسائر في صفوف الثوار خلال المعركتين اللتين جرتا شمالي إيشمول مع قوات "فورجمول" في "الربع" وفي "أم عشرة"، وأمام عجز الثوار عن إعادة هيكلة وتنظيم صفوفهم، سيما بعد أن اختفى الشيخ: محمد أمزيان زعيم الانتفاضة، وعدم بروز قادة آخرين مكانه يعيدون زرع الأمل في نفوس المقاتلين بمحالة استعادة المبادرة. يكون هذا التنظيم قد انهار بانهيار عزائم المهدي المنتظر وفراره من ميدان المعركة، بعد أن ظل ينتظر المدد من السماء دون جدوى، ويكون "فورجمول" قد حسم الموقف لصالحه ليفسح المجال بعدها للوشاة للكشف على العناصر المحرضة والمشاركة في هذه الانتفاضة لتبدأ معها مرحلة أخرى، مرحلة التصفيات الجسدية/ التوقيف/ السجن/ النفي/ المصادرات الكلية أو الجزئية للممتلكات/ التغريم، لتضع المواطن على شفير الهاوية.

أسباب الهزيمة :

هناك أسباب عامة، وهناك أسباب خاصة بهذه الانتفاضة، فالأسباب العامة تشترك فيها جميع الانتفاضات التي كانت تندلع كالشرارات في جميع مناطق الوطن، والأسباب الخاصة هي تلك التي تتعلق بهذه الانتفاضة وحدها. الأسباب العامة، لعلنا ألمحنا إليها أو إلى بعضها في معرض حديثنا عن الانتفاضات السابقة، وسوف تتضح أكثر من خلال هذه المقارنة بين القوتين المتحاربتين.

أ-القوات الفرنسية قوات نظامية معدة للقتال تلقت تدريبات عسكرية في مدارس خاصة.

ب-المقاتلون من السكان مدنيون متطوعون لا يتوفرون على أدنى إلمام بوسائل القتال وبالتكتيك الحربي يقاتلون بحماس لكن بدون كفاءة قتالية.

أ-القوات الفرنسية تتوفر على أسلحة قتال وتحسن استعمالها وتعد متطورة مقارنة بتلك التي يستخدمها السكان.

ب-المقاتلون من السكان لا يتوفرون على أسلحة متكاملة كالتي عند عدوهم بل لا يتوفر معظمهم على الأسلحة تماما، وفي كثير من المعارك يلجأون إلى الطبيعة ليستمدوا منها قوتهم كدحرجة الصخور، وسد المعابر... وهذه الوسائل لا تكافئ ما عند عدوهم.

أ-القوات الفرنسية مؤطرة ومهيكلة بطرق عصرية، ألوية، فرق، وحدات تخضع لقيادات عسكرية كفأة تمارس مهامها على ضوء التعليمات التي تصدر عن القيادة العليا.

ب-المقاتلون من السكان متطوعون جاءوا للقتال من أجل (النيف) أو من أجل حرمة العقيدة أو حرمة الأراضي... فإذا لاحت في الأفق بوادر الهزيمة تسلّلوا فرادى إلى قبائلهم.

أ-القوات الفرنسية تستخدم أساليب متطورة في أثناء القتال وتقنيات عصرية.

ب-المقاتلون من السكان يغلب عليهم الاندفاع والحماس للقتال بدون تخطيط محكم أو إعداد جيد للمعركة.

أ-القوات الفرنسية تتوفر على قواعد إمداد ثابتة وفي حالة استعداد تام لإمداد القوات المقاتلة بـ/ المقاتلين/ العتادالحربي/ وسائل الإسعاف/ التموين المنتظم/ بالذخيرة الحربية/ وبجميع مستلزمات الحرب.

ب-المقاتلون من السكان لا يتوفرون على قواعد إمداد ثابتة تضمن لهم الاستمرار في المعركة، فإذا نفدت الذخيرة اضطر المقاتل إلى الانسحاب أو القتال بالحجارة.

من خلال هذه المقارنة البسيطة بين إمكانات كل طرف من طرفي الصراع، نجد أنفسنا مجبرين على الاعتراف بمصدر ضعفنا وأن نقر صراحة بأن تفوق الفرنسيين عنا كان قبل كل شيء تفوقا حضاريا، غير أن ما لم يكن منتظرا وما لا نستطيع طمسه لأنه عار وخزي سوف يظل يلاحقنا، هي تلك السهولة التي استطاع بها الاستعمار الفرنسي أن يراود بدل أن يستميل أو يستدرج شخصيات ذات نفوذ ديني أو أدبي أو اجتماعي لتقف إلى جانبه وتساهم بطريقة مباشرة أو غير مباشرة في تعميق أسباب

المحنة التي أصابت الوطن... وأنجرّت من خلفها قبائل كاملة كانت الدرع الواقي للغزاة في جميع الانتفاضات، ولدينا في الموضوع كثير من الأسماء وكثير من المحطات أوردنا بعضها في كتابنا "أوراس الكرامة" تثير الدوار في رأس كل وطني عند قراءتها.

الأسباب الخاصة:

1-شخصية الزعيم لا تتوفر على المقومات التي تؤهلها لقيادة الثورة وإقحام السكان في حرب مدمرة مع عدو شرس يتفوق كثيرا من حيث العدد والعدة ومن حيث التقنيات القتالية، فهو شخصية مغمورة حديثة العهد (28 سنة) قليلة التجربة، وما قيل عنه من أنه درس العلوم الشرعية في زاوية "تيبرماسين" لمدة سنتين لا يؤهله لتزعم الثورة.

2-الروايات التي تتحدث عن استغلاله للمشاعر الدينية باستعماله للقدر تكاد تكون متواترة، وقد أذهلت السكان وأوهمتهم بقدرة الشيخ: الزعيم على استقدام نجدات من السماء مع أن الحادثة لم تتكرر بعد "بدر" فانخدع الناس لهذه الحيلة وتهافتوا على الشيخ: بوبرمة كما شيع عنه من كل حدب وصوب.

3-ولعل وقوف وتجند عدة قبائل: أولاد داود، وبنو بو سليمان، وبنو أوجانة خاصة للمساهمة في الانتفاضة لم يكن بسبب التأثير السحري للشيخ على عواطف السكان فقط بل كان السبب الرئيسي هي المعاناة اليومية من تعسفات القياد وظلمهم للناس أمثال: الهاشمي بوضياف، محمد بوضياف، مصطفى بشتارزي، محمد بن بلعباس، فهؤلاء القياد الأربعة المستهدفين كانوا نماذج في الفساد وفي استعباد الناس، وقد استغلوا قانون الأهالي "الأنديجنيا" لسنة 1874 الذي وسع من صلاحياتهم وجرد السكان من حرياتهم ووضعهم في مصف العبيد، فاستنكفوا واستكبروا، وانتهكوا كل الأعراف.

4-الهيكلة والتنظيم في صفوف الثوار تكاد تكون منعدمة، وقد ظل إطار القبيلة هو التنظيم المعمول به خلال الأحداث، ولم يعين الزعيم قادة وحدات يسهرون على

الانضباط ويحرصون على النظام العام لجيش تقول التقارير الفرنسية أنه تجاوز 1200 جندي عند هجومه على قصر ابن بلعباس، وكل ما قيل عن الهيكلة والتنظيم أن الزعيم قام بتعيين شخص اسمه "الطربلسي" خليفة له وهو شخص غير معروف.

5-مسألة إثارة الحس القومي أو الوطني أو الشعور الديني في نفوس السكان يتطلب وقتا فلو لزم زعيم الانتفاضة السرية، وراح يشيع هذه الأفكار وسط القبائل التي راح يراسلها للقي الاستجابة، غير أن زعيم الانتفاضة تعجل القتال قبل أن يستكمل الإعداد وقرر أن يعالج الوضع على الساخن... فبعد أسبوع من اندلاع الانتفاضة بدأ يراسل بعض الأعيان وشيوخ القبائل المجاورة يدعوهم فيها إلى إعلان الجهاد.

6-توقيعه لهذه المراسلات باسم الإمام: المهدي المنتظر سوف يثير الشكوك في نفوس الواعين من المجتمع في صحة الإدعاء، وبالتالي، الإحجام عن المشاركة.

7-لم يستطع تقبل الصدمة فانسحب من المعركة وغادر الوطن في وقت كان الثوار أحوج ما يكونون فيه إلى رجل إجماع يعيد زرع الأمل في النفوس ويعمل على رص الصفوف والاستعداد لمواجهات أخرى، فكان لانسحابه المبكر والمفاجئ ما يثير شكوك الناس في مزاعمه ويكشف عن ضعف شخصيته، وبأنه لا يستطيع أن يتحمل أدنى قدر من المسؤولية بعد أن كان محلّ ثقة وتقدير الناس أجمعين.

8-تبنى أسلوب المواجهة المباشرة مع قوات كان يعرف أسباب قوتها وكانت لا تجهل سر ضعفه.

9-رمى بثقله في معركة واحدة فسقطت طلائع قواته في كمين نصبته له قوات العدو، فاضطرب جيشه واختل نظامه وتحول من مهاجم قوي إلى مدافع ضعيف فكانت الخسارة فادحة (112) قتيلا، فانهارت معنويات جنوده، ولم تبرز قواته بعدها كندٍّ عنيد في مواجهة قوات الزحف الفرنسية.

هذه بعض الأسباب التي أدت بالانتفاضة إلى الإخفاق، مع أن الموضوعية تقتضي منا الاعتراف بأن الانتصار على القوات الفرنسية المدعومة بعشائر من العملاء كان بعيد المنال نظرا للفوارق التي سبق أن أشرنا إليها. غير أنه كان بالإمكان تسجيل بعض الانتصارات قبل الهزيمة أو التقليل من الخسائر لو كان على

رأس هذا الجيش الذي يزيد عدده عن 1000 مقاتل قيادة حكيمة واعية بالمسؤولية الملقاة على عاتقها... فانطفأ ذلك الحماس الفياض الذي كان يتوهج في قلوب الرجال بنية الانتقام للشرف المداس للإهانات اليومية للتعسف للقهر والإذلال الذي كان يمارسه "القياد" جهارا نهارا ليعود المواطنون إلى سابق عهدهم بل إلى ما هو أسوأ من ذلك.

ثمن الهزيمة :

لم يكن السكان ينتظرون من قوات الغزو المنتصرة أن تكتفي بالملامة والعتاب ولا البحث عن الدوافع والأسباب التي حركت جزءا من المجتمع في الأوراس للقيام بالانتفاضة ضد الجور المسلط عليهم من قبل ممثلي السلطة الاستعمارية - القياد، ومن ينوب عنهم.

أكيد أن السلطة الاستعمارية لا تجهل شيئا من ذلك، وكانت توفر الحماية والدعم لهؤلاء القياد وهدفها من ذلك يمكن تلخيصه في أربع نقاط، وهي :

1-إشاعة الفرقة وزرع الأحقاد والضغائن بين السكان نتيجة التعسف المسلط على الأهالي، كما يوصفون-بدل المواطنين- لأن المواطنة منزلة لم يرق إليها السكان بعد.

2-إضعاف النخوة الوطنية وإماتة الروح القومية في نفوس الجزائريين.

3-التسليم بالاحتلال واعتبار ذلك قدر محتوم "فليس (على السكان) إلا الرضى بما قدرته الحكمة الإلهية الخفية عنا أسرارها" حسب تعبير نابليون الثالث، منشور 1865.

4-تجريد السكان من كل الإمكانات ومن كل الوسائل التي ترفع من مستواهم المعيشي أو الصحي أو التعليمي واعتبارهم مجرّد أدوات مسخرة لخدمة ممثلي سلطة الاحتلال. ولا يزعم عاقل هنا بأن هذه الأساليب لم تخلف آثار سيئة على نفسيات السكان، فقد تنهار معنويات بعض الرجال لمجرد سماعهم لعبارة تهديد واستفزاز كالتي خاطب بها الجنرال "فورجمول" أسرى هذه الانتفاضة حين قال أمام جمع من الأسرى "يجب أن تعرفوا أننا هزمناكم وأننا قوة لا تقهر، فاتعظوا"، ومن حق الجنرال: "فورجمول" أن يقول ذلك أمام الأسرى خاصة من لا يعلم منهم بالهزيمة المذلة التي لحقت بفرنسا أمام بروسيا (ألمانيا) منذ أقل من عشر سنوات وبالضبط

سنة 1870. تضاعفت مأساة السكان بعد الهزيمة من خلال العقوبات المسلطة على القبائل المشاركة في الانتفاضة. شملت جميع مناحي الحياة دفعت بالمواطن إلى الحضيض حيث ظنت أنه لا يقوى على النهوض بعدها أبدا.

1-التجريد من الأسلحة، وكانت أولى الخطوات التي أقدمت عليها السلطة الاستعمارية لمنع السكان من القيام بأي رد فعل اتجاه عناصر يمثلون السلطة، وعلى ضوء هذا التصور، فقد تم تجريد القبائل الثلاثة من أسلحتها حسب الجدول التالي :

القبيلة	أولاد داود	بنو بو سليمان	بنو أوجانة	المجموع
عدد القطع	1000	625	80	1705

تأتي بعدها مرحلة أخرى وتتمثل في توقيف عناصر من أعيان المجتمع حتى وإن لم يكن لهم ضلع في مجريات الأحداث كرهائن، وعلى ضوء المعطيات التي تستقيها السلطة الاستعمارية من القيادات والأعوان ومن رؤساء العشائر المتعاملين معها تم القبض على عشرات الأشخاص من القبائل الثلاثة تم وضعهم رهن الحبس الاحتياطي كرهائن، لمنع تجدد أعمال العنف، وذلك حسب الجدول التالي:

القبيلة	أولاد داود	بنو بو سليمان	بنو أوجانة	المجموع
العدد	77	70	21	168[1]

النفي والإبعاد :

تبعا للمعلومات دائما التي كانت تصل إلى سلطة الاحتلال عن الدور المؤثر أو مكانة بعض العائلات في المجتمع، قصد تعريته وتجريده من طاقاته المحركة ثم إبعاد ونفي عدد من العائلات إلى خارج الأوراس، حسب الجدول التالي:

(1) ثورة الأوراس(مرجع سابق)، ص: 49.

القبيلة	أولاد داود	بنو بو سليمان	بنو أوجانة	المجموع
العدد	20 عائلة	26 عائلة	12 عائلة	58 عائلة
الدائرة	موزعة بين القل وتوقرت	شعبة سطيف العسكرية	دائرة جيجل	

مصادرة الأراضي :

القبيلة	أولاد داود	بنو بو سليمان	بنو أوجانة	
المساحة	464 هكتار	بدون تعيين		

وبعد نعم ايهم سداتنا ان سي مصطفى بن الدرويش قاضي اولاد بوعون اتى مع اولاد بضياف وسع من شينا اكثر من الدولة ولان في السادس والعشرون من شهر التاريخ (1) قد اتنا ويتخلف فينا ويقول نحن لفرانسوي (2) ونعرف باب الجزائر ، ونفعل بكما كما يفعل الذيب في الغنم . وحين ان شاء الله يصدر الحكام عنكم (3) تروامنا نفعل بكما يا حلالف ويا حماير . لأن سي مصطفى بن الدرويش لم يكن علينا ولا له حكم علينا وهو يجعل بقسوة حاكم عليناوانه كان في السابق جعل المنكر في ازواوة وجعل فيها الفساد . ولما ان كان سي بوضياف ينسب اليهم وكل يوم يزجروه من المشرة (4) .

والسلام من عرش ولاد داود وكبرايه .

---

1 — السنة الجارية (سنة 1879)

2 — أي انهم اقوياء واصحاب نفوذ كالفرنسيين

3 — ترجع لجنة التحقيق بعد انهائها للعمل

4 — والمعنى ان هذا القاضي كان القايد بوضياف في حياته ، بحكم الانتساب اليه يتولى زجره باستمرار ليكف عن شروره .

هذه الفقرات مقتطفة من رسالة طويلة لأولاد داود إلى الحاكم العام تكشف عن الممارسات العدوانية لأعوان السلطة الإستعمارية ضد السكان

غرامات مالية:

القبيلة	أولاد داود	بنو بو سليمان	بنو أوجانة	المجموع
المبلغ	20756570ف	135495ف	120100ف	20904165ف

مصادرة الثروة الحيوانية :

وقد اشتركت في نهبها الطوابير الثلاثة والقائدان: الهاشمي بوضياف ومحمد بن الحاج بن قانة، والجدول التالي يوضح بالتقريب عدد الرؤوس المصادرة.

القبيلة	أولاد داود	بنو بو سليمان	بنو أوجانة
طابور خنشلة	استولى على 2236 بين شياه وأبقار وأفراس لأولاد داود وبنوبو سليمان		غير معروف
طابور بسكرة	استولى على 5500 رأس منها 100 بقرة و40 عجلا، هي كذلك لأولاد داود وبنوبو سليمان		غير معروف
طابور قسنطينة	استولى على 5000 رأس جميعها لأولاد داود		

ولن يقف سخط الاستعمار وغضبه عند هذا الحد، فقد راح "القياد" والدوائر والمقربون من الاستعمار يصادرون بصفة عشوائية الثروة أو ما تبقى من الثروة الحيوانية لدى السكان ويبيعونها في الأسواق العمومية.

إضرام النيران في القرى والمساكن :

وبنية الانتقام والتشفي من السكان عموما سواء شاركوا في الانتفاضة أو تعاطفوا معها أو أظهروا الحياد، فكلهم في الهم سواء، وحتى تتمكن سلطة الاحتلال من إتلاف حاجات السكان المنزلية، وما تبقى في مخزوناتهم من الحبوب كأعلاف يتقاسمونها مع الحيوانات، وبعد أن أباحت هذه السلطات لقواتها بنهب وسلب محتويات المنازل من أثاث ومدخرات منقولة، أعطت الأوامر بإضرام

النار في أهمّ القرى. ، وجميعها على ضفاف الوادي الأبيض، فتشرد سكانها وهاموا في الغابات يبحثون عن ملاجئ لهم وسط الأدغال وبين الكهوف ليعودوا إلى حياة البدائيين، قبل أن يعرف البشر حياة التجمعات البشرية... هذا نموذج مصغر من العدالة الفرانسوية التي يقول عنها نابليون الثالث في منشوره الموجه إلى الشعب الجزائري في الخامس من ماي 1865 تحت عنوان: السلامة الفرانسوية، "إن الدولة الفرانسوية لما وضعت قدمها بوطن الجزائر... لم يكن مرادها في اندثار شمل سكان الوطن المذكور بل المراد في خلاصهم من الظلم المترادف عليهم منذ أحقاب وقد جاءت بحكم أعدل وأحلم وأبلغ رشدا مما كانت عليه التصرفات التركية التي أخلفناها"[1]. ولكي نطمئن تماما إلى ما جاء في منشور نابليون الوديع!، نقرأ ما أوردته صحيفة "لوكنار أونشيتي" بتاريخ: 1955.7.1 تقول الصحيفة: "... يا الله! ألا ترون أن الحل مستحيل؟ باللقطاء! أمّا كونهم (فلاقة) فليس من الضروري أن يكونوا في الأوراس ليكونوا كذلك وفي أي مكان كان... إن أفضل ما يجب أن يُنقِذوا به أنفسهم هو ألاَّ يأتوا لهذا العالم وأن لا يولدوا بتاتا يا للنّباتِ الخبيث المزعج إن حضارتنا هي التي فعلت كل ذلك... لقد كانوا في الماضي لا يكادون يخلقون لقطاء صغارا حتى يموتون ثم جاء الطبيب الفرنسي وجاءت الأدوية السحرية... إننا لا نعرف أين نضعهم ماذا يريدون؟... فليذهب هؤلاء اللقطاء ليشنتوا أنفسهم في مكان آخر... يا لها من ثمانية ملايين من الزوائد والفضلات والحرب...[2]

(1) منشور نابليون المرفق ص: طالع السطور الثلاثة الأولى.

(2) شاهد على الثورة في الأوراس للرائد: محمد الصغير هلايلي، ص: 19-20.



الدولة الفرانساوية

إعلان من حضرة الامبرور سلطان الفرانسيس إلى المسلمين أهل المملكة الجزائرية

نابليون

منشور موجه من قبل نابليون إلى الشعب الجزائري

وقد ظل السكان متخفين في الغابات طوال مدة بقاء هذه القوات، وهي تجوب القرى للنهب والسلب والاعتداءات... فإذا أظلم الليل أو ابتعدت هذه القوات عن ضفاف الوادي تسلل إليها السكان لأخذ حاجاتهم الضرورية من الغذاء يسدون بها الرمق، ويستطيع القارئ لرسائل الاستعطاف المذلة التي كانت بعض الأسر أو القبائل تبعث بها إلى الحاكم العام لتبرئ نفسها أو تبرر ما حدث تحديد مستوى الانهيار النفسي الذي انتهت إليه القبائل المشاركة في الانتفاضة خاصة، وقد بلغ التعسف في استعمال السلطة وباستخفاف أعوان الدولة الاستعمارية بحياة السكان بحيث أنهم كانوا يعترضون الناس أثناء تنقلاتهم فيقتلون ويأسرون ويسلبون وينهبون أمام مرأى ومسمع السلطة الحاكمة دون رادع.

مأساة قبيلة اللحالحة:

توقعت قبيلة اللحالحة -منطلق الانتفاضة- فرع أولاد مبارك مصيرا مشؤوما، بعد أن علمت بزحف الطوابير الثلاثة نحو إيشمول، وبالذات إلى قرية الحمام التي آوت زعيم الانتفاضة، ورفضت تسليمه إلى مبعوثي القائد: الهاشمي بوضياف، وأمام إصرارهما على اقتياده استعمل السكان أسلحتهم النارية، فكانت البداية. قبيلة اللحالحة وبقية السكان كانوا يدركون تماما أن الانتقام سوف يكون فظيعا في حالة تمكن القوات الفرنسية من إجهاض الانتفاضة، ولما لم يكن الدفاع مجديا وطلب الأمان عُذرا مقبولا لدى سلطة الاحتلال. اختارت قبيلة اللحالحة -فرع أولاد مبارك- الهجرة إلى المجهول، فأخلت قرية الحمام قبل أن تصل إليها قوات الجنرال: فورجمول الزاحفة من الشمال، ولما كانت جميع المنافذ قد سدت من قبل الطوابير الثلاثة، ولن يكون بإمكان قبيلة لا تملك من وسائل النقل إلا البغال والحمير المرور عبر المسالك التي تتمركز بها قوات الاحتلال، فضلت المغامرة واتجهت نحو الشرق تاركة وراءها كل ما تملك من متاع عرضة للنهب والسلب رغم الصعوبة التي يمثّلها اجتياز الحاجز الصخري المقابل للقرية المعروف باسم (أسراء) غير أن إرادة التحدي لدى رجال القبيلة دفعت بهم إلى المغامرة بالرغم من

الصعوبات المتوقعة، وقد تمكنت هذه الموجة البشرية الهائمة، والتي لا يقل عدد أفرادها عن 400 شخص، معظمهم نساء وأطفال وشيوخ من اجتياز الجبل عبر مسالك في غاية الصعوبة، وقد تنفس أفرادها الصعداء عندما وجدوا أنفسهم خلف جبل ضخم يقف حاجزا بينهم وبين القوات الزاحفة على عدة محاور في اتجاههم وحسب كثير من المهتمين والمتتبعين لمسار أحداث انتفاضة 1879، فإن هذه القبيلة كانت تنوي اللجوء إلى تونس التي لم تفرض عليها الوصاية بعد، والطريق التي سلكته كان مفروضا عليها، ولا توجد معابر أخرى أكثر أمنا وأيسر على العبور، ولعل اختيارهم لهذه الطريق كان مبنيا على استراتيجية مدروسة كونه الأقرب إلى غابات كيمل الشاسعة التي تمكنهم من الاختفاء عن الأنظار إلى أن تمر الزوبعة، فيواصلون بعدها السير إلى الحدود التونسية، غير أن المفاجأة غير المنتظرة كشفت عن مخاطر أخرى غير متوقعة، فحسب رسالة بعث بها قائد: جبل ششار إلى حاكم بسكرة بتاريخ: 31 جوان 1879، فإن شيخي قبيلة: "الشرفاء وبني أملول" المتجاورتين اعترضا مسير أفراد القبيلة وقاتلاها "ولا يصح أن يكون هذا القتال خارج موطنيهما، ومن خلالها يتضح للمتتبع خط سير هذه القبيلة الهائمة في اتجاه الشرق -تونس- ولما اعترضتها المقاومة وسقط من بين أفرادها قتلى غيرت اتجاهها، بعد أن تأكدت أن السير في هذا الاتجاه غير مأمون، فانحرفت نحو الجنوب عبر أراضي عرش السراحنة وبني بوسليمان، وكانوا طرفا في الانتفاضة، وبنو ملكم، فلم تعترضها المقاومة إلا بعد أن أشرفت على الصحراء، حيث كان قائد: جبل ششار العميل التقليدي للاستعمار المعول عليه في كل انتفاضة ينتظر قدومها ويترقب بلهفة ظهورها على السفوح الجبلية الجنوبية للأوراس ليصنع فصول مأساة أخرى، راح يصف أطوارها بكل هدوء بل وبتشف واضح في رسالة بعث بها إلى حاكم بسكرة- راجع الرسالة- فكلما طال خط سير هذه القبيلة تضاعفت معاناتها، فكانت رحلتها أشبه برحلة سفينة شراعية وسط بحر هائج وفي يوم عاصف... نفاد الزاد... قلة الموارد وانعدامها أحيانا... العياء والتعب الذي أرهق الأطفال والشيوخ خاصة، وازدادت حدة المأساة عندما بدأت فلول من العناصر العميلة التي كانت تترصدها

تعترض سبيلها وتهاجمها وراحت تفقد رجالها مع بدء المناوشات على الأجنحة مع أعوان القائد ثم راحت تطاردها وهي في وضع مزري لا يسمح لها حتى بدفن موتاها، فانتشرت جثثهم فوق الكثبان الرملية وفي أعماق الأودية وراح الناجون من الموت يبحثون عن الأمن والنجاة فقط. غير أن وحشية قائد: جبل شِشار من خلال القراءة المتأنية لرسالته إلى حاكم بسكرة كان يرفض كل مساومة، وقد أصر على ملاحقتهم حتى بعد أن تخلى عنهم -المارشال لوجيMarchal deslogs- وهي تسمية يختص بها قائد فرسان الصبائحية أو الخيالة -قصد الإبادة الشاملة لهذه الجماعة- حتى يفوز برضا أسياده في المكتب العربي.

طالت معاناة أفراد هذه القبيلة بعد نفاد المؤونة، واشتداد العطش مع ارتفاع موجة الحرارة وسط جو لم يألفوه، فلما طال بهم الأمد خارت قواهم نتيجة الإرهاق، فراحوا يتساقطون أفرادا إلى أن انتشرت جثث حوالي (301) من أفراد القبيلة على مساحات من الأرض بمحاذاة السفوح الجبلية للأوراس المطلة على الصحراء وخاصة في ناحية أوعزران كما تم أسر 102 بعد أن فقدوا القدرة على السيرتماما. ولم يتمكن من الإفلات من المطاردة سوى 10 أشخاص ألقي القبض عليهم تائهين في ناحية: "تبسة" من قبل الصبائحية.

حقيقة أنه يصعب على القارئ الذي لا يعرف المنطقة أن يتصور عمق المأساة التي آلت إليها هذه القبيلة، بعد أسبوع من المطاردة في الصحراء انتهت بفناء معظم أفرادها-وتعتبر هجرتها هذه مادة حية لفيلم سينمائي وثائقي لو وجدت عناصر مهتمة من الوسط الفني لتزيح الستار عن هذه اللوحة الدرامية الأليمة التي تجسد مرحلة من مراحل تاريخنا الوطني الحافل بالمآسي فيخلد ذكراها ويكشف معها عن صفحة أخرى مظلمة سجلها أفراد كانوا قمة في العمالة وفي الخيانة.

مدخل إلى الوثائق:

نختم الحديث عن هذه الانتفاضة التي أوجزنا بعض مراحلها، والتي توفرت لدينا مادة البحث عن حيثياتها والتي تتيح للكاتب الإفاضة في الموضوع لوجود أدلة

وبيانات ملموسة تكشف للقارئ عن حقيقة الوضع المؤلم والمأساوي الذي ألم بالمجتمع الجزائري الذي تعرض لأبشع أنواع الإذلال والقهر، وواجه محنة مزدوجة فرضت عليه من قبل أمة جاءت من الضفة الأخرى للبحر وراحت تنازعه السيادة على أرضه وتنتزعها منه وتعمل بعدها على ترويضه كالحيوان ليصبح أداة مسخرة لخدمة أهداف هذه الأمة، وتجرده من جميع الحقوق التي تضمن له العيش الكريم في وطنه، ومن قبل عناصر أخرى من عمق هذا الوطن نسبا وصهرا يصنفون مجازا في خانة البشر الأسوياء، وهم كذلك، غير أن لهم طباعا شرسة ونفوسا شريرة طأطؤوا ظهورهم عن طواعية للاستعمار بمجرد أن استولى على هذه الأرض فلما عرف أسرارهم اختارهم كوسائط للعمالة وأسند إليهم مهام مزدوجة، فزين أسماءها باسم "القياد" وما إليها من الأسماء، كالخليفة، والآغا، والباش آغا، وأحاطهم بأبهة من التعظيم والتبجيل المزيف، وفسح لهم مجال العمل في إطار العلاقات مع السكان، فاستطابوا المنزلة وتحولوا مع الأيام إلى وحوش ضارية وذئاب مفترسة ساموا المواطنين سوء العذاب. ولكي ننفي عن أقوالنا ما قد يخالج فكر القارئ من شكوك ويرى أنه تطرف وادعاء باطل، نحيله إلى الرسالتين المرفقتين:

الرسالة الأولى لـ/ الصالح لمحية كان في منصب خليفة للهاشمي بوضياف، رأس الفتنة قائد: أولاد داود منذ نوفمبر 1878، وشاهد على الأحداث من بدايتها إلى نهايتها الرسالة خليط بين الدارجة والفصحى لكنها واضحة.

أما الرسالة الثانية، فهي للقائد: أحمد بن ناصر، قائد جبل ششار، وقد بعث بها إلى حاكم بسكرة يصف فيها مطاردته لقبيلة اللحالحة التي نزحت من الأوراس تبحث عن طريق للهجرة، فتاهت في شمالي الصحراء وظل يطاردها إلى أن أحالها على الفناء ومحتوى الرسالة واضح كذلك.

فعندما يتمعن القارئ في مضمون هاتين الرسالتين وما تشتملان عليه من الأقوال والتصريحات التي تصف معاناة السكان وهم يصارعون الموت وبقدر كبير من الاستمتاع والتلذذ، وقد وظف فيها كاتبها ألفاظا وعبارات راقية تمجد الفرنسيين وترفع من منزلتهم وتعلي من شأنهم، وألفاظا أخرى تدل على الاحتقار

والانحطاط والذل في حقّ هؤلاء المستضعفين من بني جلدتهم، يستطيع أن يكتشف طبيعة المعدن الذي انحدر منه هذا النوع من البشر، وقد دفعنا الفضول في شكل استطلاع إلى محاولة معرفة مدى تأثّر الأحفاد بسيرة الأجداد خلال الثورة التحريرية لمعرفة طبيعة هذا المعدن والحكم عليه فكانوا أسوأ خلف لأسوإ سلف، ولله في خلقه شؤون.

وللقارئ كذلك أن يتأمل صيغة الألفاظ والعبارات التي لجأ إليها السكان لاسترضاء السلطة لمراعاة ظروف حياتهم التعسة من خلال المراسلات التي راحوا يبعثون بها إلى الحاكم العام. ومن خلالها يستطيع أن يقيس مستوى الانهيار الذي آل اليه السكان.

خلاصة الحديث عن ثورة الأوراس 1879:

إن النهاية المأساوية التي آلت إليها انتفاضة 1879: كانت حتمية، مهما طال أمدها، ومهما أظهر السكان الإصرار على المقاومة والتحدي، نظرا للبعد الضيق الذي انتفض من أجله السكان والذي انحصر فقط في الانتقام من ممثلي السلطة الاستعمارية الذين بالغوا في إذايتهم وإذلالهم، حتى وإن استغل زعيم الانتفاضة مصطلحات وعبارات ذات صبغة دينية للتأثير على مشاعر المواطنين واستثارة الحس الديني في نفوسهم مثل: المهدي المنتظر، وعبد الله الفاطمي... لإيهام الناس بقدسية الرسالة وإعطاء الانتفاضة صفة الجهاد-بدل المقاومة أو الدفاع... والجهاد يعد في نظر الناس عموما أقدس عمل يقومون به ويثاب القائم به بجنة الخلود، فهانت على الناس أنفسهم وتهافتوا على القائد متزعم الانتفاضة، شأنها شأن بقية الانتفاضات في الوطن التي انحصرت أهدافها غالبا في * الانتقام من ممثلي الإدارة الاستعمارية * رفض بعض القرارات التي تحد من حرية المواطن أو تستبيح ممتلكاته. * الدفاع عن الحريم... كما لم تكن فكرة تعميم الانتفاضة وتوسيع نطاقها ضمن اهتمامات زعيم الانتفاضة إلا بعد أن اندلعت الأحداث... راح بعدها يبعث برسائل إلى بعض الأشخاص هم: إما شيوخ قبائل أو أعيان أو مقدّموا زوايا

رحمانية... ولم تكن فكرة التعبئة العامة وإثارة الحس الوطني في نفوس السكان وتحضيرهم للمعركة مع الأمل في تحقيق الانتصار أمرا هينا... فالجهاد عمل تطوعي إرادي لا يخضع للتنظيم المعمول به في الجيوش النظامية، حيث يتم استنفار القوات خلال ساعات معدودة والقائم به غير ملزم... وعليه فإن سبب الهزيمة وإن كان حتميا، نظرا للفارق الشاسع بين القوتين، فقد كان أيضا بسبب ضعف تجربة القائد الذي أقحم السكان في حرب غير متكافئة بدون تأطير، بدون تنظيم، بدون إعداد، وبالرغم من أن طعم الهزيمة كان مرا وآثارها النفسية على الإنسان عميقة، فقد أورثته بالإضافة إلى ذلك الفقر والذل والإحباط وجردته من كل ما يرمز إلى الحياة، إلا الحياة التعسة.

غير أن هذا الإنسان عودنا منذ أن بدأ الاستعماريون يتطلعون لاحتلال وطنه واستعباده منذ فجر التاريخ أنه كان أشبه ما يكون بالكرة المطاطية التي كلما ضربت إلى الأرض بعنف ازدادت علوا وارتفاعا، أوكالذهب الإبريز كلما عرض على النار ازداد تألقا وإشراقا.

فمهما كان شكل الهزيمة فسيستفيد منها جيل لم يولد بعد وسيدرس أسباب الهزائم التي لحقت بالثورات التي كانت تندلع وتنطفئ بسرعة كالشرارات في ربوع الوطن وفي الأوراس خاصة التي يجمع المؤرخون أنها ضربت الرقم القياسي من حيث العدد، وسيتوصل بالتأكيد إلى خلاصة هامة يضعها ضمن أولوية الأولويات لضمان الانتصار، وهي شمولية المعركة ضد العدو وسيكون الأوراس فيها مهدا للثورة مرة أخرى.

وثائق ملحقة:

رسالة قائد: جبل ششار إلى مسؤول المكتب العربي ببسكرة.

الوثيقة الأولى[1]

الحمد لله وحده كتب يوم 31 جوان سنة 1879

إلى المعظم الأرفع سعادة السيد الكماندة الحاكم الآن ببسكرة السلام عليكم وبعد .

أتاني جوابكم الأول والثاني في شأن هروب الرجل المدعي الشرف[2] عند التوابة. أعلم ايه (كذا) السيد أن من يوم أن وقع منه الفساد في الجبل وان نعس على جميع الطرق التي تخرج من أحمر خدو (و) في رسمنا في خيران إلى اليانة بالناس الباقين في الدشور. وفي اليوم الأول الذي انهزم فيه وهرب وهو يوم الاثنين 16 في جوان أتاني خبره من ناحية بني يملول فرتبت العسس مليحا في كل موضع. وفي الثلاثة (كذا) اخبرني شيخ بني يملول انه لاحق في أثرهم هو وشيخ الشرفاء ومن معهم من بني يملول. وقد قتلوا منهم رجلين ومسكوا رجلا وأدخلوهم الى البعل رسم أحمر خدو (و) فخرجت بمن معي من الخنقة وبت نعس بين اليانة والخنقة، وزدت بعثت رجلا إلى البعل لياتيني بالخبر الصحيح وأخبرت المارشال دلوجي[3] بزريبة الوادي وشيخ اليانة وقلت لهم (كذا) ان طريق (ا) تخرج على الدرمون ولم ندر يجوزوا بين الخنقة واليانة أو بين اليانة والزريبة. فأنتم عسوا من هناكم وانا نعس من هنا . فأنا في العسة اذ اتاني الخبر انه رجع على طريق الولجة، فتلقاني شيخ بني ملول وشيخ الشرفاء المذكورين أخبروني أن النس خارجين (كذا) على الدرمون وقالوا ان الشريف لم يكن معهم وانما هم توابة وبني بوسليمان وشرفة وبعض من اعراش أحمر خدو (و) فرجعت في الحين نعس بين اليانة والخنقة واخبرت المارشالوجي ولم اغفل عليه بالاخبار ساعة واحدة فبت تلك اليلة (كذا) نعس والمارشلوجي رجع للزريبة الى يوم الخميس أتاني الخبر وان الناس جازوا في رسم الزاب الشرقي بين اليانة والزريبة قصدوا للناحية الشرقية ففزعت في الحين نحو القصر وخرجت الى الواد الاحمر وشعبة يعلى مسبقا فلم نجد لهم أثرا اذ سمعت البارود يتكلم نحو زريبة حامد فقصدت نحو البارود فوجدتهم نزلوا في ساقية الزريبة وهي غامقة جدا فضربوا عليها الصبايحية وناس الزريبة فقتلوا منهم وبردوا

---

(1) A.O.M 2 H 32.

(2) أي الشريف. أو الزعيم الديني والروحي وقائد الثورة في نفس الوقت.

(3) بالفرنسية Maréchal des logis وهي تسمية عسكرية يختص بها قائد الفرسان "الصبايحية" أو الخيالة، وهي تعادل رتبة سرجان في صنف المشاة.

رقابهم وكذالكم (كذا) مات منهم. وقد وجدت الحرب يطل بينهم فنزلت في أسفل الساقية من الناحية القبلية، (و) قطعت عنهم الجواز الى زريبة حامد وذالك (كذا) عشية الخميس. ثم اجتمعت مع المارشالوجي وخليفة الزاب الشرقي وقلت لهم ان رجالي في قلة نجملوا مع بعضنا وتدفعوا عليهم دفعة واحدة أو نفرقوا لهم فرقتين نصرفوا حب سلاحنا ليلا (كذا) نصيب بعضنا ونقاتلوهم فقال لي المارشالوجي ان البارود فرغ علينا وان خيولنا عطشت نمشي للزريبة نردهم فزدت تكلمت للخليفة وأناس الزريبة وقلت لهم اجمعوا معنا وما عندنا من الماء والعوين بيننا ونرتبوا العس في هاذا اليل (كذا) على المفسدين. اما نهنيكم في هاته الناحية القبلية وأنتم في الناحية الشرقية من جهة الواد الأحمر فأبوا عن ذلك وقالوا لا نفعلوا ولا نفتنوا (كذا) ثم ان المارشالوجي قصد بالصبايحية نحو رزيبة حامد يردون خيلهم وكذلك مشوا خدامي يردون الخيل وبعض الناس يسقون الماء فلما ان عاينت الناس المنافقين[1] نفرق الصبايحية وغيرهم رفعوا ليلا وقصدوا الواد الأحمر وشرقوا ولم نفطن لهم ألا وأهل الزريبة يحوصون فيما خلفوه في موضعهم ولم يعلمونا عنهم. فلما ان قدم المارشلوجي وخدامنا وقت الاحدى عشر ساعة ليلا (كذا) وعملوا بذالك فبعثت في أثرهم رجالا يتبعون جرتهم خفية حتى أن لحقوهم في صباح يوم الجمعة. أم خليفة الزاب وناس الزريبة وبعض أناس في اليانة كانوا معي رجعوا لبلادهم واما أنا ومن معي والمارشالوجي لحقنا قي اثرهم تابعين الجرة قاصدين الصحراء. فلما ان حسوا بنا لاحقين لأن الصبايحية ضربوا البارود في عسنا التي في أثرهم رجعوا للجبل وتحصنوا في موضع واعر. يقال له ام القيطون فلحقناهم نحوه وضربناهم بالبارود وضربونا ووقع الحرب بيننا فلما أن لم تفيدوا (كذا) فيهم خاطبناهم للخدمة والاذعان لطاعة الدولة فأبوا. فقلت للمارشالوجي نسبقوهم الى معالم الماء المارين عليه مثل ابي دراج وغيره ونحاربوهم ولو نصلوا حتى الى فركان ونقرين ونتلاقاو (كذا) مع عسة تبسة فقال ان خيلي حفت وننشحط (ت) من العطش فلا أقدر. فرجع الى الزريبة فلما ان عاينت الناس التي (كذا) معي رجع (كذا) وهم في قلة وهاذا (كذا) المفسدين في نحو المابة وخمسين او مايتين وقد عجزت الناس من شدة الحر والعطش فهذا الذي وقع. وقد خبرتك به بالصح (كذا) من غير زيادة ولا نقصان. وهاذا كله وقع لي تعرق (تغيب) اعراشي. ولو كانوا هنا لقضيت حاجتي وحدي، ولا نستحق اعانة من احد . وهاذا ما قدر الله تعالى والسلام.

من أحمد بن ناصر قايد جبل ششار وفقه الجبار.

يلي ذلك ختم القايد مع توقيعه.

(1) أي قطاع الطرق.

الوثيقة الثانية

استجواب أسير

BUREAU ARABE DE BISKRA

Cercle de Biskra   Subdivision de Batna

L'an mille huit cent soixante dix neuf, le vingt neuf du mois de Juin à trois heures du soir.

Devant nous Bissu (?) Pierre Henri, Capitaine chef du Bureau arabe, officier de police judiciaire en territoire militaire, agissant conformément, aux disposition du décret du 15 Mars 1860, assisté de M. COSME Lucien, notre greffier, en la salle du Bureau arabe, sise au camp d'Aïn Sidi Ali.

Avons fait extraire de la prison de la garde du camp à l'effet de l'interroger, le nommé Ali Ben Ammar Ben Ali Ben Slimane.

En conséquence, nous avons fait amener devant nous le dit Ali Ben Ammar Ben Ali Ben Slimane que nous avons interrogé ainsi qu'il suit :

Interpellé de déclarer ses nom, prénoms, âge, lieu de naissance, état, profession et domicile, il a répondu par l'intermédiaire du Sieur Mohammed Ben Derradji interprète assermenté d'office de la langue arabe, âgé de vingt huit ans, qui a prêté serment de traduire fidèlement les discours à transmettre, se nommer Ali Ben Ammar Ben Ali Ben Slimane, paraissant âgé de vingt sept ans, fils de Ali Ben Ammar Ben Ali Ben Slimane et de Mansoura Bent Ouarab domiciliés à la tribu des Ouled Daoud, fraction d'El-Hammam, cercle de Batna, né à El-Hammam, cercle de Batna, né à El-Hammam, cercle Batna, profession de Berger, domicilié à la tribu des Ouled Daoud, fraction d'El-Hammam, cercle de Batna ; taille de un mètre sept cents millimètres, cheveux et sourcils bruns, front haut, yeux bruns, nez aquilin, bouche moyenne, menton rond, visage ovale, teint basané, signes particuliers: néant.

Demande: Vous êtes accusé de participation à l'insurrection, qu'avez-vous à répondre pour votre justification ?

Réponse: C'est vrai, je suis des gens qui ont fui, la nuit ou si Boudiaf a été assassiné à Tifechniouin, je devais aller à El-Hammam avec mes deux tantes: la mienne et celle de mon neveu si Ammar. Je n'ai pas assisté à aucune affaire, ni mes parents non plus.

Demande: Alors pourquoi êtes vous parti ?

Réponse: J'ai suivi ma tribu les Lehalha.

Demande: Quel chemin avez-vous suivi ?

Réponse: D'El-Hammam, nous sommes allés camper à Targout, plus bas que Djenien, de là nous sommes allés à El-Bahl nous sommes allés prendre de l'eau à Darmoun, nous avons passé par un terrain de labour appelé Laâlil, situé au pied de la montagne qui regarde le Sahara et qui appartient au Serahna. De ce point nous nous sommes dirigés sur Zéribet Ahmed, en laissant à notre gauche Liana, Badès et le Ksar. Entre le Ksar et Zéribet Ahmed, nous avons rencontré les spahis avec lesquels nous nous sommes battus et qui nous ont tué trois hommes et deux femmes, et nous ont blessé sept ou huit d'entre nous, nous avons perdu aussi deux chevaux. Les hommes tués s'appellent Amor Ben Mohammed, Belkacem Ben Mohammed et Ahmed Ben Mahmed, tous trois des Lehalha.

Demande: Le chérif était-il avec vous ?

Réponse: Non, il avait quitté El-Hammam avant nous et je ne sais pas du tout où il est allé ni ce qu'il est devenu.

Demande: Qu'avez vous fait après le combat ?

Réponse: Nous avons marché toute la nuit pour gagner les puits de Djermouna où nous sommes arrivés au lever du soleil ; nous y avaons trouvé très peu d'eau, nous avons bu, mais les animaux qui nous suivaient n'ont pu boire ; nous avions laissé nos troupeaux à Darmoun. A Djermouna, nous avont été rejoints par les spahis qui nous ont donné la classe, sans nous tuer ni blesser personne et qui n'ont fait demi tour qu'au

moment de l'aceur. Nous nous sommes alors reposés jusqu'au coucher du soleil, puis nous nous sommes remis en route. Au lever du soleil nous sommes arrivés à Djerr, à l'Ouest de Ferkane, nous y avons passé la journée et c'est là que la plupart d'entre nous sont morts de soif. Une partie de nos gens s'est dirigé sur Ferkane pour aller chercher de l'eau, nous n'en avons revu aucun, et nous savons ce qu'ils sont devenus. Nous avons entendu parler la poudre, mais nous ne savons pas si ce sont les gens de Ferkane qui ont venus dépouiller les morts ou si il s'agissait d'une fantasia au environs, il n'y a guère eu que 15 à 20 coups de fusil de tirés. Epuisé et malade, je rebroussai chemin et, sachant qu'une colonne française était chez les Cheurfa de l'Alunar Khaddou, j'y suis venu pour faire ma soumission.

Demande: Combien d'entre vous sont morts dans le Sahara ?

Réponse: Je n'en sais rien, je n'ai pas compté, mais il y a une grande quantité de victimes: ma mère, ma sœur, ma femme, mes trois filles, me belle-mère, ma nièce sont mortes.

*Demande :*Vous connaissez le chérif ?

Réponse: Oui, c'est l'ancien imam de la mosquée d'El-Hammam, il se nomme si Mohammed Ben Abdallah, mais on l'appelle aussi Mohammed Amziane Ben Abderrahmane, son père se nomme Mohammed Salah Ben Djarrallah, c'est un homme d'environ 28 ans, de petite taille, brun, marqué de la petite vérole, il a le nez moyen, les sourcils rapprochés et les dents très écartées les unes des autres.

Demande: Avez-vous quelque chose à ajouter pour votre défense ?

Réponse: Je suis un pauvre diable, j'ai suivi ma tribu, j'ai fait comme tout le monde, je n'ai même jamais eu d'armes, si ce n'est mon bâton de berger.

… Suivent après les signatures du greffier, de l'interprète et de l'officier de police judiciaire.

تصريح علي بن عمار بن علي بن سليمان من فرقة اللحالحة أمام المكتب العربي- ببسكرة- وقع أسيرًا في أثناء المطاردة في الصحراء تليه الترجمة الكاملة للنص.

مستخرج الترجمة الكاملة لتصريح الأسير

علي بن عمار بن علي بن سليمان

أمام المكتب العربي -بسكرة-

المكتب العربي ببسكرة

دائرة: بسكرة شعبة: باتنة (العسكرية)

سنة ألف وثمانمئة وتسعة وسبعين وفي التاسع والعشرين من شهر جوان على الساعة الثالثة مساءً.

(مثُل) أمامنا نحن "النقيب: "بيوسبيار هنري" رئيس المكتب العربي ضابط الشرطة القضائية لدى المنطقة العسكرية (حيث) قمنا طبقا لأحكام مرسوم 13 مارس 1860، وبمساعدة السيد: "كوزم لوسيان" كاتب الضبط بقاعة المكتب العربي المتواجد بمخيم عين سيدي علي.

بإخراج المدعو علي بن عمار بن علي بن سليمان، والذي استجوبناه كما يلي: بذكر اسمه ولقبه، وسنّه ومكان إزدياده، ومهنته ومكان إقامته، وقد أجاب بواسطة السيد: محمد بن الدراجي المترجم المحلف باللغة العربية عمره 28 سنة، والذي أدّى اليمين من أجل القيام بترجمة تصريحات علي بن عمار بن علي بن سليمان ومنصورة بنت واعراب القاطنين وسط قبيلة اولاد داود فرع (فرقة) الحمام (قرية) دائرة باتنة، مهنته راعي طوله متر واحد و700 مم، شعره أسود، جبهته عالية، حاجباه سوداوان، أنف أقنى، فم متوسط، ذقن مستدير، وجه بيضوي، لون أسمر، علامات خصوصية، لاشيء.

سؤال: إنكم متهمون بالمشاركة في التمرّد، ما هي إجابتكم من أجل تبرير عملكم؟

جواب: إنها الحقيقة: كنت من بين الرجال الذين فروا ليلة اغتيال سي بوضياف د/تيفشنوين، كنت أريد الذهاب إلى الحمام (قرية) رفقة خالاتي، خالتي وخالة سي عمار، لم أتورط في أية قضية، وكذا بالنسبة لأهلي.

سؤال: لماذا لاذَتُم بالفرار؟

جواب: سرت مع قبيلتي اللّحَالِحة.

سؤال: ما هو الطريق الذي سلكتموه؟

جواب:انطلقنا من الحمام وذهبنا للتمركز في تارغوت. (غابة) وهي أكثر انخفاضا من "الجنين" (موضع)، ومن هناك ذهبنا إلى البعل من أجل التزود بالماء من الدرمون، وقد مررنا بأرض حراثية تسمى العليل "العليب" وتقع عند أسفل الجبل المطل على الصحراء وتعود لعرش السراحنة، ومن هناك توجهنا إلى زربية أحمد "حامد" تاركين على يسارنا "اليانة وبادس والقصر" (قرى) وبين القصر وزربية أحمد "حامد" التقينا بالسّبايس وجرى بيننا وبينهم قتال خسرنا خلاله ثلاثة من رجالنا واثنتين من نسائنا وجرح خلال المناوشة بين 7 و8 من أفراد من مجموعتنا بالإضافة إلى موت حصانين والمقتولون في هذه المعركة هم: عمر بن حامد، بلقاسم بن محمد، أحمد بن محمد الثلاثة من فرقة اللحالحة.

سؤال: هل كان الشريف معكم؟

جواب: لقد غادر الحمام قبلنا ولا أعرف على الإطلاق أين ذهب وما مصيره.

سؤال: ماذا فعلتم بعد المعركة؟

جواب: سرنا الليل كله قصد الذهاب إلى آبار جرمونة وقد وصلنا إليها مع طلوع الشمس، لكننا لم نجد إلا قليلا من الماء فشربنا غير أن الحيوانات التي كانت معنا لم ترد فتركناها بالدرمون. وفي جرمونة إلتحق بنا السّبايس وطاردونا لكن بدون أن يقتلوا أو يجرحوا منّا أحدًا ولم يتركونا إلا بعد العصر... أخذنا قسطا من الراحة، فلما غربت الشمس واصلنا السير إلى الجرّ غرب "فركان" فوصلنا إليها مع طلوع الشمس حيث قضينا يومنا بهذا المكان، وبهذا المكان مات أغلب أفرادنا بسبب العطش، توجهت مجموعة من رجالنا إلى "فركان" من أجل البحث عن الماء ولم يعد منهم أحد،... والكل يعرف ماذا وقع لهم.

سمعنا طلقات بارود ولكننا لا ندري إن كان أهل "فركان" هم الذين جاءوا لتجريد موتانا من متاعهم أم أن الأمر يتعلق بمجموعة من فرسان "الفنطازيا" من المناطق المجاورة، لم نسمع سوى 15 أو 20 طلقة نارية.

أما أنا فقد تراجعت عن مواصلة طريقي منهكا ومريضا. كنت أعلم أن طابورا فرنسيّا متواجدا عند الشرفة بأحمر خدو، فتوجهت إليه لأعلن عن استسلامي.

سؤال: كم كان عدد موتاكم في الصحراء؟

جواب: لا أعرف شيئًا عن ذلك، ولم أقم بإحصائهم، لكن يوجد عدد كبير من الضحايا: أمي، أختي، زوجتي، بناتي الثلاثة، حماتي، ابنة (أخي أو أختي) كلهم ماتوا!!!

سؤال: الشريف: هل تعرفونه؟

جواب: نعم، إنه الإمام السابق لمسجد الحمام ويدعى سي محمد بن عبد الله، ولكن يلقبونه أيضا بمحمد أمزيان بن عبد الرحمن.

إسم أبيه محمد الصالح بن جار الله، رجل عمره حوالي 28 سنة، قصير القامة، أسمر اللون، ووجهه عليه علامات الجدري، لديه لحية خفيفة نوعا ما يرتدي برنسين أبيضين رقيقين ونظيفين جدا، أنفه متوسط وحاجباه مقترنان وأسنانه منفرجة.

سؤال: هل لديكم شيء تضيفونه لأجل دفاعكم؟

جواب: أنا لست إلا شيطانا فقيرا سرت مع قبيلتي ككل الناس لم يكن لدي سلاح على الإطلاق ما عدا هذه العصا الذي ارعى بها.

.... تتابع إمضاءات كاتب الضبط والمترجم وضابط الشرطة القضائية.

ملاحظة:

*الكلمات التي بين قوسين من وضع المؤلف للزيادة في إيضاح المعنى.

*الكلمات الموضوعة بين المزدوجتين تشير إلى التسمية الصحيحة للمكان.

الصفحة الأولى لرسالة الصالح لمحية وهي تعتبر وثيقة أهلية هامة جدا بشأن أحداث سنة: 1879

الوثيقة الأولى

رسالة الصالح لمحية

نص الوثيقة:

وبعد أن فتنة عرش أولاد داود وقعت في سنة 1879 والمتسبب في اضطرام نارها هو المسمى محمد بن محمد الصالح بن عبد الرحمن عمره (30)[1] من عرش بني بوسليمان فريق أولاد جار الله كان ساكنا بقرية الحمام احدى قرى أولاد داود وهو من اخوان[2] سي ابراهيم بن سي الصادق بن الحاج طريقته رحمانية وأول من أغواه من أولاد داود فرقة اللحالح[3] وهم أهل القرية التي هو ساكن بها وهي قرية الحمام وبث في قلوبهم الوساويس وطبعهم ببغض الدولة وأملي قلوبهم غيرة على دينهم ونشر فيهم المواعظ المشتملة على الترغيب والترهيب في ايقاد الفتنة فأنصت اللحالح إلى وساويسه واجتمعوا في دشرة[4] الحمام المشار إليها أعلاه التي نسبت إليها الفتنة. فعندما بلغني خبرهم من بعض أقاربي بادرت حينا بالذهاب إلى قايدهم وقتئذ وهو المسمى سي محمد الهاشمي بن السيد أبو الضياف ووجدته نازلا بفسطاط بالموضع المسمى العناصر بأعلى المدينة بجبل أولاد داود وقت الضحى وخبرته بما بلغني من اجتماع اللحالح مع المفسد المذكور وشاورني فيما نصنعه من الحيل في تحصيل المفسد المذكور وأمرته بأن نكلف المشايخ جميعا ليأتوا به حينا إلينا لكون اللحالح لا يقدرون وقتئذ على قتال أولاد داود كافة.

وخالف أمري وأرسل زوج[5] من خدامه وهما سي محمد شوشان غلام أبيه. وعمار بن عبد الله فلما بلغا الدواير[6] إلى شيخ الفرقة[7] وهو المسمى محمد بن عثمان أمرهما بالرجوع حتى يجتمع عليه كافة العرش لكي يجد الفرصة قي قبضه. أما عمار بن عبد الله (فقد)[8] امتثل لأمره وأما محمد شوشان فقد امتنع، وقدما إليه ومعهما الشيخ المزبور فلما بلغوا إلى دار

(1) كتبت هذه العبارة بين قوسين.

(2) المقصود هنا الأتباع بالمعن.

(3) بفتح الحاء الأخيرة.

(4) أي قرية الحمام.

(5) أي اثنين.

(6) أي أعوان البلدية.

(7) أي القبيلة.

(8) لا توجد (فقد) في الأصل وأضيفت هنا لتقسيم العبارة.

المفسد المذكور وجدوا عماله واقفين على بابه منهم علي بن عمار بن أحمد أسن وسي بلقاسم بن بلخير ومحمد بن عمر[1]. . . وأطلقوا عليهما، أما عمار بن عبد الله (فقد) أصيب برصاصة في رأسه وسقط من أعلى ظهر جواده ومات حينا، وأما سي محمد شوشان (فقد) انجرح جرحا خفيفا وهرب إلى مدشر الحجاج واختفى في دار الباش عدل ابن عمنا وهو سي معيوف بن سي عبد الحفيظ الذي قتل مع ابن عباس في وادي الطاقة حسبما يأتي الكلام عليه، فلما وقع ذلك رجع الشيخ المزبور هاربا إلى بيته بقرب قرية الحمام وركب على فرسه من غير سرج أيضا، فبينما نحن ننتظر الخبر وإذا بالفارسين المذكورين أشرفا علينا ووجهيهما مطليان بالحموم[2] وأخبرانا بالواقع واتفقت مع القايد المذكور على أن نركب جوادي ونجمع جميع من هو في طاعتنا من عرش الزحاحفة الساكنين بالعناصر وجرمان ولعله يعيننا الله على المفسدين ووافقني لذلك وركبت جوادي وتقلدت سلاحي وجمعت من كان حولنا من الرجال من عرش الزحاحفة منهم علي بن مبارك بن أحمد بن عيسى وعمار بن محمد بن تازروالت ولفيف من الناس يطول علينا ذكرهم كلهم من عرش الزحاحفة يكون مبلغ عددهم نحو الثلاثين رجلا فلما بلغت بهم جرمان بالموضع المسمى عين بال عيسى بقرب دار عبد الله بن الصالح وإذا بالمنافقين[3] أشرفوا علينا وإمامهم معهم والجميع على خيول الخدام المذكورين أعلاه في نحو العشرين فارسا ومثلهم رجال متقلدون بآلة حربهم فلما رأيناهم هرب جميع من معي وبقيت فريدا لا واحد معي سوى الله تعالى، وكان بيني وبين رفاقي أي القايد ومن معه من الخدام نحو الأربع كيلومترات، وكان بيني وبين العدو نحو من نصف كيلومتر. . .

و عرفوني معرفة تحقيقية وبادروني بالضرب بالرصاص ونجاني الله من كيدهم وأثنيت العنان للجواد نحو رفقتي هاربا طالبا النجاة وهم في أثرى بخيولهم وأميرهم معهم يُغريهم على قبضي ولم يلحقوا بي ووصلت إلى القائد ومن معه وأمرتهم بالركوب والفرار بأنفسنا وعارضنا بعض من كان هناك من أناس الزحاحفة ولم نصغ لقولهم وتوجهنا هاربين إلى الربع[4] أنا ومعي القايد وهو سي محمد الهاشمي المزبور وابن عمته سي بولخرام بن أحمد بن الحاج وابن عمنا

(1) عبارة انمحت من المخطوط.

(2) السواد.

(3) أي الثائرين (هذه عبارة يبدو أنها من اختراعات مكاتب الشؤون الأهلية لأننا لا نجدها في معظم الوثائق الصادرة عن أعوانها).

(4) اسم مكان.

سي معيوف بن سي عبد الحفيظ الباش عدل والعدو في أثرنا فلما بلغنا إلى الموضع المسمى عين أيوب يكون بينه وبين العناصر نحو الثلاث كيلو مترات وقف جوادي لما حل به من كثرة الجرى،و عزمت على النزول لأفر على قدمي فينما أنا متحير في أمري[1] . . . إلى أن بلغنا قرية الطوب المقاربة لرسم بني أوجانة، ورجع علينا العدو[2] . فعند ذلك سرنا في اختيارنا . فلما بلغنا الربع وجدنا السيد أبي الضياف بن محمد قايد بني أوجانة في ذلك الوقت. وصاح بي أنا الأول دون رفقائي لما بيني وبينه من الصدق والمودة مع أني كنت متوليا جميع أمره بأولاد داود وقت قيادته عليهم نحو الأربعة عشر عاما، ولذلك سألني أنا دون رفقائي وأخبرته بالواقع المشار إليه أعلاه، وبادر رحمه الله تعالى بدواة وقرطاس وكتب...جوابا[3] لسعادة السيد القبطان مع جواب ثان لسعادة السيد الجنرال لوجروا الحاكم على عمالة باتنة ونواحيها وردا[4] إليه الخبر مع سعادة السيد اليوطنه كوربو ومعه الصبايحية منهم سعد بن الزراري، وعبد الله بن عمار، وأخوه الطيب بن عمار والأخضر بن النقيش، وابن عاشور، بأن يذهبوا جميعا إلى العناصر ويختبروا الأمر على الصحيح، وانقاد لأمره وسار هو وولده المذكور وابن عمه سي محمد بن سديرة قايد عرش العشاش وقتئذ وأولاد عمه الطيب وهما المحبوبي بن الطيب، ومحمد بن الطيب، وصديقه يزيد بن الطاهر بن العربي الزمولي وجميع خدامهم مع فرسان العشاش وأولاد فاضل يكون عددهم نحو السبعين فارسا على التحري، وفي ذلك اليوم الذي سرنا من الربع بلغنا خبر بقتل السيد مصطفى بن باش تارزي قايد أحمر خدو وبني بو سليمان، قتله المفسدون في برجه بتكوت، وتمادينا على المسير وتلاقينا مع سعادة السيد اليوطنه أمبروجي في بلاد يابوس وتغذينا جميعا هناك، وأنصرفنا من عنده على الساعة بعد الزوال[5] ونزلنا بالعناصر على الساعة الرابعة عشية. وبلغنا جواب من المفسد[6] المزبور مضمونه إلى سي بو الضياف بن محمد بعد السلام فلا بد منك أن تحذر عرشك مني وتأمرهم بالانقياد

(1) ثلاثة أسطر ذكر فيها الكاتب أن أحدهم قد ساعده بالتنازل له عن فرسه فهرب بها.

(2) أي تراجع الثوار عن ملاحقتنا.

(3) أي رسالة.

(4) أربع كلمات غير واضحة في النص الأصلي من بينها وفي أولها الاسم الشخصي للقائد الفرنسي المذكور (القبطان كذا...).

(5) لعله يقصد الساعة الواحدة بعد الزوال.

(6) أي الثائر.

والطاعة إلى وأن تكون من جملتهم وإلا فلا تلوم إلا نفسك فلما قرأه استغاض وشخر ونخر وتمنى القتال له ولمن معه حينا غير أننا حال بيننا وبينهم سواد الليل، وعمد إلى دواة وقرطاس وأمرني لنكتب جوابا إلى كبراء اللحالح مثل محمد بن أحمد بن اتقلفنت الذي كان شيخا وعزل مع شيخهم ومن معه لنوعظهم ونهددهم على أن سطوة الدولة جايرة لا يعز عليها أحد من المعتدين وأنها رحيمة للراجع عن عصيانه وتأتوا بالمفسد ولا عليكم حرج، ووافقته لما أمرني به، وأرسلنا ذلك الجواب مع المسمى سليمان بن عمارة مع عرش الزحاحفة فريق أولاد سي قاسم، فبينما نحن منتظرون لرد الجواب منهم إلى ثلث الليل الأخير . وإذا بالبارود قد تكلم من العسة التي رتبناها بعيدة منا نحو الكيلو متر وعمدنا إلى السروج لنسرج خيولنا ونقاتلهم ركبنا ومعنا في ذلك القايد المرحوم خشية من هروب الأوباش من أولاد فاضل، ولم تنفع فيهم تلك الحيلة وهربوا جميعا، ولم يبق منهم سوى رجلين، واحد يسمى الصالح بن ابراهيم كان شيخا وجرح من فخذه الأيمن جرحا خفيفا وواحد يقال له عبد السلام بن افجويل في عمره 30 قد قتل وشبهوه على ومثلوا به أعظم مثلة من جملة ذلك قطعوا يديه وشقوا بطنه وقصوا لسانه وذلك كله يدرونه أنا لمخالفتي لتعديتهم وانكاري عليهم فسادهم بقريحة القلب، ولنرجع لما نحن بصدده فلما فر أولاد فاضل ومن معهم من الاعشاش وبقي القايد ومن معه من أقاربه والسيد اليوطنه وطباخه "ودومينيك" "وسيموا" وصديقه المسمى بوزيد بن الطاهر بن العربي الزمولي والميلود العمري من سكان الشمرة مع الصبايحية وخدام القياد وإذا بالعدو أشرف علينا فأول من تلقاه القايد المرحوم الحي القيوم السيد أبو الضياف بن محمد وبيده بندقية كبيرة ذات جعبتين المعبر عنها بالفوشي وضرب الأول وصرعه والثاني كسره إلى أن قتل منهم نحو العشرة رجال وجرح أزيد من الخمسة عشر رجلا فرجعوا القهقري ولم يطيقوا الدخول إلينا، فبينما نحن. . .[1]،إذا بوجه بارود[2] تكلم بغرب الزمل، وإذا بالقايد سقط ولم نلحق بروحه، أخذها برصاصة على ضلعته السفلى من جهة الشمال[3]. . .ظهره، ورفعناه إلى دار هناك وكتمنا موته لئلا يهجم علينا العدو، بينما نحن كذلك وإذا بالعدو حمل حملة ثانية وأردفه الصبايحية وجميع خدامه مع السيد اليوطنة المذكور وطباخه وزوج فرنساويين، واحد يسمى "دومنيك"

---

(1) كلمة انمحت من المخطوط.

(2) أي طلقة بندقية.

(3) كلمة انمحت من المخطوط.

والآخر "سيموا" ومعه ابنه صغير، وقتل في تلك الصدمة طباخ السيد . . .[1] وأصيب الطيب بن عمار في بطنه ضربة أفضته القتل بعد يومين، وقتل أخوه عبد الله بن عمار، وقبضوا على سعد بن. . .[2] فبينما نحن واقفون وإذا بوجه بارود تكلم بقربنا ولم نعين ضاربه، وإذا بالقايد قد سقط في الأرض ولم نلحق بروحه، وأصيب برصاصة صغيرة في الضلعة الصغيرة من جهة الشمال، ولمست موضع الجرح ودللته بأنملة سبابة يسراي ولم تدخل فيه، ولعله مات ببندقية ذات ست جعب، وكتمنا موته لئلا يهجم علينا العدو ورفعناه إلى الدار بقربنا ورآه طباخه يسمى كاكا المعافى وعرفه وصاح بالويل والثبور ياسيداه قد قتل وسمع العدو تلك المقالة وحمل علينا حملة صادقة واغتنم الفرصة فينا، وقتل في تلك الصدمة منا فرنساوي كان طباخا للسيد اليوطنه كوربوا، وعبد الله بن عمار الصبايحي وأخوه الطيب بن عمار أصيب برصاصة في بطنه ومات بها بعد يومين، ومات دايرة السيد أبو ضياف[3] يسمى علي بن عمر من بني وجانة، وجرح الصالح بن ابراهيم شيخ أولاد فاضل وقتل عبد السلام المذكور أعلاه، وقبضوا سعد بن الزراري الصبايحي وضربه ضربة واحدة بالسيف على زنده اليسرى ضربة دامية أفضته إلى التعطيل، فلله در الفرنسيين وهما المسميان "دومنيك" "وسيموا" أنهما ضربا ضربا وجيعا ولم يجدا النصرة، فعند ذلك اجتمع القايد محمد بن سديرة وسي محمد الهاشي بن بوضياف والمحبوبي بن الطيب وأخوه محمد بن الطيب مع سعادة السيد اليوطنه كوربوا، وركبوا خيل الدواير وهربوا وبقيت أنا وحدي في وسط العدو ولم يعرفوني لأني متنكر في لباسي مع أنهم يدرون[4] أنا المقتول المذكور، وبادرت إلى الفرس التي أعارها إلي اللحلوحي أول مرة وحيلت عليها القيود وأسرجتها وركبتها، وبمجرد استوائي على ظهر الفرس عرفوني وهمزت الفرس بالركاب وأطلقوا علي الرصاص ونجاني الله من كيدهم بعد ما سقطت بين ربعهم واستفززتها وقامت بحمد الله سالمة صحيحة وثقفوا أثرى إلى أن دخلت الجبل المسمى تيسوراس بينه وبين موضع القتال نحو الثلاث كيلو مترات فرجعوا عني، فبينما أنا أسير وإذا بأربعة فرسان وهم المسمون الطاهر بن بوزيد بن الطاهر بن العربي الزمولي أحد أصدقاء السيد أبو الضياف، والثاني المسمى الميلودي المعمري من سكان الشمرة، والثالث هو المسمى محمد بن عمار بن

(1) سطر انمحى من المخطوط.

(2) شخط الكاتب على كلمة هنا ولم يعوضها.

(3) أي عونه.

(4) أي يظنون أو أنهم كانوا يعتقدون.

سعيد بن عبد الله، وأحمد بن خلاف، والاثنان من عرش أولاد داود فريق أولاد والزة، وتمينا هاربين إلى أن بلغنا إلى الموضع المسمى تاحمامت يبوس ووجدت بن عاشور الصبايحي هناك وطلبت له بغلا من أولاد مفرج الساكنين بيابوس وركبته وذهبنا جميعا إلى الربع، أما سعادة السيد اليوطنه وسي محمد الهاشمي (فقد) قدما إلى باتنة، وأما أنا (فقد) بقيت بالربع، وفي صبيحة ذلك اليوم رفع ابن عمي المسمى سي عبد الحفيظ ابن سي احمد جثة القايد السيد أبو الضياف على بغلتي وأتى به إلى الربع ونزلته على البغلة وأدخلته في بيت من برجه الكاين بالربع، وبقيت عساسا عليه ليلتين ويومين ولم يأتني أحد، وفي اليوم الرابع من موته أتاني كفنه من باتنة صحبة خديمه المسمى أحمد بن ضيف الله ودفناه في الموضع المسمى الحباسي في مقبرة جدوده وفي الليلة الثامنة من واقعة العناصر هجم المفسدون على برج وادي الطاقة وقتل فيه ولد السيد محمد بن عباس قايد أولاد عبدي وخدامه وابن عمنا سي معيوف بن سي عبد الحفيظ الباش عدل، وفي عشية ذلك اليوم أمرني سعادة السيد الجنرال لوجروا وجميع من كان معنا من الزمال[1] بالذهاب إلى الشمرة لما بلغه من الخبر أن المفسدين سيهجمون على برج الشمرة، وبلغنا إلى الشمرة وقت الساعة التاسعة ليلا في هناء وعافية، وفي صبيحة ذلك اليوم. . . .[2] إلى الربع، ووجدت سعادة السيد القبطان أش بالربع. معينا هو الذي يعس هناك وبقيت عساسا معه في الليل والنهار. ويأتيني الخبر من عند أهلي من الأوراس على عودة المفسدين حتى نزل علينا سعادة السيد الكومندان نوبل بالجنود العسكرية. ومكثنا نحو الأربعة أيام أو خمسة وإذا بالمفسدين قد أصبحوا علينا بالربع وقت سدس الليل الأخير. وأنا في تلك الليلة عساس ومعي أحد الصبايحية يسمى اليوطنة العربي من خيالة باتنة، وضربناهم بالبارود ودخلنا إلى المحلة ووقع القتال بين المفسدين وعسكر الترايور الجزائر وصارت الغلبة لجنود الدولة وانقلب المفسدون على أعقابهم خائبين ومات منهم خلق كثير بقرب المحلة. فلما طلع النهار حمل المفسدون حملة ثانية على خيولهم. فأول من خرج إلى قتالهم سعادة السيد قبطان آش ومعه صبايحية البيرو عرب وشرذمة من خيالة السيد الكومندان نوبل يكونون نحو الستين فارسا وحملوا حملة صادقة وأفشوا فيهم القتل وهرب المفسدون إلى الجبل طالبين النجاة بأنفسهم، فلما افترق الجمعان كل واحد رجع لمكانه أمرني سعادة السيد القبطان آش المذكور باحصاء القتلة من المفسدين وجلت على جثثهم واحدة بعد واحدة واطلعت على مائة واثني عشر نفسا من

(1) الزمالة مكان التجمع للمقاتلين. والزمال هنا من الزمالة.

(2) كلمة انمحت من الأصل. ولعلها ذهبنا أو ذهبت.

أبطالهم. البعض أعرفه والبعض لا معرفة لي به. وبعد فراغي من إحصاء الأموات تلاقيت مع أربعة من خيالة الدولة وركنت إليهم لما في قلبي من الأركان للدولة، وعند ظني لا يكذبونني في قولي، ووجدتهم قد قبضوا رجلين من المفسدين واحد نعرفه معرفة تامة وهو المسمى بال بن بيا من أولاد داود فريق أولاد والزه من سكان قرية بوسداح، والآخر من بني أوجانة لم نعرفه وسألت عن نسبه وقال لي أنه من بني أوجانة فريق أولاد أوصيف، الأول في عمره 35 على التحري، والثاني نحو الستين عاما، ونزلوني عن الفرس، وشدوني وثاقا ونزعوا لي آلة حربي مثل البندقية والسكين، وقادونا جميعا إلى أن أوقفونا الثلاثة لدى سعادة السيد الكومندان نوبل واستفسرنا الثلاثة في نازلتنا، أما الإثنان المذكوران (فقد) عجزا عن النطق لما اقتحموه من الذنب، وأما أنا جاوبته بأمري من أوله إلى آخره، أما الأولان الاثنان أمر بقتلهما حينا ، وأما أنا (فقد) أمر بأن يشدوني وثاقا حتى يستفسر على أمري. وأرسل لسعادة القبطان آش نازلا بقربه بفسطاطة وحضر لديه حينا، فلما استفسره في أمري نظر إلي وعرفني ولم يتمالك حتى بادر إلى قطع الوثائق وبكيت في وجهه وغرغرت عيناه بالدموع رحمة لما حل بي من المكيدة على غير قصد من الجانبين، فعند ذلك تجمعت بالسادات المذكورين، وهما سعادة القبطان آش وسعادة السيد الكومندان نوبل ودفعت لهما جريدة محتوية على إحصاء جثث القتلى من المفسدين، وحمدنا الله جميعا، أنا حمدته على خلاصي من تلك الورطة، وهما حمداه شفقة علي وتخليصا من الغلطة في قتل خادم الدولة، وبقيت من تحت يد سعادة السيد القبطان المذكور وفي نظره أين يأمرني أتوجه إلى اليوم الذي ارتحلت الجنود من الربع إلى جبل أولاد داود وعينني سعادة السيد قايد على خيالته. أما سعادة السيد الجنرال ومن معه من الجنود والخيالة (فقد) هجموا على قرية الطوب ونواحيها، وأما سعادة السيد القبطان المزبور ومن معه من الصبايحية والقياد وخيالاتهم (فقد ذهبنا) تعرضنا للهاربين من العدو على طريق أسلاف إلى أن بلغنا تيبكاوين، وأنا أكاشف الطريق أمامهم، فلما بلغنا إلى تيبكاوين ولم نجد أحدا من العدو أمرني سعادة السيد القبطان بأن نختبر الطريق المار على جبل بويلف بأعلى قرية الطوب. ووافقته لمطلوبه غير أنني رغبت منه أن يعين لي فرسا من جياد الخيل لأركبها وأذهب، فوافقني في مقصودي. . .[1] من خيالة سي احسون بن باش تارزي، وركبتها وكشفت المكامن ولم أجد خاطرا قط، فلما رجعت اليهم ووجدتهم قد رجعوا على أعقابهم ولحقت في أثرهم وأرجعتهم وأنا أمامهم ومعي سعادة السيد القبطان وواحد من خيالة البيرو عرب يسمى موسى

(1) كلمتان انمحتا من النص.

السلطاني إلى الآن في قيد الحياة، وإلى أن بلغنا قرية الطوب ووجدنا القرية مدخولة وأضرم العسكر فيها نارا وقتل من المفسدين نحو الثلاثة رجال أو أربعة، وبتنا تلك الليلة قرب قرية الطوب، وفي صبيحة الغد عينني السيد القبطان قائد على جميع الجنود وصرت أسير أمامهم إلى أن بلغنا المدينة ونزلت المحلة[1] وفي وقت الساعة الثالثة عشية بلغنا خبر من رجل من المنافقين[2] اسمه لخضر بن عمر بن سعيد من دوار الزحاحفة بأن المفسد قد هرب هو ومن معه من المفسدين وبقيت قرية الحمام خالية، وركب سعادة السيد القبطان المزبور ومن معه من القياد وخيالاتهم والبعض من خيالة الدولة وعينني أنا القائد عليهم أكاشف الطريق أمامهم لأن الطريق في وسط الغابة من شجر الكروش[3] والصنوبر والطاقة وغير ذلك من الأشجار. فلما بلغنا إلى قرية الحمام ولم نجد بها أحدا سوى عجوز كبيرة السن عمياء من أناس اللحالحة، وأمر السيد القبطان بإضرام النار في الدشرة واحترقت حينا[4] ورفعنا تلك العجوز ورجعنا غانمين سالمين إلى مباتنا مع المحلة. وفي صبيحة ذلك اليوم استأذنت من سعادة السيد القبطان ليذهب معي إلى سعادة السيد الجنرال ديفزيون ليأذن لي في الذهاب إلى أهلي لحمايتهم من المنافقين، ولم يأذن في ذلك غير أنه كتب إلي كارطة مرسوم عليها[5] وأن حاملها من المطيعين للدولة لا يتعرض له أحد. وأمرني لنمكنها لابن عمي المسمى سي عبد الحفيظ بن سي أحمد وأمرته ليرحل الأهل ويقصد بهم إلى الربع ليستقروا في برج المرحوم القايد السيد أبو الضياف. وفعل ما أمرته به، وسار بجميع الأهل والأولاد وما ملك الله لنا من الحيوان والبغال والأثاث والبيوت وما احتوت عليه، فلما بلغ أثناء الطريق للموضع المسمى تيسفيفين بقرب آفرا بتراب أولاد داود تصادفوا مع ناس أولاد عبدي كانوا يرصدون السائرين من العدو. وهجموا عليهم وأخذوا لهم جميع ما بأيديهم من الحيوان والبغال والحمير والبيوت وما احتوت عليها من الأثاث والآلات والسلاح، وعرضوا عليهم كارطة سعادة السيد الجنرال فلم ينظروا إليها قط، وأنا في ذلك اليوم مع سعادة السيد القبطان بمدشر الحجاج، وإذا بابن عمي قد أتاني وأخبرني بما وقع لهم من أولاد عبدي، وأنزلوا أبي عن البغلة وهو كبير السن في عمره سبعون عاما كما أنه أعمى لا

---

(1) أي: مجموع العساكر.

(2) الثائرون.

(3) البلوط البري.

(4) لا يزال رماد القرية يعرفه الناس حتى يومنا هذا.

(5) أي وثيقة مكتوب فيها.

يبصر شيئا وتركوه في فلاة من الأرض وهرب عليه الأهل طالبين النجاة بأنفسهم إلى الربع وتركوه في موضعه، فلما أخبرني بذلك أخبرت سعادة السيد القبطان المذكور وقدم معي إلى سعادة السيد الجنرال ديفزيون فأركب معي عشرين فارسا وبغلة ومعها ربها فلما بلغنا إلى أبي وجدته في جهد من العطش وأركبته ورجعت به إلى المحلة وأرسلته إلى الربع واجتمع مع الأهل هناك، فعند ذلك سل خاطري سعادة السيد الجنرال بأن كل ما ضاع لي تخلفه إلي الدولة الفرنساوية وكتب إلى سعادة السيد الجنرال ديفزيون جوابا إلى قائد أولاد عبدي، وهو المرحوم السيد محمد بن عباس يأمره. . .[1] وكلفت ابن عمي بالذهاب به، وهو المسمى سي بلقاسم بن سي أحمد الذي هو خوجة الآن[2] بدوار رأس الذراع وأمره بالرجوع إليه في مدة ثلاثة أيام بالرد أو عدمه فلما بلغ إليه وناوله الكتاب وقرأه صار يلهيه حتى جاز الأجل وقال له إنني دفعته للبايلك[3] ورجع إلي خائبا واشتكيت إليه ثانيا، ووبخ سي بلقاسم على تعطله فوق ثلاثة أيام، وأمرني بإحصاء ما ضاع لي من حيوان وأثاث وآلات وزرع وندفعه له ولعل الدولة تخلف علي ما ضاع لي وجردت جميع ما ضاع لي من غير زيادة ولا نقصان. وصار مبلغ ذلك اثني عشر ألف فرنك وأنعمت علي الدولة الفرانساوية بثمانية آلاف فرنك واستكثرنا خيرها، ثم بعد ذلك أنعمت علي بوضيف المشيخة بكمين أوراس، دوار بعلي حكم باتنة عمالة قسنطينة، ونطلب من الله أن يحن علينا قلوب الولاة ويرزقنا بالعافية التامة آمين، كاتبه محاية الصالح ابن عمر شيخ دوار بعلي واثلاث وفقه الله آمين[4].

*قام بتحرير هذه الوثيقة الصالح بن عمر بن عبد الحفيظ بن محية أو لمحية شغل منصب خليفة إلى جانب القائد الهاشمي بوضياف، وقام بدور نشيط إلى جانب القياد والعساكر الفرنسيين إبّان انتفاضة 1879. كوفىء على نشاطه بمنحة دائمة وبوظيفة في منصب خوجة ثم قائدا. حصل على وسام الشرف وظل شيخاً بدوار وادي الطاقة إلى ما بعد سنة 1920.

(1) نصف سطر انمحى من المخطوط.

(2) كاتب لدى القائد، وأصل الكلمة تركي.

(3) كلمة من أصل تركي وتعني الدولة أو الإدارة الحكومية.

(4) يحتمل أن تكون هذه الرسالة موجهة إلى مسؤول المكتب العربي بباتنة القصد منها استدرار عطفه للحصول على امتيازات أو ترقيات.

انتفاضة 1916 عين التوتة :

توصف هذه الانتفاضة -مجازا- بالثورة، وتسمى ثورة عين التوتة، وتوصف بالتمرد ويعني بالتمرد هنا مفهومه الإيجابي أي الخروج عن طاعة الاستعمار الذي سنّ قوانينه على المقاس بحيث وضع المواطن الجزائري أو الأهلي كما يصفونه محل إشارة السلطة الاستعمارية لاستغلال إمكاناته وتسخيره كالعبد المملوك للخدمات الخاصة أو العامة، والزج به في الحروب عند اندلاعها، كما حدث في جميع الحروب التي شنتها فرنسا ضد المستضعفين في الأرض، وقد أشار نابليون الثالث في المنشور الذي بعث به إلى الشعب الجزائري، تحت عنوان: السلامة الفرانساوية، إلى هذه النقطة، وقد توصف بالانتفاضة، ولعل الاختلاف في هذه التسميات يعود إلى اختلاف قناعات الكتاب ومستعملي هذه الألفاظ فيما تفيده من معان، بالإضافة إلى عدم التجرد من الذاتية... وعندي أن الثورة أعم من الانتفاضة، وأن التمرد الذي يعني الخروج عن طاعة سلطة الاحتلال أقرب وأنسب لما حدث خلال سنة 1916، وقد تتطور الأحداث من العصيان إلى التمرد إلى الثورة، كما هو الشأن في بعض الثورات التي اندلعت في ربوع الوطن دون إعداد ودون تعبئة أو تجنيد مما يؤدي دوما إلى الفشل.

فبعد سنوات من الهمود أعقبت انتفاضة: 1879 بالأوراس خضع فيها السكان للقوانين الاستعمارية الجائرة، وساد السكون المشوب بالحذر المنطقة إلا ما حدث من اضطرابات في منطقة -أحمد خدو- سنة: 1911، وقد ورد ذكرها بإيجاز مخل عند أكثر من كاتب وأكثر من محاضر دون إعطاء للتفاصيل التي تميز هذه الثورة التي يقول عنها الدكتور: عبد القادر زبادية أنها استمرت ثلاثة أشهر كاملة وزادها قوة اشتراك كل رجال الزوايا الدينية في المنطقة وتزعمهم لها"[1] وقد تناولها غير زبادية بنفس الإيجاز، مما لا يسمح للمهتم بتاريخ المنطقة باستغلال الوثائق أو الشهادات الحية في وصف مجريات حدث يوصف بـ/ الثورة دون معالم بارزة تكشف للقارئ عن الأصداء التي خلفتها هذه الثورة. وقد اعتقد الاستعمار بالرغم من تطور

(1) مجلة الأصالة(مرجع سابق)، العددان: 60-61، ص: 204.

الدراسات عنده أن السكان قد ركنوا إلى الاستسلام، بعد النكسات التي تعاقبت عليهم، ولن تقوم لهم قائمة بعد الذي حدث... وبما أن النهضة بمفهومها الشامل قد مست جميع جوانب الحياة عند الفرنسيين في الوطن الجزائري لكنها لم تشمل السكان الذين وضعتهم القوانين الاستثنائية الخاصة بالأهالي في قفص من حديد منذ صدورها سنة 1874، وقد ظلت قيود هذه القوانين سارية، ولم تلغ إلا بمقتضى قانون صدر في السابع من مارس 1944، غير أن بصيصا من النور راح يتسرب عبر شقوق ضيقة عن طريق المهاجرين إلى فرنسا حيث تسود الحريات، وعن طريق العائدين من الخدمة العسكرية ممن أطال الله في أعمارهم وعادوا إلى وطنهم بعد أن خاضوا حروبا في مختلف مناطق العالم. ولم تسجل المصالح الاستعلامية خلال هذه الفترة أي مؤشر يوحي باحتمال هبة أخرى في المنطقة.

هل كانت حوادث سنة 1916 ثورة حقيقية ؟:

يصعب على الإنسان الحكم بذلك دون الرجوع إلى طبيعة التنظيمات التي ظهرت وإلى نوعية الحوادث والأهداف التي كانت قيادات هذه الانتفاضة قد حددتها لنفسها وحاولت تحقيقها كليا أو جزئيا عن طريق العنف الثوري... وبالنظر إلى حيثيات هاتين المسألتين وحدهما، وهما :

أ)-طبيعة وشكل الحوادث ب)-الأهداف المتوخاة منها.

سوف يتبين لنا أن ما جرى من أحداث خلال سنتي: 1916-1917 في الأوراس الغربي خاصة، وامتد إلى عين أمليلة والحضنة وترددت أصداؤه في المعاضيد لا يصح بأي حال من الأحوال أن يوصف بالثورة، إذا أردنا أن نسمي الأشياء بأسمائها وأن نتجنب الغلو الذي أمسى سمة تميز الكتابات التاريخية في الوطن، سيما تلك التي تصدر عن الجمعيات المهتمة بالتاريخ الوطني الحديث، وذلك لغياب جملة من الشروط، أهمها :

1-لم تظهر خلال مدة الانتفاضة زعامة سياسية موحدة تتولى التنسيق والتوجيه والتنظيم والإعلام لمختلف الفصائل وبين مختلف المناطق على غرار ما حدث في ثورة نوفمبر1954.

2-لا توجد استراتيجية واضحة تحدد الأهداف الكبرى لحركة التمرد وتوضح الحد الأدنى للأهداف التي تسعى للوصول إليها -أو تناضل من أجلها-

3-اقتصر نشاطها على العمل العسكري وحده بنية الانتقام للكرامة المداسة ولم تحاول مد جسور للحوار مع السلطة الاستعمارية كوجه من وجوه الصراع.

4-لا توجد قيادة عسكرية موحدة تعمل على هيكلة الوحدات وتتولى قيادة العمليات.

5-عنصر التأطير يكاد يكون منعدما في جميع المستويات.

وعليه فإن فكرة التمرد والعصيان بمفهومها الإنساني -الإيجابي- أقرب إلى الذهن والتمرد الذي نعنيه كوطنيين ليس التمرد الذي تعنيه القوى الاستعمارية وتعده خرقا للقانون وللنظام العام. فالتمرد الذي نقصده هو الاعتراض عن القوانين الجائرة التي تصدر عن سلطة الاحتلال، ومنها قانون التجنيد الإجباري للسكان والزج بهم في حرب مدمرة تجري خارج حدود وطنهم، وذلك منذ مطلع سنة 1912، فكانت السبب المباشر لاندلاع أعمال عنف فيما بعد في المنطقة الغربية للأوراس خاصة كانت بدايته رفض الأهالي تسليم أبنائهم لممثلي السلطة الاستعمارية.

وعليه، فنحن نستخدم كلمة التمرد حسب وعينا بالموضوع وشحنه بمفهوم أخلاقي نبيل، وهم يستخدمونه حسب ما تمليهم عليهم أهواؤهم ومصالحهم وشروط أمنهم واستقرارهم. وفي هذه الحالة فهم يتجردون من المشاعر الإنسانية أو يخضعونها لعواطفهم الشريرة التي تنزع إلى الاستعباد وتحن إليه.

الأسباب المباشرة للانتفاضة:

هناك إجماع بأن قرار التجنيد الإجباري للأهالي كما يصطلحون على تسميتهم -بدل المواطنين- هو الذي أثار سخط وغضب السكان في جميع مناطق الوطن، فالمعاناة كانت واحدة والإحساس مشترك. وقد عبر السكان عن رفضهم لهذه القرارات الجائرة في أكثر من منطقة من مناطق الوطن عن طريق مراسلات للحاكم العام أو عن طريق التمردات والاحتجاجات الفردية أو الجماعية، فكان الأسلوب

المفضل لدى إدارة الاحتلال للرَّدِّ على هذه الاحتجاجات هو العنف المفرط والقمع المستمر بدل الإصغاء والبحث عن الحلول التوفيقية، فسلطة الاحتلال كان هدفها وكانت غايتها إفراغ المواطن من وطنيته وتجريده من أحاسيسه وعواطفه ليتحول إلى كائن متحرك عديم الشعور قليل الغضب سريع الاستجابة حتى تتمكن من استخدامه وتسخيره لكل المهام دون أن يبدي أية مقاومة أو اعتراض أو رفض... وقد فعلت ذلك مرارا عندما أقحمته في حروب استعمارية في القرم، في إيطاليا، في الصين، في المكسيك انتزع خلالها الجندي الجزائري بشجاعته إعجاب قادته، وقد اعترف بذلك نابليون الثالث في المنشور -التخديري- الذي بعث به إلى الشعب الجزائري في الخامس من ماي 1865 -راجع المنشور- غير أن هذه الشجاعة لم تشفع له كي يعامل كإنسان... وعندما خبرت السلطات العسكرية الفرنسية فيه هذه الصفات -الإقدام في المعارك والشجاعة في الحروب اتخذت منه درعا واقيا وحزام أمن لجيوشها وجسر عبور في كل عملية اقتحام. وعليه، فمن الطبيعي أن تكثف من عمليات التجنيد الطوعي للجزائريين، واللجوء إلى التجنيد الإجباري عند اشتداد الحاجة في أية مواجهة محتملة أو معلنة، ولما كانت الحرب العالمية الأولى أكثر الحروب هولا في العصر الحديث، نظرا لاتساع رقعتها وكثرة الدول المشاركة فيها، وكانت فرنسا الواجهة الأمامية والمتضرر الأكبر في هذه الحرب، نظرا لعدم قدرة جيوشها على الصمود في وجه القوات الألمانية الغازية (أسد علينا وفي الحروب نعامة) كان من الطبيعي أن تلجأ إلى المخزون الهائل وإلى القوة الاحتياطية التي لا تملك حق الرفض لأن حريتها مقيدة وموتها لا يكلف الدولة الاستعمارية شيئا.

وبعد مرور سنتين من اندلاع الحرب، ونظرا للخسائر الفادحة التي تعرضت لها القوات الفرنسية (7822 من القتلى الجزائريين و30354 من الجرحى و2611 من الأسرى) حسب وزارة الحرب الفرنسية لغاية يوم: 17 أكتوبر 1916)[1] كان عليها أن تكثف من عمليات التجنيد الطوعي والإجباري معا لسد وتعويض النقص

(1) أوراس الكرامة -أمجاد وأنجاد- للمؤلف، ص: 198.

المسجل في وحداتها... تردد صدى الهزائم التي لحقت بالقوات الفرنسية على جبهات القتال مع ألمانيا على جميع الأصعدة وكان العائدون من القتال والمسرحون بسبب العجز يصفون الأوضاع على الجبهة الفرنسية بالكارثية، فبدأ التململ في أوساط السكان في مختلف المناطق، تمثل في البداية في احتجاجات معلنة هنا وهناك في شكل لوائح وعرائض تقدم بها أعيان وشخصيات محلية، ففي قسنطينة عريضة 26 ديسمبر 1916، وفي شوطودان (شلغوم العيد حاليا) وفي جهات أخرى من الوطن ساد القلق السكان بداية من شهر سبتمبر 1916 كشف في البداية عن التجاوزات التي يقوم بها القياد وشيوخ القبائل عند تسجيلهم للمجندين، ويدعو إلى ضرورة احترام المقاييس المعمول بها، فمما جاء في عريضة قسنطينة "إن التخلي عن النساء والأطفال والأموال من أجل فرنسا تعد تضحية تتجاوز حدود قوانا" غير أن حدة القتال على الجبهة وحاجة القوات الفرنسية إلى مقاتلين لتعويض الخسائراليومية، واحتقارها للإنسان الأهلي-كما تصفه- جعلها تضم آذانها، وتتغاضى عن مطالب السكان حتى تتمكن من حشد أكبر عدد ممكن من المقاتلين لتزج بهم في الجبهة، وعندما لم تبد السلطات الفرنسية أي اهتمام بشكاوي الأعيان، اعتبر القياد وشيوخ القبائل وممثلي الإدارة عموما هذا الصمت تشجيعا لهم بمواصلة عمليات الإحصاء، وبالغوا في ذلك بهدف إرضاء السلطة فسجلوا أطفالا دون سن التجنيد، فاضطر بعضهم للفرار، وأعلن التمرد والعصيان... فبتاريخ: 28/ 12/ 1916 حكمت محكمة باتنة الجنائية على طفلين أحدهما في الثانية عشر والآخر في الرابعة عشر من العمر بتهمة الخروج عن طاعة القانون. كان شيخ الدوار قد سجلهما في قائمة المجندين صف: 1917.

سكوت إدارة الاحتلال بل تشجيعها لمثل هذه التصرفات والتغاضي عنها شجعت القياد والشيوخ المكلفين بعملية الإحصاء والتجنيد على التمادي أكثر، مما زاد الوضع احتقانا في أوساط السكان... إذ يكفي أن تعبر أسرة عن رفضها إرسال ابنها للموت في فرنسا ليتحول هذا الرفض إلى موقف ومساندة من جميع الأسر في

الدوار أو في القرية فيتخذ السكان نفس الموقف ويظهرون التعاطف مع الأسر الرافضة، وهذا ما حصل في عين التوتة -البلدية المختلطة- المعروفة آنذاك باسم "ماكماهون" التي أشرف بها نائب عامل عمالة قسنطينة "كاسينيلي" والحاكم"هنري مارساي" على عملية الفحوص الشكلية الخاصة بالمجندين الجدد لمن يساقون إلى الموت وهم ينظرون، وقد جرت العملية في ظروف عادية خلال النهار، لكنه وخلال الليل، ليلة: 11 إلى 12 نوفمبر 1916، أخذت الأمور تتجه نحو التأزم بعد عملية الفحص التي أجريت على المجندين... ومع أول الليل تجمع ما بين 800 إلى 1500 شخص في القرية، وقاموا بهجوم على برج "ماكماهون" غير المحروس حسب الدكتور: شارل أجرون فأحرقوا ونهبوا البرج، وقتل في هذا الهجوم الموظفان الفرنسيان المتواجدان داخل البرج. وكان هذا الهجوم بمثابة إنذار صريح للسلطة الاستعمارية التي تنتزع منهم أبناءهم لتزج بهم في حرب قد لا يعودون منها أبدا. وفي نفس الليلة، حسب الدكتور: أجرون، قتل في غابات "تامارا" حارس غابة برتبة عريف. وقد تزامنت هذه العمليات مع أحداث أخرى مماثلة جرت في بلدية بريكة المختلطة، حيث هوجمت مزرعة وأتلفت محتوياتها وقد اشتد غضب السكان فقاموا بتطويق القرية -بريكة- وتواصل حصارها إلى أن وصلت سرية عسكرية في الليلة الموالية.

وبتاريخ: 14 نوفمبر تم الهجوم على تشكيلة عسكرية من جنود الزواوة بالقرب من "سقانة" وقد تجددت الهجمة على نفس التشكيلة في 18 نوفمبر في دوار: "تيلاطو" بين سقانة وعين التوتة... هذه الهجمات المنسقة على التشكيلات العسكرية والمؤسسات الاستعمارية لم تلبث أن امتدت إلى دواوير بلدية: بلزمة المختلطة، حيث التحق رجال مسلحون بالأحراش في الجبال المجاورة، سيما في جبال مستاوة... وتردّدت أصداء هذه الهجمات أو هذا التمرد بسرعة في ناحيتي: عين أمليلة وعين كرشة، حيث رفض سكانها تقديم مسجليهم للخدمة الإجبارية، والتحق بعضهم بالجبال القريبة، مثل: جبل قريون وجبل لفجوج، وبوعريف وبتاريخ: 18 نوفمبر هاجم حسب المؤرخ "أجرون" حوالي: 100 شخص من رجال أولاد صباح بلدية عين القصر قرية "أشمرة" المأهولة بالمسلمين (التعبير للدكتور:

أجرون)، وراحت هذه الهجمات تتوسع بسرعة لتشمل الأوراس الغربي بكامله وبعض البلديات في عمق الأوراس.

وما من شك في أن السلطة كانت تشعر بمسؤوليتها في تدهور الأوضاع الأمنية حين منحت التفويض المطلق للقياد وللشيوخ الذين راحوا يتفانون في خدمة السلطة الاستعمارية على حساب المستضعفين في الأرض من بني قومهم.

تحول الرفض والردود السلبية من قبل المواطنين بسرعة إلى نوع من المقاومة المسلحة استخدم السكان فيها العنف المفضي إلى العنف، غير أنه يظل الوسيلة الممكنة للفت أنظار السلطة إلى معاناتهم، وأصروا على رفض قانون التجنيد الإجباري وتسليم أبنائهم للموت خارج وطنهم، وقد عبر عنها بالصريح أولياء المجندين في قرية: بوطالب بدوار: متكعوك، بلدية: بريكة أمام مسمع الحاكم قائلين: "نحن لا نبذل أبناءنا نفضل أن نراهم يموتون في الجزائر بدلا من أن يموتوا في فرنسا"[1] وقد ظلت قبائل الأوراس-الوسط- التي كان يتخوف منها هادئة باستثناء فرقتين من دوار: زالاطو، فقد أعلن العصيان ألف وخمسمائة من سكان هذا الدوار البالغ عددهم 53 ألف نسمة حسب الدكتور: روبير شارل أجرون "وأظهروا ذلك ببعض أعمال العنف والنهب"[2] وهو يتفق هنا مع ما أورده معدوا كتاب: ثورة الأوراس 1916 إنتاج جمعية أول نوفمبر لتخليد مآثر الثورة ص: 217، فقد تناول الكتاب موضوع انتقال الكتائب الموجودة "بتينباوين" وسريانة إلى باتنة، وقيامها باقتحام مجموعة جبال الأوراس المؤلفة من: زلاطو، وملاقو، وأحمر خدو، والجبل الأزرق، وكيمل، وشيليا، وغابة بني ملول، من أجل ملاحقة ما تبقى من المجاهدين (التعبير للجمعية) والفارين الذين لم يقعوا بعد في أيديهم، وقد تسلق الزواف(الزواوة) قمة شيليا وباقي القمم... رغم قساوة الطقس وحتى هذا التاريخ فإن بني بوسليمان مازالوا يرفضون ويحتجون على تسليم أبنائهم لفرنسا، وحسب

(1) مجلة الأصالة(مرجع سابق)، العددان: 62-63، السنة: 1978.

(2) نفس المرجع، ص: 10.

المعلومات ودون ذكر لمصادرها (من قبل الجمعية) فإنه مازال هناك 18 مجاهدا لم يقعوا في أيدي القوات الفرنسية منهم المسعود بن زلماط وبعض رفاقه(فابن زلماط وبومصران في ناحية أمشونش في عرف أعضاء الجمعية مجاهدون)، ويستطرد الدكتور: أجرون "وفي بلدية: خنشلة الممتزجة (ذات حكم مختلط مدني وعسكري) حمل السلاح غداة يوم: 11 نوفمبر عدد من عشائر دوار أولاد ششار (وهم بين 2 و5 حسب المصادر وكذا دوار عالي الناس برمته"[1] وهكذا تشكلت ثلاث مناطق تمرد هي على التوالي: أ-بلزمة ومتليلي وسهل بريكة، ب-الأوراس الشرقي وششار، جـ- الجبال الواقعة بين عين كرشة وخنشلة والفجوج وبوعريف.

رد فعل السلطات الفرنسية:

فحسب الدكتور: أجرون، فإن السلطة الفرنسية لم تكن تتوفر في الواقع إلا على ستة آلاف جندي في حالة استعداد للقيام بالعمليات العسكرية، معظمهم من القناصة السنيغاليين المعسكرين في بسكرة، وقد استخدمت هذه القوات في البداية لحماية مراكز المستوطنين مثل: "بيرنيل (وادي الماء)، كورناي (مروانة)، باستور (سريانة) والنقاط التي تعتبرها استراتيجية مثل: آريس، تكوت، وأمام سلبية المتمردين (التعبير للدكتور: أجرون) الذين ظلوا يصرون على العمل على تخليص أبنائهم المجندين بالقوة. انتقلت القوات الفرنسية من دور حماية مراكز الاستيطان إلى الهجوم المعاكس منذ: 18 نوفمبر 1916، بواسطة القوات السنيغالية (قناصة إفريقيا) على جبل: بوسدان وعلى مستاوة خسرت خلالها عشرة أفراد من جنودها، وهو ما لم تكن قياداتها تتوقعه فدعمتها بطوابير من جنود "الزواوة والسنيغاليين"مع توسيع مجال نشاطها، معظم العمليات كانت عبارة عن حملات ترصد ومراقبة وتفتيش لأماكن يمكن أن يلجأ إليها الهاربون من الخدمة العسكرية ومن الناقمين من تعسف القياد إذ لم تنشب حسب المصادر الفرنسية معارك تذكر بعد شهر ديسمبر 1916.

(1) المرجع السابق.

وقد اعتبر الجنرال: "دوبونيفال" قائد العمليات أن الانتفاضة قد انتهت مبدئيا منذ 24 جانفي 1917 باستثناء ناحية: شسار ودوار: زلاطو بشرقي الأوراس، واقترح الوالي العام بتاريخ: 19 جانفي 1917 إرجاع لواء المشاة (250) إلى فرنسا، غير أنه ومن باب الاحتياط بقي هذا اللواء في حالة تأهب إلى غاية شهر مارس شارك خلال هذه الفترة في عمليات ذات طابع استعراضي الغرض منها إظهار القوة العسكرية لفرنسا، وقد جرت هذه العمليات في ناحية: عين أمليلة، وبالذات في جبل قريون، ولم تنته بصفة رسمية حسب المصادر الفرنسية إلا في 27 أفريل 1917، وتصف المصادر الفرنسية بناءا على تقرير أعده مفتش البلديات الممتزجة (ذات حكم عسكري ومدني)"ديبونتDUPONT " "القمع بأنه كان على ما يجب أن يكون عليه سريعا وصارما ولاهوادة فيه"[1]. وقد قدر الجنرال: دوبونيفال الذي خسرت قواته خلال الأحداث 15 قتيلا و70 جريحا ومفقودين اثنين ما لحق بالمسلمين-حسب تعبيرهم- من خسائر خلال العمليات بنحو: 100 قتيل، غير أن هذا الرقم مطعون فيه من قبل أعضاء لجنة الشؤون الخارجية التي أوفدها البرلمان للتحقيق في الأحداث، مع العلم بأن عمليات القتل كانت تتم بصفة عشوائية، فكل شخص تعثر عليه القوات المتنقلة خارج التجمعات تعده متمردا فتطلق عليه الرصاص دون سابق إنذار، كما كانت تطلق الرصاص على الفارين دون التأكد من هوياتهم وعلى طالبي الأمان، ويكشف تقرير لجنة الشؤون الخارجية عن الأساليب الوحشية التي استخدمتها قوات الاحتلال لقمع الانتفاضة، منها :

رفض استسلام دوار: أولاد مسعود بناحية: بريكة، لأنه جاء متأخرا.

الانتقام الجماعي بإحراق المشاتي وإفراغ المخازن ومصادرة الحبوب والمواشي وبيعها، وقد اشتكى الجنرال: "موانيه" القائد الأعلى للجيش التاسع عشر ذاته من تجاوزات جنود "أزواوة" ومن أوروبي الجزائر الذين تسببوا في إثارة أحداث "بلزمة" ويعلق الدكتور: أجرون على هذه التجاوزات بقوله: "ولا تزال ذاكرة

(1) تقرير ديبونت، مجلة الأصالة(مرجع سابق)، العددان: 62-63، السنة: 1978، ص :11.

الجزائريين الجماعية تذكر بوجه خاص أعمال السود السنيغاليين الذين كانوا يضرمون النار وينتهكون الأعراض ويقتلون"[1] وستظل ذاكرة السكان تستحضر وبألم كبير تلك الفواجع التي تعرض لها المواطنون العزل من قبل الجنود السنيغاليين والزواوة بصفة خاصة، وقد علقت عن هذه الأعمال الوحشية جريدة: الإقدام التي أنشأها الأمير: خالد خلال شهر سبتمبر 1922 تقول: "في سنتي 1916-1917 أُحرق الأهالي الذين ثاروا ضد تجنيد أبنائهم وإرسالهم إلى الخنادق وشووا ولعنوا وما تزال فظائع "بلزمة" ماثلة في الأذهان... ونحن نعلم ماذا تستطيع القيام به هذه الجيوش التي تطلق العنان لغرائزها الحيوانية"[2].

ظهور الطيران الحربي لأول مرة في الميدان:

لاشك أن الانتفاضة تكون قد فاجأت السلطة الاستعمارية وهي منشغلة بحرب مدمرة تجري على حدودها بل فوق أراضيها، وكانت الطرف الخاسر فيها، وبعد أن كانت تسعى إلى إقحام أكبر عدد من الجنود في المعركة لحفظ ماء الوجه بدل حسم الصراع اضطرت إلى سحب بعض الوحدات لإخماد تمرد اندلع فجأة في الجزائر وفي منطقة حساسة، وقد خشيت أن تتوسع رقعة هذه الانتفاضة إلى مناطق أخرى في الوطن، فاستقدمت من أجل ترهيب السكان ست طائرات نوع: "فارمان" (ف 603) من التراب التونسي بقيادة النقيب: "لوران LAURAND"، وقد تمركز هذا السرب من الطائرات في بسكرة ويزعم الفرنسيون أن هذه الطائرات إنما جيء بها لتخويف الأهالي، ويرى الدكتور: "أجرون""بأن الرعب الذي أثاره سرب طائرات "فارمان" كانت له آثار ايجابية"، ولكنه يستدرك فيقول: "بأن حاكم خنشلة" لاحظ بأنها (الطائرات) كانت موضوع تسلية لإثارة رهبة" فقد أخذت ابتداء من 12 فيفري 1917 في إلقاء بعض القنابل بعيدا عن القرى، وذلك على سبيل

(1) مجلة الأصالة (مرجع سابق) ، ص: 12.

(2) نفس المرجع، ص: 33.

الإنذار... وتشير جمعية أول نوفمبر لتخليد مآثر الثورة في كتابها عن ثورة الأوراس 1916 بأن هذه الطائرات "قامت بتحليقات فوق جبل: متليلي وأولاد سلطان ومستاوة وشيليا والجبل الأزرق وغابة بني أملول... وقامت بقنبلة كل الأماكن المشكوك فيها وأدى ذلك إلى مقتل كثير من المواطنين وتهديم عدد من المداشر، وتتحدث المصادر الفرنسية بأن هذه الطائرات لم تتمكن من إتمام مهامها إذ فقدت القوات الفرنسية ثلاث منها خلال قيامها بالعمليات الاستطلاعية في جبل الأوراس"[1]، ولم توضح هذه المصادر سبب وأماكن سقوطها، واكتفت بالقول بأنها عجزت عن أداء مهامها، قد يكون ذلك بسبب العطب أو التقلبات الجوية.

لا شك أن إقحام الطيران الحربي في انتفاضة لم تكن تشكل تهديدا جديا لفرنسا لولا ظروف الحرب يعدّ عملا خطيرا، لأن مطالب السكان كانت محصورة في مسائل شخصية تتعلق بالإعفاء من التجنيد وإلغاء قانون التجنيد الإجباري لسنة 1912 والتنديد ببعض التعسفات التي تصدر عن شيوخ القبائل والقياد، وبالتالي فإن القوات التي احتفظت بها فرنسا في الجزائر، كانت قادرة على حسم الصراع وأن استقدام الطيران كان لهدف تكتيكي الغرض منه التأثير على نفسيات المواطنين عامة والمقاتلين خاصة، إذ أن الكثير من السكان لم يسبق لهم أن شاهدوا هذا الجسم الغريب يحلق في الفضاء بل ويهدد حياتهم في الأرض، سيما إذا صح أنها قامت بقنبلة بعض الأماكن المشبوهة. ورغم الخيبة التي عاد بها جزء من هذا السرب الذي فقد نصفه، غير أن قنبلة المداشر والقمم كانت كفيلة بإثارة الفزع وزرع الرعب في أوساط السكان ممن لم يشاهدوها من قبل.

تمكنت وحدات الزواوة وقناصة إفريقيا من السينغاليين من تصفية جيوب المقاومة في المناطق التي قامت بتمشيطها، ولم تعد العناصر المتبقية تشكل خطرا على المستوطنين. أما في جبل: متليلي -غرب عين التوتة- حيث يتمركز أحد رؤساء الثائرين (محمد بن النوي) المتهم بتنظيم الهجوم على برج "ماكماهون" عين التوتة

(1) ثورة الأوراس 1916 إنتاج ك جمعية أول نوفمبر -بباتنة-، ص: 214.

فالوضع ما فتىء يسوده الغموض، وكان جبل متليلي يمثل عرين ابن النوي الذي أصبح بطل الخذران في هذه الفترة على حد تعبير جمعية أول نوفمبر في كتابها المرجع ص: 207، وفي أواخر شهر جانفي 1917 تم تنظيم حملة واسعة لتفتيش جبل: متليلي بمغاراته وشعابه وممراته. وقد تخللت العملية بعض الاشتباكات بين الثوار والسينغاليين لكن بدون خسائر، وقد تواصلت الحملة إلى أن تم القبض خلال شهر فيفري على "محمد بن النوي" المتهم بتنظيم الهجوم على قصر الحاكم بعين التوتة وقد حوكم وصدر ضده الحكم بالإعدام باعتباره قاتل الحاكم بعين التوتة.

أسباب فشل الانتفاضة:

فشل الانتفاضة كان متوقعا لكل متتبع منذ البداية، بالرغم من أن الانتفاضة جرت في ظرف حساس جدا بالنسبة لفرنسا التي كانت غارقة في حرب معلنة مدمرة مع ألمانيا وكانت الطرف المنهزم في الحرب لولا تدخل دول أخرى بثقلها في المعركة، مثل: أميركا وانكلترا إلى جانب فرنسا. فالظرف إذا كان مناسبا لو توفرت بعض الشروط التي تسمح بإطالة أمد الانتفاضة وتوسيعها وتعميمها على مختلف المناطق، والتي منها :

1-أن يكون الهدف من الانتفاضة أو الثورة أسمى من مشكلة التجنيد الإجباري -تحرير الوطن- مثلا مما يشجع الأسر غير المعنية بمسألة التجنيد بالانضمام للتنظيم.

2-أن يخضع التنظيم لقيادة واحدة تسهر على تنظيم سير العمليات المختلفة.

3-أن يكون للحركة وجهان: وجه عسكري ووجه سياسي وإعلامي.

4-أن يتوفر التنظيم على عناصر واعية تسند إليها مهمة التوعية والتعبئة والتكوين والإعداد.. والتجنيد والتمويل الحربي.

5-أن يكون للحركة بعد وطني حتى يحرك مشاعر السكان في بقية المناطق لتنضم إلى المعركة.

6-العمل على ربط الاتصال بالمناطق التي تجاوبت مع الانتفاضة في شرق الأوراس وفي مناطق أخرى قصد تنسيق الجهود لتخفيف الضغط المسلط على مناطق معينة.

ويرفض الدكتور: "أجرون" "أن تكون حركة الخروج عن الطاعة أو الثورة... (هذه) بالتي تقارن بحال من الأحوال بالثورات التي شهدتها الناحية في القرن التاسع عشر"[1]، غير أنه من الخطل أن نتجاهل الأحقاد والضغائن التي راحت تتنامى منذ عقود في قلوب السكان من جراء تعسف الإدارة الاستعمارية وأن نعتبر حركة التمرد والخروج عن الطاعة التي بدأت منذ شهر سبتمبر 1914 في بلديات بريكة وبلزمة وآريس وخنشلة، كانت بسبب عملية التجنيد أو قرار التجنيد الإجباري وحده.

فالضرائب الفاحشة والمصادرات المستمرة والانتهاكات التي لا تراعي كرامة الإنسان كانت من جملة الأسباب التي أدت إلى الانتفاضة ومن الخطأ أن نتجاهل أيضا بأن دواوير: أولاد فاطمة، ووادي الماء، ومروانة، كانوا أول الثائرين في حركة التضامن هذه وذلك لأسباب تاريخية ليست بعيدة عنا، فقد سبق لهذه القبائل أن ثارت في حركة المقراني 1871 فصودرت أملاكها وطردت من ديارها وأبعدت إلى السفوح الجبلية بين أعالي "بلزمة" والأراضي التي انتزعها منهم المعمرون -حدث هذا خلال سنة 1903 فقط، وشمل كذلك أراضي هذه القبائل في مروانة التي صارت تحمل اسم "كورناي" وفي وادي الماء التي استبدل اسمها كذلك وصارت تعرف باسم: "بيرنيل" وسريانة التي صارت تحمل اسم: باستور... ومن الطبيعي أن يتعلق الأحفاد بأرض الأجداد، بل وأن يطالبوا باستردادها، ومما يروى بأن هؤلاء السكان كانوا يحذرون هؤلاء المعمرين الذين انتزعوا منهم أراضيهم بأنهم سوف يستعيدونها منهم بمساعدة الألمان. فحركة العصيان التي أبدتها هذه القبائل كانت بسبب قانون التجنيد الإجباري لأبناء الأهالي، كما كانوا يصفونهم، وكانت أيضا رغبة من الثائرين في استرجاع الأراضي التي سلبت منهم. وقد اتفق أن جاءت المحاصيل الزراعية رديئة سنوات: 1914... 1916، فتضاعفت نقمة السكان من الأوضاع.

ولعل هذه الوضعية هي التي خامرت فكر الوالي العام "ليتو LUTAU" الذي صرح في 25 مارس 1917 وبلهجة مفعمة بالاستخفاف قائلا: "إن المجاعة التي

(1) مجلة الأصالة(مرجع سابق)، العددان: 62-63، ص: 28.

تهدد باجتياح المنطقة بنهاية فصل الصيف ستدفع بالأهالي حتما إلى التطوع بالجنود والعمال". فالوالي العام: "ليتو" كان ينتظر أن تتحالف الطبيعة مع قوى الاستعمار، فيبيع المواطن كرامته في سوق النخاسة، فيتحول بمحض إرادته من حرٍّ كريم إلى عبد مملوك مسخر لخدمة الاستعمار. فهذه هي السياسة التي ظل ينتهجها مع السكان منذ أن وطئت قدماه هذه الأرض.

تشكيل لجنة تحقيق من برلمانيين أعضاء لجنة الشؤون الخارجية:

بعد أن تمكنت إدارة الاحتلال من سحق الانتفاضة بكل وحشية مخلفة وراءها الدمار والخراب والبؤس وسط السكان حتى لا يفكروا مرة أخرى في التحدي والعصيان، وبعد أن جردتهم من الأسلحة التي كانوا يمتلكونها والتي تقدرها المصادر الفرنسية بـ/ 3759 بندقية أو مسدس وهي في معظمها أسلحة صيد قديمة وبنادق عربية تقدح بالحجارة أصبح المواطن بعدها مجردا من كل قوة ومنهكا مرشحا للاستسلام أو هكذا كان يبدو للإدارة.

شكلت بعدها لجنة للتحقيق، ظاهرها البحث عن الأسباب التي أدت إلى الانتفاضة رغم وضوحها، وباطنها الكشف عن العناصر المحرضة على العصيان والداعية إلى التمرد والبحث عن الجهات الداعمة والمحركة لهذه الانتفاضة بناء على فرضيات يغلب عليها الظن والاحتمال، (نشاط الطرقية -ألمانيا-تركيا-شخصيات وطنية مختلفة مثل: الأمير خالد...) وحتى تتمكن السلطة الاستعمارية من التغلغل في أعماق المجتمع تبنت فكرة تنويع التحقيقات.

* تحقيقات رسمية من قبل هيئة رسمية عليا * وتحقيقات حرة من قبل باحثين ومهتمين الهدف منها واحد رغم تنوعها، وهو سبر أغوار السكان ومعرفة خبايا نفوسهم لغرض استغلالها في أي نزاع قد ينشب مستقبلا، ولم يكن هذا التحقيق إطلاقا من أجل البحث عن حلول جذرية لمشاكل المواطن. وبالرغم من أن عناصر التحقيق يعتبرون طرفا في النزاع سواء الممثلون في لجنة الشؤون الخارجية لمجلس النواب التي قامت بالتحقيق في مطلع سنة: 1917 أو الذي قام به المفتش العام:

أوكتاف ديبونت بعد ذلك بصفته: مفتش عام للبلديات الممتزجة (المختلطة) أو الذي أجراه السيناتور: "فلاندان"، وقد رفع تقريره مفصلا إلى لجنة الجيش في 16 نوفمبر 1917. وتحقيقات أخرى أجرتها أطراف مهتمة أو معنية، كالتشخيص الذي قامت به وزارة الداخلية في 23 ديسمبر 1916. وهذه الأطراف جميعا تعتبر غير حيادية بالمعنى الإيجابي للحياد لأنها طرف غير معلن في النزاع، ولم يصدر عنها فعل الاستنكار على الأقل ليتضح موقفها. يقول الدكتور: "روبير أجرون" وجميع هذه النصوص (ويعني التحقيقات) المتناقضة بشكل واسع يجب أن تفسر وتقرأ بمنتهى الحيطة، لاسيما التقرير الكبير الذي رفعه "ديبون" في الفاتح من سبتمبر 1917"[1]، ويعلق "أجرون" على التقرير بقوله "إنه لعمل جدلي كتب لتبرير موقف الإدارة المدنية وعمل تدوي به العواطف الاستعمارية وهو أيضا عمل صدر عن رجل اختصاص يحركه هلع حقيقي من الطرق الإسلامية ومقتنع سلفا "بأننا نجد دائما يدا مرابطية وراء كل هذه الانتفاضات التي يقوم بها الأهالي ضدنا"- من تقرير المفتش العام: ديبون - ويظهر التناقض أيضا في رفض أعضاء اللجنة البرلمانية لهذا التفسير حين أقروا بأنه "لم يكن لتعصب المسلمين دور في اضطرابات باتنة، كما أن التأثيرات الطرقية كانت على عكس ما يقال لفائدتنا نحن"[2] (من تقرير اللجنة)أصالة ص: 15، وهناك صور أخرى من صور التناقض التي تؤكد تأثر المحقق بالولاء وعدم التجرد من الذاتية، فالمفتش العام: ديبون مثلا حين يتحدث عن إعلان الثورة في 11 نوفمبر 1916، إنما يتبنى ذلك كونها انتفاضة سياسية ويختلف معه النواب البرلمانيون في هذه النقطة، فهم يؤكدون أنه "ما من لحظة واحدة اتسمت الحركة بطابع الحركة الثورية وموجهة ضد السيادة الفرنسية وسيطرتها" فالأحكام التي تصدر عن المفتش العام "أوكتاف ديبون" تعكس نظرة

(1) مجلة الأصالة(مرجع سابق)، العددان: 62-63، السنة: 1978، ص: 14-15.

(2) نفس المرجع.

الإدارة الاستعمارية وبما أن هذه الإدارة طرف أساسي في النزاع، فالأحكام التي تصدر عنها لا يمكن أن تتسم بالموضوعية المطلوبة.

المحاور التي اعتمدت عليها اللجنة في تشريحها للوضع :

شهادات جزائريين: يمثل الجزائريون المجندون المستجوبون ممن شاركوا في الأحداث بصفة مقاومين أو مناصرين الطرف المهزوم، وعليه فإن الاستجوابات التي تجريها اللجنة معهم هي في نظرهم نوع من التحقيقات الإدارية أو البوليسية، وبالتالي لابد من أن تثير شكوكهم بل مخاوفهم في حالة الإدلاء بتصريحات تعكس حقيقة الوضع، فمن المؤكد أنهم يتحفظون من ذكر كثير من المثالب، ومن تصرفات القياد، وممثلي الإدارة الاستعمارية التي لا توفر لهم الحماية، ويتحفظون أيضا من وصف الطريقة الوحشية التي أخمدت بها الانتفاضة وما حصل خلالها من اعتداءات وانتهاكات تمس بكرامة المواطن بينما يستطيع المعمر "الأوروبي" أن يتحدث عن ذلك وبكل حرية، لكن من وجهة نظر تختلف، فما يراه المواطن بشأن المصادرات الخاصة بالممتلكات الشخصية اعتداء على الحقوق الفردية، يراه المعمر حقا مشروعا لتعويض الخسائر التي لحقت بالمعمرين ولو لم يكن المستجوبون طرفا فيما حصل من أضرار... وهذا الاختلاف في وجهات النظر يمثل نقطة التصادم بين الطرفين وسيظل كذلك إلى أن تتطور مطالب الجزائريين بعد أقل من نصف قرن فيصبح الوطن هو المطلوب بدل المستوطنة، وقد أفصح عنها مبكرا مثقف جريء أخفى عن قصد ذكر اسمه حين بعث برسالة من طولقة إلى شاب جزائري بمدينة الجزائر يقول فيها "لقد وجدت الأفكار مضطربة جد الاضطراب في بسكرة وأرجو أن تحدث ثورة كبرى يمكن أن نسميها بالثورة الجزائرية... وفي رسالة ثانية إلى شخصية إيطالية يشكو فيها من وحشية فرنسا قائلا: "إنها تجند أبناءنا وترسلهم إلى الموت، وهي تدفع بهم إلى الصف الأول عند التلاحمات والهجومات رغما عنهم، وكأنها تشتري أنعاما من السوق "لماذا نشن الحرب على الألمان لأن فرنسا وضعتنا في صف الأنعام"عاش السلام وعاشت إفريقيا الشمالية حرة ومستقلة".

المصادر الفرنسية التي اقتطفت فقرات من الرسالتين لم تذكر اسم هذا المثقف ولعلها لم تتوصل إليه، وربما يكون قد أخفى اسمه خوفا على حياته، غير أن الرسالتين تكشفان للقارئ بوضوح عما كان يخالج فكر المواطن، غير أنه لا يستطيع التعبير عنه، لأن القوانين الجبرية التي صدرت في حق السكان سنة 1874 والمعروفة بقانون الأهالي أو "الانديجنيا"، قد رسمت له خطوطا حمراء لا يستطيع الدنو منها.

وقد كشفت التحريات التي أجريت مع المجندين خاصة بعد أن تم القبض عليهم خلال وبعد شهر ديسمبر 1916 في أثناء عمليات المداهمة والتمشيط عن الأسباب التي دفعت بهم إلى الفرار بصيغ مختلفة خلاصتها "لقد قيل لنا بأنه لم يبق هناك فرنسيون" وقال آخرون "بأنهم لم يعودوا يشاهدون في بسكرة وباتنة إلا بعض الجنود من الزواوة والجنود الإضافيين (الاحتياطيين) المحليين من ذوي اللحى البيضاء والشيوخ الذين لا تبدو عليهم أي مهابة".من المؤكدات أن العمل الدعائي يكون قد لعب دورا كبيرا في حمل السكان على العصيان والتحدي... فمما ذكرته المصادر الفرنسية عن "محمد بن النوي" الذي قاد الهجوم على "ماكماهون" (عين التوتة) أنه كان يحرض رجاله على الهجوم صارخا في وجوههم "إلى الأمام ! إلى الأمام ! أأنتم خائفون من عشرين جنديا من جنود الزواوة ؟!" ويذكر أنه في ناحية بريكة كان الناس يرددون سنة 1916 "أن ألمانيا على وشك الانتصار وأن فرنسا على عتبة الاندحار...

هذه الأقوال التي لا يعرف في الغالب مصدرها لعبت دورا كبيرا في إثارة حماس الشباب ودفعهم إلى التمرد والعصيان. وعندما لم تتمكن لجنة التحقيق من حصر أسباب الانتفاضة، راحت تقدم فرضيات محاولة إثبات صحة الشائعات التي راحت تتردد حولها.

انعكاس الدعاية الألمانية التركية على الأحداث :

إننا لا ننفي صحة هذه الشائعات، فهي ضرورة من ضرورات الحرب البسيكولوجية ولا نؤكدها هنا لصعوبة تمريرها إلى القبائل الحاملة لمشعل الانتفاضة

لخلو الوسط من وسائل الإعلام التي تروج لهذه الشائعات. "فأوكتاف ديبون" "يرى في تجليات الدعاية الألمانية سببا لهذه الانتفاضة"[1]. كما أن الوالي العام"ليتو" لم يتردد في التأكيد أمام البرلمانيين "أن ثورة الأوراس كان ينتظرها الألمان"، وقد أورد "ديبون" أقوالا لا يصدق بها العقل السليم منها، قوله: "لقد أشار المخبرون المسلمون إلى الشائعات الرائجة في الدواوير والتي مفادها. أن أجانب جاءوا لمساعدة بني سليمان بالمدافع"[2]. والمؤكد هنا أن الألمان والأتراك استغلوا الظرف وأغرقوا الجزائر برسائل من سي علي باشا نجل الأمير: عبد القادر تدعو إلى الجهاد المقدس، وطبيعي أن يتعذر معرفة ما إذا كان للدعاية الألمانية التي لا ننفي تسربها إلى الحواضر خاصة تأثير على مجريات الأحداث في الأوراس خلال هذه الانتفاضة التي مست الأوراس الغربي بصفة خاصة، وبعض الدواوير في الأوراس الشرقي. ومن المحتمل أن يكون بعض المواطنين في الحواضر قد اطلعوا على بعض الرسائل التي تدعو إلى الجهاد، سواء كان مصدرها الألمان أو الأتراك، وقد تم حجز بعضها من قبل إدارة الاحتلال خلال خريف 1916، إذ أعلنت المصالح الفرنسية أنها حجزت في سبتمبر 1916 ثمانية كتيبات ذات طابع دعائي مكتوبة باللغة العربية، وقد أحصت بالتقدير حوالي: 100 من المنشورات الدعائية الموالية لألمانيا"[3] ومن جملة ما تضمنته الدعاية الألمانية أن النقيب: خالد (حفيد الأمير: عبد القادر) يتزعم حركة ثورية في الجنوب الجزائري... فهذه هي طبيعة الحرب وكل ثابت فيها متغير وكل شيء ممكن. فمما جاء في المذكرات الشخصية للرئيس: الشاذلي بن جديد -أنه كان يتابع باهتمام خاص سير الأحداث عن طريق الراديو خلال الحرب العالمية الثانية (بعد أن تطورت وسائل الإعلام والاتصال)، وكان المذيع: يونس بحري من إذاعة برلين الدولية يبدأ برامجه الإذاعية بجملة حفظناها عن ظهر قلب (يقول الشاذلي) وهي تقليد لسورة: الزلزلة محرفة، إذ يقول: "هنا برلين صوت العرب، (ويواصل)

(1) مجلة الأصالة (مرجع سابق)، العددان: 62-63، السنة: 1978، ص: 23- 24- 36.

(2) نفس المرجع.

(3) نفس المرجع ، ص: 23-24.

إذا زلزلت الأرض زلزالها وأخرجت ألمانيا أثقالها وقال الانكليز مالها ؟ يومئذ تحدث أخبارها بأن هتلر أوحى لها"[1].

فرضية التحريض من قبل شيوخ ومقدمي الزوايا -الطرقية- :

اتضح للفرنسيين منذ بداية الغزو الدور الخطير الذي تلعبه الزوايا الدينية في تأطير المجتمع الذي يفتقر إلى الهياكل النظامية المدنية. وبما أن هذه الزوايا تمثل القوة الروحية في اعتقاد السكان وأن أوامرها ونواهيها مستمدة من إرادة الله وأن العمل بها واجب من الواجبات الدينية المفروضة التي لا تقبل النقاش أو المساومة، التف حولها الناس عن طواعية وإذعان، فصارت مصدرا للتشريعات والأعراف، ومرجعا من المراجع الدينية ومركزا للمقاومة باسم الجهاد ضد الكفار. عندما تفطن الاستعمار إلى دور الزوايا الخطير في حياة المجتمع، راح يعمل على ترويضها بأساليب مختلفة، وتمكن من تحييد الكثير منها، بل واستمالة بعضها لخدمة أهدافه الاستعمارية، ولزمت زوايا أخرى التقية والحياد. ولم يبق على المنهج الديني السليم والخط الوطني الثابت إلا زوايا قليلة تعد على الأصابع، غير أن السلطات الإدارية ظلت تتحفظ منها جميعا وتعتقد دائما بأنها المحرضة على التمرد والعصيان والداعية إلى الثورات. وقد بلغت شدة الحذر بمفتش البلديات: "أوكتاف ديبون" أن أحصى جميع المريدين حسب الزوايا باعتبارهم عناصر مجندة مستعدة للقيام بعمل ما ضد الاحتلال في أي وقت، واتهم بعضهم بالتحريض على المقاومة وبنشر أفكار هدامة معادية للاستعمار، وحيث أن معظم سكان الأوراس ينتسبون إلى الطريقة الرحمانية (3600) مريد موزعين على ست زوايا و(330) مريد من أتباع الطريقة القادرية، فإن "ديبون" ظل يوجه أصابع الاتهام إلى زاوية: علي بن عمر بطولقة، لأنها لم تحاول العمل على تهدئة الأوضاع وكبح جماح الثائرين، وهذا الاتهام هو بمثابة رسالة عتاب لزاوية لم تقم بالدور الذي كان ينتظره منها على أن "أوكتاف ديبون" لم يتوان في امتداح بعض الشيوخ الرحمانيين الذين تدخلوا لصالح الفرنسيين وخاصة منهم

(1) مذكرات الشاذلي بن جديد، الجزء الأول، ص: 38.

الشيخ: عبد الصمد من زاوية عين الشفاء، بلدية: عين القصر (الممتزجة) الذي أثنى عليه كونه كان من مخبري الإدارة، وأثنى على وجه الخصوص على سي التهامي حسوني الشريف مقدم: دوار: مقرة الذي سبق أن أكدت اللجنة البرلمانية مشاركته الصادقة النزيهة، ولعل هذا التصريح الذي أدلى به -سي التهامي- أمام اللجنة المركزية البرلمانية، حين قال "ألا ترون أن الحكومة تعامل كل رعاياها دون تمييز أو تحيز يقوم على أساس من الطبقة أو الأصل وأنها تحيطهم جميعا بنفس الرعاية والعطف وتنعم عليهم جميعا... وتغدق إحسانها على مختلف طبقات السكان"[1] هو الذي أوحى لأعضاء اللجنة بانحياز هذا المقدم إلى جانب السلطة، واستطاع عسكريون أمروا بجمع كل المعطيات حول الزوايا -الطرقية- بالجنوب القسنطيني أن يلاحظوا دون شك بأن انتصاب الزوايا هناك لا علاقة له بأي حال من الأحوال بمراكز الثورة، وهي نفس الملاحظة التي خلص إليها تقرير اللجنة البرلمانية، مما يؤكد حسبهم أن مقاومة التجنيد لا علاقة لها بكثافة أتباع الزوايا الطرقية.

ومهما تكن نتائج التحقيقات والتحريات التي انتهت إليها اللجنة البرلمانية أو الجهات الادارية أو الشخصيات المستقلة، فدار لقمان سوف تظل على حالها، لأن المشكلة مشكلة الاحتلال الذي جثم على البلاد في الأول والآخر والظاهر والباطن. إن الانتكاسات التي تعرض لها السكان والتي سوف يتعرضون لها مستقبلا هي التي سوف تحدد نمط العلاقة المستقبلية بين السلطة الاستعمارية الممثلة في القياد وفي الأعوان العموميين والمستوطنين من جهة وبين السكان الذين يمثلون الطبقة المسحوقة في المجتمع القابلة للانفجار حال توفر الظروف. وبما أن السياسة الاستعمارية سوف تظل مشحونة بالعداء والكراهية للعنصر الأهلي- كما تصفه- والذي لم يستفد من الترقية الاجتماعية بعد قرن تقريبا من الاحتلال إلا ما ميزه به الله عن سائر الحيوانات من النطق والتفكير، وقد جرد حتى من حق المواطنة في وطنه. فالشرخ لن يلتئم وسوف يزداد مع مرور الزمن عمقا واتساعا حتى إذا بلغت

---

(1) مجلة الأصالة(مرجع سابق)، العددان: 62-63، ص: 26-36/ هـ.

القلوب الحناجر تجدد الصراع بشكل من الأشكال واكتسى طابعا ربما أكثر دراماتيكيا... فقد تكونت قناعة لدى شريحة واسعة من المجتمع بأن ما أخذ بالقوة لا يسترد إلا بالقوة.

فرضية الصراع بين الصفوف :

فرضية الصراع بين الصفوف من بين الفرضيات المفتعلة التي أدخلتها اللجنة البرلمانية بين حساباتها، وتعني بذلك احتمال وجود صراع طبقي بين الأسر داخل مناطق نفوذها وأن الثورة ربما تكون راجعة في جزء منها إلى هذا الصراع، والأسرتان المعنيتان هنا: 1-أسرة ابن قانة في الزاب الغربي، 2-أسرة ابن شنوف في الزاب الشرقي وقد عرف عنهما أنهما من أكثر الأسر ميلا وارتباطا بالحكم. وقد أثبتنا ذلك خلال الانتفاضات التي اندلعت في الجنوب الأوراسي، مثل: انتفاضة الزعاطشة (1849) انتفاضة سيدي الصادق بلحاج (1858-1859)... فقد يكون التنافس بين الأسرتين في مجال الكسب والشهرة والإخلاص والوفاء للسلطة الإدارية هو الذي أوجد هذا الصراع، وقد يكون منشؤه السعي إلى التوسع من أجل كسب مناطق نفوذ جديد أو الحصول على الامتياز والريادة ومع مرور الزمن يتحول إلى نوع من الجفاء ثم العداء بين الأسرتين فهذا ممكن... ومما تجدر الإشارة إليه أن مجال نفوذ هاتين الأسرتين يقع خارج مجال المنطقة المضطربة سواء في الأوراس الشرقي أو في الأوراس الغربي. ولا يمكن بأي حال أن تكون هاتان الأسرتان أو إحداهما هي التي أوعزت لسكان الأوراس بالتمرد على السلطة لغرض الإطاحة بالأخرى واستغلال قانون التجنيد الإجباري لتحقيق هذا الطموح.

المجمع عليه أن الأسرتين ظلتا تتفانيان في خدمة السلطة قبل الانتفاضة وبعدها وهذه الفرضية تم توظيفها خارج إطارها.

مؤشر الصراع يكون قد بدأ منذ سنة: 1910، عندما راح الباشاغا: بوعزيز بن قانة يضاعف من اتهاماته لرئيس أسرة ابن شنوف المسمى سي بوحفص الذي يكون

قد أعلن أمام الملإ في سيدي عقبة عن قيام ثورة وشيكة في الأوراس. هذا الاتهام ربما أوجس ابن قانة خيفة عندما علم أن أبا حفص قد أقام حرسا في برجه بتكوت يتألف من 80 فارسا من أولاد زيان، وربما قد اختزن أسلحة"بمشونش"... هذه التصرفات من القائد: بوحفص قد أوهمت السلطة الفرنسية نفسها باحتمال نشوب حركة ثورية بدوية تكون نواتها الخارجون عن الطاعة الموصوفون في دوائر الاستعمار بلصوص الشرف ومن لحق بهم من الفارين من الخدمة العسكرية... وقد أكدت في النهاية استطلاعات الرأي العام للولاية العامة "أن الثورة ثورة بربرية وأصبح من الشائع... أن السكان المتوحشين الأجلاف والبرابرة الذين هم من أصل شاوي هم وحدهم الذين استطاعوا أن يثوروا على فرنسا.. هذه الافتراضات التي تتبناها اللجنة البرلمانية سيما ما يتعلق منها بالصراع بين الأسر والتنافس بين القيادات أرادت السلطة توظيفها واستغلالها كوسيلة ضغط لتفرض على هذه القيادات الوفية للاستعمار مزيدا من اليقظة والإخلاص للسلطة وتخلق أوضاعا أخرى تلهب الصراع بين الموالين للقيادتين.

ماذا بعد الهزيمة ؟ :

من التقاليد الراسخة في عرف الاستعمار اللجوء إلى العنف المفرط أولا لضمان الأمن لمؤسساته والاستقرار لمواطنيه، تأتي بعده التحقيقات الشكلية التي تسند إلى هيآت رسمية تعتبر من الناحية الشكلية طرفا غير مباشر في النزاع، ولا تنتفي عنها صفة الحياد المطلوب، وبالتالي، يكون من الصعب جدا الاقتناع بصحة النتائج التي تتوصل إليها، طالما أن القمع نفسه أحكام صدرت عن هيآت مسؤولة تخضع لنفس السلطة.

من نتائج القمع المبكر أنه يؤدي إلى تفكيك البنية الاجتماعية لكثير من الأسر والقبائل ويخلق أوضاعا نفسية مضطربة تضع المواطن المهزوم في موقف لا يستطيع معه التعبير عن معاناته غير أن الأهداف التي تسعى سلطة الاحتلال للوصول إليها

غير الأهداف المعلن عنها. أهداف ظاهرها فيه الرحمة وباطنها من قبله العذاب، فهي من الناحية الشكلية تسعى إلى تشخيص الأوضاع لمعرفة الأسباب التي أدت إلى حدوث هذه الاضطرابات على نطاق واسع. ومن الناحية الموضوعية، فهي تبحث عن نقاط قوة لمجتمع هزيل ظل يرفض الرضوخ للاحتلال رغم المحن التي تتوالى عليه، وذلك لغرض بناء توقعات جديدة لمواجهة انتفاضات محتلة.

أقر التقرير الذي أعدته اللجنة بوجود تجاوزات خطيرة، وقد شنع بمذابح لا يمكن قبولها -حسب منطوق التقرير- وبالانتقامات الجماعية والإبادة الكاملة للسكان. ونحن إذ نعتبر هذه النقاط التي تعرض إليها التقرير في منتهى الخطورة ونثني عن العناصر من بين أعضاء اللجنة التي كشفت عن هذه التجاوزات بالرغم من أنهم كلهم فرنسيين بتجاوزهم لعقدة الانتماء والمصلحة الآنية للاستعمار، غير أننا نتساءل، ماذا بوسع السلطة الاستعمارية أن تفعل عندما يصل إليها التقرير مفصلا. ترى هل ستعاقب الضباط السينغاليين والزواوة الذين أساءوا بما عملوا، وقد اشتكى الجنرال: "موانييه" نفسه وهو قائدهم في أثناء الأحداث من تجاوزاتهم، وقال عنهم بالصريح: "أنهم كانوا يضرمون النيران وينتهكون الأعراض ويقتلون"[1] بأن يمثلوا أمام المحاكم على غرار ما حدث مع المتهمين بالتمرد والخروج عن الطاعة: فحسب تقرير اللجنة البرلمانية "فإن اللجنة التأديبية التي نصبت في باتنة... قد أدانت: 805 من المتهمين القصارى ! من بين 825 متهما (أي بتبرئة 20 متهما) وأن 165 متهما من الراشدين قد حوكموا أمام مجالس الحرب... وهذا العدد المصرح به لا يعني كل الثائرين. فقد قدرت مصالح المخابرات عدد الثائرين في البلديات الثلاثة المعنية جدا بـ/ 2614 ثائرا، وعدد ثوار بلدية الأوراس المتمزجة بـ/ 260 ثائرا. قد يكون لتقرير اللجنة البرلمانية الذي اشتمل على بعض الحقائق التي تصف معاناة -الأهالي- معنى وقيمة ويصبح مرجعا تاريخيا مهما لكل باحث ومهتم لو أن هذا التقرير.

(1) مجلة الأصالة(مرجع سابق)، العددان: 62-63، السنة: 1978، ص: 12.

1-كان شاملا لجميع المناطق التي تعرضت لحملات المداهمة والتفتيش لأن كثيرا من الحوادث المفجعة جرت في مناطق نائية معزولة لجأ إليها السكان فرار من همجية جنود الزواوة والسينغاليين، كالملاجئ والمغارات والكهوف، وغيرها، حيث تمت ملاحقتهم وإبادتهم بالجملة. عندها يتضح لأعضاء اللجنة أن حجم الأضرار أضعاف ما يتصورون.

2-تناول الآثار المأساوية التي أعقبت هذا الاجتياح المفاجئ للمشاتي والدواوير من طرف جنود تلقوا من قادتهم تسريحاً واضحا "اعملوا ما شئتم"، فسلبوا الأعراض ونهبوا الأموال وقتلوا الرجال وشردوا العجزة فلما تحولت القرى إلى حطام أضرموا فيها النيران، وحددوا على ضوئها المسؤوليات بوضوح، واقترحوا إجراءات تحفظ للإنسان الأهلي حسب تعبيرهم الحق في الحياة وحدها.

3-تعرض للآثار السلبية التي تنتج عن المراسيم الجائرة لسلطات تجردت تماما من القيم الإنسانية عندما يتعلق الأمر بالإنسان المحلي الذي تصنفه التقارير العسكرية عند ذكرها لخسائرها في الحروب بعد مرتبة الجياد فمن أجل كسب الحرب أو صيانة الأمن في الوطن الفرنسي يساق الجزائريون إلى البواخر كالأنعام، ومنها يحملون إلى فرنسا حيث يوزعون على جبهات القتال كدروع بشرية، وينقل الفائض إلى المصانع لدعم المجهود الحربي لضمان تدفق الإمدادات إلى جبهات القتال.

4-تعرض للقوانين الجائرة التي أوجدتها السلطات الفرنسية والتي تبيح للأغنياء شراء أبناء الفقراء لأداء الخدمة العسكرية الإجبارية عوض أبنائهم، فأعادت بهذه القوانين بعث أسواق النّخاسة (الرقيق) حيث يباع الرقيق بعد أن حرمته الشرائع الدولية، فتحولت القرى إلى أسواق لبيع وشراء الرقيق، وقد عرف هذا النظام بنظام الاستخلاف للتخفيف من حدة تأثير الكلمة على النفوس "وبما أن السلطة العسكرية كانت تتشدد في قبول المستخلفين، فإن الأسر كانت تعتقد أنه كلما كان المستخلف ثقيل الوزن كان حريا بأن لا يرفض، ولذلك كانت تشتري الشباب تبعا لأوزانهم بأثمان تتراوح بين 20 و30 دورو للكيلوغرام الواحد في الشمال وأغلى من ذلك بكثير في الجنوب القسنطيني (الأوراس) ومن ثم قيام سوق حقيقية

للاتجار بالبشر فقد كان المستخلف يباع بثمن يتراوح بين 2000 و3000 فرنك وأحيانا بأكثر من ذلك سنة 1916. وكان الأعيان وحدهم القادرين على تدبير المستخلفين... وحتى الإعفاءات المشروعة أو التسريحات التي تحددها القرعة... كانت تجر رؤساء الفرق أو شيوخ القبائل إلى طلب الرشاوي... وكان الذين يرفضون دفع الرشاوي لا يأمنون غائلة التجنيد إن في أشخاصهم أو في إخوانهم"[1] وأوضح مثال استدل به الدكتور "شارل روبير أجرون" الحكم الذي صدر عن محكمة باتنة الجنائية في 28 ديسمبر 1916 على طفلين بتهمة الخروج عن طاعة القانون، ويبلغ أحدهما 12 سنة من العمر، بينما يبلغ الثاني 14 سنة، وكان شيخ الجماعة قد سجلهما في قائمة من سيجندون في سنة: 1917"[2].

5-أشار التقرير بكل وضوح إلى الاستفزازات اليومية التي تصدر عن القيادات المحلية كالقياد والشيوخ الذين أضافوا إلى محن المواطن محنا أخرى كالقهر والإذلال.

6-راعى ظروف السكان عند تطبيق قانون العقوبات على الموقوفين المشتبه فيهم من القصر الذين يعدون بالمآت (825) موقوفا. إذ لم تبد اللجنة موقفا واضحا حيال هذه البراعم الذين أعلنوا عن رفضهم لقانون التجنيد واكتفت بالتشخيص فاعتبر موقفهم تمردا وعصيانا.

7-أشار التقرير إلى قانون "الانديجينا" الساري منذ: 1874 الذي طبق على الكبار عند مثولهم أمام مجلس الحرب... فهذا القانون التعسفي لم يتحدث عن ظروف الحرب إنما تناول مسائل أخرى تتعلق بالأمن العام، حيث يباح للحاكم العام إصدار العقوبات دون المرور على المحاكم.

8-اكتفت اللجنة بالمعاينة فقط ولم تقترح حلولا عملية تراعي معاناة السكان وتخفف من مآسيهم التي راحت تتضاعف بعد خسارتهم للمعركة، وما انجر عنها

(1) مجلة الأصالة(مرجع سابق)، العددان: 62-63، السنة: 1978، ص: 23.

(2) نفس المرجع، ص: 36.

من تبعات كمصادرة الأموال وإتلاف المحاصيل الزراعية ونهب الماشية كتعويضات للمجهود الحربي الذي قامت به الوحدات الفرنسية.

فالتقرير باختصار كان عبارة عن محرار أفاد فرنسا الاستعمارية وحدها في قياس مستوى الانهيار الذي انتهى إليه شعب ظلت تمتهنه منذ ما يقرب من قرن، باسم الحضارة وباسم الإنسانية، ألفاظ وعبارات جوفاء يتشدقون بها، ويضمرون في نفوسهم على الدوام فكرة ضاق بها صدر أحد غلاة الاستعمار وتلفظ بها صراحة مفادها "أن ليس هناك ضرورة لترقية الأحوال الاجتماعية عند الشعوب المستعمرة لأن انحطاطهم ليس بيئيا إنما هو وراثي أساسي لا يعالج" وظلت طوال مدة الاحتلال تعمل على تكريس هذه القناعة.

خلاصة القول :



انتفاضة 1916 بالأوراس
إعادة تصنيع وفية لـ "مدفع الكروش" الشهير

استطاعت فرنسا المتحضرة بإمكاناتها وبوسائلها المتفوقة أن تهزم عصابات من السكان شقت عصا الطاعة، كانت هذه العصابات تفتقر إلى التنظيم والتسليح والتأطير لإعطاء قد من الفعالية لنشاطها ذي الطابع العسكري، وكانت فلول هذه العصابات منتشرة في أماكن متباعدة صعب عليها إيجاد نوع من التنسيق والعمل المشترك مع ضعف بل انعدام وسائل الاتصال... سلاحها بنادق صيد قديمة، بعضها من صنع محلي كانت تقدح بالحجارة. وقد حاول بعض أفرادها رفع التحدي ومحاولة صنع مدفع محلي يضاهي المدافع التي

توجد عند الفرنسيين، عرف بمدفع الكروش وقد خلفت الحملات الرهيبة آثارا نفسية واجتماعية عميقة، فككت أواصر كثير من الفرق وكثير من الأسر في الأوراس الغربي خاصة. وقد ظنت فرنسا أنها تمكنت من إخماد شعلة النضال والتحرر في نفوس الأوراسيين ولن يفكروا في وثبة أخرى أبدا، فأظهر لها السكان الطاعة والإذعان وهم لها كارهون، فأعطتهم الأمان مع الترصد، فظلوا يضمرون لها العداء والكراهية، وراحت تظهر لهم الاحتقار والمهانة. وقد عرف قادتها عن طريق الدهاء والتجربة أن صمت الأوراسيين لم يكن سوى الهدوء الذي يسبق العاصفة، فأحاطت الأوراس بسلسلة من الثكنات العسكرية إحاطة السوار بالمعصم، كما فعل الرومان قبلها... فاطمأنت إلى موقف الزوايا التي أجبرتها على الحياد بواسطة الدسائس بل استطاعت أن تجند بعضها لخدمة الأهداف الاستعمارية، فقد كتب أحدهم "لم يكن لتعصب المسلمين دور في اضطرابات باتنة، كما أن التأثيرات الطرقية على عكس ما يقال كانت لفائدتنا نحن"[(1)] وراح كل منهما يترقب الجولة المقبلة التي لم تتضح معالمها بعد.

أصداء ما بعد الانتفاضة:

اعتبرت الحرب العالمية الأولى بمثابة منعرج حاسم في تاريخ الشعوب المستضعفة وصدمة قوية أيقظت هذه الشعوب من سباتها لتبحث عن نفسها، فقد وجدت نفسها خلال الحرب تباع وتشترى في أسواق النخاسة، تساق كالأنعام إلى حروب مدمرة لا شأن لها بها. وليس لها حق الرفض أو الاعتراض لأنها مسلوبة الإرادة، منزوعة الحرية، فاقدة للسيادة ولحَقِّ القرار السياسي، مكبلة بقيود أطلق عليها الاستعمار اسم "قوانين" وهي تخص الأهالي أو سكان المستعمرة من جنس غير الجنس الأوروبي الذي يحظى بنفس الحقوق التي يتمتع بها بنو جنسه ويبحث عن الامتياز.

استفاقت شعوب المستعمرات عندما رأت الأمم المتحضرة وهي تتصارع من أجل توسيع مناطق نفوذها على حساب الشعوب المتخلفة الضعيفة التي فقدت حريتها ووجدت أراضيها عبارة عن ميدان لمعارك ضارية، يمثل أبناؤها أرخص

---

(1) أصالة، العددان: 62-63، السنة: 1978، ص: 15.

بضاعة في حروب لا يجنون منها سوى الموت والفواجع، وعندما ثبت لها أن هذا الصراع لن يأت بجديد للشعوب المستعمرة (بالفتح) ووجدت هذه الشعوب نفسها في معرض للمزايدة، وأنها الخاسر الأكبر بغض النظر عن الطرف المنتصر، وهكذا راحت هذه الشعوب تبحث عن نفسها، تبحث عن موقعها في الخارطة السياسية للعالم الجديد التي لا تملك حق المشاركة في رسمها أو تحديد معالمها -عالم ما بعد الحرب- وقد أثلجت صدورها مبادئ ويلسن" الأربعة عشر التي أعلن عنها سنة: 1917، فقد كان الرئيس الأميركي: ويلسن توما (1856-1904) من أعظم الدعاة إلى إلغاء المستعمرات واستبدالها بحكم الانتداب، فراحت هذه الشعوب تنتظر ما سيسفر عنه مؤتمر السلام في باريس سنة: 1919، آملة في استرداد حريتها المسلوبة بوسائل سلمية، وعن طريق قرارات تصدر عن الدول الاستعمارية، بحيث تتخلى بموجبها طواعية عن مستعمراتها. غير أن هذا الحُلُم الذي ظل يراودها، قد انطفأ بسرعة سيما وأن صاحب المبادئ "ويلسن" رئيس أعظم قوة في العالم آنذاك قد توفي بعد مدة قصيرة من إعلانه عن مبادئه.

عندما تم تسريح الأمير: خالد، بعد أن وضعت الحرب أوزارها التقى على انفراد بعدة شخصيات وطنية وبمثقفين ومهتمين بالوضع السياسي للبلاد، وبعد سلسلة من المشاورات توصلوا إلى صيغة، قاموا بعدها بتحرير عريضة إلى مؤتمر السلام بباريس سنة: 1919 تضمنت ثلاثة بنود أساسية، وهي :

*الاعتراف باستقلال الجزائر وسيادتها. * انتخاب مجلس وطني حر تنبثق عنه حكومة البلاد. * وضع الجزائر تحت رعاية الأمم المتحدة.

ومع أن الأقوياء في مؤتمرهم الشهير -مؤتمر السلام- في باريس لم يولوا هذه المذكرة أهمية، غير أن هذه اللفتة من قبل الأمير تعد قفزة عملاقة إلى الأمام ولاشك أنها سوف تحرج فرنسا التي كانت ترى أن الجزائر هي فرنسا حسب ما جاء في خطاب: ميتران، فيما بعد.

الفصل الرابع

- من النضال المسلح إلى النضال السياسي
- نشاط الحركة الوطنية في الأوراس
- لجوء إطارات ومناضلي الحركة الوطنية إلى الأوراس
- الفارّون المزيّفون إلى الأوراس
- الأوراس مهد الثورة
- مساهمة الأوراسيين في تعميم الثورة وفي توسيع نطاقها
- على الصعيد العسكري (في مجال التسليح)
- انتزاع السلاح من السكان
- التدريب على استعمال السلاح وصناعة الألغام
- على الصعيد السياسي(التنظيم السياسي للإقليم)
- تأثر المناضلين في الأوراس من انقسام الحركة الوطنية
- التحضيرات على المستوى المحلي

من النضال المسلح إلى النضال السياسي :

ظهر لون جديد من النضال ضد الاستعمار بعد الحرب العالمية الأولى التي شهد فيها العالم أهوالا لم يسبق له أن شهد مثلها تكبد فيها المنتصر والمهزوم معا خسائر فادحة حركت مشاعر العقلاء من الساسة في العالم، فسعوا إلى تجنيب المجتمعات البشرية تكرار تلك المآسي، فظهرت فكرة النضال السلمي الذي اعتقدت شعوب المستعمرات أنه قد يكون الحل البديل الممكن لإقناع الدول الاستعمارية بالجلاء عن الأراضي التي كانت قد احتلتها بالقوة.. والنضال السلمي نفسه نوع من الحرب لكن بدون وسائل قتال مادية كالتي تستخدم في الحروب.. غير أنه ليس بالضرورة أن تصل إلى النتائج المرغوب فيها، ويقتضي النضال السياسي السلمي وجود قادة سياسيين محنكين ودهاة يعملون على تكوين طبقة سياسية واعية داخل مجتمع المستعمرة تناضل بتفان من أجل استرجاع حريتها المسلوبة بوسائل سلمية، عن طريق الاحتجاجات- المظاهرات السلمية- البلاغات-التنديدات-البيانات. غير أن هذا الأسلوب يكون قليل الفاعلية عديم التأثير أحيانا عندما تتشكل لدى الطرف الآخر (الاستعمار) قناعة وهمية بملكية الأرض التي استحوذ عليها، فقد تكفينا إجابة الدكتور: فرانسوا مورياك الذي رد على أحمد الإبراهيمي، بقوله "يلزمك كثيرا من الوقت لإقناعي بأن الأمر خلاف ذلك، فأنا لا أعرف عن الجزائر سوى أنها ثلاث مقاطعات فرنسية، هي: قسنطينة-الجزائر-وهران"[1] فإذا كانت هذه قناعة دكتور، أديب، ناشط في ميدان حقوق الإنسان، فكيف يمكن إقناع مستوطن أو تاجر... وعليه فالنضال السياسي يجب أن يكون مكملا للنضال المسلح مقترنا به ومتزامنا معه، ولا يمكن أن يحقق الغاية التي ينشدها الشعب المستعمر (بالفتح) بمفرده، ولعل حوادث الثامن من ماي أوضح دليل نقدمه للقارئ. فقد خرجت كوكبة من المتظاهرين في مدينة سطيف تحمل الراية الوطنية لتذكر الحلفاء

(1) مذكرات جزائري للدكتور: أحمد طالب الإبراهيمي -الجزء الأول-، ص: 96.

بالوعود التي قطعوها على أنفسهم بتحرير شعوب المستعمرات بعد اندحار دول المحور، فكانت الحصيلة رهيبة (45) ألف شهيد.

إن الحوار كوسيلة حضارية للبحث عن حل لمشاكل عالقة يقتضي وجود أدنى قدر من القواسم المشتركة بين طرفين يتمتعان بنفس القناعة ونفس الاستعداد ونفس القوة أما أن يكون بين طرف يمتلك أسباب القوة العسكرية والمادية التي تمكنه من إملاء إرادته، وطرف مهزوم مجرد من جميع الإمكانات، فإن لغة الخطاب قد لا تكون مثمرة، وأسلوب الحوار قد لا يكون مجديا والتواصل بينهما يكون قليل الفائدة ولا بأس أن ننقل للقارئ لغرض التوضيح هذه العبارة التي صدرت عن الرئيس، دوغول خلال مباحثات إيفيان بين الوفدين الجزائري والفرنسي سنة 1961 يقول الرئيس: دوغول "إننا لم نتعرض إلى قضية سيادة الصحراء أثناء المباحثات الجزائرية/ الفرنسية ولكننا بحاجة إلى مشاركة تضمن مصالحنا، وإذا تعذر تحقيقها وتنفيذ هذا الضمان وجب علينا أن نجعل من أحجار الصحراء ومن رمالها شيئا خاصا"[1]، والشيء الخاص الذي يعنيه الرئيس: دوغول، هو الفناء ووسيلته السلاح الذري، فمثل هذا الطرف لا يصلح للحوار، وبالتالي فإن على الطرف الضعيف أن يجهد نفسه في البحث عن صيغ أخرى للتعبير وعن أي وسيلة لإقناع الطرف الآخر بأن الأرض تحتنا والسماء فوقنا. فيتنكر له مع أنه لا يجهل ذلك، لكنه يناور من أجل إخفاء الحقيقة ومن أجل المغالطة أو مساومة المحاور لنيل مكاسب على حساب أمن وسلامة المستعمر أو على حساب مصالحه الاقتصادية.

ظهور أحزاب سياسية:

لم تلبث هذه الأفكار أن تطورت وتحولت إلى تنظيمات سياسية تحمل أفكارا تحررية، لكن من وجهات نظر مختلفة، تعكس في الغالب نظرة قادتها ومؤسسيها، فكان أول حزب ظهر في الوطن، حزب وحدة النواب الجزائريين، برئاسة الأمير: خالد محي الدين حفيد الأمير: عبد القادر، وكان من دعاة الاندماج بين الشعبين

(1) مذكرات: الأمل (مرجع سابق) للرئيس: دوغول، ص: 138.

الجزائري والفرنسي وتحقيق المساواة بينهما في الحقوق، فبالرغم من أن دعوته لم تنجح، إلا أنها أيقظت الضمير الوطني لدى شريحة واسعة من المثقفين. وبعد حل حزب وحدة النواب وإبعاد مؤسسه.

*ظهر حزب جديد في أوساط العمال في فرنسا سنة 1926 أسسه: الحاج مصالي عرف باسم: حزب نجمة شمال إفريقيا وقد تدرج هذا الحزب في عرض مطالبه، فبعد أن كان يدعو إلى المساواة بين الجزائريين والفرنسيين: تطورت مواقفه وتأثر بمطالب القاعدة وأصبح يدعو إلى تحرير أقطار المغرب الثلاثة (تونس، الجزائر، المغرب)، فكان كلما حُل من قبل السلطات ظهر باسم جديد وبمواقف أكثر تطرفا، تعرض رئيسه للإبعاد والنفي والسجن مرات عديدة، غير أن مواقفه ظلت ثابتة، فكان الحزب الذي عمق مفهوم الوطنية في نفوس الجزائريين وأعاد إليهم الأمل في التحرر والانعتاق.

*خلال سنة 1931 ظهرت حركة جديدة تجمع بين الإصلاح -(إصلاح المجتمع) والسياسة أسسها المصلح: الشيخ: عبد الحميد بن باديس، وقد نادى هذا الحزب أو هذه الحركة بالعودة إلى التراث الديني الإسلامي وإبراز معالم الشخصية الجزائرية، ونبذ سياسة الاندماج والفرنسة التي أصدر بشأنها فتوى تكفر الحامل للجنسية الفرنسية، وتعتبره مرتدا عن دينه"[1] وقصائد شعرية روجت لحركته الإصلاحية، فكان الشباب يترنمون بها في النوادي وفي المحافل وفي جميع اللقاءات، وبعد حركة الإصلاح أو ما يوصف عند عموم المواطنين بجمعية العلماء المسلمين.

*ظهر حزب آخر هو الحزب الشيوعي، وهذا خلال سنة 1936. هذا الحزب يحمل أفكارا لا تستجيب لطموحات الجزائريين ولا ترقى لمستوى آمالهم، ولرئيسه (توريز) خطرات هي أبعد ما تكون عن آمال وطموحات الشعب الجزائري، فهو يندد بالاستعمار من وجهة نظر شيوعية، لكنه يتنكر لوجود أمة جزائرية، ويرى أنها أمة في طور التكوين.

(1) الشيخ: عبد الحميد بن باديس فلسفته وجهوده في التربية والتعليم(مرجع سابق)، ص: 73.

* وخلال سنة: 1943 ظهرت حركة سياسية محترمة عناصرها يعدون من نخبة المجتمع أسسها الصيدلي: فرحات عباس، عرفت باسم: الاتحاد الديمقراطي للبيان، غير أن لهذه الحركة جذور أعمق تمتد إلى ما قبل تاريخ إنشائها بـ/ 20 سنة.

إن لهذه الحركة خصائص ومميزات تعرف بها، وهي كما سبق أن ذكرت أعلاه تعكس شخصية زعيمها بالدرجة الأولى... دعت في البداية إلى الاندماج بين الشعبين الجزائري والفرنسي بسبب انبهار مؤسسها بالحضارة الغربية، ففضل الاندماج على التحرّر وظل سجين هذه الفكرة مقتنعا بها "إننا مقتنعون أن العنف لن يحل أي مشكل"[1] فرحات. غير أن عباسا تراجع فجأة قبل اندلاع الثورة – سنة: 1953– عن هذا الموقف حين صرح قائلا: "لن ينفع مع الاستعمار سوى الرشاش" . غير أنه لم يلبث أن عاد إلى منهج الاعتدال الذي عرف به، انضم إلى الثورة سنة 1956.

وقد ساهمت هذه الحركات السياسية متفرقة أو مجتمعة في إيقاظ الوعي القومي وتوعية وترقية المجتمع وهيكلته، وفق منظور خاص أساسه القناعة المشتركة بين هذه الحركات بوجوب المحافظة على الشخصية القومية، بغض النظر عن تباين في المواقف بين هذه الحركات حول مسائل تعد جوهرية مثل: الاندماج، المساواة، التحرر... ولجميع قادة هذه الحركات مواقف ومحطات تاريخية يظل صداها يدوي في أسماع الجزائريين حينا من الدهر، وهذه المحطات تعكس في الغالب نظرة رؤسائها، ولا تعبر بالضرورة عن قناعات المناضلين المهيكلين تحت ألويتها.

ولعل أبرزها ذلك الموقف الخالد، للزعيم: مصالي الذي ألهبت تصفيقات المناضلين مشاعره الوطنية عندما كان ينشط تجمعا شعبيا في الملعب البلدي بالجزائر العاصمة يوم: 2 أوت 1936، فقام بحركة تمثيلية بارعة، حين مد يده ورفع من أرضية الملعب حفنة من التراب، وقال: "هذا التراب الزكي ليس للبيع" فكانت هذه الحركة أبلغ من قول كل خطيب، فاهتزت المدرجات بتصفيقات حادة تأييدا

(1) الثورة الجزائرية –سنوات المخاض– لـ/ محمد حربي، ص: 40.

للزعيم: مصالي، وأمست هذه العبارة حديث العام والخاص بين المناضلين في الحركة الوطنية وخارجها.

وبالرغم من المكانة المتميزة التي كان يحظى بها رجل الإصلاح ابن باديس والسمعة التي تتمتع بها حركته الإصلاحية، فإن مشاركته في وفد رسمي انبثق عن المؤتمر الإسلامي والذهاب إلى باريس لتقديم جملة من المطالب بعضها يكرس فعل الاحتلال، ثم تصريحه بعدها بأن "الشعب الجزائري شعب ضعيف ومتخلف، فهو في حاجة ماسة إلى حماية أمة قوية ومتحضرة تمكنه من السير قدما في طريق الحضارة والتقدم"[1] دون أن يكشف عن هذه الأم الرؤوم التي تقوم بدور الحاضنة لمجتمع يرزح تحت نير احتلال أمة أخرى تتغذى بالدماء كالعلقة. هذا الموقف من ابن باديس لا يعكس مشروعاته الإصلاحية العميقة ولا مضمون قصائده الشعرية ذات الصدى الواسع.

فمن كان يبغي ودنا فله الكرامة والرحب ومن كان يبغي ذلنا فله المهانة والحرب

كما أنه لا يعكس مواقفه العدائية الصريحة للاستعمار. فقد قال مرة لجماعة من أنصار حركته ومريديه: "عاهدوني"، فلما أعطى له العهد بالمصافحة، قال: "إنني سأعلن الحرب على فرنسا عندما تشهر إيطاليا عليها الحرب... وروى تلميذ من تلامذته أنه كان يريد الخروج على فرنسا إلى جبال الأوراس، ليعلنها حربا على فرنسا لو وجد رجالا يساعدونه"[2].

الحزب الشيوعي: الحركة الشيوعية لا تتمتع بنفوذ واسع وسط المجتمع الجزائري لكنها تحظى ببعض التأييد من المعجبين بما يصفونه بالعدالة التي تميز النظام الاشتراكي مؤسس هذا الحزب "موريس توريز" يزعم توريز "أن الجزائر أمة في طور التكوين سيكون شعبها خليطا طريفا من عناصر أوروبية وأخرى عربية وبربرية يتمخّض دمجها عن جنس جديد اسمه: الجنس الجزائري، لكن هذه الأمة لم

---

(1) المرجع السابق، ص: 118.

(2) فلسفة ابن باديس وجهوده في التربية والتعليم(مرجع سابق)، ص: 233.

ترتق بعد إلى مستوى النضج"[1] فالسيد: "توريز" يتنكر لوجود أمة جزائرية عريقة ووطن قومي عرفت به هذه الأمة من قرون بعيدة.

حركة حزب الاتحاد الديمقراطي للبيان. تمتاز شخصية فرحات عباس مؤسس الحركة بتكوين سياسي محترم سمحت له بالارتقاء في الوظائف السياسية (مجالس) طوال عقود. ظل فرحات يتمسك بالارتباط بالمجتمع الفرنسي الذي تشبع بقيمه الثقافية وبفلسفته في الحياة وقد دفعه هذا إلى التنكر لانتمائه الحضاري، حين قال: "لن أضحي بحياتي من أجل الوطن الجزائري، لأن ذلك الوطن لا وجود له.. لقد سألت الأموات والأحياء فلم يخبروني عنه"[2]استفاق عباس بعد لأي وعرف أن المزج بين عناصر متنافرة ترفضه الطبيعة المادية لهذه العناصر، فقال بعد أن فقد الأمل في سلطة الاحتلال سنة: 1953 "لا يوجد أي حلّ خارج الرشاش... "[3].

هذه التصريحات أو هذه الأقوال الصادرة عن قادة حركات سياسية، ربما تكون قد أملتها ظروف سياسية ومعطيات آنية، كما هو الشأن بالنسبة لابن باديس وفرحات عباس الذي كان يعتقد بأن إرغام المستعمر (بالكسر) على الجلاء أمر دونه أهوال وكان تصوره سلبيا، غير أنه الخيار الممكن فقد جاء في تعليق له على الحدث صباح أول نوفمبر 1954 "إنها الفوضى واليأس والمغامرة"[4] ومهما تكن سلبية هذه الحركات، فمن الإجحاف التنكر لمواقفها الإيجابية وأدوارها في هيكلة المجتمع الجزائري وفي تأطيره وتوعيته وزرع الأمل في نفسه. فقد نشطت داخل كل حركة عناصر وطنية يرجع إليها الفضل في تمكين المجتمع الجزائري من استعادة وعيه بذاته والتطلع إلى الآفاق بعد سلسلة طويلة من النكسات أفقدت كثيرا من الجزائريين الأمل في إمكانية استرجاع السيادة الوطنية عن طريق العنف. فمن خلال التجمعات الدورية التي كانت تعقدها الأحزاب السياسية على اختلاف مشاربها

(1) المرجع السابق، ص: 113-133.

(2) الثورة الجزائرية -سنوات المخاض(مرجع سابق)، ص: 133-هـ

(3) نفس المرجع، ص: 142.

(4) الثورة التحريرية -للمؤلف-، ص: 126.

وقناعاتها مع قواعدها النضالية من أجل توعية المواطن وترقيته وتكوينه سياسيا برزت عناصر لامعة ومغامرة في آن واحد تغذت بأفكار جديدة ومفاهيم وألفاظ ذات دلالات سياسية مثل: الوطن الجزائري، الاستعمار الفرنسي، الثورة التحريرية، الاستقلال، الحرية... ومن خلال معرفتهم لدلالاتها اللفظية وأبعادها السياسية ارتقى مستواهم الفكري في المجال السياسي، كما عرفوا خلال الانتخابات التي جرت في الأربعينيات لونا جديدا من ألوان الصراع السياسي مع الاستعمار من أجل الفوز بمقاعد في البلديات أو في المجلس الجزائري، وبما أن الصراع حولها لم يكن صراع أفكار وفلسفات وبرامج، بقدر ما هو صراع أحزاب وقوميات (جزائري-فرنسي)، فقد ساهمت هذه الانتخابات في إيقاظ الحس الوطني لدى المواطنين وتعصبوا لفائدة أحزابهم، وكثيرا ما كانت تسفر عن مناوشات وخروج عن الطاعة فمتابعات قضائية من قبل السلطة الاستعمارية. السلطات الفرنسية كانت تتابع بإمعان التحولات السياسية والفكرية عموما على الساحة الوطنية، وقصد الحد من التطور الإيجابي المحتمل لهذه التحولات كانت تسارع إلى حل هذه الأحزاب وتصفها بالمتطرفة وتوقف وتسجن أو تنفي رؤساءها، كما حدث خلال أحداث الثامن من ماي 1945 ورغم أن السلطة تستغل شبكة واسعة من المخبرين في أوساط السكان إلا أنها لم تكن تقدر خطورة الوضع، وكانت تعتقد بأن كل ما سوف يترتب عن هذه التحركات لن يهدد بأي شكل من الأشكال الوجود الفرنسي في الجزائر "إن فرنسا هنا وهي هنا إلى الأبد"[1] من خطاب لِدُوغول 6 جوان 1958 بوهران، فإلى هذه الأحزاب السياسية يرجع الفضل في ترقية المواطن وفي إعداده للعمل العسكري لخوض حرب طويلة أثمرت الاستقلال الوطني.

نشاط الحركة الوطنية في الأوراس :

الأوراس منطقة جبلية معزولة ومنغلقة على نفسها، كانت تشكل منذ القديم ملجأ وملاذا للمبحوث عنهم بسبب نشاطاتهم المعادية للأنظمة الحاكمة، وبقيت...

(1) النصوص الأساسية لجبهة التحرير الوطني (1954-1962)، ص:162.

مهربا فقط للمغضوب عليهم والثوار الساخطين على النظم القائمة" حسب تعبير الدكتور: سعد الله، كانت الأوراس تعرف مع المناطق الشبيهة بها بمناطق الطرد البشري. توجد بها بعض الزوايا، غير أن مجال نشاطها محصور في المجال الاجتماعي والديني، إذ لا توجد بعمق الأوراس مدن ذات أهمية أو مراكز حضارة وعمران تستقطب الشرائح المثقفة لتكون بمثابة منارات إشعاع لتنوير فكر المجتمع، وحيث تنتشر الصحف ووسائل إعلام مختلفة لتساهم في ترقية الإنسان الأوراسي الذي ظلت البداوة هي السمة المميزة له إلى أن انجلى عن الوطن الاستعمار. فكانت مساهماته في النشاط السياسي -مرحلة اليقظة- محدودة جدا لقلة العناصر المنتمية لهذه الأحزاب وجلهم من ذوي المستوى الفكري الضحل أو عديمي التكوين أصلا، مثل: المغتربين، ونستثني من ذلك بعض العناصر التي تشرّبت القيم الوطنية منذ الصبا، مثل: ابن بولعيد الذي كان قد عرف هذه التنظيمات في فرنسا، ونشط في التنظيم النقابي وابن مهيدي ولغرور وعجول... وقد امتد النشاط السياسي إلى الأوراس عن طريق ممثلي الحركات الوطنية التي راحت تتسابق لكسب أكبر عدد ممكن من المناضلين. ومن غرائب الصدف أن تقوم سلطة الاحتلال بنفي مواطنين مناضلين أوفياء للحركة الوطنية بسبب نشاطاتهم السياسية خلال سنة: 1940 إلى بلدة آريس، بعد أن أفرج عنهم من سجن: "لامبيز" المشهور، وكان بين هؤلاء المناضلين 1-محي الدين بكوش -العنابي- 2-والعربي روله من جيجل ومناضلين تونسيين، فكان محي الدين بكوش والعربي روله أول من أيقظ الضمير الوطني، وأعاد إلى النفوس المحبطة الأمل في انبعاث الحياة السعيدة من جديد عند سكان بلدة آريس، فاقتنع بالفكرة مواطنون مخلصون فأسرعوا إلى تدارك المجتمع قبل السقوط. وناضلوا من أجل القضية الوطنية بحماس، فقد كانوا لا يجيدون فلسفة الأحداث أو الغوص في المعاني، لكنهم كانوا يعرفون أن هذا الوطن وطنهم وأن الاستعمار دخيل ومغتصب لهذه الأرض. وخلال هذه الفترة -بداية الأربعينات- ظهر شخص ابن بولعيد الذي انخرط كمناضل في الحركة، غير أن نشاطه الحثيث كشف عن عبقرية فذة سمحت له بأن يرتقي بسرعة في مناصب المسؤولية وأن يتبوأ

الصدارة خلال سنوات قليلة من النضال، فبسعة صدره وبعد نظره وقدرته على الإقناع، استطاع أن يوحّد أعراشا كانت متناحرة وأن يطوع عناصر كانت توصف بالخارجين عن القانون ولها سوابق عدلية لتنضم إلى الحركة وتتخلى عن السلبيات التي اشتهرت بها، فتجند الجميع للمصلحة العليا ولخدمة القضية الوطنية.

الإنسان الأوراسي لا يتعمق في التحليل ولا يطيل النظر والتفكير عندما يتعلق الأمر بالبديهيات، لكنه يجمع بين الفكر والنظر والتطبيق، عندما يتعلق الأمر بمسائل تمس بالكرامة. فبمجرد أن اقتنع بالمشروع الداعي إلى الإعداد للثورة شرع كل مناضل في إعداد العدة لإنجاح المشروع، واستبطأ الموعد بالرغم من الإمكانات المحدودة التي يتوفر عليها.

لجوء إطارات ومناضلي المنظمة الخاصة إلى الأوراس :

الأوراس منطقة متميزة "ظلت تمثل حصنا منيعا للثورات والقطيعة مع الإدارة الاستعمارية فكانت حقاً تمثل مهداً للمقاومة، وكان الفرنسيون قد فهموا ذلك منها، وبدل أن يعملوا على إخضاع الأوراس اكتفوا بمحاصرته وتجريده من إمكانات الثورة عليهم اقتصاديا وعلميا وأبقوه على الهامش"(1). فقد لجأ إليه العديد من مناضلي الحركة الوطنية -إطارات المنظمة الخاصة- المتشبعين بالفكر الأيديولوجي لحزب الشعب الجزائري الداعي إلى النضال من أجل التحرر الكامل من ربقة الاستعمار بدل البحث عن المساواة والاندماج بين الشعبين والاستفادة من الجنسية، وهذه لا تعكس طموحات الشعب الذي ظل يرفض أن يشرك معه في وطنه أحدا... وتمثل المنظمة الخاصة الذراع العسكري لحركة انتصار الحريات الديمقراطية، تقرر إنشاؤها خلال مؤتمر استثنائي لحركة الانتصار انعقد يوم: 5 فيفري 1947. وقد انضم إلى المنظمة خلال فترة نشاطها القصيرة من 5 فيفري 1947 إلى 18 مارس 1950 ما يزيد عن ألفي مناضل، وهذا العدد لم يتمكن قادة الثورة من

(1) أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر: أبو القاسم سعد الله، الجزء الخامس، ص: 299.

جمعه غداة اندلاع الثورة-1 نوفمبر 1954. نشطت عناصر المنظمة الخاصة في جمع السلاح والتدريب على استعماله. وقد مرت خلال فترة نشاطها بظروف صعبة، سيما بعد أن قطع عليها الحزب التموين. وكانت طلائع هذا التنظيم على أتم الاستعداد للقيام بالثورة قبل الموعد الذي تعين فيما بعد من قبل القادة الستة -مفجري الثورة- لولا ما حدث من وشاية أدت إلى اكتشاف المنظمة، فسارع البوليس الفرنسي إلى القبض على معظم عناصر التنظيم، سيما الإطارات المعروفة، ولولا الأسماء المستعارة التي انتحلها بعض إطارات المنظمة لكان الخطب أعظم. وقد اختلف المؤرخون في اسم الشخص الذي أفشى أسرار المنظمة أهو عبد القادر أم رحيم خياري أم أنهما اسمين لشخص واحد؟ وهذا الشخص حسب الدكتور: محمد العربي الزبيري مناضل ومسؤول بالحزب اتهم بالتعاون مع الشرطة الفرنسية في "تبسة" فأرسل محمد العربي بن مهيدي عناصر من المنظمة الخاصة للقبض عليه ومعاقبته، ولكن العملية باءت بالفشل، وأدى إلقاء القبض على اثنين من المنظمة إلى تعرية الشبكة"[1]، غير أن الزبيري لم يكتف بسرد ما حصل، فقد علق على الحدث متهما قيادة الحزب بإفشاء أسرار المنظمة، لأنها لم تكن ترغب في قطع جميع العلاقات مع الإدارة الاستعمارية لأجل ذلك فإنها لم تعط الإشارة الخضراء لخوض المعركة الحاسمة"[2] ويعزز هذا الرأي رفض قيادة الحزب محاولة إعادة بعث التنظيم من قبل بعض الإطارات التي نجت من الاعتقال سنة: 1951.

أفشى المعتقلون أسرار المنظمة مما مكن البوليس الفرنسي من إلقاء القبض على كثير من مناضلي المنظمة على مستوى كامل التراب الوطني، ولم تنج كلية إلا منطقة الأوراس التي سيكون لها شرف احتضان النواة الأولى للثورة من قادة هذه المنظمة وستكون بحق مهدا للثورة، إذ لم يتمكن الأمن الاستعماري من التعرف على عناصر

(1) الثورة في عامها الأول (مرجع سابق) للدكتور: محمد العربي الزبيري، ص: 79.

(2) نفس المرجع، ص: 80.

المنظمة في الأوراس عموما "وكأن القدر قد هيأها فِعلاً لاحتضان من سيفرون من سجن عنابة ممن ألقي عليهم القبض بتاريخ 21 أفريل 1951"[1] -حسب تعبير أحد قادة هذه المنظمة- عمار بن عودة.

لم يجد الناجون من قبضة البوليس الاستعماري من إطارات المنظمة ملجأ يلوذون به سوى الأرواس الأشم. وتتكون مجموعة الهاربين من سجن عنابة حسب الراوي: ابن عودة من: 1-عمار بن عودة 2- زيروت يوسف 3-بركات سليمان 4- بكوش على الباقي اتجهوا فور نجاتهم إلى "أسمندو" فلما علم مصطفى بن بولعيد بذلك استقدمهم إلى الأوراس ووفر لهم الإقامة والأمن الضرورين، وكان قد سبقهم إلى الأوراس كل من: 1-رابح بيطاط 2-عبد السلام حباشي 3-لخضر بن طوبال 4-محمد بن جدو وكان المشرف على هذه الجماعة من إطارات المنظمة المناضل: إبراهيم حشاني المعروف حركيا بـ/ اسم: سي الصالح، مع العلم بأن هناك مناضلين آخرين تمكنوا من الفرار إلى فرنسا خفية، وهناك استأنفوا نشاطهم السياسي وسط العمال المهاجرين. يقول ابن عودة في استجواب أجرته معه جمعية أول نوفمبر لحماية وتخليد مآثر الثورة في وصف مناقب الشهيد: مصطفى بن بولعيد الذي استقدمهم إلى الأوراس بأنه أحسن استقبالهم "فلم يبخل عليهم لا بالمال ولا بالرجال ولا بحماية الشعب فوفر لهم الأمن والاستقرار، بل راح أبعد من ذلك حيث استخرج لبعضهم بطاقات تعريف مزيفة بواسطة المناضل: محمود بن عكشة-عضو المنظمة- الذي كان يعمل موظفا لدى المحاكم بأسماء مستعارة ضمنت لهؤلاء المناضلين نوعا من التغطية في الأوراس وقدرا من المرونة في الحركة فراحوا يتنقلون بين رحابها بحرية"[2]... ويعود ابن عودة بذاكرته لتلك الأيام، فيقول نيابة عن زملائه "وكانت لهم في الأوراس ذكريات قلما يجود الزمن بمثلها، استأنفوا النضال وعايشوا شعب الأوراس واطلعوا على إخلاص أبنائه، فازدادوا

(1) رواية مصطفى بن عودة، مصطفى بن بولعيد والثورة الجزائرية، إنتاج جمعية أول نوفمبر، ص: 555.

(2) نفس المرجع.

ثباتا ورسوخا وشاركوا مناضلي الأوراس فقرهم وآلامهم وحرمانهم من متع الحياة وتمتنت بينهم وحدة النضال والمصير المشترك"[1] وبعد أكثر من سنتين من الإقامة في الأوراس (1950-1952) أقدمت قوات الاحتلال على تنظيم حملة تفتيش واسعة لجبال الأوراس شارك فيها زهاء 800 جندي من الحرس المتنقل بحثا عن هؤلاء المناضلين الذين ربما تكون بعض المعلومات قد تسربت إلى مصالح الاستعمار بوجودهم في الأوراس، وبمجرد أن بدأت هذه الحملة تلقوا أمرا بمغادرة المنطقة على الفور على أن يعود كل مسؤول (مناضل) إلى مكان إقامته الأصلية.

وإذا كان ابن عودة قد أثنى على الأوراسيين الذين أكرموا وفادتهم وأحسنوا استقبالهم فضمنوا لهم الإقامة ووفروا لهم أسباب العيش في أمن وسلام. فإن لهؤلاء المناضلين فضلا على الأوراسيين، حيث ساهموا في تعميق الفكر الثوري في نفوسهم فأقبلوا عليهم بصدور رحبة وآذان صاغية وقلوب مفتوحة، فتعلم الكثير من السكان أبجديات النضال على أيديهم، فكانوا طوال مدة إقامتهم بمثابة مدرسة تكوين متنقلة بين الأدغال، وتحت ظلال الكهوف وأشجار السنديان بسفوح: شيليا والهارة وخنقة أمعاش والحجاج، ويابوس... وبعد ألا يحق للأوراسيين أن يزعموا بعد هذا أنهم من وضعوا اللّبنات الأولى للثورة.

خيبة أمل الأوراسيين في بعض رواد الحركة:

تجلت خيبة أمل الأوراسيين في مواقف صدرت عن بعض الشخصيات ممن تكرمت باستقبالهم وإيوائهم دون منة أو فضل، وكانت ترى في ذلك واجبا وطنيا يمليه الشعور المشترك. وقد أظهرت هذه الشخصيات من التفاني في خدمة القضية الوطنية طوال وجودها في الأوراس ما ظل محل إعجاب الأوراسيين. غير أن هذا الإعجاب كشف مع مرور الزمن عن صفحة أخرى شكلت خيبة أمل لدى الأوراسيين، عندما ارتقى بعض هؤلاء اللاجئين إلى مناصب عليا ثم إلى إطارات

---

(1) المرجع السابق.

سامية مسؤولة في لجنة التنسيق والتنفيذ وفي الحكومة المؤقتة بعدها... واستحال إلى نقمة من قبل هؤلاء المسؤولين، بعد أن حدث نوع من الشغور في منصب القيادة على إثر استشهاد: مصطفى بن بولعيد ليلة: (22-23) مارس 1956، وما تلاه من اضطرابات ظاهرها السهر على المصلحة العليا للثورة وباطنها التنافس على منصب القيادة والبحث على صيغة لسد الشغور من قبل عناصر فاقت طموحاتها أحجامها، فعندما وصلتها قرارات الصومام الذي لم تتمكن من المشاركة فيه أظهرت التحفظ ثم الاعتراض، وقد بلغ العناد الذروة عندما ظهرت على الساحة عناصر بارزة من الوفد الخارجي راحت تغذي هذا الصراع لأغراض لا تمت للمصلحة العليا للثورة بنسب أو صهر مثل: السيدين: أحمد بن بلة وعلي محساس...

انتظر الأوراسيون طويلا من هؤلاء الإطارات التدخل لإنهاء الأزمة قبل تفاقمها بين عدة أطراف داخل الأوراس، بعض العناصر الفاعلة والمثيرة للأحداث كانوا من السابقين الأولين في الحركة الوطنية، فحازوا في البداية على ثقة الجميع وكان الكل يكن لهم الاحترام والتقدير... وما لبث هذا الصراع الذي كان صراع مواقع-عمر في الأوراس الغربي، عجول في الوسط والشرق، عباس لغرور وأشريط في شرقي الأوراس- أن تحول إلى تشنج في العلاقات بين هذه الأطراف وقد امتد هذا التشنج إلى الوحدات وإلى صغار الضباط... وعندما لم يتمكن موفد لجنة التنسيق والتنفيذ الرائد: عميروش من إيجاد صيغة للتسوية تعيد الاستقرار للولاية الرائدة، راحت قيادة الثورة التي تتمثل آنذاك في لجنة التنسيق والتنفيذ بواسطة ممثليها: عمر أو عمران ومحمدي السعيد تستدعي قادة الوحدات الرافضة لقرارات الصومام ومناوأة المدافعين عنها، وعند مثول هؤلاء القادة أمام ممثلي اللجنة الذين لا يعرفون حقيقة أبعاد الأزمة في الأوراس، وأمام الإصرار الذي أبداه هؤلاء المسؤولين المحليين وبخاصة أولئك الذين حضروا اجتماع 15 ديسمبر 1956 بتونس (محضر اجتماع معارضي الصومام).

محضر اجتماع القادة المعارضين لقرارات الصومام

ولاية الأوراس

رسالة موجهة من مسؤولي الشرق وأوراس

إلى المسؤولين. . . خنشلة ( ) المبروك

بعد التحية الوطنية والتحية العسكرية الخالصة

وبعد،

أيها الإخوان ننبئكم أننا تلاقينا مع السيد، ابن بولعيد (عمر) داخل تونس وتحادثنا على الأمور الهامة بعدما وجدنا الشيء الذي استطاع المؤتمر المنعقد داخل الجزائر.

على أنه ضد للقيادة العليا الموجودة في الشرق (أي النظام الثوري وضد الأخ ابن بله) وأن أعينهم بان ينزعوه ولم يعترفوا به وبان يمحوا أثره لم يوجد بعدما سمع به العالم، وسمعت الجزائر جميعها أمام العالم العربي والأوروبي واليوم هيّنوا ذلك الشرف فعلى هذا كل مسؤول أن ينتبه للنظام الثوري وأن يقف كل مواقفه الخاصة.

و أن يحارب كل مشوش داخل النظام وخارجه.

و من أيّد هذا المؤتمر وتبعه ألقوا عليه القبض حينا .

و من أنذر فقد أعذر

ولكم التحية من إخوانكم السادة

1) عمارة بوقلازه مسؤول عن منطقة سوق أهراس.

2) عبد الله بلهوشات مسؤول عن منطقة صدراتة.

3) الأزهر أشريط مسؤول عن منطقة تبسة.

4) المسعود بن عيسى مسؤول عن منطقة أوراس.

5) عمر بن بولعيد مسؤول عن منطقة أوراس.

6) الباهي شوشان مسؤول عن منطقة خنشلة.

7) بلعيد حوحة مسؤول عن منطقة خنشلة.

و أعضاء اللجنة التونسية كافة.

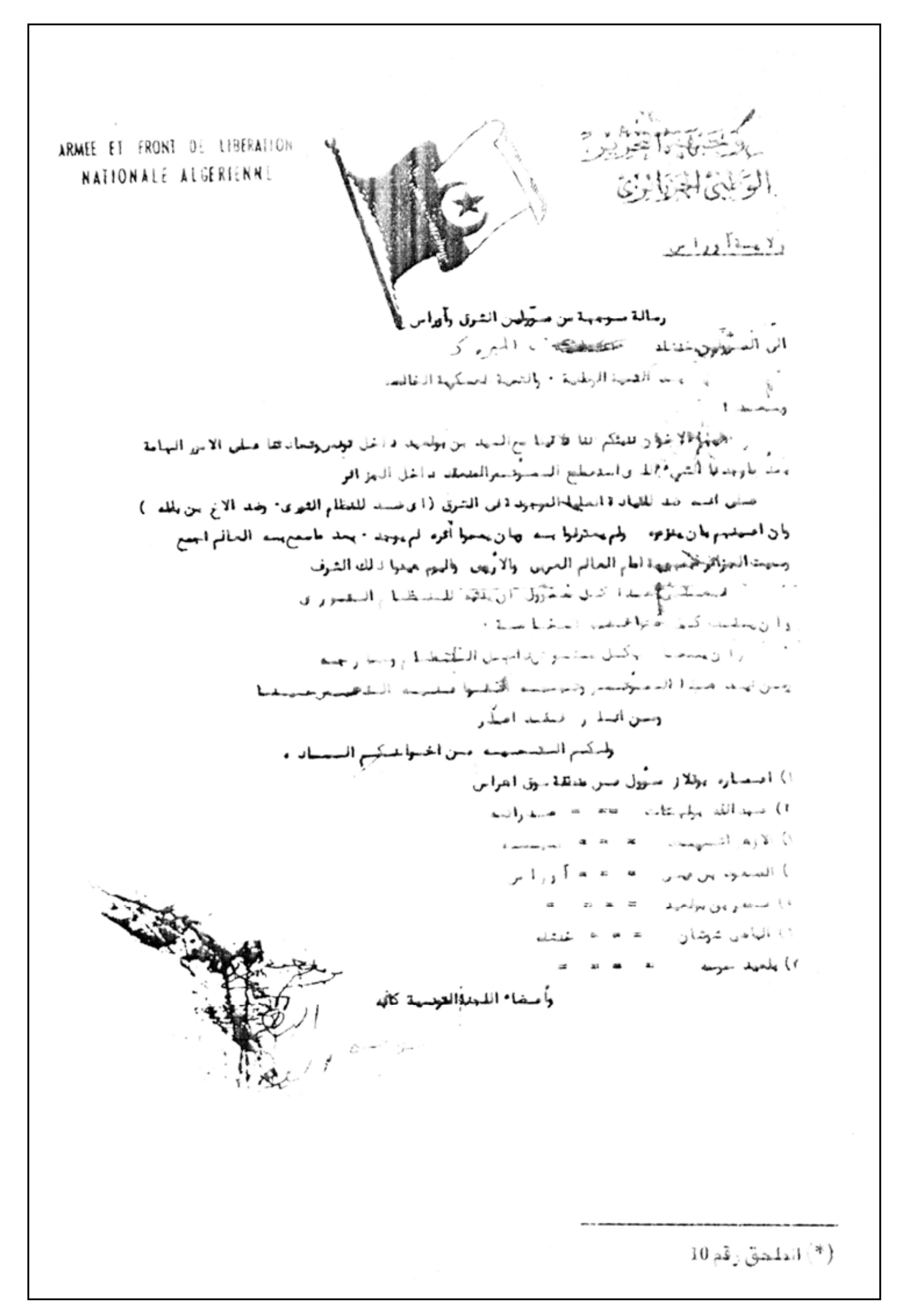
الخاتم والتوقيعات

ملاحظات:

*تاريخ ومكان انعقاد الاجتماع غير محدد والراجح أنّه وقع في 15 ديسمبر 1956.

*لغة الرسالة مزيج بين الدارجة المهذبة والفصحى.

*نقلنا الرسالة لغرض التوضيح وأبقينا على نفس الأخطاء.



ARMEE ET FRONT DE LIBERATION
NATIONALE ALGERIENNE

جيش وجبهة التحرير
الوطني الجزائري

ولاية أوراس

رسالة موجهة من مسؤولي الشرق وأوراس

الى المسؤولين [illegible] المركز

[illegible] القضية الوطنية والتحية [illegible] الخالصة

وبعد !

ان الاخوان [illegible] لقاء مع السيد بن بولعيد داخل [illegible] على الامور الهامة منذ ما وجدنا الشيء [illegible] واستطعنا [illegible] المؤتمر المنعقد داخل الجزائر

[illegible] للقيادة العليا الموجودة في الشرق (اي ضد النظام الثوري ضد الاخ بن بلة) وان [illegible] لم يعترفوا به [illegible] لم يوجد [illegible] العالم اجمع [illegible] امام العالم العربي والاوربي واليوم [illegible] ذلك الشرف

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible] من اخوانكم [illegible]

1) [illegible] مسؤول عن منطقة سوق اهراس
2) عبد الله بلهوشات = = [illegible]
3) لازهر [illegible] = = = تبسة
4) [illegible] = = = أوراس
5) عمر بن بولعيد = = =
6) الباهي شوشان = = = خنشلة
7) بلعيد [illegible] = = =

وأعضاء اللجنة [illegible] كافة

(*) الملحق رقم 10

رسالة موجهة من مسؤولي الشرق وأوراس

أصدر ممثلوا اللجنة في حقهم أحكاما وصفت بأنها كانت في منتهى الشدة والقسوة(التوقيف، السجن، الإعدام)... وهكذا ذهب ضحية هذا الصراع بين العصب (ابن بله، محساس، عبان...) أبطال غرر بهم، فأوذوا ولعنوا وشردوا أو سجنوا ثم أعدموا... وكان بإمكان قادة مثل: مصطفى (عمار) بن عودة وعبد الله بن طوبال، ظل الأوراسيون ينتظرون منها الوفاء عند المحن، بعد أن تبوأوا مناصب قيادية في هرم السلطة أن يكونوا شفعاء لهم عند هؤلاء القادة الأجلاف ممن لم تدس أقدامهم أرض الأوراس طوال حياتهم، فاعتبروا الصراع صراع أفكار ومبادئ وتعاملوا مع المستقدمين من قادة الأوراس بجفاء وغلظة، فعز على هؤلاء القادة أن يهانوا ويلعنوا ويضربوا ويسجنوا من قبل قادة لا يعرفون لهم مكانتهم، فلما انصرفوا (نجو) عادوا إلى قواعد نشاطهم، وقد عزموا على محاربة ما كانوا يصفونه بالنظام أو الجبيهة على حد تعبير" مسعود عائشي "ويمكن أن نستدل بمثال واحد، لكنه قد يثير الفزع والجزع عند ذكره استقيناه من كتاب: شاهد على الثورة في الأوراس للرائد: هلايلي محمد الصغير: الصفحة: 349.

يصف الرائد :هلايلي موقف العقيد: ابن طوبال في ما يوصف بمؤامرة العقداء فيقول "أن ابن طوبال، وكان من أبرز المناضلين الذي شاء لهم القدر أن يقيموا بالأوراس طوال سنوات المطاردة من قبل البوليس الاستعماري (1951-1952) "أن القائد الكبير"ابن طوبال لم يكتف بإصدار حكم الإعدام على إخوانه قادة الأوراس... جماعة لعموري... الذين فرقت المسؤولية بينه وبينهم، بل تعدى ذلك إلى القيام بجلدهم بالسوط كالبهائم في السجن بعد أن أضربوا عن الطعام احتجاجا على أوضاعهم المزرية، وهو ما دفع السجين: عمار بلعقون أحد أقارب الشهيد الرمز ابن بولعيد إلى مخاطبة الوزير: ابن طوبال بقوله: "نعم من حقك يا عمي عبد الله بن طوبال أن تجلد من كانوا بالأمس في الأوراس يؤثرونك على أنفسهم وأولادهم ويقدمون لك الجوز والعسل، فلا يهمك عمي سي عبد الله، فنحن نستحق منك ومن غيرك أكثرمن الجلد لأننا مكناكم من أنفسنا، عندها سقط السوط من يد سي

عبد الله بن طوبال، وغادر مع كريم السجن"[1] ويضيف الرائد: هلايلي "وما يقال عن ابن طوبال يقال عن ابن عودة -عضو مجموعة 22- الذي كان يتطوع للتحقيق مع الأوراسيين المسجونين"[2].وللأمانة التاريخية فإن ابن طوبال لم يرد اسمه ضمن تشكيلة المحكمة العسكرية التي شكلت من طرف القيادة لمحاكمة جماعة: لعموري، والتي ترأسها بومدين في بلدة "قنبلاط" التونسية وقد استغرقت 15 يوما، وانتهت دون الإعلان عن الحكم أمام الحاضرين، "غير أن الذي حدث أن الأحكام صدرت ولم تعلم بها هيئة الدفاع إلا من خلال إحدى النشريات التابعة لجبهة التحرير الوطني"[3] ولا شك أن الذي أصدر الحكم من خلف الستار هم: الباءات الثلاثة وابن طوبال أحدهم، والذي يعاب عنه هنا موقفه اتجاه مناضلين أكرموا وفادته وأحسنوا معاملته.. فقد ترأس قبل هذا التاريخ تشكيلة محاكمة أشريط لزهر وناب عنه ابن عودة، وكان بإمكانهما أن يستعفيا من ذلك.. فكان للأوراسيين شرف احتضان إحدى نوى الثورة وتعهدها ورعايتها وسط مناخات ثورية متميزة وكانا من بين عناصرها.

الفارون المزيفون إلى الأوراس :

وكان قد سبق أعضاء المنظمة الخاصة الذين لجأوا إلى الأوراس فرارا من ملاحقة البوليس الاستعماري لهم سنة: 1950، ثلاثة نفر زعموا أنهم فروا من مطاردة البوليس الفرنسي بسبب نشاطهم السياسي، واختاروا اللجوء إلى الأوراس لطلب الحماية، وهذا سنة: 1948، فاعتقد السكان أنهم كذلك، فأكرموا وفادتهم وأحسنوا استقبالهم. أبعد اثنان منهم إلى ضيعة ابن بولعيد بفم الطوب بعيدا عن أعين المخبرين والمتتبعين لتطور مسار الحركة الوطنية، ثم نقلا بعدها إلى قرية: الحجاج عند المناضل: عزوي مدور أحد العناصر النشيطة في الحركة ثم إلى المدينة

(1) شاهد على الثورة في الأوراس للرائد: هلايلي محمد الصغير، ص: 349-350.

(2) نفس المرجع، ص: 350-351.

(3) مذكرات العقيد: الزبيري آخر قادة الولاية الأولى التاريخيين، ص: 204.

(قرية) عرف هذان الشخصان بأسماء لم يتأكد الناس يومها من صحتها أهي أسماء حقيقية أم مستعارة، ولم تحم حولهما الشبهة في أي لحظة من اللحظات تثير الشكوك حول هويتهما التي لم تتضح إلى أن غادرا المنطقة.

أما الشخص الثالث واسمه ناصر، فقد أودع عند المناضل: بلقاسم بورزان بقرية الحجاج، ثم عند أحمد عزوي بنفس القرية، ومن الحجاج نقل إلى مدينة بسكرة عند ميلودي أحمد باسم: عنترة حيث بقي مدة، لكنه عندما عبر عن شعوره بالقلق وأظهر عدم الارتياح، أعيد مرة أخرى إلى آريس باسم عنترة وليس باسم ناصر الذي عرف به وأودع عند بلقاسم أسمايحي، فاطمأن السكان لوطنيته... فأعدوا له بطاقة هوية مزيفة باسم: محمد أسمايحي بواسطة المناضل: محمود بن عكشة الذي كان يعمل في مصالح الحاكم، فأدمج وسط السكان وصار منهم، فكان يركب الدراجة ويتنقل من مكان إلى مكان، ولم يتفطن أحد إلى النشاط الذي كان يمارسه كجاسوس محتمل، وعندما أعلن الحاكم في آريس عن منحه لمكافأة تقدر بمليون فرنك لمن يتطوع لقتل: مسعود بن زلماط (الثاني) فار من العدالة. تطوع بمعية اثنين من سكان المنطقة وتمكنوا من الغدر به في جبل شيليا، حيث قاموا بقطع إصبعه لغرض تقديمه للحاكم كدليل ملموس يؤكد حصول فعل القتل وذهبوا به إلى الحاكم لغرض تسلم المكافأة، وهنا انكشف أمره، فأباح بمن زور له بطاقة التعريف، لكنه تمكن من الإفلات وغادر المنطقة اتجاه العاصمة... وقبل أسبوع من اندلاع الثورة، وعندما كان ابن بولعيد يتنقل في شوارع العاصمة التقى على غير موعد بعنترة، فرثي لحاله، وهو لا يعلم عن أمره شيئا فأمده ببعض المال واتفق معه على أن يلتقيا فيما بعد في مقهى (بلاص شارتر) ساحة عمار القامة حاليا، فألهم الله ابن بولعيد أن شاور في الأمر عيسى أكشيده الذي كان ينزل عنده ضيفا في العاصمة في إطار التنقلات التي تقتضيها مهامه، فأشار إليه عيسى أكشيده بأن يرسل بدلا عنه ابن أخيه... وما إن دقت ساعة اللقاء حتى كان المقهى مطوقا بالبوليس على أمل القبض على ابن بولعيد. وقد حدث هذا بتاريخ 22 أكتوبر 1954، قبل يوم واحد من

اجتماع الستة في "رايس حميدو" هذه العناصر حتى وإن لم تتضح بشكل قاطع مهامها تعد عناصر مشبوهة، فمن المجازفة التعامل معها قبل معرفة حقيقتها.

ومن بين العناصر الغامضة التي عاشت في الأوراس وساهمت في بعض نشاطات الحركة الرقيب: سليمان ويعرف أيضا بـ لاجودان / سليمان، قيل إنه صهر لشيحاني بشير، عسكري سابق مقيم بتلاغمة أقنعه شيحاني بالانضمام إلى الحركة الوطنية ففعل، فكان يحضر بل يعمل على تدريب المناضلين في الحركة على صناعة الألغام في ورشة أقامتها الحركة في ضيعة ابن بولعيد بأسلاف "فم الطوب" الأوراس، باسم مستعار(صن يات هو) أسندت إليه قيادة الثورة مهمة تتعلق بالتسليح في بسكرة أواخر سنة 1954. فتسلل منها إلى الجزائر العاصمة واختفى عن الأنظار، ويؤكد كثير من المجاهدين بأن هذا الفرار شكل صدمة نفسية أصابت شيحاني في الصميم، وزعم آخرون بأنه حاول اللحاق به فمنعوه... يقول عن هذا المرتد الكاتب: محمد عباس "بأنه مناضل من البويرة يحمل لقب: الهاشمي العربي، يذهب بعض المناضلين أنه كان يعمل لصالح الأمن الفرنسي منذ فترة وجوده بالبويرة، في حين يذهب البعض الآخر إلى القول أن فترة الإعداد للثورة فاجأته وهو يبحث عن الاستقرار العائلي انطلاقا من عمله في مطبعة الحزب، وقد يكون ذلك من عوامل فشله وخيانته، علما أنه تنسب إليه عملية الإيقاع ببيطاط قائد: المنطقة الرابعة في 16 مارس 1955"[1]، تقول بعض الروايات بأن الرجل عندما افتضح أمره ألقى بنفسه في البحر فهلك"[2]. والراجح أنه أعدم من قبل الجبهة.

الأوراس مهد الثورة:

قد يكون من الصعوبة إزالة قناعة ترسخت في الأذهان، وتشكيل قناعة أخرى تحل محلها لترضي القائلين بأن الأعباء التي تحملتها مختلف المناطق في الوطن خلال الثورة كانت متكافئة وأن مقدار التضحيات التي ساهمت بها هي نفسها، فلا داعي

---

(1) خصومات تاريخية لـ/ محمد عباس، ص: 235 الهامش.

(2) ابن بولعيد والثورة الجزائرية، ص: 349.

أيضا لتفضيل منطقة على منطقة أو الإشادة بالدور الريادي الذي لعبته منطقة من المناطق، ولتكن الأوراس مثلا. فقد اجتهد أحد الأساتذة المحترمين ووصف من بعيد، وعن غير علم منه جسامة التضحيات لمنطقة كانت مصنفة لدى مصالح الاستعمار طوال مدة الاحتلال في خانة خطر! "بأنها فداحة وترويج له أثر سلبي على تماسك أمتنا"[1] حسب ما أورده الأستاذ: صالح لغرور في رده على المقالة التي نشرها الدكتور: رابح لونيسي فقد صعب على الدكتور الاقتناع بفضل السبق لمنطقة الأوراس في أثناء مرحلة الكفاح المسلح واعتبارها مهدا للثورة... فنحن لا نعد هذا تحاملاً من قبل الدكتور على منطقة تحملت الأعباء وحدها ما يزيد عن سنة، لأنه لم يعش الملحمة التي صنعها شعب الأوراس خلال السنتين الأوليين من الثورة، فقد ظهر إلى الوجود بعد اندلاع الثورة بست سنوات (1960) في حي من أحياء العاصمة. نشهد له بالبطولة والفداء في معركة الجزائر وما بعدها. ومع أن الذين أطلقوا العبارة (الإشادة) ليسوا أوراسيين طلبا للشهرة، بل معظمهم طرف في النزاع وعلى الطرف الآخر (فرنسيين). ولم تكن هذه العبارة وليدة الثورة التحريرية (1954-1962)، بل كانت شائعة ومستعملة قبل هذا التاريخ بسنوات طويلة. فمما جاء في رسالة، بعث بها السيد: "دو" عامل عمالة قسنطينة بعد انتفاضة عامي: 1916-1917 في غرب الأوراس إلى حكومته قصد إحاطتها بالوضع العام في المنطقة قائلا: "إن الأوراس مهد كل الثورات التي أحزنت المنطقة يجب أن نعتني بها ونراقبها، كما يجب أن نطفىء أي بؤرة تنذر بوشوك الثورة"[2] فعامل عمالة: قسنطينة التي كانت تشمل الشرق الجزائري بكامله تشكل لديه انطباع مجرد من كل عاطفة بأن الأوراس بالذات هي "مهد كل الثورات التي أحزنت المنطقة. فما الذي حمل عامل عمالة قسنطينة السيد: "دو" إلى الإدلاء بهذا التصريح ؟" لن يكون ذلك لغرض التنويه بالمنطقة والإشادة بها لاختلاف في المفاهيم وفي التصورات

(1) جريدة الخبر اليومية الصادرة بتاريخ: 11 ماي 2014، ص: 21.

(2) ثورة الأوراس / إنتاج جمعية أول نوفمبر بباتنة (1916-1917)، ص: 623.

والأهداف "ولكل وجهة هو موليها"، فهذه الحقائق قد لا يكون الدكتور ملما بها لبعدها الزماني والمكاني عن محيطه.. ولعل هذا التذكير يدفعه كأستاذ مادة إلى مراجعة هذه الحقائق في مصادر أخرى عربية أو فرنسية حتى تتضح له الرؤيا بأن الذين صنفوا الأوراس مهدا للثورة لم يكن ذلك تحيزا منهم للأوراسيين، لأنهم مصنفون كأعداء... وهم قبل كل شيء أجانب فرنسيين(*) وسنحاول تأكيد رأينا بأمثلة أخرى تنفي شبهة الإدعاء عن الأوراسيين، فقد جاء في كتاب الشيخ: عبد الحميد بن باديس، فلسفته وجهوده في التربية والتعليم للدكتور: رابح التركي، أن الشيخ: عبد الحميد بن باديس "حينما أعلنت الحرب العالمية الثانية، اجتمع به جماعة من أنصار حركته ومريديه، فقال: "عاهدوني" فلما أعطي له العهد بالمصافحة، قال: "إنني سأعلن الثورة على فرنسا عندما تشهر إيطاليا عليها الحرب، وروى تلميذ آخر من تلامذته أنه كان يريد الخروج على فرنسا إلى جبال الأوراس ليعلنها ثورة على فرنسا لو وجد رجالا يساعدونه"[1] والسؤال الذي يبحث عن إجابة، لماذا اختار ابن باديس الأوراس بالذات رغم بعدها المكاني عن مركز نشاطه ؟

وعندما اشتد عود الثورة في الأوراس استقدمت فرنسا ضباطا أكفاء خلال ربيع سنة: 1955 من مناطق مختلفة وكان أبرزهم آنذاك الجنرال: غاستون بارلنج القادم من منطقة "أغادير" بالمغرب ليتولى قيادة العمليات العسكرية رفقة الجنرال: "فانوكسام" فمما جاء على لسان بارلنج "الأوراس هي البؤرة الأهم" فكثف من جهوده لإخماد "الجذوة الرئيسية" حسب تعبيره "بنية وأد الثورة في المهد"[2].

نفس التعبير تقريبا ورد على لسان الرئيس: دوغول الذي زار عدة مناطق في الوطن بعد أن تولى الحكم سنة: 1958، عندما قال: "وفي 12 ديسمبر توجهت عن

(*) نفس الانطباع تشكل لدى الوالي العام "ليتو" الذي أكّد أمام البرلمان بأن ثورة الأوراس (1916-1917) كان ينتظرها الألمان.

(1) الشيخ: عبد الحميد بن باديس فلسفته وجهوده في التربية والتعليم (مرجع سابق)، ص: 213.

(2) نصر بلا ثمن لـ/ الأستاذ: محمد عباس، ص: 100.

طريق سطيف وتليرغمة (تلاغمة) إلى جبال الأوراس مهد الثورة وقلعتها"[1] لا نعتقد أن الرئيس: دوغول يريد الإشادة بالأوراس لوجود صلات وعلائق تربطه بسكانها أو بجبالها أو أنه أراد أن يدغدغ مشاعر الأوراسيين فيكسب ودهم لكنها الحقيقة كان قد عرفها فيهم فذكرها كما هي.

وقد تأتي هذه الإشادات غير المقصودة على لسان قادة عسكريين محترفين، أمثال العقيد: ديكورنو الموصوف ببطل الهند الصينية مع تسجيل فارق في الزمن حيث تولى العقيد: ديكورنو قيادة أعنف حملة شنت ضد الأوراس فيما يوصف عند السكان في الوطن بالحلف الأطلسي، نظرا لكثافة الحملة وحدتها، وهذا خلال شهري سبتمبر وأكتوبر 1960 إلى غاية اندلاع مظاهرات 11 ديسمبر في المدن فتراجعت الحملة لأسباب تكتيكية، وقد عرفت هذه الحملة بعملية "أرياج" استهلها ديكورنو بحديث مثير مع الصحافة في باتنة مع انطلاق الحملة قال فيه "الأوراس مهد الثورة وسيكون قبرها"[2] فهل هذا الاعتراف الصريح الذي جاء على لسان عسكري محترف نال وسام الشرف العسكري نوعا من المجاملة أو المغازلة خص بها سكان الأوراس وحدهم، مع أن العبارة تتضمن التهديد بالفناء.

وهناك أقوال أخرى صريحة تفيد ذات المعنى نطق بها قادة عسكريون فرنسيون، كما أن هناك تلميحات تعبر عن نفس المعنى والقصد، نقتطف أمثلة قليلة منها لنوضح الصورة أمام من يساوره الشك في الدور الريادي للأوراس.

فقد أطلق الجنرال: شاريير فور نزوله بالأوراس عبارته الشهيرة المنذرة والمحذرة لسكان الأوراس حين قال: "أنا ما جئت هنا لأجرد الشاوية من سلاحهم، لكني جئت أخيرهم على أي حطب يشوون".[3] وموطن الشاوية هو الأوراس وماحوله... وهذه العبارة أطلقها شاريير بهدف التأثير على نفسيات

(1) مذكرات "الأمل"للرئيس دوغول (مرجع سابق)، ص: 106.

(2) مذكرات آخر قادة الأوراس التاريخيين العقيد: الزبيري، ص: 249.

(3) حرب الجزائر لهنري آلاق -الجزء الثالث-، ص: 492.

المقاتلين والسكان عموما وإجبارهم على العودة إلى ديارهم حسب التعبير المتداول آنذاك. وكان هذا الجنرال قد استقدم من المغرب مع الجنرال: "بارلنج غاستون" مع بداية الأحداث، نظرا لخبرتهما العسكرية... ولكي يظهر الجنرال: شاريير جديته في التعامل مع المقاتلين "الثوار" بل حدته وجفاءه أطلق عبارة أخرى قال فيها: "إن التأني والضعف لا ينفعان في البلاد الإسلامية"[1]. وهذه التعابير من الجنرال: "شاريير" هي خلاصة لتقارير متشائمة دفعت الوالي العام إلى التأكيد في باتنة "بأن تصفية المنطقة والقضاء النهائي على التمرد يتطلبان شهورا عديدة بسبب ما يخلفه الميدان والمحيط من صعوبات متنوعة وكبيرة"[2] إن هذه الأقوال تنفي نفيا صريحا ما يوصف "بالضلالات الزائفة" التي ظلت تطبع بنوع من المبالغة رمزية نضال منطقة من مناطق الوطن أشاد بها الأعداء أنفسهم.

وقد ترددت العبارة "الأوراس مهد الثورة" لدى كثير من الكتاب والمؤرخين. ومن بينهم الضابط: هنري لومير في كتابه: حرب الجزائر، ويبدو أنه عايش الأحداث عن كثب من خلال وصفه لمجريات الصراع في جبال النمامشة شرقي الأوراس. والصحفي المؤرخ: إيف كوريير، في كتابه: حرب الجزائر كذلك. كما ورد ذكر الأوراس بنفس الوصف عند المجاهد: عمار قليل في: ملحمة الجزائر الجديدة الجزء الأول... قد لا تكفي التهديدات التي يطلقها قادة عسكريون من أعلى طراز على ثنى السكان عن التمرد المعلن. وقد لا تكفي الحملات العسكرية العنيفة التي راحت تشنها أكثر الفيالق أوسمة وشهرة بقيادة جنرالات يعدون من أحسن الضباط كفاءة وخبرة في ميدان الحرب وفي حرب العصابات بالذات. أمثال: الجنرال: بارلنج والعقيدان: "ديكورنو" و"بيجار" ونظرا لخيبة أمل هؤلاء الضباط وعجزهم عن الوفاء بوعودهم التي تعهدوا بها خلال حملتي: فيرونيك 19 جانفي وفيوليت 23 جانفي 1955. فقد خطرت ببال جاك سوستيل الوافد الجديد على

---

(1) الثورة الجزائرية في عامها الأول (مرجع سابق)، ص: 127.

(2) نفس المرجع.

الولاية العامة منذ 25 جانفي 1955 فكرة اللجوء إلى الحل عن طريق وسائل المكر والخداع، فاستقدم السيدة: "جيرمان تيليون" مثقفة لامعة مثل: سوستيل وباحثة في الأنتروبولوجيا كانت قد مضت ست سنوات كاملة في عمق الأوراس (1934-1940)، ولم يكن استقدامها لغض الاستشارة عن أسباب تمرد سكان منطقة تغلغلت بعيدا في أعماق مجاهليها حتى اعتقدت أنه لم يعد يخفى عليها من أمر أهلها شيئا. إنما كان ذلك لغرض تكليفها بإعداد دراسة علمية دقيقة لمجتمع خبرت ثقافته وعرفت تقاليده واطلعت على مكامن قوته وضعفه مع تحديد الأسباب التي دفعت به إلى التمرد والعصيان ثم البحث عن صيغة للتفاهم مع سكان الأوراس خاصة، وذلك لغرض عزل الثورة ومنعها من الانتشار إلى مناطق أخرى التي لم يصل إليها المد الثوري بعد، والسؤال الذي لا يحتاج إلى إجابة لأنها متضمنة في السؤال نفسه، فإذا لم تكن الأوراس هي مهد الثورة والقوة المؤثرة في سير الأحداث منذ اندلاع الثورة وما بعدها فلماذا كان التركيز عليها قويا وبكل الوسائل؟ ولماذا تصرف إليها كل الجهود، حملات عسكرية متعاقبة، فزيارات ميدانية لشخصيات على أعلى مستوى فاتصالات مختلفة قصد وأد الثورة في المهد على حد تعبير الجنرال: بارلنج.

إن مسألة المفاضلة بين منطقة وأخرى نعتبرها غير أخلاقية وهي غير واردة عندنا نحن سكان الأوراس، فالنضال عمل مشترك وكل المناطق قد أسهمت فيه بإمكانات تختلف بين منطقة وأخرى. غير أن هذا الإقرار منا لا يمنعنا من أن نسجل باعتزاز أننا نحن من أيقظ الحس الوطني لدى سكان المناطق المجاورة التي ظلت هامدة عندما كان الأوراس يلتهب نارا طيلة سنتي: 1954-1955، وسنشير إلى ذلك بدلائل تاريخية لا تقبل الطعن... ومنها أنّها كانت تمثل منطقة استقطاب للوطنيين الأقحاح المتعطشين للحرية الحالمين بجزائر حرة ومستقلة، فكان أن قصدها لغرض الجهاد في السنوات الأولى من خارج الأوراس عدد كبير من المجاهدين، ذكر منهم الرائد: هلائلي محمد الصغير -الرائد: اسماعيل محفوظ، صيدلي من الجزائر العاصمة، عبد السلام بن باديس طبيب من قسنطينة، يوسف اليعلاوي إمام من

بوقاعة سطيف، الحبيب خطاف من مستغانم، رابح وأحمد الوهرانيان، الأول من غليزان والثاني من مغنية، منصور رحال، مسؤول جهاز إرسال، حسين وقواق من الشلف، وآخرين غيرهم ممن لم ترد أسماؤهم عند الرائد: هلايلي في مقال نشرته له جريدة الشروق بتاريخ 14 أكتوبر 2006، وهؤلاء المجاهدون ممن ذكرهم الرائد: هلايلي كانوا قد نشطوا في المنطقة الثانية -الولاية الأولى- حيث تعرف عليهم المجاهد: هلايلي ولا شك أن هناك عناصر أخرى تنشط في المنطقة الأولى غرب الأوراس وفي المنطقة الرابعة ناحية: خنشلة... والسؤال الذي نطرحه بحدة مع أنه يتضمن الإجابة بين ثناياه كسابقه هو أنه إذا كانت الثورة قائمة في المناطق التي ينحدر منها هؤلاء المجاهدون في السنتين الأولى والثانية من الثورة، فلماذا اختاروا الأوراس لأداء واجبهم الوطني مع بعد المسافة وصعوبة التأقلم... ونستثني من ذلك الفارين من الوحدات العسكرية الفرنسية، كرابح وأحمد الوهرانيين، والصيدلي: محفوظ إسماعيل الذي جاء به ابن بولعيد لتنظيم شؤون الصحة في المنطقة الأولى (الولاية).

مساهمة الأوارسيين في تعميم الثورة وفي توسيع نطاقها :

وهو قرار كان قد اتخذه مصطفى بن بولعيد في اجتماع وقع بـ/ الحدور، في 25-12-1954 ضم أغلب القياديين"[1]، وعندما شعرت قيادة الثورة في الأوراس، خلال مرحلة اعتقال ابن بولعيد بكثافة وتعاقب الحملات العسكرية المركزة على الأوراس، وبالهمود النسبي أو الكامل للمناطق المجاورة، وعجزها عن تخفيف الضغط الذي تمارسه القوات الفرنسية على الأوراس. قررت هذه القيادة تطبيق قرار ابن بولعيد الموجود رهن الاعتقال بمحاولة فك الحصار عن نفسها بنفسها بواسطة سلسلة من الإرساليات لمناطق لا يعرف عنها جنودها شيئا، حيث تقوم بمناوشة المراكز الاستعمارية للعدو، فيجبره ذلك على التراجع إلى الخلف لتأمين

(1) مصطفى بن بولعيد والثورة الجزائرية (مرجع سابق).

قواعده وطرق إمداداته، فيخف الضغط على الأوراس، وفي إطار تطبيق هذه الخطة تم إرسال عدة فصائل من خيرة مجاهدي منطق الأوراس إلى المناطق المجاورة.

1-فرقة: قادها أحمد تيفورغي "المشهور بأحمد الأوراسي" إلى ناحية: سوق أهراس وجبال بني صالح التي كانت ملحقة بالمنطقة الثانية حسب التقطيع السياسي الذي تبناه قادة الثورة، غير أنها ظلت شاغرة. وقد أشاد بعناصر هذه الفرقة العقيد: عمارة بوقلازه أحد مجاهدي هذه الناحية في حوار أجرته معه مجلة أول نوفمبر العددان: 112-113 السنة: 1988 ص: 12.

2-فرقة قادها الشهيد: مصطفى رعايلي إلى ناحية: سطيف -قسم من سطيف ملحق بالولاية الأولى حسب التنظيم المعمول به إلا أنها خارجة عن الحيز الجغرافي للأوراس- ومما يرويه أحد جنود هذه الفرقة -مايزال حيا يرزق- أن جنود هذه الفرقة قصدوا أحد البيوت للتزود بالحاجات الضرورية، فلما علم سكان القرية بذلك راحوا يتسللون إلى المكان ويسترقون النظر إلى الجنود بداخل الدار، قصد التعرف على الطبيعة البشرية لهؤلاء الأوراسيين الذي أظهروا التمرد على فرنسا، يقول هذ المجاهد: تقدم شابان إلى باب الدار وراحَا يحدقان في وجوهنا، وفجأة التفت أحدهما إلى الآخر، وقال له بلهجة لا تخلو من التعجب والاستغراب: "مالك إنهم عباد مثلنا" ألا تدل هذه العبارة بكل ما توحيه على أن صدى الثورة آنذاك ظل حبيس منطقة الأوراس؟!

3-فرقة قادها الشهيد: عبد الحفيظ طورش إلى ناحية جبال: بوطالب ومنها إلى هضبة المعاضيد المتاخمة لحدود الولاية الثالثة. وقد كانت لها هناك ملاحم وبطولات مازالت أصداؤها تصل إلينا هنا في الأوراس.

4-فرقة قادها الشهيد: الصادق جغروري إلى ناحية الزاب الغربي وتوغلت بعيدا إلى أن وصلت إلى تخوم الجلفة.

5-فرقة قادها الشهيد: محمد عتماني إلى ناحية: أم البواقي، وقد استشهد أفرادها الثلاثين في جبل: لفجوج بعد معركة ضارية مع القوات الاستعمارية.

6-فرقة قادها الشهيد محمد عبدلي إلى شمالي الصحراء وصلت إلى مشارف تقرت.

وقد تواصلت هذه الإرساليات طوال السنوات الثلاثة الأولى للثورة إلى ما بعد مؤتمر الصومام وخاصة اتجاه الصحراء التي ظلت منطقة شاغرة اعتبرتها قيادات الأوراس امتدادا طبيعيا لها ووجدت نفسها ملزمة من الناحية الأدبية بسد هذا الشغور، فكان معظم جنود الولاية السادسة ينحدرون من الأوراس، وقصد ضمان فعالية واستمرارية النشاط الثوري بهذه الولاية حديثة النشأة (خلال مؤتمر الصومام) تنازلت لها الولاية الأولى عن جزء من ترابها..المنطقة الثالثة الممتدة من عين التوتة إلى ناحية بوسعادة وعلى السفوح الجبلية الجنوبية التي تتكون من جبال: أحمر خدو الحصينة وجزء من الجبل الأزرق وجبل: بني فرح بما تشتمل عليها هذه النواحي من تنظيمات وهياكل وجنود... ثم ألا يحق لأبناء وأحفاد هؤلاء الذين كانوا يوصفون بالفاتحين أن يشيدوا بأمجادهم وأن يذكروا للتاريخ دون منة (فذلك من فضل الله علينا وعلى الناس) بأنهم من قاموا بنقل الثورة إلى هذه المناطق... ودليلنا الذي لا نملك دليلا أوضح منه هي أسنمة قبور شهدائنا التي ظلت قائمة كشواهد في هذه المناطق وكثير منها مازالت تنطق بأسماء أو كنية أصحابها -فلان أوراسي- لجهل مواطني تلك المناطق بأسماء وألقاب المجاهدين الوافدين إلى المنطقة.

إن العبارة التي استخدمها الأستاذ، الدكتور: رابح -أكذوبة- تمثل طعنة صريحة في تاريخ منطقة تحملت الأعباء وحدها ما يزيد عن سنة ويرفض أن توصف بالمهد. إذ ليس لأحد الحق في أن يعيد ترتيب الأحداث وفق ما يمليه عليه مزاجه الشخصي ويتّسع له صدره. فالرصيد التاريخي الذي حاز عليه الأوراس مكسبا تاريخيا ولم يكن منحة مهداة، وكان الأجدر بالأستاذ بصفته أستاذ مادة علم التاريخ أن يبحث عن الأسباب التي هيجت العواطف الوطنية لدى سكان الأوراس، ودفعت بهم إلى الالتفاف حول القيادة والصمود الأسطوري رغم المحن، فمتى عرف السبب بطل العجب، كما يقول المثل.

وإذا حاولنا أن نساير من يرى أن ذلك لا يساير العقل ولا يتفق مع المنطق وأن نجاري الأستاذ في قوله: "وعند ذكرنا المدرسة جاءنا إلى الذهن أكذوبة أخرى غرست في أذهان أبنائنا، وهي أن الثورة انطلقت من إحدى المناطق وأن هناك أطلقت الرصاصة الأولى، فهذا أمر غريب... "[1]. وفي اعتقاد الأستاذ أن جميع مناطق الوطن كانت على نفس الدرجة من الوعي بالموضوع، ونفس التنظيم، ونفس الاستعداد... وهذه لا تتوفر أحيانا حتى لدى الجيوش النظامية، وقد هبت في لحظة واحدة استجابة لإشارة أو أمر صدر من مسؤول مباشر وبنفس الاستعداد والعزيمة، وقامت بمهاجمة القوات الفرنسية الاستعمارية...

في حين يقول كتاب مرموقون نعتبرهم محايدين ولديهم من الجرأة ما يكفي لإيضاح الحقيقة، أمثال: محمد حربي في كتابه: الثورة الجزائرية-سنوات المخاض- "أن الفلاحين في إحدى مناطق الوطن -ويذكر المنطقة بالإسم- راحوا يطاردون المجاهدين داخل المنطقة وإيقافهم"[2]، مما اضطر قائد المنطقة إلى تجميد النشاطات الثورية لمدة سنة كاملة، ويقول في نفس الصفحة من الكتاب بأن المجاهدين في الأوراس كانوا "كالحوت في الماء"[3] راجع محمد حربي الثورة الجزائرية سنوات المخاض، وإذا لم يكن هذا الدليل كافيا وبرهانا ساطعا لإقناع الأستاذ ننقل إليه اعترافا لا لبس فيه للمجاهد، عما قليل، صاحب كتاب ملحمة الجزائر الجديدة - الجزء الأول- حيث يقول بالصريح بأن عدد المجاهدين الذين هبوا لتلبية النداء في المنطقة التي ينتمي إليها ليلة-أول- نوفمبر لم يتجاوز سبعة عشر مجاهدا يحملون سلاحا حربيا واحدا نوع: قاره... بينما بلغ عدد المجاهدين الذين شاركوا فعلا في العمليات الأولى ليلة أول نوفمبر في الأوراس... 359 مجاهدا حسب ما هو مبين في وثيقة ضبطتها مصالح الاستعلامات الفرنسية-D.S.T.- عند ابن بولعيد عندما وقع القبض عليه في تونس، في 11 فيفري 1955.- راجع الوثيقة المرفقة.

---

(1) جريدة الخبر اليومية (مرجع سابق)، ص: 21، ردا على مقال نشر بالجريدة.

(2) الثورة الجزائرية سنوات المخاض، ص: 32.

(3) نفس المرجع.

17

Situation

1)	Sud	= 60	- Armes (mauvais)
2)	EST	= 144	- " - mauvais
3)	Sud-est	= 35	- A. (bon)
4)	Nord	= 100	- A (Bien)
5)	Ouest	= 10	- A (Bien)
		349	
	S. C. et G	= 10	
		359.	

S Barika trahison. manque liaison quelques éléments aptes à récupérer

S Aïn Mlila. Arrestation de tous les éléments

Khroub. Arrestation du P.C. manque de liaison suivant un petit bruit il existe des éléments dans le maquis —

Dans le domaine Recrutement il y a des possibilités considérables.

A ce point un plan tracé en vue d'organiser cette tâche. nécessité des moyens conditionnés ? en vue de renforcer la zone et l'extension de nos actions. et elle sera encouragée par l'adoucissement du climat.

Liaison : l'action subite adverse cause le freinage de la tâche liaison. Vu l'[illegible] difficultés dans tous les domaines efforts sérieux engagés [illegible] pour s'en sortir

Document saisi lors de l'arrestation de Ben BOULAID. Effectifs du Maquis de l'AURÈS et appréciation du chef chaouïa.

رسالة تم ضبطها عند ابن بولعيد يعطي فيها لمحة سريعة عن سير العمليات وتطوراتها وانعكاساتها بعد انطلاق العمليات مباشرة

ترجمة

نص الوثيقة باللغة العربية

القطاع:

1)- الجنوب	60 (مجاهدا)	التسليح متوسط
2)- الشرق	144 (مجاهدا)	التسليح متوسط
3)- الجنوب الشرقي	35 (مجاهدا)	التسليح جيد
4)- الشمال	100	التسليح حسن
5)- الغرب	10 / 349	التسليح حسن
القيادة بالإضافة إلى الحرس	10 / 359	

بريكة - خيانة - ونقص في الاتصال

بعض العناصر (ليست) مستعدة يمكن تعويضها

عين مليلة: توقيف كل العناصر

الخروب: توقيف عناصر القيادة، نقص في الاتصال

بعض المصادر تشير إلى وجود عناصر التحقت بالجبل أما في مجال التجنيد فهناك إمكانات معتبرة.

و حول هذه النقطة بالذات فإن هناك مخطط مدروس من أجل تنظيم هذه المهمة التي تتطلب توفر وسائل مشروطة من أجل دعم المنطقة وتوسيع نشاطاتها، وسيشجعنا على ذلك توفر المناخ الملائم.

الاتصال: رد الفعل السريع (المباغت) تسبب في قطع مهمّة الاتصال.

- مجهود جدي مبذول وخاصة في جهة الشرق.

* تم ضبط هذه الوثيقة عند ابن بولعيد والتي تقدم احصاء دقيقا للمقاومين في الأوراس وتقييم قائد الشاوية (الكلام لإيف كوريير).

ولا بأس من أن نوضح أكثر ما نحن بصدد الحديث عنه حتى يتسع صدر من ينكر على الأوراس دوره الريادي من خلال اعترافات صدرت عن عناصر رائدة ومسؤولة. يقول العقيد: عمارة بوقلازة -عمار العسكري- من القاعدة الشرقية، في استجواب أجرته معه مجلة أول نوفمبر: العددان: (112-113) لسنة 1988 الصفحة :18. بأن الفوج الذي التحق به -ناحية عنابة- أمضى أربعة أشهر في الجبل دون أن يتصل به أحد بما فيهم عمار بن عوده المسؤول المباشر والذي منع أفراد الفوج من القيام بأي عمل ما عدا "الأكل والنوم" ويضيف العقيد: بوقلازه "لوكان النظام في هذه المنطقة قائما وقويا ما ترك فوجا يتكون من 10 إلى 12 مجاهدا ينتظرون مسؤولهم هذه المدة دون السماح لهم بالقيام بأي نشاط سياسي أو عسكري أو العودة إلى منازلهم"[1]. ولا شك أن هذه الشهور الأربعة الأولى التي تحدث عنها العقيد: بوقلازه هي التي كانت تمثل مرحلة الولادة العسيرة للثورة، وكانت الأوراس خلالها تتعرض لحملات عنيفة، مثل: حملتي: "فيوليت وفيرونيك" خلال شهر جانفي 1955، دفعت بالوالي العام: روجي ليونار إلى الاعتراف أمام السلطات العسكرية بباتنة يوم: 21 جانفي 1955 "بأن تصفية المنطقة والقضاء النهائي على التمرد يتطلبان شهورا عديدة"[2]. هذا التصريح الذي يعبر عن خيبة أمل الحاكم العام: روجي ليونار، بعد أن زجت فرنسا في المعركة علاوة عن قواتها الخاصة عشرة طوابير من الجيش المغربي وفرقة من الرماة السينغاليين في الميدان لمواجهة حركة التمرد في الأوراس التي يقدر الحاكم العام حجم قواتها بألف رجل "إن عدد الثائرين في الأوراس يقدر بألف رجل وأن الإمدادات اللازمة لإقرار الأمن تحتاج إلى أربعين ألف عسكري"[3].

---

(1) مجلة أول نوفمبر العددان: 112-113، ص: 18.

(2) ابن بولعيد والثورة الجزائرية (مرجع سابق)، ص: 873.

(3) نفس المرجع.

Opération, dès 1955, où sont engagés des Sénégalais. A Biskra, dans la nuit du 1er novembre, le F.L.N. attaque leur caserne et blesse deux factionnaires. Ces troupes coloniales seront appelées en renfort pour dégager les points encerclés : Arris, Foum-Toub, T'Kout, le 2 novembre 1954.

وحدات القناصة السينيغاليين تشرع في عملية تطهير جبال الأوراس 2 نوفمبر 54

قد نستسيغ الرأي القائل بإمكانية توزيع الأعباء بالتساوي على جميع مناطق الوطن "حتى لا نثير حساسيات المواطنين ونحافظ على تماسك أمتنا بإثارة حزازات لأنه من الفداحة الترويج لفكرة أن مناطق كانت أولى من مناطق أخرى في أثناء الثورة" حسب رأي الأستاذ: رابح، فهذا الرأي يكون مستساغا -كفكرة- إذا جاز تعميمه على سائر النشاطات الثورية التي قام بها مناضلون أوفياء قبل وخلال الثور المسلحة، وبموجبه يقتضي أن نسوي بين ابن بولعيد وابن مهيدي وبوضياف... وبين أي مواطن هب لنصرة الثورة والدفاع عن كرامة الأمة طائعا، وأن لا نفضل هذا على ذلك حتى لا نثير حزازات بين المواطنين، وأن نسوي بين عباس لغرور وأشريط لزهر اللذان كان يتحديان رؤساء الوحدات الفرنسية في مناطق نشاطهما للخروج جهارا نهارا، وقد سجلا ملاحم وبطولات في "أرقو وفي قنطيس" وفي غيرهما مع قادة آخرين اختاروا العمل وراء الحدود، حيث تزوجوا وأنجبوا وعادوا بعد الاستقلال يزفون إلينا بشائر النصر... وحتى نكون دقيقين أكثر في تحديدنا لمفهوم المهد (مهد الثورة) ومفهوم الرصاصة الأولى، يجب أن نوضح بأن الأوراس هي المنطقة التي نمت فيها فكرة الكفاح المسلح كقناعة فكانت محمية خاصة للمطاردين من قبل البوليس الاستعماري من المنظمة الخاصة ومن المغضوب عليهم

حسب الدكتور: سعد الله، فامتزجت أفكار الوافدين عليها من المطاردين أو المنفيين بالأمزجة الحادة التي يتصف بها أهلها (الأوراس)، فانتقلت فيها القناعة بسرعة من الفكرة إلى القرار ومن القرار إلى التطبيق، فقام مناضلون منذ ظهور المنظمة الخاصة -فيفري1947- بالعمل على تفعيل نشاطات المنظمة في عدة مجالات، ظنا منهم أن المنظمة سوف تكون النواة التي تتفتق عنها الثورة، غير أن الرياح تجري بما لا تشتهي السفن، فانكشف أمر المنظمة خلال شهر مارس 1950 في كامل التراب الوطني عدَا الأوراس، مما أتاح لها فرصة مواصلة دورها التاريخي للتحضير لليوم الموعود الذي لم يتحدد بعد.

على الصعيد العسكري وفي مجال التسليح :

فقد كشفت إجابة وزير الدفاع الفرنسي "إدوار دالاداي" للوفد المشكل من عدة حركات وأحزاب سياسية وطنية، ذهبت إلى باريس سنة 1936 لتعرض مطالبها على الحكومة الفرنسية، علها تعطيها حق المواطنة في وطنها بالحصول على بعض الحقوق السياسية، غير أن "إدوار دالاداي" قابل الوفد بتحذير خطير شكَّل صدمة بالنسبة للوفد الذي عاد من باريس يائسا، بعد أن سمع من الوزير: "إن فرنسا تملك المدافع والرشاشات وهي مستعدة لاستخدامها" ففهم أعضاء الوفد بأن الحقوق السياسية للجزائريين في وطنهم هي أبعد من نجوم السماء! وأن الحصول عليها دونه أهوال وتضحيات، وبعد أقل من عشر سنوات أكدت فرنسا جديتها في استخدام المدافع والرشاشات في الثامن من ماي 1945، ضد المتظاهرين من المدنيين الذين خرجوا إلى الشارع في مدينة سطيف معبرين عن فرحتهم بانتهاء الحرب العالمية الثانية وبانتصار الحلفاء، وقد رفعوا إلى جانب رايات الدول المنتصرة في الحرب الراية الوطنية لتذكير الدولة الفرنسية بحق الشعب الجزائري في تقرير مصيره. فكان رد القوات الفرنسية عنيفا ومؤلما أسفر عن آلاف الضحايا من المدنيين في كل من سطيف وقالمة وخراطة دون تمييز، وقد نقل إلينا الأستاذ: محمد عباس، في كتابه: خصومات تاريخية مشهداً مريعاً من قالمة، يقول: محمد عباس "ومن ضحايا هذه المجزرة الرهيبة، من النساء، الآنسة: أوصيف ومليكة بوزيد والزهرة رقي التي

اغتيلت رفقة أخويها محمد وحفيظ، وكذا نفسية فاسي التي أغتيلت وهي حامل في شهرها السادس مع زوجها وابنها إبراهيم البالغ من العمر 12 سنة".

ويذكر من الرجال صالح طبال، وهو من قدماء المحاربين، وقد تقدم من رجال الدرك بعد ان ارتدى زيه العسكري وعلق نياشينه متوسلا إليهم بالكف عن اغتيال المواطنين الذي ضحى آباؤهم وإخوانهم في سبيل فرنسا خلال الحربين العالميتين الأولى والثانية. لما في ذلك من إساءة بالغة لفرنسا ذاتها، لكنه اغتيل بدوره دون مراعاة لخدماته"[1]. لم يعد بعد الثامن من ماي أمل في الحوار مع الاستعمار، فقد فهم الجميع بما في ذلك الأحزاب المعتدلة مثل: الاتحاد الديمقراطي للبيان أن الحل لن يأتي عن طريق الحوار وحده لأن الإستعمار يرى في الحوار نوعا من الاستعطاف والتوسّل، وهذا الوهم يدفعه لمزيد من التعنت والكبرياء، وأقصر طريق هو ما عبر عنه النائب: قدور بوساطور بلغته الخاصة حين قال: "ما ينفع مع الاستعمار سوى الهراوة"[2].

فما العمل ؟ :

تضم الأوراس كل التشكيلات السياسية، فهي بطبيعة الحال لم تكن منسجمة، لكنها لم تكن متنافرة، ولعل أكثر المناضلين تطرفا هم مناضلوا حزب الشعب (حركة انتصار الحريات الديمقراطية فيما بعد)، وهذا التطرف هو انعكاس لمواقف قادتها السياسيين فقد اقتنع هؤلاء المناضلون بالعنف الثوري كوسيلة لاستعادة الكرامة الضائعة وأظهروا من الاستعداد للتضحية ما شجع قادتهم على المضي على نفس المنهج، ولولا التنسيق الذي التزم به قادة الثورة والتزام ابن بولعيد الذي ظل يدعو إلى التريث إلى حين لاندلعت الثورة في الأوراس قبل موعدها، والأمثلة كثيرة.

ففي الأوراس عموما يكاد العمل العسكري يكون موازيا للعمل السياسي منذ البداية، هذا إذا اعتبرنا نشاط جمع الأسلحة والحث على اقتنائها، وجمع الذخيرة

---

(1) خصومات تاريخية للأستاذ: محمد عباس ص: 243.

(2) نصر بلا ثمن محمد عباس ، ص: 47.

وصناعة الألغام وفكها عملا ذا صبغة عسكرية... فقد كانت الأسلحة قبل أن يعم الوعي السياسي الطبقة الدنيا من المجتمع خاصة تقتنى للزينة والتفاخر وتستعمل لأغراض ترفيهية كالصيد وفي الأفراح، وفي التدريب على حسن التسديد وإصابة الهدف أو ما يعرف محليا بـ/ الشارة، وهي في الغالب عبارة عن حجر معلوم يسدد إليه الرماة بالتناوب طلقات بارود من بنادقهم، ويعد فائزا كل شخص يصيب الهدف فيلقى التشجيع المعنوي والإشادة من المتنافسين. وما لبثت القيادات السياسية المحلية أن دعت السكان للبحث عن الأسلحة الحربية واقتنائها، وكان المحفز على ذلك وقوع معارك طاحنة بين الحلفاء ودول المحور في كل من: ليبيا ومصر وتونس، أدت إلى انتشار الأسلحة في هذه البلدان الثلاثة، فتحولت إلى أسواق للمتاجرة بالأسلحة الحربية، وتعتبر الأوراس مقارنة بغيرها من المناطق في الوطن أوفر حظا بحكم الجوار، فظهرت في البداية عناصر مغامرة مهربة للأسلحة إلى المناطق الداخلية للأوراس لغرض المتاجرة بها، فتنافس السكان في اقتناء الأسلحة الحربية لغرض الدفاع عن النفس ضد الأخطار المحتملة أو التباهي بها. وقد أعجبوا بهذه الأسلحة التي تعد متطورة مقارنة بأسلحة الصيد التي كانوا قد اعتادوا عليها،واقتنى الميسورون من السكان أكثر من سلاح واحد، وأضحت كلمة الرجولة مقرونة بقطعة ونوعية السلاح الذي يمتلكه الشخص، فاشتدت حمى التسليح بين الناس، ولم تكن مسألة الثورة آنذاك تخالج فكر كثير من مهربي الأسلحة لأغراض تجارية، ولم تلبث العناصر الوطنية أن احتوت الموقف وأدمجت عناصر متشبعة بالفكر الوطني وسط هذه الجماعات لتصرف نشاطها التجاري إلى أغراض أخرى، وحول هذا الموضوع أجرت جمعية أول نوفمبر لحماية وتخليد مآثر الثورة حوارا مع شخصية تاريخية مارست التهريب لغرض المتاجرة ثم لفائدة الحركة الوطنية، وقد جرى الحوار مع عاجل عجول بتاريخ: 03-09-1985 بمقر منظمة المجاهدين بباتنة.

سئل: عاجل عجول عن تاريخ بدء تهريب الأسلحة لفائدة الحركة الوطنية، فأجاب "بدأت أتاجر في السلاح سنة 1946 قبل الدخول في الحركة الوطنية (حركة الانتصار) وكنت أدفعه إلى الأخ: محمد بعزي بن لخضر، وهو من أعضاء

المنظمة السرية وأسافر لهذا الغرض إلى جربة -بتونس- لشراء السلاح من الشركة الإيطالية، وقد اشترك معنا في جمع السلاح كل من: عزوي مدور وعثمان كعباشي، وهذا السلاح من النوع الإيطالي والألماني والأميركي"[1]. وفي حديث أجرته الجمعية مع لخضر بعزي أمين مستودع السلاح بقرية: الحجاج وصف حي لإحدى العمليات التي تم خلالها نقل كمية من الأسلحة كان قد شارك فيها، يقول المجاهد: بعزي في استجواب أجرته معه الجمعية بتاريخ: 31-07-1985 بباتنة "أما جمع السلاح الذي كان من أهداف المنظمة العسكرية السرية، فقد شرع فيه مصطفى بن بولعيد خلال ربيع 1948 إذ اتصل ببعزي لخضر (الراوي) بالحجاج (اسم قرية) وحدثه في الموضوع، فجمعوا قافلة من سبعة بغال يصحبها مصطفى بن بولعيد واسمايحي بلقاسم وبعزي محمد وعزوي مدور، وذهبوا إلى صحراء أولاد عمر قرب "أزريبة الوادي"حاملين معهم نصف ورقة عشرين فرنكا يسلمونها لمن أودعت عنده الأسلحة... وحملوا على كل بغلة 45 قطعة سلاح حربي من أنواع مختلفة (إيطالية، أميركية، انكليزية) وبلغ مجموع ما حملوه 325 قطعة من السلاح مع كمية من الذخيرة، واستغرقوا في هذه الرحلة أربعة أيام يمشون في الليل ويمكثون في النهار... "[2] ويواصل المجاهد: بعزي لخضر حديثه في الموضوع فيقول "وبعد مدة من وصول السلاح وجمعه وتخزينه في قرية: الحجاج تسربت الأخبار إلى حاكم: آريس، فألقى القبض على بعزي محمد (ابن الراوي) وأخيه علي وبلعزوي محمد بن الصادق... وعلى إثر هذه العملية وخوفا من أن يكتشف السلاح تعاون بعزي لخضر مع ابنيه علي ومحمد (بعد الإفراج عنهما) وبرغوث علي وبشاح محمد وقاموا بنقله في الليل بواسطة البغال والحمير إلى مطمورة (أعدت) في دار بعزي لخضر بقرية الحجاج، بعدما أفرغت الدار من النساء"[3] وهذه الأسلحة هي التي ستوزع على المناطق الأخرى في الوطن حتى تتمكن من أداء الدور المنوط بها، وعلى الطلائع الأولى من مجاهدي ليلة أول نوفمبر 1954 في الأوراس.

---

(1) مصطفى بن بولعيد والثورة الجزائرية (مرجع سابق)، ص: 347.

(2) نفس المرجع، ص: 451.

(3)نفس المرجع ، ص: 451.

ترى هل هذه المغامرات الخالدة التي لا نجد لها مثيلا سوى في الأشرطة السينمائية هي لمجرد الترفيه والتسلية أم أنها تحديات علنية في إطار التمهيد للثورة التحريرية بست سنوات كاملة... ثم ألا يحق لأبناء هؤلاء المغامرين من أجل المصلحة العليا للوطن وأحفادهم أن يقولوا بعدها وباعتزاز أن الأوراس كان مهدا ومنارة للثورة... فإذا لم يكن الأمر كذلك فعلى منتحلي هذه الصفة أن يثبتوا عكس ذلك، فستكون عندها فرصة لأهل الأوراس بمراجعة أنفسهم. وهذه الحقيقة اعترف بها قادة فرنسيون وسجلوها في كتاباتهم التاريخية دون عقدة وقد نشطت هذه التجارة وظهر بين عناصر الحركة ومن خارجها مغامرون تنافسوا في تسريب الأسلحة لفائدة الحركة الوطنية وسلكوا في ذلك كل سبيل حتى أنه روي عن أحدهم أنه احتال على حاجز للدرك الوطني الفرنسي في ناحية "الزريبة" بأن رتب مجموعة من القطع في شكل نعش حمله الرجال على أكتافهم وساروا به في موقف جنائزي مهيب اتجاه المقبرة، فوقف الدركيون تحية للنعش الموهوم... وتم إخراج السلاح من الطوق... وللمجاهد: عبد القادر العمودي حديث طويل في الموضوع أدلى به في شكل استجواب أجرته معه جمعية أول نوفمبر لتخليد مآثر الثورة بباتنة ودونته في كتابها: مصطفى بن بولعيد والثورة الجزائرية، وهذا بتاريخ: 14/ 10/ 1985، يصف فيها واحدة من هذه المغامرات: يقول المجاهد: العمودي "بدأ التفكير في جمع السلاح وشرائه منذ أن تأسست المنظمة السرية العسكرية في عام: 1947 من طرف: حركة الانتصار للحريات الديمقراطية، حيث أمدنا الحزب بالثمن... ووصل إلى وادي سوف، وقد تلقاه ميهي محمد بلحاج، وذهب إلى طرابلس الغرب بليبيا لشراء السلاح، واكترى جمالا وحمله إلى وادي سوف ويقدر بـ 100 قطعة من مختلف الأنواع"... ويستطرد المجاهد: العمودي "وكانت عملية الشراء قد بدأت في شهر فيفري 1947، وبقي هذا السلاح مخزونا في وادي سوف، وبما أن الذي اشتراه ليس مناضلا في المنظمة السرية التي لم تتأسس بعد في وادي سوف -كفرع- جاء الأمر من الحزب بنقله من وادي سوف إلى زريبة الوادي، وتكلف لعمودي عبد القادر -الراوي- وميهي محمد بلحاج وابن موسى البشير بنقله محمولا على ظهور الجمال في الليل وهذا خلال ربيع 1948، وكان معنا ضمن

القافلة حمودي محمد الصغير بلعيد الذي أخفيناه عنده بقرية: طوماس بين أزريبة الوادي وازريبة حامد"، ويضيف المجاهد: العمودي... وفيما بعد جاء مصطفى بن بولعيد وعزوي مدور وبعزي محمد فأخذوه على البغال إلى قرية الحجاج التي تقع شرقي مدينة أريس بـ 7 كلم"[1] وهكذا تواصلت عمليات شراء الأسلحة ونقلها بشتى الطرق عبر محوري: (جربة-بتونس-الحجاج) (-الصحراء الليبية-وادي سوف-الحجاج -أريس)،

أثارت العملية رغم سريتها اهتمام جل المناضلين لحداثتها وخطورتها، وتحول الأوراس إلى حظيرة للأسلحة المحظورة... وساهم ابن بولعيد بسخاء في تمويل وشراء كمية من الأسلحة من ماله الخاص بواسطة المناضلين محمد عصامي وعبد القادر العمودي خلال سنتي 1948-1949، ولم يحدث طوال هذا المشوار الطويل الذي انكب فيه مناضلو الحركة في الأوراس على تهريب الأسلحة بشتى الطرق وإخفائها أن ضبطت أي عملية أو أحبطت قبل أن تصل إلى المستودع... وللإشارة فإن محمد بلحاج الذي جاء ذكره في حديث المجاهد: العمودي، هو الشخص الذي كان قد انتقل إليه ابن بولعيد متنكرا بعد اندلاع الثورة للتباحث معه حول إمكانية إعادة تنشيط الخلايا التي كان تعمل على تهريب الأسلحة من الصحراء الليبية وتسليم الأسلحة التي كانت بحوزته، غير أنه فوجئ بانضمامه إلى الحركة المصالية، فعاد ابن بولعيد من بسكرة متأسفا، واقتصر على التعليق عما حدث بعبارة تدل على الأسف والأسى، حيث، قال: "السلاح أخذه الخونة".

مشكلة التسليح تعد النقطة الأكثر أهمية وخطورة لدى كافة المناطق، ولعل الأوراس تكون أوفر حظا مقارنة بالمناطق الأخرى. وقد عبر عن هذه الأهمية والخطورة مسؤولو المناطق بأساليب مختلفة تتناسب مع شدة الحاجة إلى السلاح، فكان مما قاله محمد العربي بن مهيدي مسؤول المنطقة الخامسة لـ/ محمد بوضياف منسق بين الداخل والخارج، عندما التقى به في المغرب خلال شهر مارس 1955، معبرا له عن حاجته الملحة إلى السلاح قوله: "السلاح، السلاح وإلا اختنقنا".

---

(1) مصطفى بن بولعيد والثورة الجزائرية (مرجع سابق)، ص: 575-576.

وهناك من بين رؤساء المناطق من حاول إظهار التحدي أمام جنوده عندما اشتكوا إليه ندرة الأسلحة مثل ما فعل زيروت يوسف قائد: المنطقة الثانية، حين قال لجنوده "سلاحكم فوق أكتاف عدوكم"، غير أن هذا الرهان ليس بالأمر الهين، فانتزاع السلاح من فوق أكتاف العدو يحتاج إلى سلاح مثله، كما أنه يحتاج إلى تدريب جيد وإلى شجاعة فائقة، وهذه قل أن تجتمع عند شخص. وقصد ضمان انطلاقة متزامنة ولغرض تخفيف الحصار على الأوراس التي تعهد قائدها بأن تتحمل الأعباء وحدها إلى حين استكمال بقية المناطق لإجراءاتها التنظيمية، شرعت القيادة قبل اندلاع الثورة بأسابيع قليلة بتوزيع الأسلحة على المناطق الأخرى. فتكفل مصطفى بن بولعيد شخصيا بنقل كمية من الأسلحة (لم يحدد الراوي عجول كميتها أو نوعيتها) إلى برج أمنايل وإلى ذراع الميزان(المنطقة الثالثة)، كما قام المناضل: حاجي موسى من الخروب بنقل كمية أخرى إلى عين أمليلة والخروب، ومنها إلى الشمال القسنطيني، وفي حديث مع عمار بن عودة عضو جماعة (22) وعضو المنظمة الخاصة، يقول: "اتفق على أن يرسل ابن بولعيد من الأوراس السلاح إلى المنطقة الثانية والثالثة وإلى الرابعة... "[(1)] وستتواصل عملية نقل الأسلحة وبخاصة إلى المنطقة الثانية (الولاية الثانية، إلى ما بعد الصومام) لأغراض استراتيجية يقول عنها الراوي "عجول" بصفته المسؤول المنفذ للعملية في غياب ابن بولعيد بعد القبض عليه في تونس "لما اشتد علينا ضغط القوات الفرنسية، وحوصر الأوراس من طرف هذه الجيوش الجرارة المدعومة بالمدافع والدبابات والطائرات، والقيام بترحيل الشعب من المناطق الجبلية... مع نقصان المواد الغذائية عن جيش التحرير... كاتبنا المنطقة الثانية (الولاية الثانية) وحرّضنا مجاهديها على أن يقوموا بالنشاط العسكري لأن العدو الفرنسي ركز على الأوراس... وقررنا أن نساعدهم بالسلاح وهو ما ينقص المنطقة الثانية"، ويواصل الراوي عجول فيقول: "وكان يتصل بالمنطقة الأولى (الأوراس)، الهاشمي حمادي وبلقاسم... كنعصري اتصال،

(1) مصطفى بن بولعيد والثورة الجزائرية (مرجع سابق)، ص: 561.

وبطلب من مسؤولي الشمال القسنطيني أرسلنا أربعين رجلا بالسلاح... وكنا قد أجمعنا قبل الاتصال بالمنطقة الثانية على أن نكثف من العمليات ضد العدو في شكل كمائن في كل مكان بالأوراس وأصدرنا الأوامر إلى المناطق الثلاثة للقيام بالكمائن للحصول على السلاح... وسرنا على هذا الخط المتفق عليه لإنجاد المنطقة الثانية بالسلاح ونتيجة هذا العمل المتواصل والمكثف (أرغمنا) الفرنسيين على الرحيل من المراكز المتقدمة، وغادروا بعض المراكز مثل: الدرمون، خيران، الوسطية، تامزه... وغنمنا خلال هذه الكمائن كمية لا بأس بها من الأسلحة، وبها ساعدنا المنطقة الثانية وقام عباس لغرور بنفس العمل الذي قمنا به... وبذلك استطعنا أن نرسل إلى المنطقة الثانية سبعين قطعة حربية مع دورية من أربعين مجاهدا مسلحين ووصلت إلى الحدود، فتسلمها منهم مجاهدو المنطقة وجردوا الأربعين مجاهدا من أسلحتهم وحملوهم الشكر الشفوي، وكان على رأس المنطقة الثانية آنذاك ابن عودة عمار وابن طوبال عبد الله"[1] وكلاهما عاش في الأوراس فترة من الزمن. وقد أدلى عجول بهذا التصريح والزعيمان أحياء يرزقون.

إن مثل هذه العمليات تؤكد على أن الأوراس لم تكن مهدا للثورة فقط، بل كانت مركز إشعاع ومصدر إمداد بالسلاح والرجال للمناطق المجاورة.

تؤكد هذه الرواية رسالة كان قد بعث بها شيحاني بشير، قائد المنطقة بالنيابة في غياب ابن بولعيد -الأسير- إلى قائد المنطقة الثانية نشرت مضمونها مجلة أول نوفمبر، العدد: 86، ص: 9، يقول فيها "بأن الحالة لا تحتمل أكثر وطالبه بأن يعمل شيئا من أجل الثورة" وكلف دورية على رأسها المجاهد: أمحمد جرعاوي بالاتصال بالقائد: زيروت يوسف لإبلاغه بأن الهلاك أوشك أن يحل بالثورة في الأوراس إذا لم تتحرك المناطق المجاورة، وذكره بأن الأوراس قد تعهد بتحمل مسؤولية احتضان الثورة لمدة ستة أشهر، ولكن عدد الشهور تجاوز ذلك فإلى متى سيظل صامدا؟ والملفت للانتباه أن مضمون رسالة القائد: شيحاني إلى قائد المنطقة الثانية يلح على

(1) المرجع السابق، ص: 181.

ضرورة الإسراع بالتدخل لغرض التخفيف من الضغط المسلط على الأوراس، في حين نلمس قراءة أخرى في رواية عجول التي سبقت الرسالة والتي تؤكد بأن قوة الثورة في الأوراس استطاعت أن ترغم العدو على إخلاء عدة مراكز في محيط كيمل خاصة، وأن تغنم أسلحة متنوعة منها رشاشين نوع: 24، 29، بعض هذه الأسلحة تم إرسالها إلى المنطقة الثانية -كما سبق أن بينا ذلك-.

وقد تناول المؤرخ: محمد حربي موضوع التسليح بشيء من الإيجاز في كتابه: الثورة الجزائرية -سنوات المخاض- جاء فيه "لقد ضيع حزب الشعب الجزائري الفرصة الوحيدة التي كان يمكنه فيها، وبأقل التكاليف جمع كمية من السلاح... ففي سنة 1947، وضع التنظيم السري مسألة التسليح في جدول الأعمال، وكان معظم الأسلحة القليلة المتوفرة سنة: 1954 آتيا من مخابئ التنظيم السري التي أفلتت من العمليات البوليسية. ففي سبتمبر 1954 ذهب زلزال الأصنام بالسلاح وبالرجال المكلفين بحراسته، وفي الأغواط سلم السلاح إلى البوليس بواسطة أحد العملاء. أما مخزن القبائل فكان بيد المصاليين، ولم يبق سوى مخزون "أسمندو" والأوراس والجزائر التي لاتزيد عن 310 قطع من السلاح من صنع إيطالي أكثر من ربعها غير صالح للاستعمال، كان مخزون الأوراس أغناها (300) قطعة، وقد سلمت هذه بعض القطع إلى كل من القبائل ومنطقة قسنطينة... لقد كانت كتائب جيش التحرير الوطني لا تملك في غرة نوفمبر سوى 400 قطعة سلاح، ولسد هذه الثغرة حاول الثوار تعزيز رصيدهم بصنع قنابل يدوية"[1].

التدريب على استعمال السلاح :

يشكل التدريب على استعمال أسلحة القتال من قبل مناضلي الحركة الوطنية جزءا من المهمة الكبرى استعدادا للثورة، بل يعد مرحلة متقدمة من أجل اكتساب الكفاءة القتالية للقيام بنشاط مسلح فعّال ومؤثر. بدأ التفكير في عمليات التدريب، قبل أن تتخذ مجموعة (22) قرارها التاريخي. ولم تكن مراكز التدريب ثابتة أو مجهزة

(1) الثورة الجزائرية سنوات المخاض لـ/ محمد حربي، ص: 70-71.

بالوسائل الضرورية نظرا للسرية التامة التي التزمت بها الحركة والتي كانت تطبع نشاطاتها، ويجب أن نتذكر دائما بأن للاستعمار عيونا في كل مكان. فقد كان التدريب يجري في أماكن معزولة نسبيا ومهجورة من السكان، وفي أزمنة معينة وتحت حراسة مشددة... ومهما تكن هذه التدريبات، فهي لا ترقى بالمتدرب إلى مستوى الفعالية المطلوبة التي يحصل عليها الجندي في مراكز التكوين العسكري المتخصصة، فقد كانت مجرد تطبيقات سريعة تسمح للمتدرب بالتحكم في استعمال السلاح والفك والتركيب وحسن التسديد على أمل أن يكتسب تقنيات أخرى فيما بعد بالممارسة... ولا شك أن الفشل النسبي المسجل -أعني ضعف المردود- في كثير من العمليات القتالية مثل الكمائن حيث يتوفر عنصر المفاجأة لفائدة المجاهدين لا يعود إلى نوعية السلاح وحده، لكنه يرجع أساسا إلى سوء استعماله. وقد كان يشرف على عمليات التدريب هذه عناصر ممن أجبروا على الخدمة العسكرية في صفوف القوات الفرنسية أو تطوعوا لذلك، وتلقوا خلالها تدريبات سريعة سمحت لهم بامتلاك بعض التقنيات، من بينهم: مصطفى بن بولعيد شخصيا وعلي بعزي... وغيرهما.

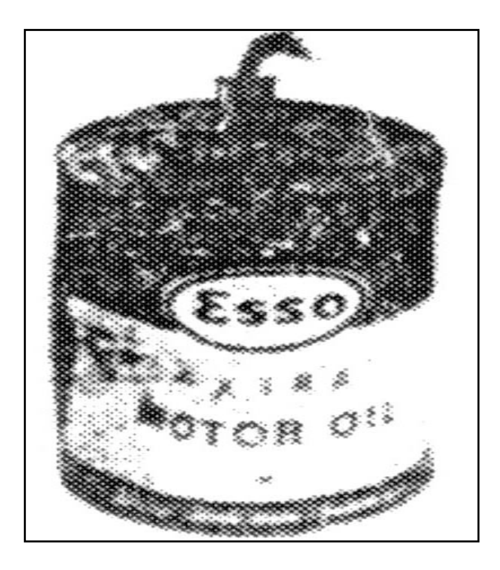
صناعة الألغام :

الصراع مع الاستعمار هذه المرة سوف يكون على أكثر من صعيد، ولن يكتفي المقاتلون بالمواجهات العسكرية التقليدية، فعندما شعر قادة الحركة بضعف رصيدهم من وسائل القتال التقليدية (الأسلحة)، راحوا يبحثون عن وسائل أخرى لتعويض النقص، ومن بين هذه الوسائل، القنابل التقليدية والألغام، وفي هذا الإطار -حسب محمد حربي-، انتظم تربص مغلق دام أربعة وعشرين ساعة بخرايصية في دار: قدور بن طويل أشرف عليه ابن بولعيد وشارك فيه كل من: بولصوف وبن عبد المالك وبوعجاج والمرزوقي وديدوش وبيطاط والسويداني" ويضيف حربي، وفي منطقة الجزائر تم اللجوء إلى خبرة أشخاص آخرين خارجين عن الحركة "كبلحاج جيلالي" وهو عضو قديم في قيادة المنظمة السرية وكان

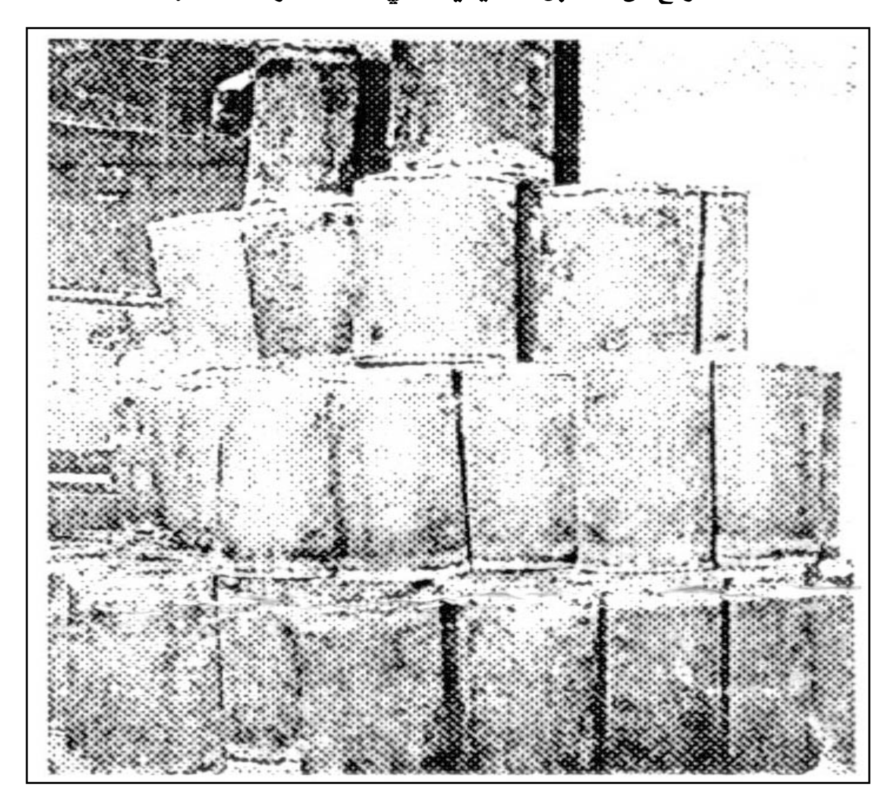
يتعامل مع البوليس"[1] أما بشأن صناعة الألغام في الأوراس فإن الروايات حولها تكاد تكون متفقة. فهناك ورشتان أقيمتا في ضيعتي ابن بولعيد في أسلاف "بفم الطوب" وفي "تازولت" قرب باتنة، لكنهما غير ثابتتين، وكان العمل بهما غير منتظم حتى لا يثير انتباه أعوان ومخبري السلطة الاستعمارية. وقد جرت بعض التدريبات في دور بعض المناضلين الملتزمين مثل: أسمايحي بلقاسم ولخضر بعزي، وكانت القنابل المعدة للاستعمال تنقل في صناديق تعلوها الخضر والفواكه إلى باتنة، وتودع في محل الأخوين: السعيد ومسعود مشلق.وبتاريخ: 19 جويلية 1953 اهتزت المدنية على وقع سلسلة انفجارات مرعبة تسبّبت في إتلاف المخزون كلية، وتدمير البناية كاملة وقد شرع حسب الرواة في صناعة القنابل والألغام بأمر من ابن بولعيد منذ مطلع سنة: 1952، وهو تاريخ متقدم ، أما عن المواد المستخدمة كمتفجرات فيتم الحصول عليها بواسطة، المناضل: أحمد أنواورة عامل ونقابي في منجم إيشمول، ويأتي بعضها بواسطة المقاول: سليمان ملكمي، ويتحدث المناضل: مشلق مسعود الذي اتخذوا من محله مستودعا لتخزين القنابل في استجواب أجرته معه جمعية أول نوفمبر، حول موضوع: (صناعة الألغام)، فيقول: "... أما المادة التي تصنع منها القنابل، فتارة يشتريها صانعوا هذه القنابل وهم: أسمايحي بلقاسم، وعزوي مدور، وعلي برغوث، ومحمد بعزي) وتارة يشتريها مشلق مسعود (الراوي) في شكل شرائح من نحاس يدفع ثمنها أحيانا مصطفى بن بولعيد وأحيانا الراوي نفسه"[2].

(1) المرجع السابق، ص: 71.

(2) مصطفى بن بولعيد والثورة الجزائرية(مرجع سابق)، ص: 476.



نموذج من القنابل التقليدية التي كانت الحركة تصنعها



من مخزون الألغام التقليدية

إن الحديث عن هذه العمليات في الأوراس خاصة وعن انعكاساتها على الثورة فيما بعد لا يعني التنكر لمحاولات أخرى مماثلة جرت في مناطق أخرى قصد التحضير لعمل عظيم اسمه (الثورة المسلحة) الشاملة التي قال عنها ابن مهيدي " إنها آخر حرب مع الاستعمار" وقد أرادها أن تكون كذلك في عنفوانها وفي نتائجها، غير أن أعمال المناطق الأخرى لم تنعكس على الأوراس في شيء حتى في أحلك أيامها مع بداية الثورة، وبعد اشتداد الخلاف بين قادتها سنوات: (1957-1960) إذاً فلا مانع، من أن نجدد قناعتنا من أن الأوراس كانت منبعا لكل القلاقل بالنسبة للاستعمار على مر العصور، ومهدا للثورات عبر التاريخ.

أما على الصعيد السياسي وفي إطار الإعداد للثورة :

فقد اقتصر العمل السياسي على إيقاظ الحس الوطني في النفوس، وزرع الأمل من جديد بإمكانية النصر على الاستعمار، نظرا لتغير كثير من المعطيات على الساحة السياسية الدولية والقارية والإقليمية، وحتى الوطنية بارتفاع مستوى الوعي لدى بعض الفئات الاجتماعية. وقد استطاعت الأحزاب السياسية رغم تباين مناهجها واختلاف أهدافها أن تهز الضمائر وأن تحرك العواطف القومية وأن تعيد بعث الروح الوطنية من جديد، بعد سلسلة من النكسات أعقبت الانتفاضات الشعبية في الوطن ولعل أهم تطور ملموس حصل في ذهنية المجتمع وهو نتاج عمل الحركة الوطنية هو تجاوز مرحلة الارتجال في التخطيط وفي التعبئة التي تعد أحد أسباب فشل الانتفاضات السابقة قبل ثورة نوفمبر 1954، وإعطاء مفهوم جديد للصراع مع الاستعمار يرتقي بالمقاومة المسلحة من الانتفاضات الشعبية التي يؤطرها عادة شيوخ الزوايا أو رؤساء عشائر إلى ثورة شعبية عارمة يتم التحضير لها بعناية من قبل قادة سياسيين واعين بالمسؤولية الخطيرة الملقاة على عاتقهم مستعدين للتضحية مهما عظم الكرب.

وفي هذا الإطار على المستوى المحلي :

انكب القائد ابن بولعيد بالتوازي مع النشاطات ذات الطابع العسكري الذي كان يساهم فيها شخصيا ماديا وأدبيا بالتموين والإشراف لإعداد المواطنين سياسيا لمواجهة التحديات التي سوف تفرزها الأحداث بعد اندلاع الثورة التي لم يتحدد موعدها بعد، ونفسيا لتقبل الصدمات العنيفة التي سوف تزعزع كيان المجتمع نتيجة عمليات القتل والسجن والتعذيب والمصادرات والانتهاكات التي تتخلل أعمال العنف المضادة من قبل الاستعمار وأعوانه. ومما ساعد قادة الثورة على المستوى المحلي على تحويل هذه الأفكار إلى قناعات تحلى بها بسرعة كثير من المواطنين وجود استعدادات فطرية لدى سكان المنطقة للتمرد وللمغامرة والتضحية بالنفس من أجل الحرية التي ينزع إليها كل فرد. ومفهوم الحرية عند سكان الأرياف خاصة يعني التحرر من سلطة "القياد" والتخلص من الضرائب المرهقة ومن حراس الغابات... وهذه الظاهرة التي تميز سكان بعض المناطق في الوطن حيث تنتشر الأمية ويعم الجهل والنزعة القبلية هي التي أشرت إليها من قبل عند الحديث عن اعتراض القائلين بعدم وجود مناطق حازت شرف الأسبقية في الكفاح، وقلنا حينها، كان الأحرى بهؤلاء أن يبحثوا عن الأسباب التي هيجت عواطف الأوراسيين، حين استجابوا للنداء لأول وهلة رغم قلة الإمكانات وانعدام الدعم إلا من العنصر البشري الذي ظل يتدفق على الثورة كالسيل الجارف مما اضطر ابن بولعيد إلى تسريح بعض العناصر التي لم يتفطن إليها الاستعمار، وقد تعرض للموضوع كاتب من بلد شقيق هو العميد: مصطفى طلاس في كتابه: عن الثورة الجزائرية، لكنه لم يتعرض بدوره إلى الأسباب التي حركت عواطف المجتمع، ودفعت به إلى الانتفاضة، يقول طلاس في كتابه: الثورة الجزائرية "وكان قطبا الاضطراب هما قلعتا البربر (الأوراس ومنطقة القبائل) ومن الأوراس انتشرت الثورة فعمت قسنطينة كلها"[1] ويعني به الشرق الجزائري. نعتقد أن العميد: طلاس محايد وحديثه مجرد من أية عاطفة قبلية أو نزعة عرقية، فهو بعثي سوري،

---

(1) الثورة الجزائرية العماد: مصطفى طلاس، ص: 87.

أسند إليه بومدين مهمة كتابة تاريخ الثورة الجزائرية، ففعل، معتمدا في ذلك على المعطيات المتوفرة في الأرشيف الوطني والفرنسي، وكان قد سبقه إلى مثل هذا الكلام "الحاج مصالي" في رسالة مغالطة بعث بها إلى رئيس وزراء سوريا بتاريخ: 10مارس 1957، يقول فيها: "إن الثورة بقيادة مصالي"! قد تمركزت في الأوراس وفي منطقة القبائل، حيث يوجد مسؤولان عرفا بوفائهما وولائهما للزعيم: مصالي، وهما: مصطفى بن بولعيد وكريم بلقاسم"[1]، إذا كان الغرض من هذه الرسالة هو محاولة احتواء الثورة، فجزء من الرسالة يكشف عن حقيقة يجب الاعتراف بها، ويتمثل في الدور الريادي للأوراس ولمنطقة القبائل في المقاومة المسلحة... ويشاركهما في هذا الرأي بعض الكتاب، أذكر من بينهم محمد حربي في كتابه: الثورة الجزائرية -سنوات المخاض- حيث يقول: "ففي المناطق التي يغلب عليها العنصر اللغوي (القبائل، الأوراس، الهقار) أو الديني (وادي ميزاب)، كان الجزائريون المتحدون ضد فرنسا يشعرون بعصبية قوية وولاء كبير نحو منطقتهم التي يعتبرونها وطنهم الصغير، فوجود كيانات جهوية يرتكز على معطيات جغرافية وتاريخية كانت اللغة البربرية إحدى مقوماتها، لذلك فإن محاولة لنبذ البربر وإقصائهم سيكون له بالغ الأثر وستحز في النفوس"[2].

نفس النظرة كان قد خلص إليها الدكتور: الأمين دباغين الذي حاز ثقة الزعماء التاريخيين، فذهب إليه كل من: ابن بولعيد وبوضياف وكريم، لإشعاره بقرب اندلاع الثورة وأنه مدعو إلى ترأسها " في حين ظن هو أنهم يريدون الاستفادة من خبرته وتجربته، كانوا يطالبونه فقط بموافقة غير مشروطة، فكل تحفظ من جانبه كان سيثير عند مخاطبيه تحفظهم المعهود من السياسيين، وهذا ما حصل فعلا، عندما أكد لهم الدكتور: دباغين أن منطقتي الأوراس والقبائل فقط مستعدتين لخوض الكفاح المسلح، ولكن ممثلي لجنة الستة الذين كانوا يثقون في زملائهم في المناطق الأخرى (وهران، الجزائر، قسنطينة) لم يستسيغوا هذه الملاحظة... ومع ذلك فالدكتور: الأمين دباغين لم يكن يعارض فكرة الانتفاضة، بل كان يتساءل فقط

(1) الثورة الجزائرية في عامها الأول (مرجع سابق)، ص: 197.

(2) الثورة الجزائرية سنوات المخاض(مرجع سابق)، ص: 103.

حول مدى نجاحها"[1]. هذا الاستطراد نعتبره من صميم الموضوع، وقد جرنا إليه الزعم القائل بأن الصراع كان بنفس الحدة وأن تفضيل منطقة على أخرى زعم باطل وحديث خرافة، والأوراسيون لا يرجون من هذا العمل جزاءا ولا شكورا، لكنهم يرفضون أن تمحى صفحة مجيدة من تاريخ المنطقة كتبت بدماء الشهداء.

فمن خلال أقوال هؤلاء السياسيين والمفكرين، وجميعهم من خارج منطقة الأوراس نستطيع أن نقول وبدون تحفظ بأن سكان هذه المناطق هم أكثر تعلقا بالأرض وأكثر تشبثا بالوطن وأكثر استعدادا للتضحية من أجله، والدلائل كثيرة والحقائق التاريخية لا فائدة من إغماطها لأنها مكسب للأمة ورصيد ضخم يحق للجميع أن يفخر به. ومع أن النضال عمل تطوعي إرادي يستجيب له فقط من كانت له رغبة ملحة في النضال من أجل استرجاع الكرامة المداسة، إلا أنه كان يمر بأربعة أطوار أو مراحل تجري في شكل اختبار غير معلن للشخص (المناضل)، وعندما تتأكد فيه مجموعة من الخصال، كالصدق والانضباط وحفظ أسرار الحزب ينتقل من مرحلة إلى أخرى بعد أن تتم تزكيته من قبل رؤسائه المباشرين، وكل مرحلة من هذه المراحل تحمل تصنيفا خاص، ودلالة خاصة، فهي تعبر بعناية عن الوضعية الآنية للمنتسب إلى الحزب. من محب: والمحبة هنا تعني الشعور بالولاء يعبر عنه الشخص المعني بالأقوال والأفعال معا. إلى: "مؤيد" والتأييد يظهر بصور وأشكال مختلفة من خلال النشاطات التي يقوم بها الشخص، وبها يرتقي باقتراح من مسؤوليه المباشرين إلى التصنيف الذي يليه ويصبح "مشتركا" وهذا التصنيف يسمح له بأن يكون عضوا كامل الحقوق في الحزب، يسدد الاشتراكات، يحضر الاجتماعات، يطلع على سياسة الحزب وعلى برامجه وأهدافه ويحق له أن يبدي آراءه، والتصنيف الأخير ويحمل صاحبه صفة "مناضل" في الحزب ويتمتع بحق إبداء الرأي في الاجتماعات وبحق الترقية والمشاركة في جميع نشاطات الحزب.

وهذه المراحل كفيلة بأن تكشف للقادة السياسيين عن العناصر الوطنية اللامعة وسط المناضلين المتحمسين للنشاط السياسي المستعدين لخوض غمار المعركة ضد

---

(1) الثورة الجزائرية سنوات المخاض (مرجع سابق)، ص: 67.

الاستعمار، وسوف تسند إليهم المهام الصعبة عندما يحين الإعلان عن الثورة، وقد برز عدد لا بأس به من القادة من أوساط المناضلين في القاعدة أثبتوا إخلاصهم التام فكانوا سادة حرب، وأبطال معارك، أمثال: عبد المجيد عبد الصمد، علي النمر، دوحه بن كاوحه... بورغ...

التنظيم السياسي للإقليم :

يخضع الإقليم لتقطيع سياسي ذي طابع إداري أساسه الخلية ثم الفرع ثم القسم فالدائرة -لغرض التحكم- يرأس كل تنظيم مسؤول يعرف بمسؤول الخلية أو الفرع أو القسم أو الدائرة... تجري الاجتماعات بصفة منتظمة ووفق رزنامة ثابتة -الجميع ملزم باحترامها- بحيث تجتمع الخلية مرة كل أسبوع، ومن مجموع عناصر الخلايا يتكون الفوج، ويعقد اجتماعاته الدورية مرة كل نصف شهر، ومن مجموعة أفواج يتكون الفرع، يعين على رأسه مسؤول يجتمع بمناضليه كل عشرين يوما... ومن رؤساء الأفواج والفروع يتكون المجلس الولائي، ويعقد اجتماعاته كل ثلاثة أشهر. فهذا النوع من التنظيم والانضباط في العمل هو الذي أشعر المناضلين بجدية الحركة فأخلصوا لها النية بل وتفانوا في خدمتها.

القاسم المشترك :

القاسم المشترك بين مناضلي القاعدة والقيادات المسؤولة المشرفة على سير الاجتماعات هي الوطنية الخالصة والقناعة المشتركة بحتمية الكفاح المسلح بعد أن اِنسدّت جميع الأبواب الأخرى، وهناك قاسم مشترك آخر يكاد يستوي فيه الجميع وهو الأمية، والاستواء هنا رغم سلبيته يسهل من عملية التوصيل أكثر بالرغم من أن الآفاق تظل محدودة بالنسبة للطرفين. فالمناضل في القاعدة يكفي أن يقتنع بأن إمكانية استرداد الوطن المغتصب متوفرة وممكنة، متى توفرت الإرادة والحزم والاستعداد للتضحية ورحيل الاستعمار عند سكان الريف مثل الأوراس لا يعني زوال رموز الاحتلال الذي فرض على السكان الهيمنة وأذاقهم مرارة الذل بإلزامهم على الطاعة والخنوع، بقدر ما كان يعني رحيل حراس الغابات ورجال الجندرمة وزوال أنظمة القيادات التي كانت تسيء إلى المجتمع والكف عن التحصيل

الضريبي المرهق... فهؤلاء هم أعداؤه المباشرين. تكونت لدى مناضلي القاعدة بسرعة فائقة قناعة ترسخت في أذهانهم بأهمية بل بضرورة الكفاح المسلح. وراحوا يستعجلونه من أجل استرجاع الكرامة الضائعة ودحر الاستعمار، وقد أظهروا التحدي في أكثر من مناسبة، وسعوا إلى إشعال فتيل الثورة قبل الأوان، كما حدث في انتخابات المجلس الجزائري في الرابع من شهر أفريل 1948 في كل من كيمل وتيغانمين وبوزينة عندما تأكدوا من النوايا المبيتة من قبل إدارة الاحتلال لتزييف النتائج، فأعلن المناضلون الرفض ثم التحدي فالعصيان ثم التمرد والاستعداد للمقاومة، غير أن القيادة ظلت تدعوهم إلى التريث لعدم اكتمال الاستعدادات. هذا السلوك كان بمثابة محرار تقيس به القيادة مدى تشبع المناضلين بالأفكار الثورية والاستعداد لتجسيدها عن طريق العمل المسلح. وقد تفطن المسؤولون إلى أهمية الإعلام لنشر الفكر الثوري والوعي الوطني في أوساط المناضلين وعموم المواطنين عن طريق الفن لتعذر نقله عن طريق الصحف لضعف الإمكانات وسيطرة الأمية، فأشاعوا بين المناضلين أغاني وأهازيج راحوا يترنمون بها في الأفراح وفي أثناء عمليات الحصاد، حيث تلتئم التجمعات... فأعطت للحركة السياسية إشعاعا يفوق مئات الاجتماعات لتوافقها مع أمزجة المواطنين وبساطة حياتهم، ولكونها كانت تثير في نفوسهم الحس الوطني عن طريق المشاعر الحسية.

تأثر المناضلين في الأوراس من انقسام الحركة الوطنية سنة 1953:

تأثر المناضلون في الأوراس كبقية مناطق الوطن من انقسام الحركة، حيث ظهرت ثلاثة اتجاهات.1-اتجاه يساند المصاليين ويتعلق بالمنهج المضطرب الذي اختاره رئيس الحزب الذي يدعو أحيانا إلى التريث، وأحيانا أخرى إلى ضرورة تعميم الاستشارة لعموم الشعب الذي لم يبلغ في نظره مستوى النضج السياسي الكامل، وأحيانا أخرى إلى إسناد حق القرار إلى مؤتمر وطني شامل.

2-اتجاه يساند المركزيين والكثير من هؤلاء من شريحة الشباب الواعي الذي يرفض الجمود السياسي، ويلح على التغيير والتطوير، ونبذ الأفكار الأحادية

والنظرة الفوقية والأبوة التي يعتقد بها "مصالي" والزعم بأن النضج السياسي للشعب لم يكتمل.

3-اتجاه ثالث التزم الحياد في البداية، ولم يكن ذلك لعدم وضوح الرؤيا لديه، لكنه كان يأمل في أن يحصل التقارب بين الاتجاهين المتنافرين ويلتئم الصدع مرة أخرى، لكنه ما لبث أن ظهر كقطب ثالث له وجهة نظر متميزة وأفكار خاصة وهو موقف معظم الأوراسيين. يقول: عاجل عجول -أحد قادة الثورة في الأوراس- في استجواب أجرته معه جمعية أول نوفمبر بتاريخ: 03-09-1985، بباتنة "اجتمع رؤساء الأقسام في 14 أوت 1954 في قسنطينة، لغرض الحصول على الدعم المالي من الحزب... وقد حضر المصاليون والمركزيون من الجزائر لغرض التجسس والتشويش، وكان الأوراس بأمر من ابن بولعيد قد التزم الحياد"[1].

وهذا الحياد الذي التزم به ابن بولعيد لا يعبر عن الجمود السياسي بقدر ما يعبر عن استقلالية القرار ورفض الاحتواء من قبل جناحي الحركة المتصارعين، وقد تعمق الشرخ بعد مؤتمر المصاليين "بهورنو" ببلجيكا جويلية 1954، ومؤتمر المركزيين بالجزائر 13-16 أوت 1954 بشكل واضح سيما وأن هذين الاجتماعين قد جريا بعد أن حسم جماعة (22) من المنظمة السرية في الموضوع في اجتماعهم المنعقد بالمدنية -الجزائر العاصمة- بتاريخ: 14 جوان 1954، وقد أبدى كل من جناحي الحركة تحفظا واضحا فيما أقرته هذه الجماعة. فالحاج مصالي الذي أبلغ بقرار الجماعة بواسطة ابن بولعيد ظل يرفض التخلي عن فكرة التبني للحركة الوطنية رفضا قاطعا، وكان رده سلبيا للغاية، لخصه ابن بولعيد في عبارة مؤلمة بقوله: "سي الحاج انتهى، إن ما سمعته منه لا يمت إلى الحكمة ولا إلى العقل ولا إلى المصلحة العامة للوطن والحزب"... ولم يكن موقف المركزيين بنفس الدرجة من التصلب، فقد كانوا أكثر مرونة من الحاج: مصالي، فهم -حسب تعبيرهم- "مع الثورة" لكن ليس الآن والأعذار عندهم هي: * ضعف التعبئة * نقص في التوعية... وهو ما كان يرفضه أنصار العمل المباشر من أعضاء اللجنة المكلفة بالإعداد للثورة، بالرغم

(1) مصطفى بن بولعيد والثورة الجزائرية-إنتاج جمعية أول نوفمبر، ص: 353.

من أن هذه الأعذار حقائق كشفت عنها الأحداث فيما بعد، وقد عبر عن هذا الرفض كل قائد بلغته الخاصة "سنعلن الثورة ولو بقردة الشفة" قالها: محمد بوضياف في البليدة عندما سعى كل من محمد يزيد وحسين لحول إلى استمالة عناصر موالية للثوريين لصالح المركزيين، كما عبر عنها ابن مهيدي بكيفية أخرى، حين قال: "ألقوا بالثورة إلى الشارع يتلقفها الشعب" وقد يكون رد القائد ابن بولعيد على الرائد: مونتاي الذي كلف من قبل: سوستيل باستنطاقه بعد أسره في تونس – فيفري 1955– أبلغ وأوفى.

فقد صاغ مونتاي سؤاله في شكل عتاب ليؤثر به على مشاعر القائد: ابن بولعيد -الأسير- حين قال: كيف تنساق يا ابن بولعيد مع هؤلاء الرعاة وأنت رجل ميسور الحال ومحترم بين قومك ؟ فكانت إجابة ابن بولعيد قاسية ومؤلمة لمونتاي سدت له باب الأمل في النيل من كبرياء ابن بولعيد، حين قال له: "إن التعسف المسلط علينا من قبل حكومتكم لا يسمح لنا بالانتظار إلى أن يصبح هؤلاء الرعاة علماء! " فأغلق بذلك "مونتاي" ملف الاستنطاق، كانت هذه نظرة الزعماء التاريخيين وقد عبر عنها كل زعيم بفلسفته الخاصة.

التحضير لثورة نوفمبر على المستوى المحلي :

يجمع كثير من الرواة أبرزهم: عاجل عجول :كقائد بأن ابن بولعيد كان قد شرع في التحضير للعمل المسلح بمجرد أن توفر لديه مخزون من السلاح يقدره كثير من المؤرخين ما بين 300 إلى 400 قطعة سلاح حربي، ويبالغ البعض في تقدير الكمية حيث يصل بها إلى 1000 قطعة[1] وقد اخترنا رواية عجول لثلاثة أسباب:

أ-كونه قد شارك في المداولات وصياغة القرارات.

ب-كونه عنصرا مثقفا ومدركا لمجريات الأحداث ولأهدافها السياسية.

جـ-كونه قائدا ومسؤولا مطلعا على المعطيات السياسية وعلى التحضيرات العسكرية كتهريب وخزن وجرد الأسلحة والتدريب على استعمالها. فحسب الراوي (عجول) فإن:

---

(1) معالم بارزة في ثورة نوفمبر 1954، الملتقى التاريخي المنعقد بباتنة 1989، ص: 90.

1) -أول اجتماع في إطار الإعداد للثورة في الأوراس كان قد انعقد بتاريخ: 30 مارس 1954 في دار المسعود بلعقون في أزمالة -بباتنة-، وهذا بعد أسبوع واحد من إنشاء "اللجنة الثورية للوحدة والعمل" بتاريخ: 23 مارس 1954، ويكون ابن بولعيد بذلك قد سبق قرار لجنة (22) بالمدنية بالعاصمة التي اجتمعت بدار المناضل: إلياس دريش في 24 جوان 1954، وأجمعت في قرارها على إعلان الثورة واعتبر في ذلك منعرجا تاريخيا حاسما لإنهاء المعضلة السياسية التي تمر بها الحركة التي راحت تتداعى للسقوط، وكأسلوب لا يفهم الاستعمار غيره. وقد حضر هذا الاجتماع مسؤولو جميع الأقسام، ما عدا قسم باتنة الذي اختار الولاء للاتجاه المصالي ولم يحضر من مناضلي باتنة عدا رشيد بوشمال الذي حضر بدون تفويض، كما لم يحضره رئيس الدائرة: بشير شيحاني.

2)-أما الاجتماع الثاني، فقد وقع على المستوى الجهوي، وقد انعقد بقسنطينة بتاريخ 14-08-1954، وقف فيه مناضلو ناحية الأوراس موقف الحياد بناء على توصيات صدرت عن القائد: ابن بولعيد وساندهم في ذلك مناضلو "السمندو". هذان الاجتماعان يمكن اعتبارهما تحسيسيان سمحا للقيادات المسؤولة من خلال التقارير التي أعدها مسؤولو الأقسام بقياس حساسية ومستوى النضج السياسي لدى المناضلين ومدى استعدادهم لخوض المعركة المصيرية.

3)-و قد انعقد الاجتماع الثالث في ضيعة ابن بولعيد بتازولت (لامبيز) وشارك فيه مسؤولو الأقسام أيضا، من بينهم شيحاني بشير -مسؤول دائرة: باتنة- الذي لم يحضر الاجتماع السابق، وقد حضره عاجل عجول عن ناحية: آريس وعباس لغرور عن ناحية: خنشلة، ومحمد خنتري عن ناحية: بريكة، وموسى حاجي عن ناحية لخروب، والطاهر أنويشي عن ناحية: بوعريف... وقد دعاهم ابن بولعيد في هذا الاجتماع للقيام بإحصاء شامل ودقيق للمناضلين وجرد دقيق للأسلحة... فأقسموا أمامه اليمين على أن يكتموا ذلك خشية تسرب المعلومات إلى أجهزة الأمن الاستعمارية أو إلى أعوانه وأذنابهم من مخبري الإدارة ولم يذكر الراوي عجول تاريخ انعقاد هذا الاجتماع.

4)-أمّا الاجتماع الرابع، ويعتبر أهم اجتماع ينعقد في هذه السلسلة من الاجتماعات إذ بانعقاده يكون العد التنازلي قد انتهى، وعمليات التحضير للثورة، قد اكتملت، وأن مسألة التردد أو التريث في انتظار ارتفاع مستوى الوعي السياسي الذي يخامر فكر المصاليين والمركزيين تجاوزته الأحداث، ولم تعد هذه الذرائع تشكل عائقا أمام الثوريين الذين ظهروا كقطب ثالث مستقل يرفض الاحتواء والجمود السياسي، كما يرفض التبني والأبدية والعصمة التي يتشبث بها الزعيم: مصالي، ويرفض أيضا دعوة المركزيين للتريث لعدم اكتمال التعبئة والنضج السياسي وملاءمة الوضع السياسي الإقليمي والدولي.

غير أن الثوريين كانت لهم قناعاتهم الخاصة، فقرروا أن يضعوا قراراتهم موضع التنفيذ بعيدا عن الأضواء وعن الأجواء الديماغوجية لجناحي الحزب.

5)-ومع اقتراب الموعد الذي بقي طي الكتمان لدى القادة الستة، دعا ابن بولعيد رؤساء الأقسام بالأوراس إلى اجتماع استثنائي يعد الخامس قي سلم الترتيب، وقد ضم هذا الاجتماع الذي انعقد "بلقرين" بدارعبد الله بن مسعودة، كلا من: عاجل عجول، وشيحاني بشير، والطاهر أنويشي، وعبد الله بن مسعودة، ومحمد خنترة، وحاجي موسى، وعباس لغرور. ففي هذا الاجتماع الذي سبق اندلاع الثورة بعشرة أيام ويعد أخطر اجتماع انعقد بالمنطقة، كشف ابن بولعيد لرؤساء الأقسام المحلية عن قرار خطير ظل مجرد حلم يراود الوطنيين طيلة مرحلة الإعداد للثورة، حيث أعلن أمام الحضور عن تاريخ بدء العمليات الحربية ضد الاحتلال، وحدد الوقت بالضبط بالساعة "صفر" من ليلة أول نوفمبر 1954، بعد أن استحلفهم على كتمان السر، كما أخبر ابن بولعيد القادة رؤساء الأقسام بأن المصاليين والمركزيين على السواء ضد القرار (قيام الثورة) وأن هذا القرار كان قد اتفق عليه أعضاء المنظمة السرية في اجتماعهم المنعقد بالمدنية -العاصمة- بتاريخ: 24 جوان 1954.

الفصل الخامس

- قرار الإعلان عن الثورة
- على الصعيد العسكري (عمليات)
- عمليات الفاتح من نوفمبر في منطقة الأوراس
- انتزاع السلاح من السكان
- صدى الحدث على الصعيد الإعلامي
- الاختيار الممكن
- لعبة سوستيل
- إعلان حالة الطوارىء
- إنها الحرب ويجب القيام بها
- مخطط توزيع الثكنات في الأوراس
- المواجهات المسلحة
- حرب على أكثر من صعيد
- المكتب الخامس
- مديرية حماية الإقليم
- المحتشدات والمعتقلات
- الصمود الأسطوري للأوراس

قرار الإعلان عن الثورة:

قرار الإعلان عن الثورة يعني الانتقال من مرحلة التخطيط إلى مرحلة التنفيذ بما يتطلبه هذا الانتقال من نشاطات مكثفة وحثيثة، بحيث تعطي للعمليات القتالية منذ البداية طابعا شموليا بحيث تخلف أصداء واسعة، وتشكل مادة إعلامية هامة تثير انشغال الصحافة فتروج لفائدة الثورة عن غير قصد منها، ولن يتم ذلك إلا بوجود قيادات واعية ومسؤولة تؤكد من خلال نشاطاتها صدق مشاعرها الوطنية واستعدادها للتضحية وسوف تكون بذلك نموذجا وقدوة لبقية المناضلين.

كشف ابن بولعيد في نفس الاجتماع عن الحدود الإقليمية للمنطقة الأولى حسب ما اتفق عليه، كما أطلعهم على البيان التاريخي -بيان أول نوفمبر- المعد من قبل القادة الستة المفوضين من قبل لجنة (22) الموصوفين بمهندسي الثورة.

تتحدث بعض المراجع عن إحضار ابن بولعيد لآلات راقنة وقيام كل من: عباس لغرور وعاجل عجول بكتابة البيان باللغتين (عربية وفرنسية)، غير أن أصح الأقوال تشير إلى أن البيان لم يتجاوز المنطقة التي طبع بها (منطقة القبائل) ويعد البيان الذي صدر باللغتين -عربية وفرنسية- أول وثيقة تصدر عن حزب جديد غير معتمد في الساحة الوطنية -حزب جبهة التحرير الوطني- ويمكن اعتباره كوثيقة مرجعية ترسم المعالم الكبرى للثورة التحريرية، وتحدد بإيجاز ملمح الدولة الجزائرية المرتقبة، وهو معد بعناية فائقة.

ونحن نشك فيما إذا كان البيان قد وزع في المنطقة الأولى-الأوراس-، ونرفض الزعم القائل بأن الذين قاموا بقتل المعلم: "مونيرو قي" والقائد: ابن ناجي الصادق، قائد: أمشونش صباح 1 نوفمبر في مضايق تيغانمين، كانوا قد أوقفوا الحافلة لغرض توزيع بيان أول نوفمبر- فارتاب فيهم القائد، فسحب مسدسه، فتفطن لذلك أحد المجاهدين من خارج الحافلة، فأطلق عليه النار وأصاب المعلم: "مونيرو قي" فركاب الحافلة وسائقها يرفضون هذه الرواية. وأثر البيان لم يرد ذكره بتاتا في الأوراس. ونحن هنا نتأسف عن عدم توزيع البيان في المنطقة، بالرغم من أننا مقتنعين بأنه لن يخلف أي صدى في أوساط السكان حيث تصل نسبة الأمية إلى أكثر من 95 % وأهل المنطقة لا يجيدون فلسفة الأحداث والبحث عن الأسباب والمسببات، وبناء التوقعات، وهم يميلون بالفطرة إلى العنف أكثر من ميلهم إلى المطاوعة لضيق في الآفاق، فكانت ردود أفعالهم بمجرد الإعلان عن الحدث سريعة وعنيفة. يقول عنهم الأستاذ: عبد الحميد زوزو "إذ تجد عندهم صفاء السريرة وصراحة القول وصدق الكلمة، بالقدر الذي تلمس فيهم وعورة الانصياع بالقوة وصعوبة الانقياد بالجبر"[1] وقد تكون سلسلة الثورات الفاشلة التي حدثت في الأوراس خلال الحقبة الاستعمارية



مونيرو-قي المدرس الذي أثار موته زوبعة في الأوساط الإعلامية الاستعمارية

(1) ثورة الأوراس 1879 لـ/ عبد الحميد زوزو(مرجع سابق)، ص: 28-29.

انعكاسا لهذه العقلية... ويعتبر اجتماع "لقرين" حدثا بارزا كونه يفصل بين مرحلتين: مرحلة التوعية والتخطيط والإعداد للعمل المسلح، ومرحلة التنفيذ والتطبيق.

6) أما الاجتماع الأخير، فقد وقع في دار: علي برغوثي بالمدينة -إيشمول- وقد جاء مباشرة بعد اجتماع "لقرين" لتجسيد مقررات القيادة بوضع هذه المقررات موضع التنفيذ وقد حضر الاجتماع بالإضافة إلى القائد: ابن بولعيد، صاحب المنزل، علي برغوثي وعاجل عجول، وعباس لغرور، والطاهر أنويشي. وأهم نقطة في جدول أعمال هذا الاجتماع البحث عن مكان ملائم لتجميع من وقع عليهم الاختيار من المناضلين الأوفياء ليكون لهم شرف المبادأة وفضل السبق في إطلاق العيارات الأولى نحو صدور أعداء الحرية إيذانا ببدء العمل المسلح، فيدشنون بذلك فاتحة عهد جديد ينهي كابوس التردد وينجلي عن فجر جديد، فجر الحرية والاستقلال.

انصرف عباس لغرور بعد أن تلقى التوصيات من القائد: ابن بولعيد ليتولى تنفيذ العمليات الأولى على مستوى مدينة: خنشلة في اليوم المحدد والزمن المحدد من ليلة أول نوفمبر. بينما واصل بقية القادة استعراض الأماكن التي يمكن أن يعقد فيها الاجتماع لمئات المناضلين وفي سرية تامة بعيدا عن الأنظار، لأن أية وشاية سوف تؤدي إلى ردود أفعال عنيفة من قبل السلطة الاستعمارية، وسوف يزعزع ذلك النظام المتفق عليه مع بقية قادة المناطق في الوطن،... وأخيرا وقع الاتفاق على موقعين هامين هما:

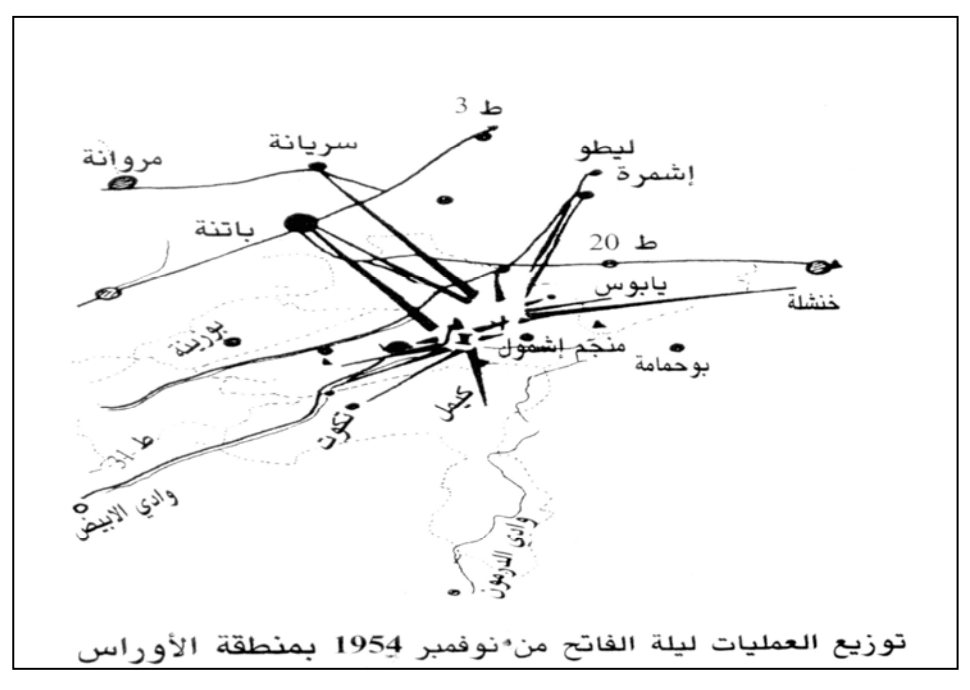
1-دشرة أولاد موسى على سفوح جبل إيشمول الجنوبية -بلدية إيشمول-

2-خنقة لحدادة بقرية تيبكاوين -فم الطوب-

وقد تم الاختيار على ضوء عدة مواصفات يتوفر عليها الموقعان، تتعلق بالمكان أولا وبالسكان ثانيا. واتخذت كل الإجراءات التي تحول دون تسرب للمعلومات

عن الاجتماعين المقررين من ضمنها، وضع القريتين تحت حراسة مشددة ومنع الدخول والخروج منها... تكلف عجول بدعوة المناضلين إلى الاجتماع في المكانين المحددين دون أن يبيح لهم بالموضوع... وهكذا بدأ المدعوون يتوافدون على المكانين بداية من ليلة السبت 29 أكتوبر، وكل مناضل التحق بالمكان ملزم بالإقامة والانصياع، مجبر على الانضباط والنظام ولن يسمح له بمغادرة المكان مهما كانت الأعذار حفاظا على سرية الاجتماع. راح المدعوون يتدفقون على مكاني الاجتماع، ليالي: السبت، الأحد، الإثنين إلى أن تجمع في دشرة أولاد موسى بإيشمول وحدها زهاء (396) مناضلا، وفي خنقة لحدادة ما يقرب من: 83 مناضلا... وقد انتابتني الشكوك في صحة الرقمين، بالرغم من وجود قوائم اسمية للمناضلين الذين شاركوا في التجمعين نشرتهما جمعية أول نوفمبر لتخليد مآثر الثورة في كتابها: ابن بولعيد والثورة الجزائرية الصفحات: 124... 138، عندما قارنت بين العددين المشار إليهما في الكتاب -المرجع- وبين العدد المذكور في المذكرة التي تم حجزها عند القائد: ابن بولعيد، عندما تم القبض عليه في تونس وهو (349). وقد ثبت لي بعد النظرفي الموضوع أن كلا الرقمين صحيح فالعدد المشار إليه في الوثيقة التي تم حجزها عند ابن بولعيد يمثل مجموع العناصر المسلحة المجندة للقيام بالعمليات العسكرية لتوفرها على بعض المواصفات التي تؤهلها لذلك من أصل مجموع المناضلين المدعوين إلى الاجتماع، وقد حضر منهم كما هو مبين في الكتاب -المرجع- أعلاه (396+83) والعناصر التي لم تدخل ضمن التشكيلات أسندت إليهما مهام أخرى في إطار عمليات: الإمداد والدعم والجوسسة والتموين... لضمان استمرارية الثورة، والاستغناء عن هذه العناصر بعدم إدراج أسمائها ضمن الأفواج الأولى لا يعني الطعن في وطنيتها، إنما ذلك يكون قد حدث بسبب النقص في السلاح أو لأسباب تتعلق بالصحة العامة أو بالسن. وهذا العدد لا يمثل جميع المناضلين الذين

هبوا ليلة أول نوفمبر للقيام بالعمليات العسكرية إذ لم تدخل ضمنه الأفواج التي أسندت إليها مهام أخرى بعيدا عن مركز نشاط القائد: ابن بولعيد ويتعذر عليها تنفيذ مهامها انطلاقا من موقعي التجمعين، كالأفواج المتجهة إلى بسكرة، والتي انطلقت قبل الموعد بيومين وظلت تنتظر حلول الساعة، وكذا الأفواج المتجهة إلى خنشلة وإلى تبردقة... والتي يقدر عدد مناضليها بما يزيد عن 100 مناضل.



توزيع العمليات ليلة الفاتح من نوفمبر 1954 بمنطقة الأوراس

فهذه الاستجابة السريعة والواسعة تعد فضيلة في المجتمع الأوراسي، فهي التي أعطت للانطلاقة في الأوراس رجّة عنيفة خلفت صدى عميقا ما فتى يعصف بمشاعر المواطنين، وبها نالت إعجاب الأعداء قبل الأصدقاء فوصفوها بمهد الثورة وبقلعة الثوار"[1]... ولا نعتقد أن ثمة عيب إذا حاولنا أن نعقد مقارنة بسيطة بالاعتماد على مراجع وطنية تكتب التاريخ للتاريخ، ولا تتعمد

(1) مذكرات: الأمل للجنرال: دوغول (مرجع سابق)، ص: 106.

مغالطة الأجيال بسردها لأرقام ووقائع لا يقبل بها العقل وتتنافى مع الحقائق ولا تستند إلى مصادر عليمة تؤكد صحتها، فقد جاء في محاضرة ألقاها الأستاذ: مصطفى هشماوي في الملتقى الأول -بباتنة- حول التاريخ الوطني سنة: 1989، تحت عنوان: التنظيم العسكري والسياسي للثورة الجزائرية. بأن توزيع السلاح والرجال (كان) كما يلي:

"كان في المنطقة الأولى(الأوراس) من المقاتلين (550) مقاتلا، و(200) قطعة من السلاح الحربي. وكان في المنطقة الثانية(الشمال القسنطيني) من المقاتلين (530) مقاتلا، و(60) قطعة من السلاح الحربي(الشمال القسنطيني). وكان في المنطقة الثالثة(منطقة القبائل) من المقاتلين (570) مقاتلا، و(77) قطعة من السلاح الحربي(جرجرة القبائل).و كان في المنطقة الرابعة(الجزائر الوسط) من المقاتلين (298) مقاتلا، و(15) قطعة من السلاح الحربي(الجزائر).وكان في المنطقة الخامسة(الغرب الجزائري) (10) قطع من السلاح الحربي(دون ذكر لعدد المقاتلين). وكان في المنطقة السادسة(ظهرت بعد مؤتمر الصومام) (10) قطع من السلاح الحربي(دون ذكر لعدد المقاتلين كذلك).

فكان مجموع الرجال الجاهزين للقتال -حسب المحاضر- 2372 جندي"[1].

لم يذكر الأستاذ: مصطفى هشماوي المصدر الذي استقى منه هذه المعلومات ليمكن القارىء من التحري والتحقيق أو من الاستزادة... ومما يلاحظ أن هذه المعطيات الرقمية لا تتفق مع عروض حال لقادة المناطق عند انطلاق أشغال مؤتمر الصومام، وهي كالتالي :

(1) معالم بارزة في ثورة نوفمبر 1954 محاضرة لمصطفى هشماوي، ص: 104 .

1-المنطقة الأولى (أوراس: النمامشة) غياب ممثل المنطقة.

2-المنطقة الثانية: العرض من تقديم: زيروت يوسف وقد قدر عدد المجاهدين بـ: 100 ليلة أول نوفمبر -الإحصاء مشار إليه في آخر التقرير-

3- المنطقة الثالثة: العرض من تقديم: كريم بلقاسم: قائد الولاية الثالثة، وقد قدر عدد المجاهدين ليلة أول نوفمبر بـ 450 مجاهدا.

4-المنطقة الرابعة: العرض من تقديم: عمر أوعمران قائد الولاية، وقد جاء في التقرير بأن عدد المجاهدين عند اندلاع الثورة بلغ 50 مجاهدا.

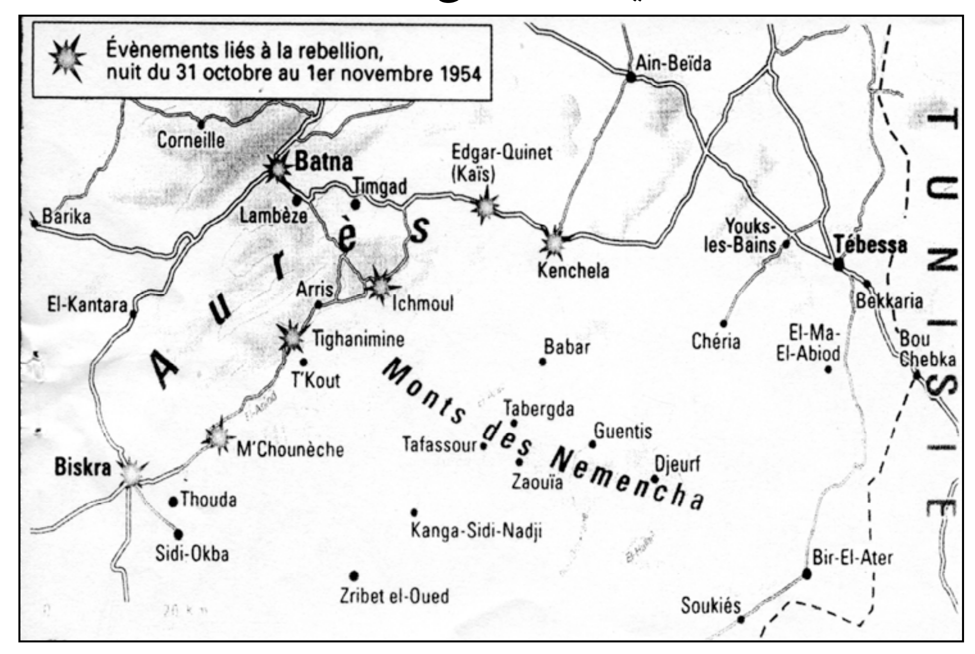
5-المنطقة الخامسة: العرض من تقديم: العربي بن مهيدي قائد المنطقة(سابقا)، بلغ عدد المجاهدين عند اندلاع الثورة 60 مجاهدا، 50 منهم تم توقيفهم أو قتلهم.

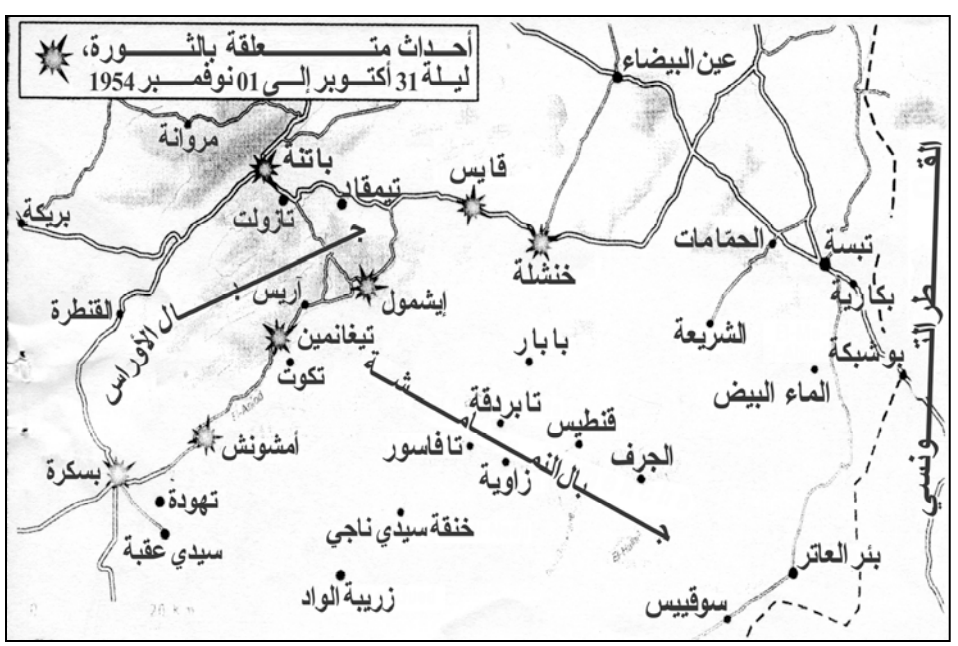
6-المنطقة السادسة: تقرير شفوي من تقديم عمر أوعمران... بدون تعيين[1]

هذه المعطيات تبقى محل نظر كذلك بالرغم من أنها صادرة عن قادة مناطق تاريخية. والمؤكد لدينا هو المحضر الذي تم ضبطه عند ابن بولعيد عِند أسره.

(1) تقرير مؤتمر الصومام مذكرات اللواء: حسين بن معلم، ص: 275.

على الصعيد العسكري عمليات الفاتح من نوفمبر في منطقة الأوراس :





يشير المخطط إلى أهم العمليات العسكرية ضد الأهداف الاستعمارية ليلة أول نوفمبر 1954 المخطط من إعداد مصالح الأمن الفرنسية

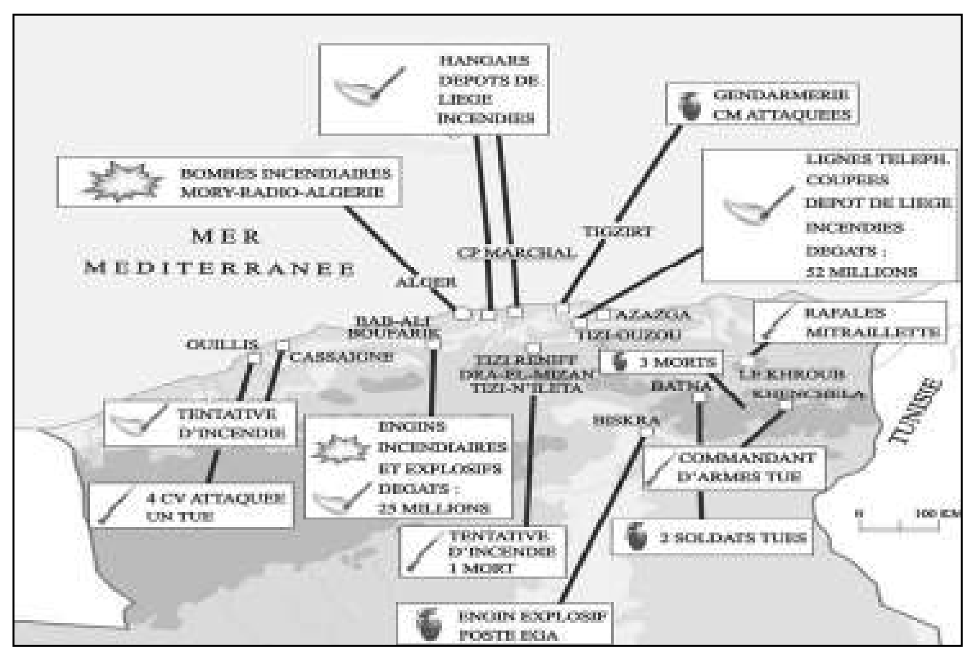
لعل أهم نقطة كانت تثير قلق الثورة، هي كيف يمكن تعميم العمليات القتالية بحيث تكون الانطلاقة متزامنة على مستوى كافة المناطق في التراب الوطني لتشكل صدمة قوية تهز كيان إدارة الاحتلال وتشعرها بوجود مخطط منظم ومدروس بعناية على حد تعبير مدير الأمن العام: جان فوجور.

وقد أذهلت الانطلاقة بالفعل الإدارة الاستعمارية لشموليتها وتزامنها واتساع رقعتها حتى أن بعضهم ذهب إلى أن ما حدث أكبر من عقول الأهالي، وهذا ما كان يأمله قادة الثورة ومفجروها، وبالرغم من أن الخسائر كانت محدودة، غير أن دقة العمليات أثارت قلق وسخط سلطة الاحتلال، فحسب البيانات المتضاربة الصادرة عن هذه السلطة، فإن أهم العمليات جرت شرقي منطقة قسنطينة وفي منطقة الأوراس بالذات، فقد جاء في بيان الحاكم العام أنه "في الليلة المنصرمة وفي نقاط مختلفة من التراب الجزائري وبصفة خاصة شرقي محافظة قسنطينة وفي منطقة الأوراس قامت مجموعات صغيرة من الإرهابيين بارتكاب ثلاثين عملية تخريبية متفاوتة الخطورة وقد نتج عن ذلك مقتل ضابط وجنديين في خنشلة وباتنة وحارسين ليليين في منطقة القبائل"[1]، ويعلق حربي-المرجع- على البيان قائلا: "فعلاوة على كون الإدارة الاستعمارية قد حاولت التنقيص من خطورة الوضع في الأوراس، حيث كانت قبائل بأكملها: كتوابة وبني بوسليمان في حالة تمرد، فقد قدمت صورة مشوهة لبرنامج عمل جبهة التحرير الوطني"[2].

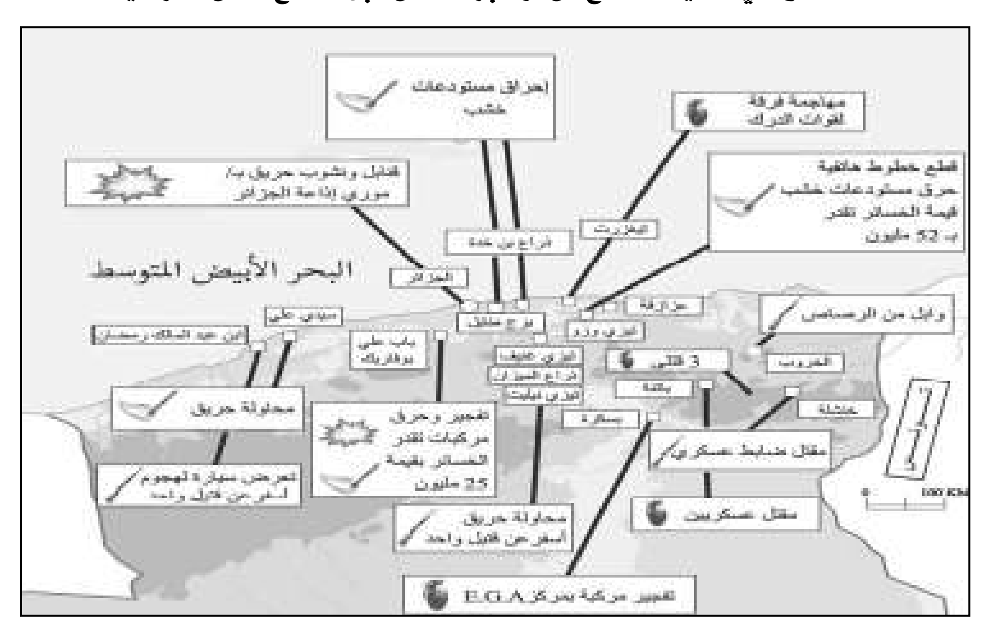
---

(1) الثورة الجزائرية سنوات المخاض(مرجع سابق)، ص: 16.

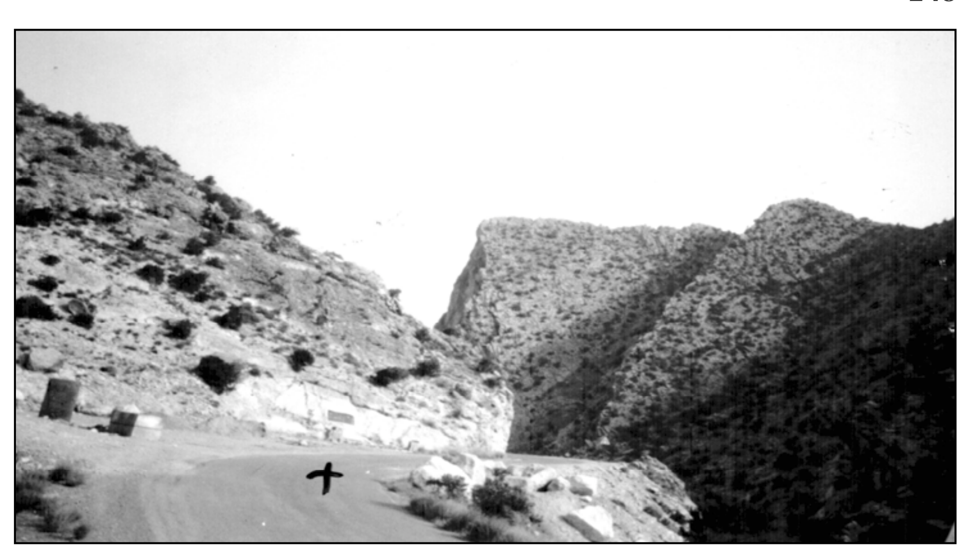
(2) نفس المرجع.



مخطط وطني لعمليات الفاتح من نوفمبر مُعد من قبل مصالح الأمن الفرنسية



مخطط وطني للعمليات القتالية ليلة أول نوفمبر 1954 من إعداد مصالح الأمن الاستعمارية بعد اندلاع الأحداث يلاحظ أن من أصل (8) قتلى سقطوا ليلة أول نوفمبر (6) منهم في الأوراس حسب اعترافات السلطة الفرنسية، فهل كان ذلك مجرد صدفة؟



المكان الذي نفذت فيه عملية تاغيت الشهيرة

لا شك أن رئيس الحكومة: منديس فرانس كان قد تحسس الوضع العام قبل أن يصدر البيان الذي تعرض فيه لسلسلة العمليات التي حدثت في الوطن وخص بالذكر الأوراس لأن وقع العمليات فيه كان أشد وأخطر، والبيانات المرفقة فيما بعد تؤكد ذلك ومما يلاحظ عن مخطط العمليات الأولى التي انطلق رجالها من دشرة أولاد موسى بعمق الأوراس أنها تجاوزت النطاق الجغرافي للإقليم وشملت أماكن أخرى خارج الأوراس مثل: عين أمليلة ولخروب...



ليلة أول نوفمبر-ميليشيات الدفاع الذاتي
للمعمرين "بفم الطوب-الأوراس"

إن البيان الذي صدر عن الوالي العام اقتصر على ذكر مدينتي: خنشلة وباتنة، وأغفل التعرض إلى عمليات خلفت صدى عميقا على الصعيد الإعلامي كتلك التي جرت في مضايق: تيغانمين والتي جرت بفم الطوب (الصورة السابقة) وبسكرة وفي أماكن أخرى... ومن الطبيعي أن يكون للعمليات الواردة في بيان السيد: الوالي العام صدى أكبر نظرا للخسائر البشرية التي نجمت عنها في الأوراس خاصة 6 قتلى من أصل 8 قتلى جملة الخسائر العسكرية المصرح بها من قبل مصالح الأمن الاستعمارية ليلة أول نوفمبر 1954. كما هو مبين في المخطط وفي صدر الصحيفة(صدى الجزائر) ليوم: 2 نوفمبر وفوق كل ذلك هذا التحدي الذي أظهره من كان يوصف بالإنسان الأهلي (الذي) ينتمي -حسبهم- إلى سلالة دنيا ولا يمكن أن يصعد بنفسه من خلال جهوده الخاصة ليكون في مستوى الأوروبي، ذلك أن الأهلي (حسب تعبير صحيفتهم) هو إنسان غشاش، وقذر، ولص، ومكار، وجحود، وفعل الخير معه كمثل إعطاء المربى إلى الخنزير... إذن فإن إهانته هي التي تعلمه أن يصبح طائعا ومتحضرا"[1] هذه النظرة الحاقدة اتجاه الإنسان الأهلي كما يصفونه هي التي ستحوله إلى برميل بارود يزلزل كيان الدولة الاستعمارية، ويزعزع سلطة الاحتلال.

(1) أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر للدكتور: أبو القاسم سعد الله الجزء الخامس، ص: 94.



أصداء الحدث في الصحافة الفرنسية

8 morts

INFORMATIONS PAGE 10

AGIR VITE ET FORT

ATTENTATS TERRORISTES EN ALGÉRIE : 8 morts

L'ÉCHO D'ALGER

M. Mendès-France a reçu hier le général Kœnig

ancien ministre de la Défense nationale

Le président du Conseil rencontrera à nouveau vendredi les "présentis" socialistes

Les États-Unis votent aujourd'hui

Les républicains dirigés par Eisenhower conserveront-ils la majorité au Congrès ?

Les dépouilles des victimes ont dû être ramenées à dos d'hommes

Lyon a fait à S.M. HAILÉ SÉLASSIÉ un accueil digne du "roi des rois"

LA ROYAUTÉ DE MARIE A ÉTÉ SOLENNELLEMENT PROCLAMÉE A SAINT-PIERRE PAR S.S. PIE XII

REFLETS DU JOUR

ÉLECTIONS AMÉRICAINES

Les experts des Trois préparent la réponse à la proposition soviétique

Ils ont tenu hier à Londres une première conférence

Le mariage de la petite nièce du général de Castries

DU VRAI, DU FAUX

LUEURS SUR LES SOUCOUPES

SOUCOUPES ANCIENNES

AIMÉ MICHEL

صورة زنكغرافية للصفحة الأولى من جريدة/صدى الجزائر/ الفرنسية الصادرة يوم 2 نوفمبر 1954 تسجل نبأ أول عملية حربية قامت بها الطلائع الثورية الجزائرية

المؤكد أن قادة الثورة يمتلكون نفسا طويلا، ولم يكونوا يحلمون بحسم الصراع في شهر أو حتى في عام أو سنوات لأنهم يعرفون مدى تشبث فرنسا بالمستعمرة اللؤلؤة، كما يصفها "دوغول"، ومدى تعلق المستوطنين بالأرض، وكانوا يعلقون آمالا كبيرة على البطش الاستعماري الذي سوف يعزز روح المقاومة لدى المواطنين من حيث لا يعلمون، فقد كان الشهيد: زيروت يوسف يردد دائما "إن القمع الأعمى يولد القمع الأعمى، والعنف يدعو إلى العنف"[1] وقد عبر عنه ديدوش مراد بصيغة أخرى، عندما سأله أحد المجاهدين عن المدة التي يمكن أن تدومها الثورة، فأجاب (ديدوش): "إن على الثوار الأوائل أن ينفقوا أربع سنوات لنشر

(1) الثورة الجزائرية في عامها الأول (مرجع سابق)، ص: 142.

مبادىء الثورة وتعميم فكرة الاستقلال وجعلها مألوفة لدى الأهالي، بعدها نخوض كفاحا حقيقيا مدة أربع سنوات أخرى، ثم نبدأ في انتظار الاستقلال"[1] وهذا ما حدث تقريبا، فنفوس الأبرار تنطوي على كنوز وأسرار لا يدركها الجميع. فالاستعمار الذي أسكرته نشوة الانتصارات التي حققها ضد الانتفاضات التي كانت تندلع كالشرارات عبر أرجاء الوطن والتي كانت تقوم على المواجهة المباشرة مع قوات تتفوق عنها دوما من حيث العدد والعدة. اعتقد أن هذه الهبة لا تختلف عن سابقاتها، وهي لا تعدو أن تكون "قعقعة رعد وسط سماء صافية" كما وصفها بعض ساسة الاستعمار، إلا أن قوات الاحتلال فوجئت باستراتيجية جديدة عن طريق الكر والفر أو حرب العصابات التي قد يطول أمدها، ويعبر عن هذه النظرة "بياردابيزياس" أحد الضباط الفاعلين في الحركة البسيكولوجية حيث يقول: "لقد نظرنا إلى تمرد الخصم على أساس أنه مجرد تقنية أحسن استعمالها زمرة من المشاغبين الخارجين عن القانون، لذلك افتقدنا إلى الجواب النزيه... لماذا ثار هؤلاء الأشخاص، ولماذا سار على خطواتهم الشعب تدريجيا ؟ وهل كان ذلك ميلاد جزائر جديدة ؟"[2] وفي شكل رد على هذه التساؤلات، يقول: محمد حربي "إن ثوار غرة نوفمبر لم يحاولوا خوض معارك حاسمة مع العدو مثلما ما كان الشأن سنة: 1871 على أن السعي إلى تعبئة الجماهير كان موجودا في منطقة الأوراس، طالما كانت مشاركة بعض القبائل مثل: دواري إيشمول وزالاطو مشاركة فعلية... وهذا الوضع وإن كان سيشكل في المستقبل عقبة في طريق إيجاد قيادة مركزية في الأوراس إلا أنه يخدم مصلحة المناطق الأخرى، وذلك لأن توجيه القسم الأوفر من الإمكانات العسكرية الفرنسية إلى الأوراس سيسمح للآخرين بالقيام بكل طمأنينة

(1) المرجع السابق، ص: 122.

(2) حرب الجزائر ملف وشهادات/ لباتريك ايفينيو وجان بلانشايس، الجزء الثاني، ص: 88.

بعمل مركز وفعال"[1] وهذه الاستراتيجية كان قد تعهد بها ابن بولعيد أمام القادة الستة لضمان انطلاقة قوية وفعالة وتعهد بأن تتحمل الأوراس أعباء الثورة 9 أشهر وفي روايات أخرى 6 أشهر في انتظار استكمال بقية المناطق لإجراءاتها التنظيمية المحلية، كالتوعية والتنظيم والهيكلة والتسليح. وقد تعرض الدكتور: محمد العربي الزبيري لوضعية الانطلاقة في المناطق الخمس، في كتابه: الثورة الجزائرية في عامها الأول، وسنقتطف من الكتاب ماله صلة بموضوع حديثنا، يقول الدكتور: الزبيري "ينبغي أن نقول بأن تركيز فرنسا على المنطقتين الأولى والثانية لم يكن يعني أن الثورة قد خبت نيرانها في المناطق الأخرى من البلاد، لكن المنطقة الأولى (الأوراس) كان لها وضع خاص يتمثل فيما يلي :

1-"لقد كانت قبل ثورة نوفمبر مأوى لمناضلي ومسؤولي المنظمة الخاصة الملاحقين من قبل السلطات الاستعمارية، وبالتالي ميدانا للتدريبات العسكرية ومخزنا للأسلحة والذخائر التي تحصلت عليها مختلف أجهزة حركة الانتصار للحريات الديمقراطية من جميع الجهات وبكل الوسائل"[2] وهذه الوضعية سوف تجعل منها مهدا للثورة بلا منازع نظرا للدور الريادي الذي اضطلعت به، ويضيف الدكتور: الزبيري.

2-"إن مسؤولها الأول، الشهيد: مصطفى بن بولعيد كان معروفا في الأوساط السياسية إذ كان عشية الثورة عضوا في اللجنة المركزية لحركة الانتصار للحريات الديمقراطية ومن ثمة فإنه كان يحظى بثقة معظم المناضلين بها في ذلك أعضاء المنظمة الخاصة المتواجدين هناك"[3] ويستطرد الزبيري... "وإذا كانت المنطقة الثانية

---

(1) الثورة الجزائرية سنوات المخاض (مرجع سابق)، ص: 21.

(2) الثورة الجزائرية في عامها الأول (مرجع سابق)، ص: 130.

(3) نفس المرجع.

(الشمال القسنطيني) لم تعط قائدا له نفس وضع وإمكانات (الشهيد: ابن بولعيد) فإنها كانت تشتمل على عدد كبير من أعضاء المنظمة الخاصة، (وذكر منهم) زيغود، ابن طوبال، ابن عودة، باجي، بوصوف، بيطاط، حباشي، عبد المالك رمضان، مشاطي) من مناضلي حركة الانتصار للحريات الديمقراطية المحنكين والمؤيدين للإسراع بالدخول في مرحلة الكفاح المسلح، لأجل ذلك فإن عملية الهيكلة وتنصيب الخلايا وتجنيد المجاهدين الأوائل لم تعترضها صعوبات كثيرة... فهذه الأوضاع الخاصة هي التي جعلت الثورة فيهما تكون قوية ومنتشرة، وفي نفس الوقت جعلت السلطات الاستعمارية تخصص معظم إمكاناتها المادية والعسكرية والسياسية لمحاربة جبهة التحرير هناك"[1]. ومن أجل القضاء على الثورة في المهد سارعت الحكومة الفرنسية إلى تعيين أكفإ الضباط وأوسعهم خبرة في حرب العصابات أمثال: الجنرال: غاستون بارلانج والعقيدان: ديكورنو وبيجار، وأعطت الإشارة لبدء الهجومات المكثفة على المنطقتين الأولى والثانية خاصة. وفي 23 جانفي 1955 شرع في تنفيذ عمليتي: "فيرونيك وفيوليت" التي حددت لها مهمة تمشيط الأوراس والشمال القسنطيني من أجل القضاء المبرم على مراكز الثورة".

(1) المرجع السابق، ص: 131.



القمع في الأوراس



عملية فيرونيك بالأوراس-1955 قوات معادية بقرية مشونش

وفيما يشبه المقارنة بين هاتين المنطقتين وبقية مناطق الوطن يقول الزبيري: "أما المناطق الأخرى، فإنها أشعلت الفتيل ليعلم الاستعمار أن الثورة معممة، ثم راحت تنظم نفسها وفقا للتعليمة الأولى التي أصدرتها القيادة الخماسية" (السداسية) "ففي المنطقة الثالثة، اهتمت القيادة بتنظيم حملة شرح واسعة في أوساط مناضلي حركة الانتصار للحريات الديمقراطية الذين كانوا في معظمهم موالين للسيد: مصالي في خلافه مع اللجنة المركزية، في حين كان التجنيد يتم ببطء نتيجة عدم وجود أسلحة

كافية... ولم تبدأ العمليات العسكرية في تلك المنطقة (الثالثة) إلا في ربيع 1955، وكانت في شكل كمائن تنصب أساسا للحصول على الأسلحة، وإلى جانب هذه العمليات العسكرية البسيطة، كان على جيش التحرير الوطني في المنطقة (الثالثة) أن يجابه المجموعات المسلحة التابعة للحركة الوطنية الجزائرية"[1]، أما المنطقة الرابعة فإنها كانت أسوأ حظا لأن السلطات الاستعمارية التي كانت تتابع تحركات مناضلي حركة الانتصار قد تمكنت في الشهر الأول من إلقاء القبض على أغلب العناصر الذين بدأوا مع السيد: بيطاط بما في ذلك نوابه في العاصمة وبيطاط نفسه سيقع أسيرا في منتصف شهر فيفري 1955[*] ، ونتيجة لذلك النجاح الذي حققته مصالح الأمن الفرنسية، فإن المنطقة الرابعة كادت تختنق بعد حوالي سبعين يوما من اندلاع الثورة... ويعود الفضل في بقائها وانتعاشها من جديد إلى العقيد: أوعمران الذي تمكن رغم كل العراقيل من إعادة تنظيم الهياكل ثم ساعدته الظروف على اختيار الرجال الأكفاء، ومن جملة الإطارات البارزة تجدر الإشارة إلى السيد: عبان رمضان"[2]. غير أن التنظيم العسكري في العاصمة (خاصة) لم يعرف أي نجاح يذكر في هذه السنة الأولى من الثورة، وذلك بسبب سيطرة أجهزة المخابرات الاستعمارية"[3]، ويصف الزبيري الوضع في المنطقة الخامسة (وهران) بأنه كان مغايرا تماما، ذلك أن عمليات الفاتح من نوفمبر لم تكن ناجحة في معظمها وقد تمكنت القوات الاستعمارية من إلحاق خسائر فادحة بتلك المجموعات الأولى من المجاهدين الذين كان يقودهم الشهيد: العربي بن مهيدي، ومن جملة القتلى في ذلك اليوم الأول من الثورة الشهيد: ابن عبد المالك رمضان النائب الأول لقائد المنطقة[*] وفي عرض حال للشهيد: العربي بن مهيدي أمام المؤتمرين في وادي الصومام يؤكّد

---

(1) الثورة الجزائرية في عامها الأول (مرجع سابق)، ص: 132.

(*) (الصواب في 16 مارس 1955).

(2) نفس المرجع، ص: 132-133.

(3) نفس المرجع، ص: 135.

(*) استشهد على الأرجح يوم الخميس 4 نوفمبر 1954 قرب دوار سيدي العربي ناحية مستغانم.

بأنه من بين 60 مجاهدا التحقوا بالثورة تم إيقاف أو قتل 50 منهم خلال الأيام الأولى للثورة"[1] وفي هذا الصدد يقول محمد حربي "وكانت بعض التقارير العسكرية التي أعدتها قيادة منطقة وهران تفيد أنّ مجموعات من الفلاحين تقوم بمطاردة المقاومين وإيقافهم"[2]. هذا الوصف المجمل لأوضاع الثورة في المناطق الخمس، والذي يشير بإيجاز إلى ملمح كل منطقة على حده يوضح للقارىء الفوارق الموجودة بين منطقة ومنطقة. ولم يكن من السهل آنذاك تكوين قناعات لدى بعض الشرائح في المجتمع لخوض المغامرة وإذا علمنا -حسب الزبيري- أن الثورة اندلعت في زمن كانت الوطنية فيه توصف بالرعونة، وكان مناضلوا حركة الانتصار للحريات الديمقراطية يُكنون بالصعاليك ويتهمون بالجنون لأنهم يطالبون بخروج فرنسا... وكانت السلطات الفرنسية تستخدم جيوشا من الأعوان ممن ترسخت في أعماقهم الهزيمة والذين يسمون الباشاغات، والآغات، والقياد، والوقاف، والشاوش حسب المرتبة والخدمة المنتظرة"[3]. فهذا النوع من البشر ممن تأكدت فيهم صفة العمالة، وراحوا يعتقدون عن سذاجة أو عن إيمان بأن أولها رومية وآخرها رومية موجودون في كل عصر وفي كل زمان وفي معظم البلدان، وكانوا العقبة الكبرى، ساهمت في إطالة عمر الاحتلال. وهذا اللفيف من البشر كان قد ظهر في فرنسا أيضا خلال الحرب العالمية الثانية، رغم قصر مدة الاحتلال من قبل الألمان... ولم يكن من السهل إعادة بعث بذور الوطنية أو انعاشها بعد الفتور لدى هذه الأسر التي تحظى ببعض الامتيازات لدى السلطات الاستعمارية.

لو نحاول الآن بعد مرور أكثر من نصف قرن على اندلاع الثورة، أن نقيم عظمة هؤلاء الرجال-رواد الثورة الأوائل وقادتها- وأن نقيس قوة الإرادة التي كانوا يتحلون بها والشجاعة الفائقة ونكران الذات التي كانوا يتمتعون بها، لما وجدنا في هذا العصر الذي تفسخت فيه القيم لهم شبيها أو مثيلا، فكانوا المثل

---

(1) التقرير المقدم من طرف العربي بن مهيدي في مؤتمر الصومام. مقررات الصومام (عن مذكرات ابن معلم).

(2) الثورة الجزائرية سنوات المخاض (مرجع سابق)، ص: 32.

(3) الثورة الجزائرية في عامها الأول (مرجع سابق)، ص: 121.

الأعلى في الإصرار والعزم والصبر على المكاره، وكانوا القدوة لكل عصر وكل زمان، لازمتهم تحدياتهم حتى عندما كانوا على مشارف الموت، لأنها نابعة عن قناعة مطلقة وإيمان راسخ بعدالة قضيتهم. فهذا ابن مهيدي يتحدى بيجار، وهو على طاولة التعذيب بعبارة تظل خالدة خلود الزمن عندما قال له: "إنكم تتحدثون عن فرنسا من دانكرك إلى تمنراست، وإني لأتنبأ لكم بميلاد جزائر من تمنراست إلى دَانكرك"[1]، فقد تأصلت في نفوسهم الهمة والكبرياء فاستمسكوا بها حتى في أحرج اللحظات. فقد روي عن ابن بولعيد أنه قال: لفانسان مونتاي الذي أشرف على استنطاقه، وهو يعاتبه على الانقياد لهؤلاء الصعاليك -ويعني بهم الثوار- فقاطعه ابن بولعيد... "لو تتاح الفرصة لأعيدها (ويعني الثورة) لأعدتها".

ولا يزعم عاقل بأن الأوراس التي تعرضت لحملات عنيفة زعزعت كيانها منذ الساعات الأولى لاندلاع الثورة من خلال عمليات القتل الجماعية والحرق الإجمالي للقرى والتدمير ومصادرة الممتلكات وتجميع السكان وسط المحتشدات... لم يكن بين سكانها من تأثر لذلك وانهارت معنوياته بل وخارت قواه، فاستكان ورضي بالذل من أجل المحافظة على الامتيازات وعلى روابط الولاء مع إدارة الاحتلال، غير أن هذا الصنف من الانهزاميين عندما شعروا بصمود الثورة ووجدوا أنفسهم بين نارين لزموا الصمت، وليس ذلك حبا للثورة، لكن خوفا من سطوتها.

(1) المرجع السابق، ص: 122 الهامش.

انتزاع السلاح من السكان :



قوات الإحتلال تقوم بتجريد السكان من أسلحتهم

اتضح للسلطات الفرنسية منذ البداية أن العنصر البشري المساند للثورة متوفر ونقطة ضعف الثورة تكمن فقط في أسلحة القتال، فسارعت إلى تجريد السكان من أسلحتهم الخاصة، معظم هذه الأسلحة... أسلحة صيد، قليلة الفاعلية والتأثير كأداة للقتال، رافقتها عمليات مداهمة للبيوت وتفتيش للدور وسجن وتعذيب أفضى إلى الكشف عن بعض الأسلحة التي لم تسلم للثورة وتسابق الثوار مع السلطة الاستعمارية لافتكاك هذه الأسلحة من مالكيها بكل الوسائل بالشراء أو بالإهداء أو بالانتزاع بالعنف عند الامتناع، وقد تعرض المجاهدون خلالها لأخطار محدقة سببت لهم كثيرا من المتاعب، نقتطف بعضها من مذكرات العقيد: الزبيري، بإيجاز.. يقول: الزبيري في وصف هذه المداهمات من قبل الثوار "... أما أنا فكنت أحمل معي بندقية صيد، لأن المسدس الذي كان معي ليس فيه سوى طلقة واحدة

ولا يصلح لمهمات كهذه، في حين حمل البقية عصيا في شكل بنادق حتى يعتقد الناس أننا جميعا مسلحين، وعندما وصلنا إلى بيت الرجل المقصود استقبلتنا الكلاب بالنباح، وكنت أخشى أن تعضني تلك الكلاب الشرسة على حين غفلة مني، لذلك حملت حجرا ورميتهم به... ثم تقدمت مع جبار عمر من الباب وطرقته بأخمص البندقية حتى يعلم صاحب الدار أننا مسلحون أما بقية المجاهدين فبقوا في الخلف... حاملين عصيهم التي تشبه البنادق للتمويه ولما خرج إلينا صاحب الدار أخبرناه بأننا مجاهدون جئنا لشراء قطعة السلاح التي لديه، فباعنا المسدس بخمسة عشر ألف فرنك"[1].

وفي الليلة الثانية، قصدنا بعض البيوت للحصول على السلاح من أفراد الشعب وتمكنا من شراء بندقيتي صيد إلا أن إحداهما انكسرت إلى نصفين عندما سقطت عليها من شدة الإرهاق... بسبب السير... وسط الجبال والوديان في غسق الليل، وقمت بربط نصفيها بخيط ولو من باب التمويه"[2].

وفي الليلة الثالثة وصلتنا معلومات تؤكد بأن أحد أفراد الشعب... يملك سلاحا آليا من نوع: "ستاتي" إيطالي الصنع فقصدنا داره وطرقنا بابه، ولما خرج إلينا... سألناه إن كان يملك قطعة سلاح ليبيعها لنا أو يتبرع بها دعما للجهاد، فأقسم لنا بألف يمين ويمين بأنه لا يملك أي قطعة سلاح لكننا لم نصدقه لأن المعلومات التي كانت لدينا مؤكدة... ورغم محاولاتنا لإقناعه ببيعنا سلاحه إلا أنه أصر على نفي امتلاكه... وشعرنا أن الرجل يريد تغليطنا فأردنا تخويفه حتى يسلم سلاحه فصاح جبار عمر علينا "خذوه إلى الشعبة بمعنى أقتلوه"... وكنا نريد الضغط عليه لتسليمنا السلاح... ولم يكن في نيتنا قتله... وكانت زوجته تسمع من خلف الباب ما يجري من حديث، وعندما أحست بأن حياة زوجها في خطر خرجت تجري وتصرخ على زوجها "أعطى عليك النصلة (السلاح) أتريد الموت

(1) مذكرات آخر قادة الأوراس التاريخيين (مرجع سابق)، ص: 65-66-67.

(2) نفس المرجع.

من أجلها، فاقتنع الرجل أنه لا جدوى من الإصرار... فطلب منا أن نسمح له بإحضار فأس لإخراج السلاح من المخبأ... احتطنا للأمر وأخذنا مواقعنا وصوبنا أسلحتنا اتجاهه... ضرب الرجل حائط الدار... واستخرج سلاحه الثمين مع الذخيرة وسلمهما إلينا"[1].

صدى الحدث على الصعيد الإعلامي :

ليس غريبا أن تصف الصحف الفرنسية على لسان أحد قادة الاحتلال البارزين "الحدث" بأنه لا يعدو أن يكون مجرد "قعقعة رعد وسط سماء صافية" استخفافا بشأنها واحتقارا لمدبريها، وقد ظنوا أن الأمر كذلك. فقد شكل الصراع بين جناحي حركة الانتصار (المركزيون والمصاليون) عملية تمويه غير مقصودة عن أنظار السلطة الاستعمارية (الأجهزة الأمنية) ما كان يقوم به عناصر المنظمة الخاصة -خلف الستار- ولم تتمكن هذه الأجهزة من إيقاف أو ملاحقة عناصر خطيرة من هذا التنظيم طوال مرحلة الإعداد، بعض عناصر هذا التنظيم غير المعلن ضمن إطار اللجنة الثورية للوحدة والعمل التي حلت نفسها بعد أن فشلت في أداء مهمتها، كانوا يعيشون حياة شبه عادية مثل: ابن بولعيد في الأوراس.

وقد مكنت السرية التامة التي التزم بها مهندسو الثورة (22) ومفجروها الستة من إحداث صدمة تسببت في نوع من الذهول أصاب السلطة الاستعمارية بصفة خاصة التي لم تكن تتوقع الحدث، كما أصاب الطبقة السياسية الوطنية داخل البلاد التي فوجئت بدورها، وراحت تدلي بتصريحات متشائمة وتعاليق ساخرة تدل عن جهلها التام بحيثيات الحدث، وهذه التعاليق تعني الرفض التام للعمل المسلح مثل ما جاء على لسان: محمد خير الدين، عن الإصلاحيين "اعملتوها وحدكم فادفعوا الثمن وحدكم"[2] ولا يختلف تعليق المركزيين عن الإصلاحيين، فقد عبر عنه عبد

---

(1) المرجع السابق.

(2) الثورة الجزائرية سنوات المخاض (مرجع سابق)، ص: 42.

المالك بن حبيلس بقوله: "جبهة التحرير أشعلت النار في الجزائر والقدر موجود في القاهرة، لذلك فإن الأكلة لن تكون جاهزة"[1] يصف محمد حربي هذه العبارة بالقاتلة.

هذه التعاليق الصادرة عن شخصيات حزبية مسؤولة أحدثت نوعا من الارتباك في الإعلام الفرنسي، فراحت الصحف على اختلاف مواقعها وتوجهاتها تصف ما حدث بنوع من الخلط لعدم وضوح الرؤيا لديها، وأخذت تبحث عن الجهة المحرضة على هذه الأفعال التي تصفها بالإجرامية، حتى أن بعض الصحف توهمت أن ما حدث أكبر من عقول الأهالي -حسب تعبيرهم- وراحت تبحث عن طرف تنسب إليه الجريمة، ولا شك أن المعلومات التي كانت تستقيها الإدارة من مصادرها الخاصة كانت تقريبية، فمنذ أفريل 1954، كان مدير الأمن "جان فوجور يعلم أن شيئا ما بصدد الإعداد، وكانت التقارير التي تصله تشير إلى وجود مجموعات من شمال إفريقيا تتدرب بمصر" أما مصلحة الاستعلامات، فكانت تؤكد بأن كل شيء يدبر في القاهرة وأن الرئيس هو "أحمد بن بلة" العضو السابق في المنظمة الخاصة (تقرير 23 أكتوبر 1954)[2].

ما من شك في أن مصالح الاستعلامات الفرنسية كانت تتابع حركة الوفد الخارجي في القاهرة، سيما وأن بعض عناصره كانوا قد فروا من سجن البليدة بتاريخ 16 مارس 1952 مثل: أحمد بن بلة وعلي محساس... غير أن مصالح الأمن أخطأت تماما حينما اعتقدت أن كل شيء يدبر في القاهرة التي ظلت تركز حولها الأنظار، فأعطت بذلك فرصة ثمينة لقادة الثورة في الداخل لاستكمال الترتيبات الضرورية، وإعداد هياكل نظامية جديدة خارج الأطر النظامية المعروفة لديها (حركة الانتصار وبقية الأحزاب السياسية المعتمدة). وعليه فإن الذهول الذي أظهرته الصحافة الاستعمارية من خلال التعاليق التي راحت تصف فيها وقائع

(1) حياة تحد وصمود لـ/ محمد حربي، ص: 149.

(2) الثورة الجزائرية سنوات المخاض (مرجع سابق)، ص: 28.

العمليات. ومن خلال التصريحات التي راح المسؤولون يدلون بها لطمأنة المستوطنين خاصة والسكان عامة، مثلما صرح به العقيد: "بلانش" قائد قطاع باتنة (الأوراس) بقوله: "إنني أجوب طرق الناحية منذ مدة ولم أرقط (فلاڤا) أمام سيارتي"[1]... ويلخص الوالي العام الموقف قائلا "لاداعي للقلق هناك 300 بندقية في الأوراس هذا كل ما في الأمر"[2] ليؤكد أن هذا التمرد محدود في منطقة معينة هي الأوراس وحدها... وتذكر الباحثة "جيرمان تيون" أن فرنسيا نزح إلى العاصمة بعد اندلاع العمل المسلح في الأوراس، سألها إن كانت تعرف شيئا عن هذه الحركة المجهولة التي تطلق على نفسها اسم "جبهة التحرير الوطني" هذه التصريحات ليست مجرد حقن للتهدئة لكنها تكشف أيضا عن الحالة التي تتخبط فيها السلطات الفرنسية. وتحدّد أيضا بؤرة التوتر الحقيقية.

ففي صباح يوم 2 نوفمبر اليوم الثاني من اندلاع الثورة، ظهرت الصحافة الفرنسية بعناوين بارزة ترمي إلى تحقيق هدفين مختلفين، فهي تدعو السكان إلى التزام الهدوء، وإلى منح الثقة للسلطات المختصة التي تملك كل الوسائل التي تمكنها في ظرف قصير جدا من القضاء على الأعمال الإجرامية"[3].

وفي اليوم الثالث من اندلاع العمل المسلح يصرح الوالي العام بأنه يملك وسائل إضافية سوف لن يدخر جهدا في استعمالها، وأنّه سوف يتخذ كل ما يجب اتخاذه من اجراءات الحماية والدفاع عن مصالح فرنسا والفرنسيين.

وقد تزامنت هذه التصريحات للصحافة المحلية في الجزائر مع تصريحات أخرى للصحافة الفرنسية عموما "إذ تؤكد صحيفة: "L'AURORE" على لسان "روبير بوني" بأن الذين نفذوا العمليات يتلقون الأسلحة والأوامر من الخارج"... وفكرة المؤامرة الخارجية لا تعبر عن ردود فعل الصحافة الحرة بقدر ما تعبر عن أفكار السلطات الرسمية التي فاجأتها الأحداث، فجاءت بعض تعاليقها فيما يشبه

---

(1) نصر بلا ثمن (مرجع سابق)، ص: 78.

(2) نفس المرجع.

(3) صحيفة صدى الجزائر الصادرة بالجزائر يومي: 2 و3 نوفمبر 1954.

الهذيان، مثل ما جاء على لسان "منديس فرانس" رئيس الحكومة الذي أكد أمام الجمعية الوطنية اتهامات الحكومة الفرنسية الصريحة ضد مصر وطلب منها الكف عن مساعدة الثوار الجزائريين مقابل إعانة هامة، وملوحا في الأخير بإمكانية اتخاذ إجراءات ردعية ضدها" متوعدا في الأخير "إن الوقت قد حان لكي تتحمل الحكومة المصرية مسؤولياتها"[1].

فرنسا مصرة على صرف أنظار الرأي العام اتجاه الخارج وإلى مصر بالذات، وفي هذا الصدد يقول: "روجي ليونار" الوالي العام في خطاب أذيع بواسطة إذاعة الجزائر المحلية يوم: 5 نوفمبر 1954 "... لمعرفة أصول هذه المؤامرة، فما علينا إلا أن نستمع إلى النداءات الحماسية التي تطلقها بعض الإذاعات الأجنبية وأن نعرف العلاقات المباشرة التي تربط مدبري هذه المؤامرة بالمجموعات الإرهابية التي نفذتها بالجزائر"[2] وقد ركزت وسائل الإعلام الرسمية والحرة بإيعازٍ من المسؤولين - طبعا- على التدخل الأجنبي والإمدادات الخارجية التي بدونها لا يمكن للجزائريين أن يصمدوا في وجه القوات الفرنسية، لكنها استطاعت أن تحدد موضع الداء حسبها بعد تشخيص عام للوضع، وعلى ضوء هذا التشخيص تشير صحافتها أن خمسمئة إرهابي تونسي التحقت بجبال الأوراس في الأيام الأولى للثورة، وأن مهمتهم تنحصر في تنظيم وحدات القتال وتدريب الأهالي على استعمال الأسلحة، وعلى خوض حرب العصابات، كما ذكرت أن السلطة العسكرية قد لاحظت بأن بعض الطائرات تأتي ليلا بدون أدنى ضوء فتفرغ حمولتها بالأوراس، وتضيف نفس المصادر بأن تلك الطائرات قد يكون منطلقها المملكة الليبية"[3].

لماذا الأوراس بالذات ؟ هل كان ذلك لأنها المنطقة المحاذية للحدود التونسية الليبية المعبر المفترض للأسلحة حسب اعتقاد السلطات الاستعمارية ؟ أم لأنها

(1) الثورة الجزائرية سنوات المخاض (مرجع سابق)، ص: 24.

(2) نفس المرجع، ص: 23.

(3) الثورة الجزائرية في عامها الأول (مرجع سابق)، ص: 99.

المنطقة التي احتضنت الثورة بقوة رغم الحملات العنيفة التي تتعرض لها ؟ أم لأنها المنطقة التي سجلت فيها أكبر عدد من العمليات ضد أهداف عسكرية وشبه عسكرية (30 عملية)، وخلفت خسائر بشرية تقدرها السلطات الفرنسية بـ/ 6 قتلى من العسكريين من بينهم: ضابط من أصل ثمانية هي حصيلة مجموع العمليات على مستوى الوطن، أم لأنها المنطقة التي تتوفر على تنظيم صلب من الصعب القضاء عليه، أم هناك احتمالات أخرى.

ولم تلبث الصحافة الفرنسية أن تنبهت إلى مسألة أخرى، وهي الطعن في نزاهة وصدق ونقاوة سيرة عناصر بارزة بين صفوف من تصفهم بالمتمردين لصرف أنظار السكان عن الحركة. فمما جاء في صحيفة: صدى الجزائر "أن جيش التحرير المزعوم يضم من بين قيادة أركانه شخصيات بارزة يمكن أن نذكر من جملتها "قرين بلقاسم بن بشير" الذي يبلغ من العمر سبعا وعشرين سنة، ويجر وراءه سوابق عدلية لا تقوى الجبال على حملها لأجل ذلك، فإنه لا مجال للدهشة، عندما نعلم أنه فضل الالتحاق بأصدقائه المحكوم عليهم وترأس عصابة من الإرهابيين بدل أن يستسلم للعدالة ويقضي في السجن سنوات الأشغال الشاقة التي حكم بها عليه سنة: 1950"[1].

وقد استشهد بـ(أنزة أحمد) في عمق الأوراس بتاريخ 28 نوفمبر 1954.

لاديبيش كوتيديان تنشر وقائع سقوط الشهيد قرين بلقاسم على صفحاتها

(1) الثورة الجزائرية في عامها الأول(مرجع سابق)، ص: 98.

ففي الوقت الذي كانت فيه الصحافة الفرنسية تسعى إلى مغالطة الرأي العام بوجود مؤامرة خارجية تهدف إلى زعزعة الأمن في الجزائر لصرف أنظار الأهالي كما تصفهم بدل المواطنين كانت السلطات تعد لمجهود حربي ضخم يقول عنه: محمد



4 PAGES DE SPORTS
Echo Sport
UNE PAGE ILLUSTREE

L'ÉCHO D'ALGER
15 FRANCS

VERNICIRE

M. MITTERRAND dans une déclaration radiodiffusée :

L'ALGÉRIE C'EST LA FRANCE
ET LA FRANCE NE RECONNAITRA PAS
CHEZ ELLE D'AUTRE AUTORITÉ QUE LA SIENNE

Chaque jour verra l'autorité de l'Etat s'affirmer d'avantage et le statut de l'Algérie entrera de plus en plus dans les faits

Investissements et grands travaux, formation professionnelle, fonction publique, décentralisation administrative seront l'objet de prochaines mesures

LES TROUPES ÉTANT SOLIDEMENT INSTALLÉES

La véritable opération de nettoyage de l'Aurès va commencer dans quelques jours

حملة تطهير الأوراس ستبدأ قريبا (صدى الجزائر (5-7) **نوفمبر** 1954

حربي، "ففي الوقت الذي كان المسؤولون الفرنسيون يتحدثون عن أعمال عنف فردية، كانت فرنسا في الواقع تعيد احتلال الجزائر وسط لامبالاة تكاد تكون تامة للرأي العام الفرنسي"(1) وقد كان هذا العمل يجري تحت غطاء استعادة الأوضاع الأمنية، غير أن الطابع العسكري كان السمة المميزة له، وراحت السلطات الفرنسية تفكر بصفة جدية في قصف جبال الأوراس وتتهيأ لإعلان حالة الطوارىء وفتح المحتشدات، وكان على القوات الفرنسية أن تتخذ إجراءات ردعية قوية لكي تبرهن لمن تصفهم بالفلاقة على قوتها وجديتها في حسم الصراع عن طريق العنف، وتؤكد للسكان عموما عن قدرتها على استعمال القوة لضمان أمنهم وسلامتهم، وقبل الشروع في سلسلة من العمليات الردعية في الأوراس بالذات أعلنت الصحيفة الفرنسية "صدى الجزائر" بتاريخ: 7 نوفمبر 1954 على لسان وزير الداخلية

(1) الثورة الجزائرية سنوات المخاض (مرجع سابق)، ص: 28.

الفرنسي "فرانسوا ميتيران" الذي سيصبح بعد الحرب رئيسا لفرنسا "بأن الجزائر هي فرنسا وأن المفاوضات الوحيدة هي الحرب"، وقد تصدر الصحيفة عنوان بارز ملفت للانتباه إلى جانب تصريح الوزير يقول: "بأن عملية تطهير واسعة للأوراس ستبدأ قريبا"[1] وهذا يعني أن السلطات العمومية استطاعت تشخيص الوضع خلال أسبوع واحد من بدء العمليات القتالية وتحديد منطقة التوتر الكبرى التي سوف تصنف عند قادتها بأنها مهد الثورة ومنطلق الحملات العسكرية وستحاول هذه السلطات القضاء على الثورة في المهد. وهكذا... "وبعد قنبلة جبال الأوراس بالنابالم الذي أتلف الأخضر واليابس في جزء كبير منها عنونت الجرائد الاستعمارية في صفحاتها الأولى "بأن المنظمة الإرهابية قد قضي عليها نهائيا في الشرق الجزائري"[2] ولم يلبث هذا الذهول أن كشف للسلطات الفرنسية عن حقيقة مرّة وجدت نفسها مجبرة على الاعتراف بها، وهي أن ما يجري في الجزائر هي ثورة شعبية تقودها حركة ثورية مسلحة هدفها القضاء على الاستعمار والهيمنة، ولاشك أنها تكون قد عرفت أبعاد ما يجري في الوطن من خلال بيان أول نوفمبر الذي يكون قد وقع في أيدي عناصر الأمن. وما الاتهامات التي كانت توجهها للدول العربية ولمصر بالذات سوى وسيلة لتضليل السكان للحفاظ على الأمن العام في البلاد حتى تتمكن من تسديد ضربات موجعة للعناصر المسؤولة على تدهور الوضع الأمني في البلاد، وراحت تعد لحملات واسعة لاستئصال من تصفهم بالفلاقة (قطاع الطرق) وبالمتمردين، وقبل البدء في المواجهات المسلحة، كان لابد من عزل الثوار عن قواعد الإمداد المفترضة وهم سكان الأرياف والقرى المعزولة. وفي هذا الإطار تم اتخاذ مجموعة من الإجراءات الاستثنائية:

---

(1) مصطفى بن بولعيد مواقف وأحداث، الطبعة الرابعة للمؤلف، ص: 107.

(2) الثورة الجزائرية في عامها الأول (مرجع سابق)، ص: 97.

1-ترحيل السكان من الناطق الريفية لمنع الثوار من التزود بحاجاتهم الضرورية، استئناسا بمقولة "ماو تسي تونغ" "إن الثورة أسماك مياهها الجماهير الشعبية".

2-إقامة محتشدات مطوقة ومراقبة لمنع تسرب الثوار إلى السكان... وكذا مراقبة حركة السكان، علاوة على مصادرة مخزونات الحبوب وفرض الرقابة على الموارد (التموين) في انتظار صدور قانون حالة الطوارىء الذي سوف يعمل على تقييد الحريات الفردية ويفرض الإقامة الجبرية، ويحد من حرية الحركة بالنسبة للسكان.

الاختيار الممكن:

لاشك أن "إدوار دالاداي" المسؤول الاستعماري يكون قد أخلص النصيحة لوفد المؤتمر الإسلامي الذي حمل إلى الحكومة الفرنسية مطالب الشعب الجزائري المسلم التي تدعو فقط إلى تطبيق المساواة الحقيقية في جميع الميادين بين سكان الجزائر الفرنسيين والمسلمين، ولم يكن الوفد يطمح في أكثر من ذلك... غير أن رد إدوار دالاداي كان خلاف ذلك، وكان صريحا مع الوفد إلى أبعد حد عندما صرح قائلا "بأن فرنسا تملك المدافع والمدافع الرشاشة وأنها سوف تحسن استعمالها إذا ما حدث أي اضطراب في الجزائر"[1]، وهذا ما سوف يكون بالتأكيد لعدة أسباب منها:

1-أن فرنسا صارت عازمة على أن التخلي عن الجزائر يعني التخلي عن بريطانيا[*].

2-أن فرنسا تبحث عن فريسة سهلة لاستعادة هيبتها وشرفها العسكري الضائع في الهند الصينية، حيث خسرت في معركة "ديان بيان فو" وحدها أزيد من مئة ألف بين قتيل وأسير ومفقود.

(1) الثورة الجزائرية في عامها الأول (مرجع سابق)، ص: 62-63.

(*) بريطانيا كانت دولة مستقلة ثم انضمت إلى فرنسا في عهد فرانسوا الأول سنة: 1532.

3-أن فرنسا تتوهم بأنها امتلكت الوطن الجزائري بالتقادم وراحت تسن كتبرير لذلك مجموعة من القوانين أعطتها بنفسها الصبغة الشرعية دون استشارة من تصفهم بالأهالي أو بالسكان وهم دون مرتبة المواطنين.

4-ظهور جيل جديد من أحفاد الغزاة اقتنع تماما بأحقيته في امتلاك أرض غزاها أجدادهم عنوة منذ أزيد من قرن ويجيزون تملكها بحكم الحيازة شأن بقية البلدان التي لا تخضع لسيادة منظمة، ويعللون ذلك بوجود مليون من الفرنسيين من الوطن الأم (المستوطنون) مستقرين في الجزائر، ولأن كل الدول العظمى على علم باحتلال الجزائر، وقد أعطت موافقتها "وبما أن فرنسا قد اكتسبت الجزائر اكتسابا شرعيا بالتقادم-حسب زعمها-، وهي طريقة تملك يقرها القانون الدولي، إذا توفرت شروط منها: مصادقة الأهالي ولو بصفة ضمنية، واقترنت هذه المصادقة بفترة من الزمن فيمكن اكتساب الحق بالتقادم"[1].

هذه هي الحجج القانونية والتاريخية التي يستند إليها الفرنسيون بامتلاك الجزائر، وهي كما نرى حجج واهية لا تحتاج إلى أدنى برهان لإثبات بطلانها. إذ أن فرنسا كانت قد ارتبطت بالجزائر كدولة مستقلة ذات سيادة قبل الاحتلال بأكثر من: 60 معاهدة واتفاقا، وادعاؤها بأنها لم تكن دولة بل كانت أملاكا شاغرة تملكتها بالتقادم حيل باطلة تفندها المعاهدات المبرمة بين الدولتين.

إن الرد الاستفزازي لـ/ "إدوار دالاداي" ليس له أكثر من قراءة أو أكثر من معنى وهو كفيل بإيقاظ ضمائر من تبلد إحساسهم من السياسيين الذين ظلوا يحلمون بأن العنف لن يحل المشكلة، وهي قناعة تشبع بها بعض قادة الأحزاب السياسية. فقد صرح عباس بعد اندلاع الثورة بأكثر من أسبوع قائلا: "إن موقفنا واضح لا تعتريه شبهة... إننا مقتنعون بأن العنف لن يحل أي مشكل"[2] وتصريح "دالاداي" مفيد كذلك بالنسبة للقوى الحية التي راحت تبحث عن حل للأزمة-

---

(1) الثورة الجزائرية سنوات المخاض (مرجع سابق)، الصفحة :96.

(2) نفس المرجع، ص: 40.

أزمة الاحتلال- ولم تهتد بعد إلى الحل الممكن... أما "دالاداي" فقد كان جادا فيما أعلن عنه أمام الوفد من إمكانية استخدام المدافع والرشاشات عند حصول أي اضطراب في الجزائر، وقد برهن عن جديته في الثامن من ماي 1945 في كل من سطيف وقالمة وخراطة، مما أدى إلى سقوط أزيد من 45 ألف ضحية وهي رسالة للجزائريين لكي يتعظوا وليبحثوا عن مخرج لأزمة طال أمدها وجدوا أنفسهم يتخبطون فيها بعد أن أوصدت إدارة الاحتلال أبواب الحل السلمي في وجوههم.

كانت القوات الفرنسية متأكدة تماما من إمكانية حسم الموقف خلال شهور قليلة بل خلال أسابيع وتصفية جيوب المقاومة وتطهير جبال الأوراس حسب تعابير قادتها، وهذا الاعتقاد الذي ترسخ في أعماق الاستعماريين مبني على تجارب سابقة انتهت كلها بهزائم ساحقة للانتفاضات على مستوى الوطن.

أما الثوار فقد تبنوا هذه المرة استراتيجية مغايرة أربكت في البداية الحملات المتعاقبة من خلال الهجمات السريعة الخاطفة والمنسقة على أطراف أو مؤخرات وحدات العدو أثناء عمليات التمشيط أو على القوافل في أثناء عمليات التنقل، فأحدث هذا التكتيك هزة زعزعت معنويات جنود جيش الاحتلال وهو ما اعترف به الوالي العام، "روجي ليونار" فيما بعد مع تجنب المواجهة كالتي ستقع فيما بعد في جبال الأوراس لعدم توفر أدنى قدر من التكافؤ بين القوتين من حيث العدد والمدد ونوعية السلاح والكفاءة القتالية.

فبعد أسبوع واحد فقط من اندلاع العمل المسلح اتضحت الصورة أمام إدارة الاحتلال، فعزمت على استعمال العنف المفرط لإرغام من تصفهم بالمتمردين للعودة إلى ديارهم "ففي 12 نوفمبر أصدر الوالي العام قرارا يمنحه حق اللجوء إلى التسخير... وأخذت السلطات تفكر بصفة جدية في قصف جبال الأوراس، وتعد لإعلان حالة الطوارىء.

وبما أن هذه السلطات كانت واثقة من حسم المسألة عن طريق العنف، وكانت تدرك أن الإمكانات التي تتوفر لديها تسمح لها بذلك، فراحت تحضر لعمل

عسكري ضخم يسمح لها بالقضاء على الثورة في المهد وتطهير جبال الأوراس -حسب تعبيرهم- ونظرا لأهمية هذا العمل العسكري الضخم وما سوف يترتب عنه من ارتدادات، قرر الوالي العام أن يشرف بنفسه على العملية من مركز القيادة "بنيابة العمالة" بباتنة وهكذا... وفي 19 من شهر جانفي تنطلق عملية "فيرونيك" بقوات عسكرية قوامها 5000 جندي من أحسن الوحدات الفرنسية تسليحا وانضباطا، ولكي تحقق عملية "فيرونيك" هذه النتائج المنتظرة منها استهلتها القوات الجوية بقنبلة مكثفة للمناطق التي سوف تتعرض للمسح الشامل حتى تتمكن من زعزعة معنويات الثوار الذين لم يتكيفوا بعد مع وسائل القتال الحديثة.

ولمتابعة سير العملية العسكرية عن قرب، ندع التعليق عن هذه العملية "فيرونيك" للسيد: "روجي ليونار" الوالي العام الذي اتخذ من مكتب نيابة العمالة بباتنة مقر قيادته لمتابعة سير العمليات العسكرية، فبعد انطلاق العملية بيومين فقط وفي لقاء مثير مع السلطات المحلية بتاريخ: 21 جانفي 1955، يصرح الوالي العام، بأن "القضاء على التمرد وتصفية المنطقة يتطلبان شهورا عديدة بسبب ما يخلفه الميدان والمحيط من صعوبات كبيرة ومتنوعة".

تبخرت أحلام السيد: الوالي العام واعترف صراحة بأن القضاء على التمرد حسب الصيغ المتداولة في الأوساط الرسمية والإعلامية آنذاك لم يعد ممكنا لعدة أسباب منها: 1-الاستراتيجية التي اتبعتها قيادة الثورة التي تبنت فكرة حرب العصابات التي تتناسب مع طبيعة المنطقة مع تجنب المواجهة المباشرة مع خصم يتفوق من حيث العدد ومن حيث الكفاءة القتالية، وامتلاكه لوسائل قتال حديثة لم تدخل المعركة خلال الانتفاضات التي عاشتها البلاد كالطيران الحربي، ومدفعية الميدان.

2-التكتيك الحربي المتبع من قبل قادة وحدات المجاهدين بتوزيع الجنود إلى أفواج قليلة العدد، سريعة الحركة، حالت دون الإجهاز على المقاتلين كوحدات خلال الحملات.

3-تعتبر الغابات الكثيفة والجبال الوعرة الحليف الطبيعي للمجاهدين الذين ألفوا السير بين أكنافها، فكانت أكبر عائق يحول دون ملاحقة الثوار في بداية الثورة،

يصف العقيد: "هنري لومير" في كتابه: حرب الجزائر الصعوبات التي كانت تعترض جنوده قائلا: "ماذا تستطيعون ضد متوحشي الأوراس ومحاربي النمامشة الذين يعيشون بدون ماء كالزواحف! إن الأوروبي لا يمكن أن يحرز تقدما ضد عدو بدوي جبلي يكتفي بحفنة من التمر في اليوم وينتقل بخفة وبدون عياء ظاهر على أرض يعرفها منذ قرون لا يمكن منافسته،... وقبل كل شيء فإن هؤلاء الخارجين عن القانون يخوضون حربا لا نعرفها"[1].

تصريح الوالي العام يتضمن جملة من الحقائق اصطدم بها جنوده فيما يتعلق بالعراقيل التي تعترضهم وسط الميدان والمحيط بصفة عامة، لكنه يعبر في نفس الوقت عن خيبة أمل القيادة العسكرية التي كانت تطمح إلى القضاء على الثورة في المهد قبل أن تتوسع إلى مناطق أخرى في الوطن. فقد أدركت القيادة العسكرية منذ الوهلة الأولى ومن خلال العمليات المسجلة "أن الأوراس هي البؤرة الأهم فكثفت من جهودها لإخماد الجذوة الرئيسية، بنية "وأد الثورة حيث ولدت"[2] حسب تعبير الجنرال: بارلانج، قائد عمليات التهدئة الأولى بالأوراس رفقة الجنرال: فانوكسام.

ظل جيش التحرير الوطني طوال السنة الأولى من الثورة يتفادى كعامل تكتيكي المواجهة المباشرة مع قوات العدو، نظرا للفارق الكبير في التعداد بين القوتين المتحاربتين، لكنه ظل يؤكد وجوده من خلال العمليات الهجومية السريعة على أجنحة الوحدات العسكرية أو مؤخراتها في أثناء العودة من عمليات التمشيط أو الانتقال من مكان إلى آخر بواسطة العربات، ومناوشة الثكنات وأبراج المراقبة، حتى وإن لم تكن لهذه العمليات الفعالية المطلوبة نظرا للتحصينات التي تحتمي بها الوحدات فقد تكون مجرد عمليات استعراضية تجعل القوات الاستعمارية في حالة تأهب قصوى بصفة دائمة. وقد يضطر جنود جيش التحرير الوطني للمواجهة

---

(1) مصطفى بن بولعيد والثورة الجزائرية (مرجع سابق)، ص: 923.

(2) نصر بلا ثمن (مرجع سابق)، ص: 100.

عندما يفرض عليهم الحصار وقد تتحول المواجهة إلى معركة ضارية بين القوتين تتحكم في سيرها وفي نتائجها عدة عوامل ومؤثرات خارجية منها :

أ-عنصر المفاجأة ب-الموقع ج-أسلحة القتال د-التكتيك العسكري المتبع ويظل السلاح الجوي الذي ظلت تحتكره القوات الاستعمارية وحدها القوة المؤثرة في سير المعركة... لا نتحدث عن الخسائر من كلا الجانبين لوجود تضارب في الروايات غير أن موازين القوى هي التي تحدد في الغالب نتائج المعركة. وقد يحدث العكس، لكنه الاستثناء، والاستثناء لا يقبل التعميم... فقد خاض جيش التحرير الوطني في السنة الأولى معارك ضارية في كل من: خنقة أمعاش بفم الطوب وفي تفاسور وفي القعقاع وتيغشت وجلال وفي الجرف وفي أماكن أخرى من الأوراس جعلت السلطات العسكرية الفرنسية تراجع حساباتها منذ حملتي: "فيرونيك" و"فيوليت" 19 و25 جانفي 1955 على التوالي، وتعترف بأن الأمر جد، وتتهيأ للدخول في حرب قد يطول أمدها.

وقبل الشروع في شن حملات أخرى أكثر عنفا وأشد شراسة، فلابد من الإعداد للمعركة وتجنيد كل الطاقات الحية لديها لتسهم في الحرب التي أصبحت واقعا لا مفر منه من أجل الحفاظ على المستعمرة اللؤلؤة كما يصفها دوغول، وذلك بإنشاء عدة مكاتب تعمل بالتنسيق التام مع القوات العسكرية، مثل:

أ)-المكتب الثاني ب)-المكتب الخامس ج)-مديرية حماية الإقليم... وهذه المكاتب تعمل على إحداث نوع من الصدمة لدى المواطنين تحول دون حدوث الالتحام بين الشريحتين (الشعب والجيش) كما تحول بالتالي دون تحقيق مقولة "ماو تسي تونغ": "بأن الثوار أسماك مياهها الجماهير الشعبية"... ويعد الدور الذي تقوم به هذه المكاتب ذات العلاقة المباشرة مع السكان أخطر من سلاح المواجهة، بالرغم من أن الكثير من السكان يتمتعون بقدر كبير من المناعة ضد السموم التي كانت تنفثها هذه المكاتب وسط الطبقات الاجتماعية الهشة، ولا يتوفر على قابلية القبول بها إلا الموالون للإدارة ويصنفون عادة في خانة العملاء.

لعبة سوستيل :

ثبت لإدارة الاحتلال بعد عدة حملات شنتها على الأوراس وعلى الشمال القسنطيني أن ما يجري في الجزائر ليس مجرد عملية تمرد تقوده عناصر مغامرة، بل هي ثورة وتنظيم مسلح استطاع أن يمد جذوره في أوساط الطبقات الشعبية المتضررة من تعسف الإدارة الاستعمارية خاصة، وأن استئصال العناصر المتمردة والقضاء عليها ليس بالأمر السهل.

فقامت الحكومة الفرنسية بإبعاد الوالي العام: روجي ليونار الذي عاش أحداث اندلاع الثورة، ولم يتمكن من تحقيق أي تقدم يعيد الهدوء إلى الجزائر. فقد ظل يعد ولا يفي وعينت مكانه "جاك سوستيل" واليا عاما على الجزائر بداية من 25 جانفي 1955، والقادم الجديد إلى الجزائر مثقف لامع، باحث أنتروبولوجي، ورجل مخابرات سابق، نشط إلى جانب الجنرال دوغول خلال الحرب العالمية الثانية، كما شغل مديرا للمصالح الخاصة بالجزائر قبل اندلاع الثورة... في الخامس عشر من شهر فيفري 1955 يحل "سوستيل" بالجزائر وفي محفظته مشروع متكامل، اعتقد أنه سيكون البديل الممكن لسلسلة من الاجراءات الردعية كانت قد اتخذت قبله ولم تثمر شيئا.. فبعد التعرف على الوضعية العامة في الجزائر من خلال التقارير الأمنية التي وضعت أمامه، شد الرحال إلى الأوراس بؤرة التوتر الكبرى، ومنها إلى الشمال القسنطيني... حيث قام بجولات ميدانية أجرى خلالها اتصالات مع السكان حاول من خلالها تهدئة الخواطر وطمأنة السكان من خلال سلسلة من الوعود تعهد بها أمام مستقبليه، وهي لا تساوي في مجموعها جزء يسيراً من قيمة الحرية المسلوبة التي ينشدها الشعب.



الوالي العام: جاك سوستيل في الأوراس إنه يعدهم ويُمنّيهم

سوستيل راح يعزف على أكثر من وتر بواسطة مساعده فانسان مونتاي فقد استدعى رؤساء الأحزاب والجمعيات السياسية الوطنية التي تتفق معه من حيث المبدأ على نبذ العنف، وحاول أن يشكل منها قوة ثالثة تناوىء الجبهة التي تنادي بالعنف الثوري... وتتجاوز على حد تعبيره رؤوس الفتنة من الطائفتين "غلاة الكولون" و"مجانين الوطنيين" يقول فانسان مونتاي "أقنعت سوستيل على استقبال بعض أصدقائي والاستماع إليهم، ففي ليلة 28 مارس 1955، أحضرت له خمسة مسلمين في سرية تامة إلى القصر الصيفي، وهم، الشيخ: خير الدين، والتوفيق المدني، والدكتور: أحمد فرنسيس، والحاج شرشالي، والأستاذ: وقواق. ووعدهم بعزم بأن لا أحد سيتم إخراجه أو إيقافه بسبب آرائه السياسية، لكن هذا التصريح بقي مجرد كلام لأن سوستيل كان لا يرغب في التفاوض مع أحد"[1].

(1) حرب الجزائر ملف وشهادات لـ/ باتريك إيفينيو وجان بلان شايس، الجزء الأول، ص: 215.

وقد سعى في نفس الوقت إلى ربط الاتصال بالموقوفين من حركة الانتصار (أعضاء اللجنة المركزية) بواسطة "مونتاي" مرة أخرى الذي زار كلا من ابن خده ابن يوسف وعبد الرحمن كيوان في سجنهما بسركاجي وراح يدغدغ مشاعر أحلامهما بعبارات فضفاضة ومنمقة، قائلا لهما: "فرنسا ستتفاوض ذات يوم لكن ليس مع القتلة بل مع أناس مثلكم من المعتدلين المثقفين بالفرنسية" ولسوء حظ مونتاي فإن مشاعر الوطنية عند هذين المناضلين كانت أسمى من مناوراته وإغراءاته.

سوستيل سياسي محنك ومثقف لامع بين الفرنسيين اختار السباحة ضد التيار، فراهن على عناصر مثقفة مثله، مثل: العالمة: جيرمان تيليون وفانسان مونتاي وجاك جويلية الموصوفون بأحرار الولاية العامة، وحاول عن طريقهم تقويض مشاريع الجبهة بشتى الوسائل، فبعد الجولة التي قادته إلى الأوراس وإلى الشمال القسنطيني، من خلال التقارير التي كانت تصله من مناطق الأحداث تعيّن له أن معظم العناصر التي كانت تلتحق بالثورة تنحدر من أوساط الطبقة المعدومة، ولغرض التأثير عليها من الناحية السيكولوجية استدعى الباحثة في الأنتروبولوجيا والتي كانت قد قضت ست سنوات في الأوراس (1934-1940) في إطار البحث العلمي مكنتها هذه المدة الطويلة من سبر أغوار المجتمع الأوراسي بنظرتها الثاقبة كعالمة، فاستغل فيها سوستيل هذا الجانب وأوفدها إلى الأوراس التي خبرت أهله وعرفت أسراره وطباع سكانه وأحوال معيشتهم من خلال المعاينات اليومية، مكنتها من أخذ نظرة عميقة عن بنيته الاجتماعية وعن طرق تفكيره وأساليب حياته من خلال الملامح



الموفدة من قبل سوستيل إلى الأوراس
جيرمان تيليون

العامة التي كانت تطبع حياة الناس. طلب سوستيل من السيدة: تيليون أن تعد له تقريرا يكون على جانب كبير من الموضوعية يوضح له الأسباب التي دفعت بالسكان في الأوراس إلى التمرد وإعلان الثورة... فجاء تقرير "تيليون" مخيبا لآمال "سوستيل" وخلاصته "إن التعسف والظلم الذي كانت تمارسه السلطة هو الذي دفع بالسكان إلى التمرد".

حاول سوستيل أن يعيد بعث قانون "الجزائر" لسنة: 1947 الذي رتب وسط الأرشيف منذ صدوره سنة: 1947، والمتضمن لبعض الحقوق الصورية الغرض منه فصل نخبة المجتمع وإعطائها صفة المواطنة (في وطنها) عن بقية السكان الذين وضعهم قانون الأهالي المعروف بقانون "الأنديجينيا" لسنة: 1874 في قفص الاتهام دون أن يرتكبوا جرما، وقيد من حرياتهم الفردية دون أن يقترفوا ذنبا، وبالرغم من تفاهة الحقوق التي منحت للأهالي، كما يوصفون في الدوائر الاستعمارية بموجب هذا القانون(1947) فإن غلاة الكولون أصحاب القرار النافذ في اللعبة السياسية اعترضوا عن تطبيقه، ظن "سوستيل" أنه بإعادة بعثه لهذا القانون سيعيد الطمأنينة إلى النفوس، وتتم على ضوء تطبيقه إجراءات التهدئة التي راهن عليها، فراح يراود



سوستيل الوالي العام في زيارة لوحدات عسكرية في الميدان رفقة العقيد: ديكورنو

الشعب على نفسه من خلال هذه المغريات التي تجاوزتها الأحداث. وما علم أن المسألة هذه المرة لم تعد مسألة إدماج أو حقوق أو مساواة وعدل، إنما هي مسألة كرامة، مسألة سيادة، مسألة وطن، وهذه الثلاثة غير قابلة للتجزئة كما أنها غير قابلة للمساومة.

هذه المحاولات بل هذه المراوغات من قبل سوستيل لا تعبر عن جديته في البحث عن حلول جذرية من أجل إعادة استتباب الأمن... إذ أن الحملات العسكرية كانت تجري على أعنف صورها والقمع كان على أشده والتشريد والسجن والتعذيب والتقتيل الجماعي وتجميع السكان في محتشدات مطوقة بلغت القمة خلال عهدته فقد كان في جولة تفقدية إلى الأوراس عندما اندلعت أحداث 20 أوت 1955 في سكيكدة، فانتقل على الفور إلى مسرح العمليات للإشراف على عمليات الإبادة الجماعية للسكان (12 ألف ضحية)، هيجته أحداث 20 أوت، فارتكب حماقات جردته من صفاته الإنسانية كمفكر وكمثقف وباحث، فقوض مشاريعه بوحشية مفرطة أظهرها حين دعي إلى مائدة مستديرة تشارك فيها الأحزاب المعتدلة قبل فوات الأوان، فقال بإيجاز "الآن فات الأوان، إنها الحرب فبعدما حدث في الميلية لن يقبل الرأي العام الأوروبي أن نتحادث مع أي طرف، إنها الحرب ويجب القيام بها"[1].

إعلان حالة الطوارىء:

أرادت السلطة الاستعمارية أن تعطي لأعمالها العدوانية الصفة الشرعية بعدما يقرب من نصف سنة من اندلاع الثورة، تأكد خلالها عجز قواتها عن السيطرة على الوضع، فقررت "إعلان حالة الطوارىء في الجزائر" وقد نشر ذلك في بيان تداولته الصحافة الفرنسية بداية من 19 مارس 1955. وحالة الطوارىء هذه تفرض على السكان -حسب تعبيرهم- مجموعة من الحالات الاستثنائية يخضع المواطن بموجبها لسلسلة من الاجراءات تمنعه من حق التمتع بالحريات الفردية التي حرم

(1) كتابنا الثورة التحريرية أمام الرهان الصعب، الطبعة الثانية، ص: 218.

منها منذ الغزو الفرنسي للجزائر، وكلمة "طوارىء" تلطيف وتهذيب لكلمة "حصار" التي تعمل على تفكيك الهياكل الإدارية وتنقل الحكم من السلطات المدنية إلى السلطات العسكرية، فالحكومة الفرنسية سوف تستغل حالة الطوارىء المعلنة كحالة من الحالات الاستثنائية تلجأ إليها الدول في الحروب لتطبق حالة الحصار في أبشع صوره وأقرب مثال لدينا ما قام به الجنرال: بارلانج على رأس القيادة الموحدة للعمليات العسكرية والمدينة في الأوراس منذ التاسع والعشرين من شهر أفريل 1955، ولقد تم اختيار هذا الجنرال بسبب ما حاز عليه من الشهرة في منطقة "أغادير" بالمغرب الأقصى، ووضعت تحت تصرفه أكثر الفيالق أوسمة من فيالق الجيش الفرنسي... وقد وصل إلى قلب الأوراس بتاريخ 3 ماي 1955"[1]، وتنص المادة الأولى من قانون حالة الطوارىء المعلنة أن الإجراء الجديد "يمكن تطبيقه على كل أو على جزء من تراب الوطن الأم -فرنسا- والجزائر أو عمالات ما وراء البحار كما توصف من قبل المصالح الإدارية آنذاك. ومن جملة الإجراءات المتضمنة في قانون حالة الطوارىء الجديد.

1-النفي أو الإقامة الجبرية وهذه العملية شرعت فيها القوات الفرنسية منذ: 2 نوفمبر 1954، قبل التفكير في استيصدار هذا القانون.

2- تفتيش المنازل بالليل والنهار. وهي ممارسات اعتاد عليها السكان منذ اندلاع الثورة.

3-المداهمات دون سابق إنذار.

4-الحد من حرية الحركة بالنسبة للأهالي وإخضاع ذلك لرخص إلزامية.

5-إحلال القضاء العسكري بدل القضاء المدني.

وبتاريخ الثالث من أفريل توافق الجمعية الوطنية الفرنسية على إعلان حالة الطوارىء، وهذه الإجراءات القمعية كانت السلطات العسكرية الفرنسية تمارسها

---

(1) الثورة الجزائرية في عامها الأول (مرجع سابق)، ص: 108.

بشكل عادي قبل أن تصدر في شكل قانون يبيح لها ذلك. فعملية تجميع السكان في المحتشدات وعمليات القنص اليومي لكل مشتبه فيه، والإعدامات الفردية والجماعية، والانتهاكات، والمصادرات هي الصفة المميزة للحياة اليومية للسكان، وأحسن وصف لها هو ما جاء على لسان أحد الجنود الفرنسيين حين قال "في كل يوم أورودور بالجزائر"(*) وسَنٌّ قانون الطوارىء إنما وضع لتبرير مثل هذه العمليات.

ففي ظل هذه السلسلة من الإجراءات القانونية سوف تمارس القوات الاستعمارية التعسف في أبشع صورة وسوف تتجاوز نصوصه على كل المستويات، وأوضح مثال لدينا تلك النصيحة التي أسداها "روبير لاكوست" الوالي العام، وهو يطمئن الجنرال: "ماسو" الذي أسندت إليه على رأس الفرقة العاشرة مهمة حفظ الأمن في العاصمة، فقال له: "لا تشغل بالك بالقوانين" وليس لهذه النصيحة أكثر من قراءة ، وهي تعني بالصريح "افعل ماشئت فليس هناك قانون يحاسبك"، وكان "ماسو" عند حسن ظن "لاكوست" ففي عهدته تغاضت السلطة عن مظاهر التقتيل الجماعي للمدنيين بالمئات وعن رمي المساجين بواسطة طائرات الهليوكبتر في عرض البحر... وجرائم أخرى لا تعد ولا تحصى. وقد ظل "ماسو" مقتنعا بتلك الجرائم، وزعم أنها تمارس من أجل الحفاظ على الأمن.

فهذه الأعمال الإجرامية التي ذهب ضحيتها أشخاص مدنيون (1200 شخص إثر قصف لعدة قرى بالنابالم ناحية الأخضرية، 1100 شخص بناحية شابور بخنشلة، 350 شخص انتقاما لمقتل رقيب سينغالي ببسكرة، 180 شخصا انتقاما لمقتل الضابط: "جاكوت" واستباحة لقرية واضية مدة أسبوع بناحية تيزي أوزو، 136 شخصا في وادي الماء، ناحية باتنة، والقائمة طويلة، فهذه الجرائم كانت ترتكب أمام مرأى ومسمع أولئك الذين يتشدقون بتطبيق قوانين-حفظ الأمن- داخل المستعمرة وهي لا تدخل ضمن الإجراءات الاستثنائية التي تضمنها قانون حالة

(*) أورودور: قرية فرنسية تعرضت لعملية انتقام شنيعة من قبل الألمان خلال الحرب العالمية الثانية.

الطوارىء، وتعتبر ممارسات عادية لضباط وجنود الاحتلال ولا تحتاج إلى قانون لأن القائمين بها لا يخضعون لأي قانون داخل الوطن الجزائري.

والحال أن قانون الطوارىء ليس جديدا على السكان في الجزائر، غير أن لإدارة الاحتلال قاموسها الخاص، فهي تصف المحتشد بالتجمع، وتصف الحصار بالطوارىء، وتصف سلسلة من القيود فرضت على المواطنين ظلما وعدوانا منذ سنة 1874 بقانون الأهالي "أنديجينيا"، وقد استمر هذا القانون ساريا ما يقرب من قرن من الزمن إذ لم يُلغ إلا سنة: 1944 والمتأمل في بنود هذا القانون لا يجد أي فرق بينه وبين حالة الطوارىء المعلنة، فالمواطن كان قد اعتاد على حالة الطوارىء وصارت الطابع المميزلحياته اليومية، شاء أم كره، وقانون الأهالي "الأنديجينيا" المذكور عبارة عن عدة استثناءات تتحول بمقتضاها السلطة القضائية إلى السلطة الإدارية مع رفع بعض الضمانات عن حرية الأفراد، وتتلخص أهم الاستثناءات في المسائل التالية:

1-سلطة الحاكم العام الفرنسي في توقيع العقوبات على الجزائريين دون محاكمة من أجل الحفاظ على الأمن العام.

2-الأخذ بمبدأ المسؤولية الجماعية عند وقوع جناية في حي من الأحياء أو قبيلة من القبائل أو مدينة من المدن.

3-السماح للإدارة بحبس الأشخاص أو مصادرة ممتلكاتهم دون حكم قضائي.

4-وجوب حمل الجزائريين لترخيص خاص إذا أرادوا التنقل بين أقاليم الجزائر المختلفة.

5-توسيع سلطة قاضي الصلح ومنحها لمدير البلدية في حالة عدم وجود قاض بحيث تشمل الغرامات أخذ الأسباب التالية :

أ-رفض السخرة أو العمل في المزارع الأوروبية في أثناء عملية الحصاد وجمع المحصول في أشهر الصيف.

ب-التلفظ بعبارات معادية لفرنسا.

جـ-عدم الإذعان لأوامر القياد أو العمد.

د-إحداث أي نوع من الشغب أو مخالفة التقاليد المهذبة كالبصق في الطريق العام.

هـ-التأخر في دفع الضريبة العامة... إلى آخر هذه الأسباب التي بلغت سبعا وعشرين مخالفة"[1].

هذه الحالة التي توصف عند السلطة الاستعمارية بقانون "الأنديجينيا" منذ سنة1874 صورة من صور الحصار أو الطوارىء المفروضة على السكان حيث أنزلتهم منزلة الرقيق في وطنهم، ولم ترفع شكليا إلا قبل اندلاع الثورة بعشر سنوات بموجب قانون: 7 مارس 1944 وبالتالي فإن الأهالي -حسب تعبيرهم- في الجزائر قد تكيفوا مع أنظمة التعسف، ومع القوانين الزجرية التي كانت تصدر عن سلطة الاحتلال، فلا تُرهبهم حالة الطوارىء المفروضة بسبب حالة الحرب المعلنة والتي قال عنها: سوستيل "إنها الحرب ويجب القيام بها" لأن حياتهم كلها طوارىء منذ أن تعرضت بِلادهم للغزو.

وحالة الطوارىء التي وافقت عليها الجمعية الوطنية الفرنسية بتاريخ 3 أفريل 1955 أريد منها مغالطة الرأي العام العالمي والمنظمات الدولية التي يمكن أن تستنكر الاعتداء على الحريات الفردية والأعمال الاجرامية التي تمارسها السلطات الفرنسية ضد السكان في الجزائر تحت غطاء محاربة ظاهرة الإرهاب كما تصفها.

ولعل أقرب مثال نستدل به في وصف التجاوزات والانتهاكات التي تواصلت حتى بعد إلغاء قانون الأهالي المشار إليه منذ السابع من مارس 1944، تلك الحملات التي كانت تشنها على الأوراس فرق من الحرس المتنقل المعروف عند السكان في الأوراس باسم (Garde Mobelle) أو السيراس.

فقد انطلقت الحملة الأولى في 15 أوت 1951 متذرعة في الظاهر بالبحث عن الخارجين عن القانون hors de la loi، غير أن هذه الحملة لم تستغرق طويلا حيث توقفت قبل حلول فصل الشتاء لتتجدد مرة ثانية بقوات مضاعفة في الثامن عشر من ماي سنة 1952 قوامها 800 عسكري من رجال الحرس المتنقل، وقد شمل نشاطها مناطق: إيشمول، قرزة، عين الطين، الحريق بشيليا، الدرمون، الوسطية،

(1) ابن باديس، فلسفته وجهوده في التربية والتعليم (مرجع سابق)، ص: 50-51/ هـ.

خنقة معاش، وأماكن أخرى، وذلك في شكل مداهمات فجائية لبعض البيوت وتفتيش للمنازل وإرهاب للأهالي، بدون إذن من السلطات المحلية، وعندما لم تعثر هذه القوات على العناصر التي كانت تبحث عنها. خيمت في عدة مناطق من الأوراس منها: تاجموت وثنية الزناتي بين كيمل وزالاطو.

إنها الحرب ويجب القيام بها !:

هذه قناعة الوالي العام: "جاك سوستيل" بعد أن استنفد كل المحاولات اليائسة بحيث انتهت به إلى طريق مسدود. ففقد معها كل أمل في إمكانية تحقيق مشروع التهدئة الذي كان يحلم به، واقتنع بأن المغامرة الكبرى قد بدأت على حد تعبير الدكتور: "سلاكرو" وأن الحرب لا مفر منها، لأن التوفيق بين حلم المستوطنين وآمال السكان لم يعد ممكنا، واعتقد أن الحرب وحدها هي التي ستحسم الموقف وأن هزيمة الوطنيين وشيكة فراح يعد العدة لذلك. ولما كان قطبا الاضطراب هما: قلعتا البربر (الأوراس) ومنطقة القبائل حسب تعبير مصطفى طلاس في الثورة الجزائرية ص: 87. كان على الوالي العام أن يعيد النظر في مخطط العمليات العسكرية الثلاث التي شنت على الأوراس قبل أن يعين على رأس الولاية العامة: منها: حملتان متعاقبتان خلال أسبوع واحد سبق تعيينه كحاكم عام على الجزائر في 25 جانفي 1955. شارك فيهما زهاء 5000 جندي من خيرة الجيش الفرنسي المدرب على حرب العصابات في الهند الصينية، ولما كانت نتائج الحملتين: 19 و23 جانفي 1955 مخيبة للآمال أو عزها الوالي العام السابق إلى المحيط وحده في تصريح له بباتنة، اعتقد سوستيل أن المسألة تتعلق بالتأطير وبمخطط العمليات، وظن أنه في حال توفر هذين الشرطين فإن تطهير هذه المنطقة المستعصية ممكن... فاستقدم لهذا الغرض أكفأ الضباط السامين ممن اكتسبوا خبرة وشهرة واسعتين في ممارسة حرب العصابات، وحازوا على أوسمة الشرف العسكري أمثال: بارلنج غاستون، والعقيد: ديكورنو، صاحب المقولة "الأوراس مهد الثورة وسيكون قبرها" والعقيد: بيجار المحارب المشهور جدا الذي صرح وهو يتأهب للذهاب إلى

الجبل الأبيض بتبسة للإشراف على معركة "أرقو" قائلا: "إننا ذاهبون إلى جبال النمامشة منبت الثورة، فإذا تمكنا من القضاء على التمرد في جبال النمامشة فإننا سنقضي عليه في الأوراس، وإذا قضينا عليه في الأوراس، فسنقضي عليه في الجزائر كلها"[1]، فإلى جانب هذا الجهد العسكري الضخم لإنجاح الحملات المقبلة، عكفت القيادة على تمجيد المظليين للرفع من قدراتهم القتالية، وإرهاب السكان وتخويفهم من مغبة مساندة من تصفهم بالمتمردين، ومما جاء في بعض المناشير التي كانت تلقي بها الطائرات فوق الغابات والقرى حيث تعتقد وجود المجاهدين "عما قريب سينزل السخط على رؤوس المتمردين، بعد ذلك سيحل السلم الفرنسي من جديد"[2]. ولم يكن لهذا العمل الدعائي أي تأثير على نفسيات المواطنين، لأن السخط الذي تتوعد به القوات الفرنسية استمر في التهاطل دون توقف منذ الغزو الاستعماري للبلاد وتكيف معه السكان، وصار جزءا من حياتهم اليومية، أما السلم الفرنسي الموعود، فلن يتحقق إلا بالرحيل عن الوطن المغتصب.

أعطت الحكومات الفرنسية المتعاقبة الأولوية للقمع لغرض التخويف والترهيب ولتحقيق ذلك وجهت تعزيزات عسكرية ضخمة إلى الجزائر، بالرغم من أن التقديرات العسكرية عندها كانت لا تتوقع الهزيمة كالتي لحقت بجيوشها في الفيتنام لاعتبارات مختلفة. فبالإضافة إلى القوات الموجودة داخل الوطن الجزائري والتي يقدر عددها بـ/ 56500 جندي. أقدم سوستيل فور مباشرته لمهامه كوال عام إلى رفع عدد القوات العاملة في الجزائر تجاوبا مع التطورات الحاصلة إلى 83400 جندي، بالإضافة إلى أفراد القوم ممن تم تجنيدهم بسرعة كعملاء. وقد ظل عدد القوات الفرنسية في تطور مستمر إلى أن بلغ أعلى رقم له وهو 800 ألف عسكري مزودين بوسائل الدمار المختلفة مدعومة بالطائرات المقاتلة وبالبوارج الحربية لمراقبة السواحل، مقابل 30 ألف جندي (مجاهد) ممن ينشطون داخل الوطن حسب

(1) إشكالية القيادة في الثورة الجزائرية لـ/ محمد زروال، ص: 177.

(2) الثورة الجزائرية في عامها الأول (مرجع سابق)، ص: 127.

اعتراف الرئيس: دوغول في مذكراته-الأمل- حيث يقول: "ومع ذلك فإن الثوار منظمون في فرق نظامية ولما يتجاوز عددهم في أي زمن ثلاثين ألف رجل، وهم يكادون يكونون مزودين بالبنادق والقنابل اليدوية، وأحيانا بالرشاشات، ومدافع الهاون، ولم يكن لديهم مدافع ميدان أو أي دبابة أو أي طائرة"[1].

"سوستيل" عازم على فرض الأمن العام الذي ظلت فرنسا الرسمية تعتقد به إذ كانت ترى حسب "جان بلانشايس" "أن ما حدث من تاريخ 1 نوفمبر 1954 إلى 19 مارس 1962 ما هو إلا تتابع لعمليات حفظ الأمن خلال سبع سنوات كاملة"... بالرغم من أنها كانت قد استعملت لهذا الغرض كتائب ضخمة لا تقل عن مليونين وسبعمائة ألف شاب فرنسي قدموا إلى أرض الجزائر من وراء البحر"[2] وذلك بالقضاء على حركة التمرد كما يرى، وباستعمال كل الوسائل المتاحة، وذلك بتشديد الخناق على الثوار من خلال عمليات الترحيل القسرية للسكان من الريف -الحليف الطبيعي للثوار- وتجميعهم في محتشدات مطوقة ومحوطة بأسلاك شائكة تحيط بها أبراج مراقبة لتتابع حركة السكان باستمرار، ففي عهد "سوستيل" بدأ الطرد التعسفي لسكان الأرياف من مساكنهم وتجميعهم قرب المعسكرات، ولمنع هؤلاء الفلاحين الريفيين من العودة إلى مساكنهم أو الاستفادة منها مستقبلا، ومنع المجاهدين من استغلالها أقدمت قوات الاحتلال على إضرام النيران فيها أو تفجيرها بواسطة الألغام. فانقطع الأمل بالنسبة لسكان الريف في العودة إلى مزارعهم ووجدوا أنفسهم بين المطرقة والسندان... انعدام الموارد التي تكفل لهم العيش-الكفاف-، وفرض الإقامة الجبرية في المحتشدات التي استبدلت تسميتها بكلمة محتشمة لغرض التخفيف من تأثيرها، ووصفت بالتجمعات السكانية. إذ لا يزعم عاقل بأن ترحيل السكان من الريف لم يشكل تهديدا خطيرا على الثورة، فقد اضطر معه المجاهدون تحت وطأة الجوع إلى أكل الأعشاب وثمار النباتات البرية

(1) مذكرات الرئيس دوغول (مرجع سابق)، ص: 60.

(2) حرب الجزائر-ملف وشهادات الجزء الثاني-(مرجع سابق)، ص: 355.

كالبلوط وحب العرعار وحب الطاقة، واضطروا إلى اقتحام الأسلاك الشائكة والدخول إلى القرى المطوقة ليلا بالرغم من المخاطر المحدقة بالمغامرة، كما اضطر بعض المجاهدين إلى أن يطرقوا أبواب بعض المنازل في ضواحي المدن والقرى غير المحروسة للحصول على ما يسدون به الرمق، وربما يكون صاحب المنزل حركيًّا فيفاجىء المجاهد وهو على ما هو عليه من الوهن والضعف فيجرده من سلاحه ويقوده إلى معسكر العدو... ودفعت الحاجة إلى القوت بعض الجنود من المجاهدين للدخول إلى الثكنات (مراكز عسكرية للعدو)، ولازلنا نتذكر صورا من تلك المشاهد المريعة ظلت تثير في نفوسنا الأسى والحزن.. مجاهدون من دورية عابرة لا تعرف مراكز التموين، قصدوا إحدى القرى للتزود والإطعام فرفض السكان ذلك ظنا منهم أنهم عملاء مدسوسون يريدون معرفة مراكز التموين، وكل إلحاح من قبل هؤلاء المجاهدين يقابله إصرار من قبل السكان بالرفض، راح هؤلاء المجاهدون يعرضون أسلحتهم على السكان لمقايضتها بلقيمات يسدون بها ألم الجوع، وهنا هرع أحد الشباب إلى مركز العدو الذي لا يبعد كثيرا عن القرية فأخبرهم بذلك، وقبل وصول جنود العدو خاطر شاب آخر بنفسه وأخبرهم بأن جنود العدو قادمون وسيلقون القبض عليهم إذا لم يغادروا القرية في الحال.. فغادروا القرية وهم يترنحون في مشيتهم كالسكارى من شدة الهزال حتى أن بعضهم كان عاجزا عن حمل سلاحه فكانوا يسحبونها كالعصي من خلفهم.

مخطط "سوستيل" تجاوز مفهوم الحصار، فقد وضع الثورة في بعض المناطق على حافة الانهيار. إذ استطاع قبل مرور أقل من سنة من اندلاع الثورة أن يضع أكثر من 25000 جندي في حالة تأهب في الأوراس وحدها، بالإضافة إلى عشرة طوابير (فيالق) من الجنود المغاربة الذين جيء بهم فور اندلاع الثورة، وهم لفيف من المرتزقة من قبائل مختلفة في المغرب الأقصى على هيئة اللفيف الأجنبي، وزجت بهم في الميدان من أجل قمع الثورة في الأوراس... وقد تم توزيعهم في شكل وحدات في أكثر المناطق حساسية مثل: آريس، خنشلة، باتنة، بسكرة وكانت لهم مواقف مخزية في بداية الثورة، وبعد مرور سنتين من الحرب، وبعد أن نالت المغرب

استقلالها سنة 1956 تأكد لديهم أن الثورة الجزائرية قد تجاوزت مرحلة الإجهاض الذي كان يراود حُلُم قادة الاحتلال بعد أن مدت جذورها في أعماق المجتمع، فأعلنوا (الجنود المغاربة) خلال صائفة 1956 جماعيا رفض المشاركة في الحرب فأمر الجنرال: بارلنج بصفته يجمع بين السلطتين العسكرية والمدنية في الأوراس نزع الأسلحة منهم فرفضوا تسليم أسلحتهم، وطالبوا بإعادتهم إلى المغرب.. وقد التحق منهم عناصر قليلة بجيش التحرير الوطني في كل من آريس وخنشلة.

غير أن هذه المعاناة لم تزد المواطنين إلا إصرارا -رغم المحن- وأظهروا من التعاطف مع الثورة ما لم يكن متوقعا في البداية من قبل قادة الثورة أنفسهم، فاستعملوا كل الحيل في تسريب الطعام للمجاهدين، وكانت لبعض العناصر المجندة من الجزائريين في صفوف القوات الفرنسية بصفتهم جنود نظاميون أو حركى مواقف متعاطفة جديرة بالتنويه والإشادة، فكانوا يتغاضون عن تفتيش المارة عند نقاط العبور، ويتساهلون مع المواطنين في تمرير بعض الحاجات للمجاهدين.

مخطط توزيع الثكنات:

لا يوجد شيء اسمه الارتجال أو العفوية في النشاطات العسكرية لجنود الاحتلال سواء تعلق الأمر بإقامة الثكنات أو أبراج مراقبة أو التحصينات الدفاعية أو المسالك أو عمليات التمشيط أو الكمائن... فكل شيء كان يؤخذ عند ضباطهم بمنتهى الجد والحذر، فكانوا يقيمون الثكنات العسكرية أو المعسكرات حيث توجد التجمعات السكانية الكبيرة، وتبنى الثكنات وفق مخططات خاصة تضمن الأمن والحماية للجنود بداخلها، تقام عادة في المرتفعات أو في الأماكن المكشوفة حتى تتمكن أبراج المراقبة التي تقام فوقها من مراقبة الحركة في محيط الثكنة... تزود أبراج المراقبة بأسلحة رشاشة نوع 7/12 جاهزة للاستعمال في أية لحظة وتصوب عادة اتجاه الأماكن المشبوهة.

وحول هذه الثكنات أو المعسكرات تنتشر الوحدات العسكرية في القرى الصغيرة القريبة من التجمعات السكانية، كما كانوا يقيمون غير بعيد عن هذه الوحدات أبراجا عالية للمراقبة قرب المعابر، وفي المرتفعات، وفي الأماكن المطلة على الأودية وعلى المنخفضات عموما والتي يمكن أن تكون معبرا للمجاهدين وإلى جانب الطرق التي تسلكها الوحدات العسكرية لدى تنقلها بواسطة العربات.

الوحدات المتمركزة في الثكنات تكون مزودة عادة بأسلحة رشاشة ثقيلة نوع: 7/ 12 التي تثبت فوق أبراج المراقبة وبمدفعية الميدان الخفيفة أحيانا، تستخدم هذه الأسلحة الرشاشة أو المدفعية في قصف القرى المحيطة بها كعقوبة جماعية عند تعرض هذه الوحدات لإطلاق النار من طرف المجاهدين وهذا في إطار تطبيق فكرة العقوبة الجماعية للسكان الواردة في قانون "الأنديجينيا" منذ 1874 والتي أحياها، الجنرالان: بارلنج وشاريير في إطار قانون الطوارىء، إذ لا يهم أن تسقط القذيفة فوق أفراد أسرة، أو فوق مسجد أو وسط مقبرة، فكلهم "فلاقة" حسب التعابير الشائعة عندهم خلال الثورة وقد يتم القصف لغرض الوقاية أحيانا في الأمسيات خاصة دون أن يتعرضوا لهجوم مباغت، وكنا خلال الثورة نعتقد أن ذلك كان من شدة الخوف، إلا أننا اكتشفنا بعد جلاء القوات الفرنسية عن ثكنة في قرية: بليهود شيئا آخر، فقد دفعنا الفضول للبحث عن أسرار بعض الرموز كأرقام كتبت على الجدار المحيط بالمدفع، ورحنا نتساءل عن السر الذي تحويه هذه الأرقام المكتوبة على الجدار الذي يحيط بالمدفع في شكل هلال والذي لا يزيد علوه عن متر ونصف المتر، أرقام ورموز وقياسات أثارت فضولنا ورحنا نبحث عن مدلولها الرمزي... وبعد تأمل طويل ثبت لنا أن تلك الرموز تشير إلى ينابيع المياه التي يمكن أن يرتوي منها المجاهدون وأن بعضها يشير إلى أماكن العبور التي يمرون عليها وبعضها الآخر إلى قمم الجبال المطلة على الثكنة التي يمكن أن تشكل نقاط مراقبة وأماكن للحراسة. وأن الأرقام تشير إلى المسافات بدقة التي تفصل النقطة المستهدفة عن نقطة إطلاق القذيفة. وقد تأكدنا من هذه الفرضية عندما علمنا من بعض المجاهدين أن جنديا (مجاهدا) ذهب إلى ينبوع ماء للتزود بمياه الشرب في الجبل

المطل على الثكنة، وقد تم في أثنائها إطلاق قذيفة بشكل عشوائي اتجاه العين "فسقطت فوق رأسه فخر صعِقًا"... فقد كان طاقم المدفعية يختار ساعات المساء، حيث يتأكد المجاهدون من خلو المكان من جيش الاحتلال فيخرجون من مكامنهم للمراقبة أو السفر أو التزود بالحاجات الضرورية أو التأهب للقيام بعمل عسكري ضد العدو... وبما أن عدوهم كان يعرف عنهم ذلك فكان يختار تلك الساعات ويصوب نيران رشاشاته أو قذائف مدفعيته لتلك الأماكن المشبوهة، قمم الجبال، المعابر، الأودية، ينابيع المياه... فإذا لم يصب القصف هدفه يجعل المستهدف في حالة ارتكاب وخوف دائمين :

معظم أبراج المراقبة أقيمت في مواقع متقدمة، من مهامها: *مراقبة التحركات اليومية للسكان * حراسة القوافل المارة عبر الطرق الموازية للأودية غالبا في إطار المهام اليومية لها * الخروج في عمليات تمشيط * إعادة توزيع * الخروج في نجدة *التمويل * حماية ضباط الشؤون الأهلية للإشراف على التجمعات في إطار عمليات التضليل التي دأبت عليها... ومن مهام الوحدات العسكرية التي تقيم عادة في الثكنات ونادرا في المخيمات عند القيام بالحملات الكبرى * القيام بعمليات تمشيط واسعة على مستوى القطاع الجغرافي للوحدة * نصب الكمائن للمجاهدين * التدخل السريع عند تعرض القوافل في المحيط الجغرافي الذي تحرسه الوحدة لهجمات من قبل المجاهدين * القيام بالإغارة ليلا على بعض المنازل المشبوهة للتفتيش وإرهاب السكان... * مراقبة حركة الدخول والخروج من المحتشد... وهذا لا يتم إلا بعد الحصول على رخصة تمنح للفلاحين لغرض استغلال الأراضي الفلاحية التي توجد بعيدا عن مجال المراقبة، أو رعي المواشي، وقد استغل السكان هذه العملية عملية الخروج المرخصة في تمرير بعض الحاجات للثوار... وقد يتم ذلك بتواطؤٍ مع بعض العناصر من الحركى في نقاط المراقبة أو من المجندين إجباريا في إطار الخدمة العسكرية، غير أنها كانت الاستثناء ولم يكن السكان يعولون عليها كثيرا... فقد حدث أن عادت فتاة راعية قطيع في المساء من الجبل، فطلب منها الحارس استظهار رخصة الخروج، فالتبس عليها الأمر وأظهرت له بيانا منح لها من

قبل جنود أخذوا منها تيسا، فتأمل الحارس -الحركي- الورقة فأذهله أنها غير التي تعود مشاهدتها عند بقية المارة، وأن خاتمها مخالف للأختام التي دمغت بها الرخص الممنوحة للسكان، فبعث بها فورا إلى الثكنة بعد أن أوقف المعنية وعندما تمت قراءتها وعرف المضمون منها كان جزاء صاحبها -والد الفتاة-الإعدام- في اليوم الموالي لأنه اعتبر متعاطفا مع القضية الوطنية، وما أكثر هذه التعسفات ! فقد كان مسؤولو الوحدات يلزمون السكان بالخروج والدخول في ساعات معينة عند الضحى وعند العصر، ولما كان المواطنون لا يمتلكون ساعات لمعرفة الوقت يجبر رؤساء هذه الوحدات معلمي القرآن على القيام بالآذان عند الساعة الرابعة مساء وهو بمثابة إشعار للسكان بالإسراع إلى الدخول إلى المحتشد، وويل لمن يتخلف عن الموعد ولا يستجيب للآذان... وسرعان ما عرف الناس أن هناك آذان للصلاة وأخرى للدخول المبكر إلى المحتشد، فتكيفوا مع الوضعية وبعد الساعة 4 مساء يبدأ القصف المدفعي العشوائي للأماكن المشتبه فيها في محيط الثكنة وللبساتين حيث يتواجد الناس.

المواجهات المسلحة :

لا نتحدث في البداية عن المعارك الحربية التي تجري بين طرفين غير متكافئين، لأنها من ضرورات الحرب، ولا عن ضراوتها لأن الضراوة هي التي سوف تنهك الخصم وترغمه إلى الإصغاء للطرف الآخر... فقد سبق أن ألمحنا إلى أن الاستراتيجية التي تبنتها القيادة الثورية لإطالة أمد الحرب بهدف تعبئة الجماهير الشعبية هي حرب العصابات أو الكر والفر الاسم الذي عرفت به منذ القديم. غير أن هذا الاختيار لم يمنع من حدوث صدامات ومواجهات عنيفة بين الطرفين، منذ الأسابيع الأولى للحرب .. فقد حاول الطرف الفرنسي الذي ظن أن عمليات تطهير جبال الأوراس -حسب تعبيرهم- مجرد نزهة قبل أن يصطدم بعناد الثوار وشدة بأسهم، حاول أن يستغل تقنيات القتال والتكتيك الحربي الذي تعلمه جنوده في المدارس العسكرية، وما اكتسبوه من تجارب في الهند الصينية، فاعترضته صعوبات

"بسبب ما يخلفه المحيط والميدان من صعوبات متنوعة وكبيرة" على حد تعبير روجي ليونار الوالي العام الذي حصر الصعوبات في الميدان وحده دون أن يفصح عن طبيعتها وفي المحيط الذي يوصف بأنه الحليف الطبيعي للثوار في المناطق الجبلية عموما دون أن يكشف عن نوعية هذه الصعوبات يقول الأستاذ: محمد عباس "فقد أدرك الجانب الفرنسي منذ البداية طبيعة هذه الحرب، فاستقدم إلى منطقة الأوراس باعتباره "البؤرة الأولى والرئيسية" خبراء حرب الهند الصينية ليطبقوا فن حرب العصابات المضادة التي استخلصوها من تجربتهم المرة مع "الجبهة الوطنية لتحرير فيتنام"[1] وذكر على الهامش من الصفحة أسماء ثلاثة من هؤلاء الخبراء، منهم: العقيد: ديكورنو وكان في الأوراس بمثابة الساعد الأيمن لكل من الجنرالين: بارلنج وفانوكسام، وفي الصفحة الموالية من المرجع نفسه يقول محمد عباس "وكانت تعليمات الوالي العام لهذ الجهاز الحربي في منتهى الوضوح".

1-أولوية مطلقة للعمليات العسكرية وعدم التردد في استعمال الطيران الحربي.

2-قتل أي ثائر (يقع في الأسر) والسلاح في يده.

3-حجز ممتلكات الثوار ومواشيهم"[2].

كل ما يشغل بال القادة في الحروب هي نتائج المعارك الحربية والخسائر الناجمة عنها وهو نفس الشعور الذي كان يخالج فكر المواطن لدرجة الهيام... وبما أن نتائج المعارك الحربية تتحكم فيها مجموعة من المعطيات لا مناص من العمل بها وهي في معظمها لصالح القوات الاستعمارية عدا * عنصر المفاجأة في الكمائن * الطبيعة الجغرافية للمكان إذا أحسن جنود جيش التحرير استغلالها... فكانت نتائج كثير من المعارك سلبية بالنسبة لجيش التحرير، غير أن الذي أذهل القوات الاستعمارية هي القدرة السريعة على التعبئة وتجدد الأمل في تحقيق النصر عند الثوار مع إظهار التحدي باستمرار، ومع إقرارنا الدائم ودون خجل بالتفوق الساحق للقوات

(1) نصر بلا ثمن (مرجع سابق)، ص: 139.

(2) نفس المرجع ، ص: 140.

الاستعمارية فإن الهزيمة العسكرية التي كانت تطمح إليها لم تتحقق بالمفهوم الذي كانت تريده هذه القوات -وهو التطهير- وستظل الحرب سجالا بين الطرفين، رغم أن الخسائر البشرية سوف تظل مرتفعة بالنسبة للمجاهدين، ولن يتحقق التكافؤ حتى نهاية الحرب.

وحتى لا نظهر التحيز أو نغلب العاطفة على العقل نشير إلى ما جاء على لسان ضباط وكتاب ومؤرخين فرنسيين من تصريحات وأقوال في هذا الصدد قبل أن نشير إلى ما ورد من أقوال وأبحاث لكتاب أولمؤرخين جزائريين... ففي ظل التعتيم الشامل للخسائرالفرنسية آنذاك والتي تعد من أسرار الحرب، نكتفي بذكر الصدى الإعلامي لهذه الأحداث، فقد كتب المارشال: جوان الذي كان يحمل آنذاك أعلى رتبة في الجيش الفرنسي إلى رئيس الحكومة "إد قارفور" رسالة بتاريخ 18 ماي 1955 يقول فيها: "إن الوضع في الجزائر خطير جدا، والمعلومات الأخيرة التي وصلتنا تنبيء بأننا نسير نحو انتفاضة معممة تحت لواء الجهاد وذلك في سائر عمالة قسنطينة"[1]. فهذا النداء المتشائم من قبل المارشال: جوان مؤشر خطر يوحي بأن القوات الفرنسية عاجزة عن عملية التطهير الموهومة وتواجه خصما عنيدا يظهر من التحدي ما لم يكن متوقعا، وعلى نفس النغم كتب العقيد: هنري لومير، وهو ممن اكتووا بنار الحرب في الأوراس يقول: "في النصف الثاني من سنة 1955، اتضح أن الحرب أشد ضراوة وذات دلالة في الجنوب القسنطيني"[2] وقد يكون المؤرخ: "باتريك إيفينيو" أكثر وضوحا، وهو يصف الوضع قائلا: "كان الوضع أكثر خطورة بمنطقة الأوراس...، وكان فيها مصطفى بن بولعيد البطل الذي يصعب

---

(1) الثورة الجزائرية في عامها الأول (مرجع سابق)، ص: 128.

(2) مصطفى بن بولعيد والثورة الجزائرية (مرجع سابق)، ص: 907.

النيل منه"[1] كما كتب الصحفي والكاتب المعروف: روبير بارا يقول: "بعد مرور نصف سنة من اندلاع الحرب ثبت استحالة الحسم العسكري للحرب في الجزائر".

وقد انتقل هذا الصدى إلى مختلف الصحف الفرنسية، عبرت عنه بالصريح جريدة "لوموند" بتاريخ 13 مارس 1956 على لسان مراسل الجريدة الذي يقول: "إن إرسال الجيش إلى الجزائر أصبح أمرا ضروريا لتجنب هزيمة قد تكلفنا الكثير"[2].

هذه الاعترافات الصادرة عن أطراف نقول أنها ليست محايدة بحكم الانتماء، وبالتالي: فهي تعبر عن قلقها اتجاه الوضع في الجزائر، وتلح على الحكومة الفرنسية في الاسراع في اتخاذ التدابير التي تحول دون تكرار الهزيمة.

ومن جملة العوامل التي أثارت حيرة ضباط الاحتلال التعبئة العامة والسريعة لمختلف الشرائح الاجتماعية والتجاوب التام مع جبهة التحرير الوطني رغم المعاناة اليومية، فكانت الإعدامات اليومية والسجن والتعذيب بمثابة أقراص منعشة تبعث الأمل في نفوس المواطنين وتدفع بهم إلى التحدي وتحفزهم على الانضمام إلى الثورة، فصار الإنتساب إليها شرفا والموت في سبيل القضية الوطنية فخرا وامتيازا والتخلف عن اللحاق بالركب خزيا وعارا. إذ يكفي أن يعترف الوالي العام: روجي ليونار في أثناء لقاء جمعه بالسلطات العسكرية بباتنة بتاريخ: 21 جانفي 1955، بعد شهرين ونصف من اندلاع الثورة "بأن عدد الثائرين في الأوراس يقدر بألف رجل وأن الإمدادات اللازمة لإقرار الأمن والسكينة تحتاج إلى 40 ألف عسكري"[3]. فهل سيتمكن هذا الكم الهائل من الجنود المدربين من خيرة الجيش الفرنسي على تطهير جبال الأوراس بقيادة جنرالات وعقداء مصنفون في خانة أبطال الجيش الفرنسي أمثال: شاريير وديكورنو وفانوكسام... لا شك أنهم فوجئوا بحدة القتال

(1) حرب الجزائر ملف وشهادات الجزء الأول، ص: 144.

(2) الثورة الجزائرية سنوات المخاض (مرجع سابق)، ص: 152.

(3) مصطفى بن بولعيد والثورة الجزائرية (مرجع سابق)، ص: 873.

وباندفاع المجاهدين رغم قلة التكوين ورداءة التسليح، والصيحات المدوية التي كانت تتخلل هذه الهجمات على مراكز العدو وعلى وحداته (الله أكبر، الله أكبر، الجهاد في سبيل الله)... وقد اضطره هذا إلى إخلاء كثير من المراكز في عمق الأوراس، بعد أن عجزت قواته عن تموينها وحمايتها. وقد ذكر الرائد: هلايلي بعضا منها كشاهد، في كتابه: شاهد على الثورة في الأوراس، وهي حسبه المتواجدة في: جبل شليا، غابة كيمل، غابة بني ملول، غابة لبراجة في أوراس الوسط، وسلسلة أحمر خدو في الجنوب"[1] ويضيف الرائد: أهلايلي "فترحيل العدو لمراكزه من عمق الأوراس ضربة قاسية وهزيمة عسكرية مبكرة"[2] ويستدرك أهلايلي قائلا: "وكانت المراكز المرحلة... هي مركز الدرمون في الجنوب، ومركز الوسطية في الشمال بكيمل، ومركز تاجموت ببني ملكم، ومركز الولجة، ومركز خيران بوادي العرب، ومركز ملاقو بين جبل: تامزة وجبل: شليا، ومركز يابوس شمال قمة شليا، ومركز: إيشمول شمال مدينة آريس... وبعض المراكز التي لم أتذكرها"[3] فالرحيل من هذه المراكز أكيد أنه لم يكن اختياريا وقد وقع تحت ضغط شديد من قبل المجاهدين الذين تمكنوا من تحرير جزء من الإقليم خلال سنة واحدة. وهو الذي حمل قادة الاحتلال على أن يصفوا الأوراس بأنه مهد الثورة ورأس حربة في مواجهة الاحتلال. وفي ذلك آيات لأولِي النُّهى.

مثل هذه التحديات لم تكن متوقعة عند هؤلاء الضباط الفرنسيين الذي حازوا أوسمة الشرف العسكري في حروب تقليدية أو عصرية من قبل من يوصفون بالمتمردين وبالخارجين عن القانون في عرف الاحتلال، وهي في مثل هذه الحالة مجبرة على ضبط النفس والتجاوب مع الوضعيات وتجنب الاندفاع إلى أن تتمكن من القضاء على العصاة، كما تصفهم أحيانا.

---

(1) شاهد على الثورة في الأوراس (مرجع سابق)، ص: 180.

(2) نفس المرجع.

(3) نفس المرجع، ص: 144.

وقد توالت هذه التحديات في أكثر من موقعة، سيما في السنتين الأولى والثانية قبل أن يدب الضعف وسط الجيوش نتيجة الصراع على السلطة في الأوراس، فمن تحديات جنود وضباط جيش التحرير الوطني الكثيرة، ما جاء في إشكالية القيادة للمجاهد: محمد زروال "بأن أشريط لزهر قائد من قادة الثورة في الجبل الأبيض (أوراس النمامشة) أرسل إلى قائد الحامية العسكرية بالشريعة يدعوه إلى أن يلقاه في مواجهة عسكرية في مطلع جوان 1956، وقد حدد له فيها التاريخ والمكان، وقد أرسل قائد الحامية العرض إلى العقيد: بيجار قائد وحدة المظليين في سوق أهراس الذي صرح بأنه تلقى هذا الإشعار، وقال: "إننا ذاهبون إلى جبال النمامشة منبت الثورة، فإذا تمكنا من القضاء على التمرد في جبال النمامشة فإننا سنقضي عليه في الأوراس، وإذا قضينا عليه في الأوراس، فإننا سنقضي عليه في الجزائر كلها" فخاض بيجار المعركة في "أرقو" في السادس عشر من جوان 1956، أصيب على إثرها برصاصة أخطأت قلبه بسنتيمتر واحد، فنقل بواسطة طائرة الهيلوكبتر إلى قسنطينة ومنها إلى فرنسا"[1]... ومن صور البطولة والتحدي مارواه المجاهد: الوردي قتال أحد قادة النمامشة أنه كان يوما مع القائد: عباس لغرور، فقال له عباس إني أشعر أنه كلما مرت علينا ثلاثة أيام دون قتال مع العدو أننا خننا الجزائر" فكانت حياته القصيرة سلسلة طويلة من المعارك الناجحة ضد العدو لم يدون منها إلا القليل، فمما جاء في مذكرات العقيد: الزبيري آخر قادة الأوراس التاريخيين "أنه كان برفقة القائد: عباس لغرور بالقرب من قرية تتمركز فيها وحدة عسكرية في "رأس العش". فأرسل لغرور إلى قائد الثكنة يخبره بتواجده بالقرب منه ويتحداه للخروج في مواجهة مكشوفة، غير أن العساكر الفرنسيين لم يغادروا ثكنتهم في حين قضى المجاهدون ليلتهم في رأس العش، وفي منتصف نهار الغد شدّوا الرحال نحو الخناق الأكحل"[2].

(1) إشكالية القيادة في الثورة الجزائرية (مرجع سابق)، الولاية الأولى نموذجا، ص: 177.

(2) مذكرات العقيد الزبيري (مرجع سابق)، ص: 145.



البطل المغوار: الشهيد عباس لغرور

نقتصر على هذين المثالين لأن صانعيهما قائدان مشهوران، مشهود لها بالشجاعة لحد المغامرة والإقدام لحد التهور، ولأن المثالين مدونان استنادا إلى روايات موثوقة لأشخاص عاشوا الأحداث، والأمثلة غيرها كثيرة وصانعوا هذه الملاحم كثيرون كذلك، فقد كنا نسمع عن مجاهد أنه يقول لزملائه دعوني أنا والدبابة (رأس، رأس) فيعترض الدبابات التي كانت تخرج في دوريات أو تتقدم أرتالا من الشاحنات العسكرية التي كانت تنقل جنود الاحتلال، والأغرب من ذلك أنه كان يرفض الحماية ويرفض التغطية والدعم عند الانسحاب.

ونسمع عن مجاهد يتعمد مواجهة الطائرة على المكشوف ببندقيته الفردية فإما هو وإما هي... وعرفنا جنودا (مجاهدين) اقتحموا أبراج مراقبة وحتى الثكنات في عز النهار...

هذه الحالات بالرغم من أنها كانت تشكل الاستثناء خلال الثورة، غير أنها كانت تحفز بقية المجاهدين على إظهار التحدي والإصرار على القتال، وتشكل لديهم القناعة بحتمية الانتصار، سيما بعد أن وظف العامل الديني في المعركة منذ العام الثاني للحرب، فكان بعض الجنود يصعدون فوق الربى أو قمم الصخور في

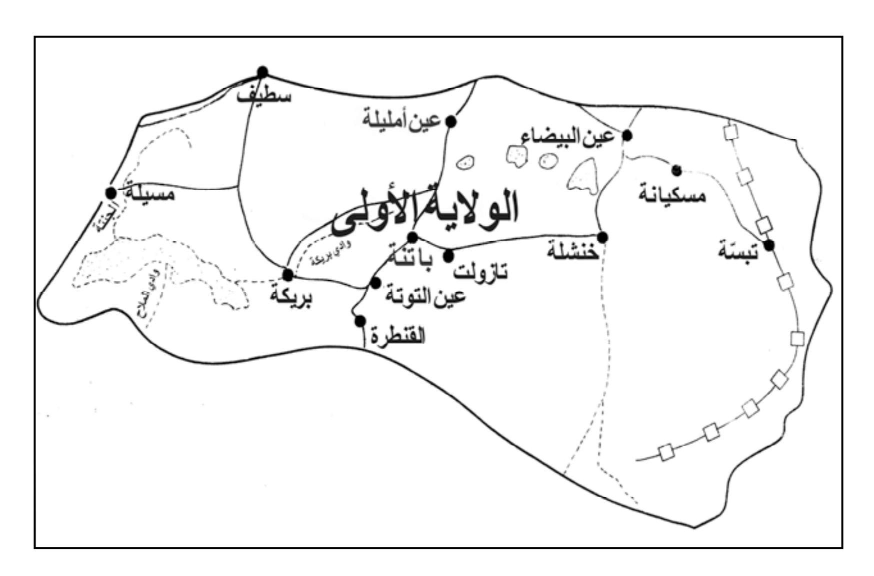
أثناء القتال ويرفعون أصواتهم بالآذان فيهيج النداء العواطف الدينية للمقاتلين من المجاهدين، فيظهرون من المقاومة والصمود ما يثير الإعجاب حتى عند عدوهم بالرغم من ضعف الإمكانات... وكان بعض السجناء من القراء يُساقون إلى الموت وهم يتلون آيات من الذكر الحكيم، فأمتزجت المشاعر الوطنية بالمشاعر الدينية والقومية أجّجت في نفوس المواطنين عامة والمجاهدين خاصة الثورة والغضب، فاعتبروا الموت في سبيل الوطن شهادة، والنضال من أجله شرف وكرامة، فوصف القتيل شهيدا والمحارب مجاهدا، والمناضل مسبلا... وهذه كلها استمدت من الدين، وأعطوا للحرب معنى الجهاد... وشاعت أساطير بين الناس بأن جسد الشهيد لا تأكله الأرض حسب تعبير محمد زروال في معالم بارزة صفحة: 149 وأن مكان سقوطه تنبعث منه روائح عطرة.. وقد غذت هذه الشائعات الأمل في نفوس المواطنين بحتمية الانتصار ورفعت من معنويات المقاتلين خاصة، والمواطنين عامة، فكان المواطن يجهش في البكاء لمجرد رؤيته للعلم الوطني رمز السيادة والحرية، فكانت الراية عنده تعني السيادة التي يفتقدها، تعني الحرية التي يضحي من أجلها، تعني الاستقلال تعني الكرامة وتعني النصر، وكان مستعدا للموت من أجلها، وكانت الأم أو الزوجة إذا نعي إليها خبر سقوط ابنها أو زوجها في المعركة أطلقت من حنجرتها الجريحة زغرودة حارة تحية إكبار وإجلال له، وكان السجين يلقى من علو شاهق أو من طائرة هيليوكوبتر أو يضرب بالسياط فلا تسمع منه سوى "الله أكبر، تحيا الجزائر" وتحول هذا الشعب المستضعف الخامل إلى طاقة جبارة متجددة، شعاره: نموت نموت ويحيا الوطن، فبعد أن كان في البداية يتوجس خيفة عند سماعه بوقوع معركة في مكان ما خشية أن ينعى إليه بعض أقاربه صار يحن لوقوع هذه المعارك، أسعد اللحظات عنده ساعة مشاهدته لطائرات الهيليوكبتر وهي تنقل الموتى والجرحى من ميدان العمليات أو لسيارات الإسعاف وهي تهرع إلى مكان المعركة أو الكمين لإخلاء الموتى أو نقل الجرحى، فقد تكيف السكان

مع الوضع بسرعة وصاروا يميزون حتى بين الطائرات التي تنقل الموتى والتي تنقل الجنود إلى أرض المعركة.

تحول الأوراس بعد شهور قليلة من اندلاع الثورة إلى ميدان حرب معلنة بعد أن سدت المنافذ من حوله وتمت محاصرته من قبل جيش الاحتلال الذي أصبح يتحرك كالجراد (40 ألف، حسب تصريح الوالي العام) وصارت عمليات القتال يومية "كما كان انضمام السكان إلى الثورة جماعيا، وكان المجاهدون كالحوت وسط الماء"[1] حسب المؤرخ: محمد حربي، كما صار ضباط الاحتلال أنفسهم يسخرون من التصريحات التي كانت تصدر عن المسؤولين مثل التصريح الذي صدر عن الوالي العام: "روجي ليونار" الذي أكد بأنه "لاداعي للقلق هناك 300 بندقية في الأوراس... مؤكدا أن هذا التمرد محدود في منطقة معينة هي الأوراس"[2] وحتى نقترب من الحقائق أكثر نشير بلغة الأرقام وبإيجاز شديد إلى دراسة في الموضوع أعدتها "جميلة عمران" استنادا إلى جريدة "لادبيش كوتيديان دالجي" خلال سنتي: 1984-1985، تحت إشراف المركز الوطني للأبحاث التاريخية بعنوان (L'extension de la lutte armée) خلال السنة الأولى من كفاح الثورة التحريرية "تقول الدراسة أن من بين: 143 عسكري فرنسي، قتلوا ما بين نوفمبر 1954 وجويلية 1955 (منهم) 119 في الولاية الأولى(أوراس النمامشة)، من بينهم: 81 في منطقة باتنة.

(1) الثورة الجزائرية سنوات المخاض (مرجع سابق)، الصفحة :32.

(2) نصر بلا ثمن (مرجع سابق)، ص: 78.



المنطقة الأولى - الولاية الأولى بعد مؤتمر الصومام

من بين 544 مجاهدا قتلوا خلال نفس المرحلة 382 قتلوا في الولاية الأولى (المنطقة الأولى). القمع مس بقوة المدنيين، حيث تم ترحيل 4700 شخص بين نوفمبر 1954 وجانفي 1955، وهذا فقط في منطقة باتنة، 2214 شخص تم توقيفهم في الولاية الأولى ما بين نوفمبر 1954 وجويلية 1955"[(1)] نعتقد أن لغة الأرقام واضحةولا يَتعريها لُبْس وهي كفيلة بأن تحدث نوعا من الصدمة عند أولئك الذين يتنكرون للتضحيات الجسيمة التي كانت الأوراس سباقة في الجود بها عن طواعية وسخاء ويستنكفون من أن تكون الأوراس مهدا للثورة. وبالرغم من توفر جميع الدّلائل التي تؤكد ذلك سواء كان ذلك في شكل تصريحات صادرة عن مسؤولين أو قادة عسكريين فرنسيين أو في شكل تعاليق أو تحذيرات صدرت عن إعلاميين أو كان ذلك بناء على معطيات أفرزتها الأحداث خلال العمليات العسكرية.

وإذا علمنا أن الخسائر التي كانت تعلن عنها السلطات الفرنسية لا تشمل المجندين من الدول الأجنبية ومن الطوابير المغربية ومن الحركى والمجندين الجزائريين في إطار الخدمة العسكرية الإجبارية الذين كانت القيادات العسكرية

(1) جريدة الخبر اليومية (مرجع سابق)، ص: 21.

تقحمهم عادة في الصفوف الأولى باعتراف الجنرال: شال نفسه الذي يقول: "الفرنسي المسلم أفضل قناص للفلاقة".

نستطيع أن نقول بأن الخسائر المعلن عنها من قبل الجريدة لا تمثل كل الحقيقة، فهي تقل عن الخسارة الفعلية التي تكبدتها القوات الفرنسية خلال نفس الفترة.

ولكي نؤكد صحة ما نَدّعيه بأن قتلى المسلمين المتعاونين مع الاستعمار لا يندرجون ضمن التعداد الرسمي للخسائر المعلنة من قبل السلطات الفرنسية، نقتطف من مذكرات الجنرال: دوغول -الأمل- هذه الفقرة القصيرة التي تعبر بوضوح عن ذلك يقول الرئيس: دوغول "وفي الواقع فإن الثورة التي كانت تقتل قبل الآن (1961) خمسين شخصا يوميا تقتل الآن وسطيا سبعة أشخاص أو ثمانية منهم أربعة مسلمين أو خمسة"[1].

إن السرية التامة التي تلتزم بها القيادات العسكرية حفاظا على معنويات جنودها تجعل من الصعب معرفة الخسارة الحقيقية التي لحقت بجنودها خلال الحرب لكننا نستطيع أن نعتبر الخسارة التي لحقت بالقوات الفرنسية جد إيجابية من خلال حصيلة الخسائر التي لحقت بالفرقة العاشرة نخبة الجيش الفرنسي بقيادة، الجنرال: "جاك موسو" في مواجهة فلول من الفدائيين تستعمل فقط المسدسات ونادرا الرشاشات أو القنابل خلال أربع سنوات، وقد تعثرت بعد عملية الزرقوية حيث أسر أو قتل معظم قادتها، وتقدر خسارة الفرقة العاشرة حسب المصادر الفرنسية بـ/ 544 قتيلا من بينهم 492 جندي وعريف و120 ضابط صف و32 ضابطا من بينهم العقيد: فوسي فرانسوا.

وقد أشار العميد: مصطفى طلاس في كتابه الثورة الجزائرية إلى الخسائر التي لحقت بالقوات الفرنسية في شمال إفريقيا في جدول مفصل في آخر الكتاب، وقد بلغت خسائر القوات الفرنسية العاملة في الجزائر حسب ما ورد في الكتاب من :1-11-1954 إلى 19-3-1962 ما مجموعه 90599 بين القتلى والأسرى والمفقودين

(1) مذكرات أمل (مرجع سابق)، ص: 117.

وجرحى العمليات القتالية والحوادث وإذا كان الكاتب: طلاس قد اعتمد في هذا التحقيق المفصل على كتاب وزير الجيوش رقم 3747 تاريخ 19-11-1968 المحفوظ في الأرشيف التاريخي للجيش"[1].

فمن الصعب التصديق بأن خسائر القوات البرية العمود الفقري لقوات الاحتلال خلال الثورة لم تتجاوز 15000 قتيل، كما هو مبين في الجدول. فعن طريق عملية حسابية بسيطة نتوصل إلى اكتشاف زيف الأرقام المعلن عنها. فبضربنا لأدنى خسارة اعترف بها دوغول، وهي سبعة أشخاص في اليوم في عدد أيام الحرب التي تساوي 2688 يوما نحصل على 18816 وهو عدد يزيد عن العدد المعلن عنه في جدول الخسائر عند: طلاس، والمستند فيه إلى كتاب وزير الجيوش والمحفوظ في الأرشيف كمصدر للحقائق...

وفي الصفحة: 61 من مذكرات الرئيس: دوغول يقول: "من أصل مليون من المدنيين الفرنسيين والعسكريين المقيمين في الجزائر معدل الوفيات وسطيا منهم يوميا سبعين شخصا من أصلهم عشرة يقتلون برصاص الثوار"[2] وبضربنا للعدد 10 في أيام الحرب: 2688 نحصل على رقم غير الذي أشير إليه في كتاب وزير الجيوش (المرجع السابق) وهو: 26880، هذا التناقض في الأعداد يجعلنا نشك في صحة الأرقام المصرح بها، وقد امتد هذا التناقض إلى الكتاب والصحفيين، فمما جاء في كتاب: حرب الجزائر "لباتريك إيفينيو" وجان بلانشايس "أن عدد المفقودين في صفوف العسكريين الفرنسيين (فرنسيو باريس والجزائر) الفرنسيون المسلمون وأعضاء جوقة الشرف، هو أكثر وضوحا ودقة حيث سجل 27500 عسكري وألف مفقود... أما بالنسبة للمدنيين من بين الفرنسيين المتواجدين بالجزائر، فهذا العدد يصل إلى 2788 مقتول و875 مفقود إلى غاية وقف إطلاق النار 19 مارس 1962"[3].

---

(1) الثورة الجزائرية (مرجع سابق)، ص: 652.

(2) مذكرات أمل (مرجع سابق) ، ص: 61.

(3) حرب الجزائر ملف وشهادات الجزء الثاني، ص: 298.

يكثر الحديث عن خسائر الحرب عند الحروب وبعدها، الخسارة في أعداد المحاربين، الخسارة في المعدات الحربية، وفي الأموال.. لأن الخسارة في اعتقاد الناس هي التي سترغم الطرف المتضرر للإصغاء للخصم والعمل على البحث عن أسلوب آخر لحل النزاع غير الحرب... ولم يكن الأمر كذلك بالنسبة للجزائر التي أنهكتها هزائم الانتفاضات الفاشلة، فكانت الحرب بالنسبة إليها مسألة حياة أو موت، وقد عبر عنها الزعيم العربي بن مهيدي بعبارة موجزة ومفيدة عندما قال: "إنها آخر معركة في آخر حرب مع الاستعمار" وكان شعار المجاهدين طوال مدة الحرب "إما النصر أو الاستشهاد" وعندما جاء "ديغول" إلى الحكم -سبتمبر 1958- جاء ومعه مشروع متكامل ومترابط الحلقات" حاول من خلاله أن ينهي الصراع بحل مشرف يرضي "الكولون" بالدرجة الأولى... وقد تزامنت عودة دوغول إلى الحكم مع تشكيل أول حكومة جزائرية مؤقتة 19 سبتمبر 1958 عُين على رأسها السيد: فرحات عباس الذي كان قد ارتبط بعلاقات خاصة مع الجنرال: دوغول منذ الحرب العالمية الثانية، وقد سبق لعباس أن حاول استغلال مكانته التاريخية للتأثير على السياسة الفرنسية لإنهاء الحرب في الجزائر، وعندما عاد دوغول إلى الحكم، حاول بعث هذه العلاقة مع فرحات بصفته رئيس حكومة جزائرية في المنفى، بإحياء مشروع الإدماج الذي نادى به فرحات، وكان شعار حزبه (البيان الديمقراطي)، غير أن فرحات المعتدل تحول إلى ثائر متطرف... فرد على دوغول "نفضل أن نكون عشرة ملايين من الجثث على أن نكون عشرة ملايين من الفرنسيين"[(1)] فأوصد بذلك باب الحلول التوفيقية أمام الرئيس دوغول.

حرب على أكثر من صعيد :

يقول الأستاذ: محمد عباس في كتابه: نصر بلا ثمن "يقدم جهاز التصدي للثورة المسلحة بالأوراس نموذجا مصغرا للجهاز الحربي الذي ما لبث أن شمل الجزائر كلها فقد عين بالمنطقة، جنرالين :

---

(1) نصر بلا ثمن (مرجع سابق)، ص: 257.

1-فانو كسام لإدارة الحرب على الصعيد العسكري البحت.

2-بارلانج غاستون القادم لتوه من أغادير بالمغرب، والذي يتقن العربية لإدارة الحرب على الصعيد النفسي والمعنوي بمساعدة العقيد: "غوصو" من المكتب الخامس ويضيف محمد عباس: "وما لبثت قريحة الثنائي بارلانج غوصو بمعية الوالي العام الجديد "جاك سوستيل" أن تفتقت في أوائل أفريل 1955 عن فكرة الفرق الإدارية المتخصصة (SAS) صاص. التي بدأت تظهر هنا وهناك كحبات الفطر وقد أسندت رئاسة الفرق الإدارية المتخصصة إلى ضباط مؤهلين متخصصين في الحرب" النفسية والتضليل بطرق مختلفة قصد :

* محاصرة الثورة وعزلها في أماكن محدودة في المناطق الجبلية حتى يسهل القضاء عليها.

* الطعن في رجال الثورة ووصفهم بالفلاقة (قطاع الطرق) وبالمتمردين وبالخارجين عن القانون، وبحفنة من المارقين يمكن القضاء عليهم في أشهر معدودات.

* إحداث نوع من المقارنة بين القوات الفرنسية التي تملك الطائرات والدبابات والمدافع وبين الثوار الذين يقاتلون بأسلحة فردية وبأسلحة صيد قديمة.

* صرف الاتهام إلى دول أخرى بأنها هي التي أثارت الفتنة في بلد ظل يتمتع بالاستقرار.

* استحالة الانتصار على فرنسا التي تمتلك قوة عسكرية كبيرة.

هذه المصالح تستغل أعوانا من الفرنسيين ومن الجزائريين كعملاء يمتلكون القدرة على التغلغل وسط الطبقات الهشة من المجتمع واستغلال حاجاتهم الملحة كالقوت أو العلاج أو السكن وتقوم بتلبية حاجاتهم في شكل خدمات ظاهرها فيه الرحمة وباطنها من قبله العذاب... وتسعى هذه المصالح إلى إحداث القطيعة بين الشعب الذي يمثل القاعدة الخلفية للثورة وبين المحاربين في جيش التحرير، فكانت تعرض خدماتها المجانية في المجالات التربوية والصحية والاجتماعية وهدفها في جميع الحالات صرف اهتمام المجتمع عن نصرة الثورة. ولعل أهم ناشطة في هذا المجال الباحثة في الأنتروبولوجيا: جيرمان تيون المكناة في وقت ما بالأوراسية حيث قضت ست سنوات وسط المجتمع الأوراسي (1934-1940).

فبإيحاء من سوستيل قامت بتأسيس "مراكز اجتماعية ملحقة بوزارة التربية الفرنسية". هذا الطعم المسموم انتقل إلى المراكز الإدارية على عهد "لاكوست" عندما أقدم على إعادة النظر في التقسيم الإداري للتراب الوطني، واستحداث عمالات (ولايات) جديدة، وبلديات... وكون لغرض تلبية حاجة التوسيع جهازا إداريا من عناصر منتخبة بعناية عرفت فيما بعد بدفعة: "لاكوست" . وقد استطاعت هذه العناصر أن تتحكم في الجهاز الإداري بعد الاستقلال.

اعتقد "لاكوست" أنه بهذا العمل الذي يعتبره إصلاحا إداريا سوف يمتص غضب الشعب غير أنه اتضح فيما بعد، بعد تنصيب 782 مندوبية خاصة أن ثلثيها من ضباط (صاص) الفرق الإدارية المتخصصة... إن عملية التضليل التي دأبت عليها سلطة الاحتلال جزء من حربها الشاملة ضد الرأي العام المساند للجبهة منذ اندلاع الثورة. ولا يمكن لمثل هذه العمليات أن تبرعم فما بالك أن تثمر على حد قول الكاتب "مولود فرعون" المؤكد أن للحماقات التي كان يرتكبها جنود الاحتلال والعملاء بإيعاز من مسؤوليهم ضد المواطنين في شكل انتهاكات، عمليات انتقام وحشية، تعذيب، نهب.. ما يدفع بالمواطنين إلى الإصرار على موقفهم المؤيد للثورة. مهما تكن طبيعة الخدمات التي تقدمها سلطة الاحتلال للسكان... فقد سمعنا بعد الاستقلال من "حركي" جريء لحَدِّ الوقاحة أنه حضر معركة عنيفة في جبل بني فرح، وبعد انسحابهم من مكان المعركة نزلوا بقرية "تاقوست" أسفل الجبل للراحة في انتظار مجيء الشاحنات لتنقلهم إلى المركز، وعند وصولهم إلى المكان قال لهم الضابط -المسؤول المباشر- لكم مطلق الحرية بأن تفعلوا ما تشاؤون طوال مدة 24 ساعة قبل أن نغادر القرية، وللقارىء أن يتخيل ما سوف تفعله هذه الوحوش البشرية وسط بكاء وصراخ وصياح وعويل الضحايا، وما سوف تخلفه هذه الانتهاكات من مآس تسيء إلى الضحايا وتدمر حياتهم.

إن ضباط الفرق الإدارية (صاص) ذئاب في جلود أرانب يتظاهرون بالرأفة والرحمة لاستيلاب المشاعر الإنسانية والدينية من نفوس السذج من السكان بهدف النيل من كرامتهم ومن شرف وسمعة المقاتلين من أجل قضية مقدسة لا تقبل

القسمة إلاّ على نفسها فالمطلب واضح، وهو الجلاء عن أرض اغتصبت بالقوة، أما الإصلاحات التي تعد بها السلطات فلا تعدو مجرد دواء فوق الضماد.

لا نزعم أن الفرق الإدارية لم تتمكن من التأثير على بعض النفوس وتكوين قناعات مغايرة لدى عناصر معينة وسط مجتمع غير محصن بالقدر الكافي لضعف في الوعي بصفة عامة، وفي التكوين السياسي بصفة خاصة، فقد انحاز إلى جانب الاستعمار لفيف من الناس اعتقدوا عن جبن أو عن سذاجة أن الاستعمار قوة لا تقهر، فأخلصوا في خدمته أيما إخلاص، مثل هذه العناصر تتوفر على القابلية التامة للاستجابة للعمل الدعائي الذي كانت المصالح الإدارية تنفثه كالسموم وسط المجتمع ففي الأوراس، نشطت هذه المصالح بقوة، لكنها لم تتمكن من فصل الشعب عن الثورة. وقد تفطن السكان للدور الخطير الذي تلعبه هذه المصالح في القرى خاصة، فكانوا يتظاهرون بالاستجابة خشية الانتقام بحضور التجمعات التي كانت تنظمها هذه المصالح وسط المحتشدات، ويتصرفون وفق ما يمليه الضمير الوطني.

المكتب الخامس:

فرنسا دولة استعمارية مناهضة للحركات التحررية في العالم خاضت حروبا طويلة في القرم، وفي إيطاليا، وفي المكسيك، وفي الصين وغيرها... وقد أشار إلى ذلك الامبراطور نابليون الثالث في المنشور الذي بعث به إلى الشعب الجزائري خلال شهر ماي 1865. شاركت في الحربين العالميتين الأولى والثانية كقوة عالمية، غير أن حظها كان الانكسار دوما، لولا نجدة الحلفاء لها... هذه التجربة الطويلة في الحروب أكسبت قادتها تجربة عسكرية لا يستهان بها، في مجال الإعداد للعمل العسكري، وفي التخطيط، والتنظيم، وفي العمل السيكولوجي، وفي التعامل مع الخصم باستغلال نقاط ضعفه قصد إرهاقه وإضعاف قدراته القتالية قبل وخلال الحرب، وبالمقابل تسعى دوما إلى رفع معنويات جنودها وتحسين قدراتهم القتالية، وقصد الوصول إلى ذلك أنشأت عدة مديريات ومصالح مختصة تتكفل بمهام

مختلفة لتحقيق غاية واحدة بالنسبة للثورة الجزائرية، وهي حجب الاستقلال عن الشعب الجزائري، لأن الاستقلال يعني انفصال وطن اعتقدت تماما أنه أصبح جزء لا يتجزأ من الامبراطورية.

* تعمل مصالح الفرق الإدارية المتخصصة تحت إشراف ضباط مختصين في الحرب السيكولوجية (في النهار فئران وفي الليل أطيار) يمارسون عملهم في ثياب مدنية أو مختلطة، ويتعاملون مع السكان بمنتهى اللباقة، فإذا أظلم تحولوا إلى ذئاب شرسة وتطوعوا للعمل مع أفواج الكومندوس لتنفيذ المهمات القذرة. وللحفاظ على معنويات جنودها التي تضررت بعد الهزيمة النكراء التي لحقت بها في الفيتنام.

* أنشأت مصلحة خاصة عرفت باسم: المكتب الخامس، بعد أن شعرت بانهيار معنويات مقاتليها، بعد الكارثة التي حلت بها في "ديان بيان فو" في الفيتنام أكثر من مائة ألف جندي بين قتيل وأسير في معركة واحدة جرت خلال شهر ماي 1953... وقد أنشأت هذا المكتب ليتولى رفع معنويات جنودها وتثبيط عزائم جنود جيش التحرير الوطني من جهة ثانية والتقليل من قدراتهم القتالية وضعف انسجامهم وقلة استعدادهم. يقول: محمد عباس في نصر بلا ثمن " وجد المكتب الخامس بقيادة "لاشورو" نفسه منذ الوهلة الأولى في الخطوط الأمامية بالأوراس إلى جانب الجنرال: بارلانج المتخصص في الشؤون الأهلية بالمغرب والذي استقدم من هناك لخبرته في هذا الميدان" ويضيف الأستاذ عباس: "وفي يوليو 1956 استكمل المكتب الخامس وسائل تدخله في الميدان بإنشاء كتائب خاصة على مستوى الفرق العسكرية المختلفة مهمتها، كتابة المناشير الدعائية كتلك التي تلقي بها الطائرات والمروحيات على الثوار في الجبال، وقد تم تجهيز هذه الكتائب بمكبرات الصوت لبث دعايتها مباشرة في التجمعات السكانية"[1].

انتقل " لاشورو" بعد أن شعر بنجاح مهمته إلى ممارسة الحرب النفسية على السجناء والمعتقلين في المحتشدات من خلال محاولات مكشوفة لغرض تحييدهم أو

(1) نصر بلا ثمن (مرجع سابق)، ص: 396-397.

قلبهم ضد قناعاتهم السابقة، وهي تتم في شكل حملات دورية تجري على مستوى سجون ومعتقلات منتقاة بعناية، كثيرا ما تتقاطع مهام هذه المكاتب ولا غرو في ذلك مادامت الغاية واحدة وهي إخضاع الشعب لإرادة سلطة الإحتلال وإشعاره بالدونية، وأن محاولاته إخراج فرنسا من الوطن الجزائري الذي اكتسبته بالتقادم ضرب من الوهم، فاستسلمت عناصر من هذا المجتمع ممن كانت لديهم القابلية أو رُوضوا على الانحناء أمام القياد والآغات والباشاغات. أوحظوا بامتيازات وإغراءات، فصاروا يرددون عبارات تمجد الجنس الأوروبي وتطعن في الانتماء القومي للسكان. غير أن هذه الحفنة ما لبثت أن راحت تراجع نفسها وتبحث عن منفذ يسمح لها بالعمل المشترك بعد أن أكدت الثورة صمودها أمام الحملات المتعاقبة لجيش الاحتلال. فقد أكد ذلك الكاتب الصحفي "روبير بارا" الذي انتهى بعد سلسلة من الزيارات الميدانية ما بين أكتوبر 1954 وماي 1955 إلى خلاصة مفادها أن استعادة النظام بالوسائل العسكرية وحدها ضرب من المستحيل، اللهم إذا كان ذلك بإبادة الشعب الجزائري إبادة تامة، نظرا لإجماعه العميق وإرادته في المقاومة"[1] فراح الشك يراود غير المتشددين، وهم قلائل وسط القوات الفرنسية.

غير أن المكتب الخامس ظل يواصل مهامه للحفاظ على استقرار معنويات جنوده، فهو:

* يحاول دوما التقليل من خطر الحرب واعتباره مجرد تمرد وإخلال بالنظام العام داخل المستعمرة وبوجود عناصر أجنبية تعمل على إثارة البلبلة وسط السكان، يقول المؤرخ "باتريك ايفينيو" فالبنسبة لفرنسا الرسمية لا يوجد هناك حرب في الجزائر وما حدث من تاريخ أول نوفمبر 1954 إلى غاية 19 مارس 1962 ما هو إلا تتابع لعمليات حفظ الأمن"[2].

* يسعى إلى الطعن في الكفاءة القتالية للمتمردين بدل المكافحين أو الثوار.

---

(1) نصر بلا ثمن (مرجع سابق)، ص: 144-145.

(2) حرب الجزائر ملف وشهادات لباتريك ايفينيو وجان بلانشايس، الجزء II، ص: 355.

* يروج لحالات استثنائية اضطرت بعض القادة للإستسلام مثل: علي كربادو ديسمبر 1955، عجول نوفمبر 1956، علي حنبلي مارس 1959 ويعتبر (المكتب الخامس) الاستسلام بأنه صحوة ضمير أو استفاقة لهؤلاء الخارجين عن القانون. وقد يعطى للموضوع تفسيرا يتناسب مع المعطيات التي أدت إلى الاستسلام.

* يشيد بالحملات العسكرية الفرنسية وبالمخططات التي قامت بتنفيذها وكان من أبرزها: مخطط "شال" الذي انطلق من الغرب إلى الشرق بداية من خريف 1958 وقد انتهج أسلوبا متميزا في المسح والقتال مكنه من تسديد ضربات قوية (للثورة) أغرت القادة العسكريين الفرنسيين بإمكانية الحل العسكري للقضية الجزائرية.

مديرية حماية الإقليم:

سلسلة طويلة من المصالح المختصة جندتها إدارة الاحتلال لمؤازرة جنودها في المعركة خشية السقوط، فالفرق الإدارية المتخصصة، والمكتب الخامس، ومديرية حماية الإقليم وأخرى غيرها تمثل واجهات مختلفة لمجسم ضخم اسمه الاستعمار المقنع وتسعى إلى تحقيق غاية واحدة وهي الاحتفاظ بالمستعمرة اللؤلؤة حسب تعبير الرئيس: دوغول، مهما تكن التضحيات.

السيد: "روجي ريبو" مدير حماية الإقليم (D.S.T) يعطي لمحة قصيرة عن ظروف إنشاء وتطور هذه المديرية، فيقول: "قمت بإنشاء مديرية الإقليم بفرنسا في أواخر 1944 ثم امتد أثرها إلى الجزائر في 11 أوت 1945، ثم إلى الصحراء ابتداء من الاكتشافات الأولى للمحروقات... ومنذ أحداث سنة 1954 كنت أتردد إلى هنا (الجزائر) تقريبا كل شهر"[1] ويضيف "ويبو" في الصفحة الموالية: "منذ وقوع اعتداءات جبهة التحرير الوطني عام 1954، قمت تدريجيا بتجنيد ما يقارب 70 % من العدد الذي كان متواجدا بفرنسا ضد هذا التنظيم... كنا نعتمد على عمليات الاختراق. فقد كنا على سبيل المثال نقوم بإطلاق سراح من كُنَّا نعتقله في مقابل

---

(1) حرب الجزائر ملف وشهادات (مرجع سابق)، ص: 293.

تعامله معنا وتزويدنا بالأخبار والمعلومات، ونقوم بإخفائه عن الناس كي لا يتم استغلاله من الطرف الآخر، إلى درجة أننا كنا نقوم بإخلاء سبيل من يرفض الكلام على أساس أنه أخبرنا بتلك الأسرار التي كنا نبحث عنها، بل اقتضى الأمر أننا اشترينا المعلومات، وإلى جانب هذا كانت توجد لدينا طموحات في أن يصبح مخبرونا من بين القادة والمسؤولين، حيث كنا نزودهم بالأسلحة والمال ونحفزهم على إنجاح العمليات التي كانوا يقومون بها حتى تتم ترقيتهم في سلم المهنة"[1].

إن هذا الحديث الذي أدلى به مدير حماية الإقليم "روجي نويبو" يمثل وجها من وجوه الصراع الخفي بين القوتين ويشتمل على كثير من الحقائق انكشف بعضها خلال الثورة وأدى إلى تصفيات جسدية لعناصر مشتبه فيها، وظل بعضها ينشط وسط الوحدات عند الطرفين إلى غاية الاستقلال، ولاشك أن بعض العناصر من أسرى الحرب من جنود جيش التحرير لا تصمد أمام العذاب الأليم الذي يتعرض له الأسرى عادة، وبخاصة المسؤولين فيدلون بما لديهم من المعلومات، وقد تنهار معنوياتهم فيتعهدون بالتجند لخدمة أهداف هذه المصلحة فتطلق سراحهم، وقد ضبطت رسائل من ضباط الفرق الإدارية (صاص) عند بعض ضباط جيش التحرير فأعدموا... وأوضح مثال لدينا ما حدث في الولايتين الثالثة والرابعة من اختراقات لصفوف الثورة كادت أن تفكك تلاحمها وأن تزعزع الثقة بين القيادات، ولغرض تنقية الأجواء وسط الوحدات أقام العقيد: عميروش محكمة خاصة لمحاكمة العناصر المتورطة والمشتبه فيها أدت إلى إعدام زهاء ألف شخص، وهي تمثل خسارة فادحة لجيش ولاية لم يتجاوز تعداده خمسة آلاف مقاتل، ونصرا مبينا للعقيد: غودار، والنقيب: ليجي من مصلحة الاستخبارات الفرنسية بالعاصمة.

فمن السخف أن نزعم بأن الصفوف لم تكن يوما ما مخترقة وأن جميع العناصر التي ترابط في خندق واحد تحمل نفس الشعور، وأن اليقظة كانت تامة وسط

(1) المرجع السابق، ص: 301.

الصفوف، فقد مرت الثورة بظروف مد وجزر، وقوة وضعف، وامتداد وتقلص سمحت لعناصر عميلة بالتسلل وسط العناصر الوطنية في أكثر من منطقة، وسوف أقتصر على مثالين من ولايتين، فقط.

المثال الأول: من الولاية الأولى، نقتطفه من مذكرات العقيد: الزبيري، قائد الولاية الأولى التاريخية، يقول العقيد: الزبيري في معرض حديثه عن تشكيل مجلس ولاية جديد "قررت في جانفي 1962 تعيين إطارات جديدة في مجلس قيادة الولاية، خاصة وأن قيادة الأركان العامة عندما عينتني قائدا للأوراس في أكتوبر 1960، طلبت مني أن أرسل إليها قائمة أعضاء مجلس الولاية، وترددت في اختيار أعضاء المجلس خاصة بعد خروج "جدي مقداد" القائد السابق للمنطقة السادسة من السجن الذي جاءني إلى مركز الولاية ففكرت في تعيينه في مجلس الولاية، ولكن بعد جس نبض المجاهدين، وجدت أن معظمهم يشكك في الطريقة التي ألقت بها فرنسا القبض عليه فاستعبدته من ذهني"[1]. فإذا كان معظم المجاهدين قد انتابتهم الشكوك حول الطريقة التي ألقي بها القبض على قائد مسؤول برتبة: نقيب، فمن حق البقية الباقية من المجاهدين أن تتساءل عن الكيفية التي تم بها تسريح هذا الضابط والتحاقه بالثورة من جديد.

وإذا كان الزبيري قد احتاط للموقف وأبعد هذا الضابط عن المجلس، فإن عناصر أخرى غيره لابد أن تكون قد أدمجت من جديد ومارست دورها كعناصر اختراق وسط وحدات جيش التحرير الوطني.

والمثال الثاني من الولاية الثالثة وهو أكثر وضوحا وقد جرت وقائعه في أسوإ فترة تمر بها الولاية والتي توصف بـ/ الزرقوية وبـ/ لابلويت La bleuite والتي يقول عنها صانعها النقيب: "ليجي" لم يساورني الشك في أنني قد أدخلت من دون تقدير للعواقب الحقيقية لذلك فيروسا جد فتاك انكشف ضرره بعد ذلك في شكل وباء فتاك أطلق عليه تسمية "التشكيك الأزرق"... وقد جاء في مذكرات اللواء: حسين

(1) مذكرات العقيد الزبيري (مرجع سابق)، ص: 264.

ابن معلم -الجزء الأول- عند تناوله للموضوع "بأن فتاتين صرحن بأنهن بعد أن شاركن في عمليات ضد العدو ألقي عليهن القبض وسجن في: سجن سركاجي -بربروس سابقا- فتمكن من الهروب، غير أن هذه الرواية لم تكن مقنعة بالنسبة لعميروش... وانتهى الأمر بإحداهن إلى التصريح بالحقيقة بأن الاثنتين أرسلن من طرف النقيب: "ليجي" وبأنه هو الذي سلم لهن الرسالة التي تحتوي على تزكيتهن... تمثلت مهمتهن في الجبل تحديدا في الاتصال بذلك الملازم الأول في جيش التحرير الوطني المدعو: سي العربي الذي كان معنا سابقا" ويواصل حسين بن معلم وصف هذه المغامرة، فيقول :" قمنا فورا بإلقاء القبض على ذلك الخائن الذي كان حائزا على جهاز بث قد تواصل به مع المركز العسكري في برج أمنايل، بعد إلقاء القبض عليه اعترف بأنه كان عونا للمخابرات الفرنسية منذ 1946... "[1].

إن هذه الاختراقات قد تجاوزت بكل تأكيد الوحدات القتالية لتصل إلى الهياكل النظامية على أعلى مستوى، وتكفينا الإشارة إلى حادثة "مبروك كوارة" الذي عمل فترة في ديوان "كريم" بتونس ثم فر بسيارته إلى القاعدة العسكرية "الفرنسية" ببنزرت ومنها نقل إلى الجزائر العاصمة وهذا يعتبر أوضح دليل على أن أعوان مصالح الاستعلامات الفرنسية تمكنت من اختراق الصفوف على كل المستويات. ولعل هذا الحديث الذي جاء في مذكرات الرئيس: دوغول لخير برهان على صحة ما ذهبنا إليه، يقول الرئيس دوغول "ولست أشك حتما في أنه قبل الوصول إلى هذه المحادثات أو المباشرة بها سنصادف أكيدا، لدى الخصم كثيرا من التردد والمواربات والمساومات. إننا نعلم الشيء الكثير عن المنظمة المسماة بالحكومة المؤقتة لجمهورية الجزائر بواسطة مختلف وسائل الاستخبارات"[2].

وقد تعرضت منطقة الأوراس لمحاولات كثيرة نستطيع أن نقول عنها بأنها كانت فاشلة في معظمها بالرغم من أننا لا ننكر بأن تكون بعض العناصر قد اندمجت

---

(1) مذكرات اللواء: حسين بن معلم، ص: 134.

(2) مذكرات: الأمل (مرجع سابق) ، ص: 110.

وسط الوحدات وظلت تؤدي مهامها وتسرب المعلومات إلى مصالح الفرق الإدارية بطريقتها الخاصة وقد تعرض الرائد: هلايلي في كتابه: شاهد على الثورة في الأوراس إلى هذه المحاولات نقتصر على ذكر ثلاثة منها بإيجاز.

* المحاولة الأولى: إسقاط رزمة من الوثائق في عمق غابة كيمل بني ملول بالأوراس بواسطة الطائرة وقد وضعت الوثائق في وعاء مجوف ثبتت على جانبيه خرق حمراء حتى يسهل اكتشافه. الوثائق عبارة عن رسائل عائلية وأخرى غرامية أرسلت إلى من ينشطون بين صفوف جيش التحرير الوطني... ومع الرسائل وثائق أخرى في شكل أوامر للقيام بمهام ورخص مرور...

* المحاولة الثانية: وتتمثل في إسقاط جثة رجل ميت بواسطة مظلة وسط المنطقة المحرمة بكيمل وقد تعمدوا إسقاط الجثة فوق الأشجار حتى تسهل رؤيتها وليوهموا المجاهدين أن الرجل كان حيا لحظة إلقاء المظلة، وعندما عثر عليه المجاهدون وجدوا في جيوبه (الجثة) رسائل ووثائق متنوعة. عرضت الجثة على طبيب الولاية: محمود أعثامنة فتعين بعد الفحص أن الجثة تعود لسجين مات تحت التعذيب لوجود آثار للتعذيب في جسم الضحية.

* المحاولة الثالثة: وتتمثل في استغلال مصلحة الاستعلامات الفرنسية لـ/ تعليمة كان قائد: ناحية آريس قد بعث بها إلى رؤساء الأقسام يحثهم فيها على مضاعفة النشاطات ضد وحدات العدو وقد سقط أحد رؤساء هذه الأقسام في كمين ولقي حتفه، وعند ما قام عساكر الاحتلال بتفتيشه عثروا على تلك التعليمة، فاستغلتها مصالح الاستخبارات الفرنسية فبعثت بها إلى قائد الولاية لتوهمه بأن عناصر اختراق ينشطون وسط جنوده. فأثارت شكوك قائد الولاية في إخلاص قائد الناحية قبل أن يتفطن للمكيدة.

المحتشدات والمعتقلات:

شرعت سلطة الاحتلال مع بداية صائفة 1955 في تجميع السكان في خطة مدروسة بعناية، الغرض منها:

* عزل الثوار عن التجمعات السكنية ومنعهم من الاتصال بالسكان لغرض الاستفادة من الخدمات العامة، كالعلاج أو التموين أو التزود بالضروريات والحصول على المعلومات، وأخذت في نفس الوقت في تصنيف السكان بين مؤيد للثورة ومعارض لها، ومشارك وداعم وممون. وعلى ضوء هذه المعطيات التي كانت تستقيها من عناصر عميلة تقيم وسط السكان، بدأت في اعتقال أولياء العناصر الثائرة من المجاهدين الذين التحقوا بالثورة منذ الساعات الأولى، بالإضافة إلى عناصر أخرى يعتبرون أعيانا ويمثلون نخبة المجتمع في عرف سلطة الاحتلال وباعتقال هؤلاء الأشخاص ممن يظن الاستعمار أنهم يعملون كمرشدين موجهين للمجتمع سوف يحرم السكان من عناصر واعية مسؤولة لها القوة في التأثير على مسرح الأحداث، فأثارت عملية الاعتقالات هذه مخاوف عناصر أخرى فالتحقت بالثورة.

إن أهم معتقل أنشىء قريبا من الأوراس هو معتقل الجرف بالمسيلة، افتتح في أوت 1955، وقد بني هذا المعتقل خلال الحرب العالمية الثانية في شكل أبنية متواضعة أقيمت في العراء، فكان هؤلاء الموقوفون ينقلون بعد الحجز والاستنطاق إلى المعتقل لغرض إخضاعهم لعمليات ترويض خاصة يشرف عليها ضباط متخصصون في شكل عمليات تحليل للمعطيات وإعادة تركيب للقناعات التي تشبع بها هؤلاء المعتقلون من ذوي الميول التحررية ولنفس الغرض تم تجميع السكان في محتشدات مطوقة وسط قرى محروسة حتى تتمكن المصالح الإدارية من تجميعهم في لقاءات دورية بهدف * زعزعة معنوياتهم بواسطة إشاعات كاذبة بسقوط مئات القتلى من (المتمردين) في معركة (...) * استسلام قادة كبار مع ذكر بعض الأسماء * عرض بعض الأسرى أمام المواطنين خلال تجمعات تعقد لهذا الغرض ودعوتهم إلى توجيه نداء لزملائهم للعودة إلى ديارهم، وسوف يستفيدون من العفو من طرف السلطة الفرنسية... ففي تجمع أقيم بقرية: بوصالح سنة 1958 بعمق الأوراس تم عرض شاب أسير أحسبه من بلاد القبائل تاه أثناء مرور دورية بالمنطقة ووقع في قبضة جنود الاحتلال، وكان هذا الشاب قمة في الذكاء استطاع أن يرفع من معنويات السكان وأن يزرع الأمل في قلوبهم من خلال كلمة قصيرة التي

دعي لتوجيهها للسكان: عندما قال: " إن الحياة هنا أفضل، فالحياة في الجبل صعبة (وهذه لا يجهاها أحد)، وأضاف: هناك في الجبل نتحرك باستمرار مع صعوبة السير في الليل محملين بأثقال، بندقية قتال بالإضافة إلى ما لا يقل عن 200 أو 300 خرطوشة، قنبلة أو قنبلتان يدويتان، قذيفة أو قذيفتان، بعض الأمتعة" فازدادت ثقتنا في الثورة وتعزز أملنا في النصر، عندما علمنا بأن المجاهد يحمل معه 300 خرطوشة ويحمل معه أيضا قذائف بازوكا أو الهاون... أما صعوبة العيش في الجبل فهو أمر لا يجهله أي شخص متصل بالثورة ومدرك لأوضاع المجاهدين وظروف حياتهم.

* التنديد ببعض الأعمال كالإعدامات التي ينفذها المجاهدون ضد الوشاة والخونة واعتبار ذلك جرائم منكرة تستوجب التنديد من قبل السكان.

* التذكير ببعض المشاريع ذات الطابع الاجتماعي أو في إطار الإصلاح الإداري التي تعتزم السلطة الفرنسية القيام بها كوسائل إغراء، والهراء عند هؤلاء الضباط لا حصر له. ولازالت تحضرني لقطة صدرت عن أحد هؤلاء الضباط عندما استنفد كل ما لديه في تجمع وسط المحتشد، قال: "اعتزم الزواج في الأيام القادمة وإني أعدكم بأن أحضر معي زوجتي هنا لتتعرفوا عنها".

المحتشدات في الأوراس لا تخلو منها بلدية، وهي تعد بمثابة مزارع لضباط الشؤون الأهلية والفرق الإدارية المتخصصة، ولمديرية حماية الإقليم، والمكتب الخامس ففيها يتم زرع أفكار، واستئصال أفكار، وهدم قيم، وتعديل قناعات، ومحاولة التأثير على الافراد والجماعات من خلال الشائعات التي تروج لها... وهؤلاء الضباط بحكم تخصصهم يجيدون الترويج لهذه الشائعات بطريقة تدفع بالسذج إلى التصديق بصحة الأخبار. فهم يخلطون بين الصدق والكذب عندما يعلنون عن وقوع حادثة معلومة أو يشيعون لخبر كان قد حصل ويخلطون معها أخباراً أخرى بافتعال وجه الشبه بينها وبين الأخبار الصحيحة فتدفع بالمواطن إلى التصديق... فمن خلال تكوينهم الخاص ومستوياتهم المعرفية مقارنة بالسكان

يستطيعون تحديد الدوافع النفسية لدى الشرائح الاجتماعية في الريف وفي القرى خاصة حيث أظهر السكان ولاءهم المكشوف للثورة ويحاولون التأثير عليها بزرع أفكار أخرى مضادة ومغايرة للأفكار والتوجهات التي تشبع بها السكان، ولا أغالي إن قلت بأن المواطن الذي لم يتلق أي تكوين أو توعية قبل الثورة يسمح له بإدراك الأبعاد السياسية لهذه المكاتب يظل عرضة للانحراف والقبول بهذه الهترات، لولا القمع المسلط عليه من قبل الوحدات العسكرية بجميع أشكاله جعلته يعرف أن هذه المكاتب تمثل وجها من وجوه مجسم ضخم اسمه: الاستعمار.

تتعامل المصالح الإدارية مع المعتقلين والأسرى من المجاهدين تبعا لمستوياتهم التكوينية والسياسية وترقيتهم الاجتماعية وللرتب التي يحملونها وعلى ضوء هذه المعطيات تعتبر كل وضعية من هذه الوضعيات كعينة مستقلة بذاتها وتتعامل معها وفقا لهذه المعطيات وللاستجابات التي يظهرها المعتقل والأسير الخاضع للتحقيق، ومن أخبث ما توصلت إليه هذه المصالح أن زرعت وسط المعتقلين عناصر منحرفة تعيش مع المساجين في عنابرهم عيشة سوية وتتظاهر بالوطنية وبالولاء للثورة، وتسعى إلى مداهنة السجناء واستغلال مشاعرهم الوطنية بالتجسس عليهم، وتنقل ذلك إلى الإدارة خلال لقاءات فردية تجريها إدارة السجن مع المعتقلين أو السجناء في شكل استجوابات... مصالح الاستعلامات الفرنسية تعمل دوما على تطوير وتكييف أساليبها الدعائية تبعا لتغير مجريات الحرب حتى تتمكن من التأثير على معنويات المواطنين كجنود مقاتلين أو كأسرى حرب معتقلين أو كمحاصرين في محتشدات يعدون من مناصري الثورة... وهذا نموذج في شكل تصريح أدلى به أمامي– مجاهد عاش الحدث يصف هذه المعاناة، يقول المجاهد: الصالح زروالي، أسير حرب في معركة جرت بجبل: شيليا بالأوراس في أثناء حملة: "أرياج" خلال شهري أكتوبر– نوفمبر 1960، نقلت إلى آريس للاستنطاق ومنه إلى جبل: ماثيل، ثم إلى باتنة ومن باتنة إلى سجن الكدية بقسنطينة، وقد ظل الاستنطاق يتجدد في كل محطة أحل بها وبأساليب مختلفة وصور مغايرة، ومن قسنطينة نقلت إلى سجن: لاكولون بباب الوادي بالعاصمة، يصف الأسير: الصالح زروالي أساليب التعذيب

النفسي والمساومات الرخيصة لضباط الاستخبارات في هذا المعتقل خاصة، حيث يحاول هؤلاء الضباط مساومة الأسير بأساليب رخيصة تشنع من أفعال المجاهدين وتصفهم بالقتلة المفسدين وتمجد وتشيد بأعمال جنود الاحتلال وتصفهم بالمتحضرين، ويضيف المجاهد: زروالي فيقول: "وكان لحسن حظي أن سبقني أسير حقيقي مثلي، كشف لي عن سر خطير ما كنت أتوصل إليه لولاه، بعد أن تأكد من هويتي انتهز فرصة انفرادنا في الزنزانة وقال لي بسرعة خشية دخول بعض نزلاء الزنزانة "إياك أن تثق في هؤلاء السجناء إنهم عملاء مأجورون متلبسون مكلفون بنقل المعلومات عن السجناء الحقيقيين، كما نصحني بإظهار قدر من المرونة والتظاهر بقبول الطعن في جيش التحرير وإلا تعرضت للتصفية" ويستطرد المجاهد الأسيرفي وصف ساعة مثوله للمرة الأولى أمام ضابط الاستخبارات في هذا السجن، فيقول: "دخلت مكتب الضابط فرحب بي ودعاني للجلوس، ودعا أحد الأعوان إلى إحضار القهوة، فلما جاءه العون بفنجان قهوة تظاهر بالغضب، وصرخ في وجهه ألا ترى معي ضيفا؟ فكيف تأتي بفنجان واحد ونحن اثنان؟ ثم تظاهر بالإستدراك، وقال... لا بأس سنشرب معا من كأس واحدة وهذا ما كان يهدف إليه ودعاني إلى أن أرتشف معه من نفس الفنجان... أخرج عندها من جيبه علبة سجائر فاخرة، ودعاني إلى تناول سيجارة... راح الضابط يعرض علي مهام مختلفة منها :

* التجسس في العاصمة، فاعتذرت لأن ملمحي ولهجة حديثي تختلف عن سكان العاصمة، وبالتالي فإني لن أتمكن من القيام بالمهمة.

* المشاركة في العمليات القتالية إلى جانب القوات الفرنسية، فطلبت استشارة الطبيب لأني متأكد من أن جراحي التي لم تندمل بعد ووضعيتي الصحية لا تسمح لي بذلك.

* القيام بتوزيع المناشير في الحدود الشرقية للبلاد، فقبلت بذلك لعلي أجد فرصة للفرار... وهكذا تم تحويلي إلى ناحية القل... وقبل تكليفي بالمهمة حاول ضابط الوحدة اختباري للتأكد من استعدادي للقيام بالمهمة، فأوهمني بأن في الغابة

متمردا (مجاهدا) يريد الاستسلام، وطلب مني الخروج مع وحدة عسكرية لاستلام السلاح منه بعيدا عن مكان تمركز الوحدة... فخرجت مع الوحدة "كأسير" أعتمد في سيري على عكازين وعند وصولنا إلى المكان المتفق عليه أشار مسؤول الوحدة إلى ربوة تبعد عن مكان وجود الوحدة حوالي كيلومتر واحد، وقال بأن هذا المتمرد سوف تجده هناك، فاذهب إليه لتستلم منه السلاح، وعودا معا، وعندما توغلت في الغابة خطرت ببالي فكرة الهروب وسط أشجار كثيفة فرميت أحد العكازين اللذين كنت أستعين بهما على المشي وبعد أن قطعت زهاء كيلومتر من ذلك المكان عثرت على مجاهدين وسط الغابة...

الغاية في عرف الاستعمار تبرر الوسيلة، فليس هناك قانون يمنع المصالح الإدارية من التضحية بالمشاعر الإنسانية ومن استعمال كل المغريات لغرض إخضاع الشخص محل التحقيق أو الاختبار لرغباتها الجامحة كاستعمال الأزواج أو الأبناء أو الخليلات والتهديد بانتهاك الحرمات فإذا لم يرضخ المستوجب لإرادة ضباط هذه المصالح تضاعف له درجة التعذيب الجسدي أو النفسي لتحطيم كبريائه ودفعه إلى التسليم لمشيئة هذه المصالح والسقوط في مستنقع الخيانة.

فمما جاء في مجلة التراث الصادرة عن جمعية التراث والتاريخ بباتنة العدد: 03 بدون تاريخ، الصفحة: 95 رواية، المجاهد المعتقل: محمد عزوي أن زبانية معتقل لم يذكر اسمه واعتقد أنه (بوسوي) قاموا بتجريد أخوين شقيقين من ثيابهما، وأكرهاهما على القيام بالفعل المخل بالحياء في بعضهما عقابا لهما عن كتابتهما باللغة العربية [1].

الصمود الأسطوري للأوراس:

أعطت المقاومة في الأوراس أعلى مردود لها خلال سنتي 1955-1956 وهي السنة التي راهن عليها "سوستيل" في تحقيق مخطط التهدئة الذي كان قد وعد به حكومته، وهذا بواسطة وسائل موازية للمجهود العسكري الضخم الذي أقحمته فرنسا في شكل حملات على مناطق مشبوهة اعتقدت القوات الفرنسية أنها ملاجىء

(1) مجلة التراث الصادرة عن جمعية التراث والتاريخ/ بباتنة العدد: 3، ص: 95.

للثوار، وقد تواصل هذا المخطط على عهد "لاكوست" بعد "سوستيل" وبصورة أعنف حتى أنه أغرى "لاكوست" ليصرح بأن "الثورة تعيش الربع ساعة الأخير" ولكي يؤكد عزمه على القضاء على الثورة في مهدها صرح قائلا: "إنما بعثت إلى الجزائر لأحارب وانتصر"[1] فقد حارب "لاكوست" فعلا وبضراوة، غير أنه لم ينتصر لأن إرادة الشعب في التخلص من الهيمنة كانت أقوى من إرادة "لاكوست" في تكريس الذل المسلط على الشعب، فقد أظهر الشعب الصمود رغم المحن، كما أظهر المقاتلون العناد والصبر رغم النقص الفادح في السلاح وفي الذخيرة وفي الأدوية والتموين... حيث أن إرادة التحدي تجاوزت كل التوقعات حسب القادة العسكريين الفرنسيين، ولا نبالغ إذا قلنا أنه لولا تدخل الطيران الحربي في كل معركة، ولولا الاستطلاعات المكثفة التي كانت تقوم بها الطائرات العسكرية الفرنسية، وقوات الإنزال السريعة بواسطة الطائرات المروحية لشلت حركة القوات الفرنسية في الأوراس منذ ربيع 1955، فخلال هاتين السنتين حقق المجاهدون في الأوراس أجمل الانتصارات العسكرية أرغمت القوات الفرنسية على الجلاء، على كثير من ثكناتها وأبراجها للمراقبة في عمق الأوراس واعتبرت مناطق محررة وظل الطيران الحربي وحده يحلق على مستويات عالية فوق هذه المناطق يقول: عاجل عجول أحد قادة الثورة في الأوراس خلال تلك المرحلة في استجواب أجرته معه جمعية أول نوفمبر لتخليد وحماية مآثر بباتنة يوم: 3-9-1985 "وكان أن اتفقنا قبل عملية الاتصال بالولاية الثانية (المنطقة الثانية) أن نقوم بعمليات قصد الحصول على السلاح بواسطة الكمائن... في كل مكان بالأوراس... وأصدرنا الأوامر إلى المناطق الثلاثة للقيام بالكمائن للحصول على السلاح، وسرنا على هذا الخط لإنقاذ المنطقة الثانيةو إنجادها بالسلاح... ورحلنا كثيرا من المراكز بسبب نصب الكمائن المتتالية، وقطع التموين على مراكز العدو، ومن جراء هذا العمل المتواصل، ارتحل

(1) نصر بلا ثمن (مرجع سابق)، ص: 261.

الفرنسيون عن الدرمون، وغنمنا "بياسة" ورشاشين "طومسوو 3-فيزي قارا"، وغادروا مركز الولجة، وهو ما حصلنا عليه منه على أسلحة من نوع 24 X 29 وفيزي ماص (ماص 36) وتابعنا عملية إخلاء مراكز: شليا، خيران، الوسطية، وطامزة فكانوا لا ينسحبون قبل أن نفتك منهم الأسلحة... وبها ساعدنا المنطقة الثانية(الولاية الثانية، بعد الصومام)، وقام عباس لغرور بنفس العمل الذي قمنا به في الشرق، فكان لا يكف عن الهجوم على المركز إلا بعد القضاء عليه، وساروا على هذا المنوال في كل من ناحية آريس وناحية باتنة وناحية بريكة، وبذلك استطعنا أن نرسل إلى المنطقة الثانية "سبعين" قطعة سلاح حربي مع دورية تتكون من أربعين مجاهدا مسلحين ووصلت الدورية إلى الحدود فتسلمها منهم مجاهدو المنطقة وجردوا الأربعين مجاهدا من أسلحتهم وحملوهم الشكر الشفوي، وكان على رأس مجاهدي المنطقة الثانية -آنذاك- ابن عودة مصطفى ولخضر بن طوبال"[1] أدلى عجول بهذه الرواية وكل من الزعيمين ابن عودة وابن طوبال حي يرزق ولم يصدر عنهما رد سلبي ينفي صحة الرواية.

فإذا كان صانعوا هذه الملاحم يعتبرون هذا العمل واجبا ثوريا مقدّساً وتضامنا لا يحتاج إلى مكافأة، فمن حق الأبناء في عهد الاستقلال أن يعتبروا ذلك مكرمة وشرفا للأوراس -مهد الثورة-.

وقد تناول الكاتب: محمد عباس المسألة من زاوية أخرى مما يؤكد صحتها دون أن يذكر السند يقول: محمد عباس "ومن المبادرات التي لم يهضمها كل من عاجل عجول وعباس لغرور، إرسال كمية من الأسلحة المغنومة إلى المنطقة الثانية في إطار المساعي التي يبذلها لها "شيحاني" لتخفيف ضغط جيش الاحتلال على المنطقة، وقد أسندت هذه المهمة إلى فصيلة من 40 نفرا، شكلت مناصفة من رجال عجول

(1) ابن بولعيد والثورة الجزائرية (مرجع سابق)، ص: 380-381.

ولغرور، تمكنت من أداء مهمتها، لكنها وقعت وهي في طريق العودة في كمين للعدو، ولم تكن مسلحة بأسلحة مناسبة، فأبيدت عن آخرها... وقد زادت هذه النهاية المأساوية من غضب الرجلين على شيحاني.. ومبادراته"[1].

ويؤكد المجاهد: عمار قليل وهو أحد جنود المنطقة الثانية صاحب كتاب: ملحمة الجزائر الجديدة، الصمود الأسطوري للأوراس، ويدلي بهذا الاعتراف الصريح فيقول: "لقد خطط قادة الثورة منذ البداية على أن يكون الأوراس معقل الثورة ومهدها الأول، وذلك اعتمادا على معطيات... كوفرة السلاح ووعورة الطبيعة.. إلى أن يتسنى لبقية الجهات أن تنظم صفوفها وأن تحصل على ما يلزمها من السلاح، وبالفعل فقد تحمل مناضلو الأوراس عبئا كبيرا في إطار الحفاظ على شعلة الثورة حتى تعم أرجاء الوطن بنفس القوة والزخم، وبالإضافة إلى الأوراس، فإن منطقة القبائل كانت في البداية تمثل الشق الثاني للرحى، بحيث تحملت هي الأخرى العبء في حمل راية الثورة في مراحلها الأولى"[2]. وقد اعترف بالدور الريادي للأوراس أكثر من مؤرخ وكاتب وسياسي. فقد أشار السيد: محمد حربي إلى هذا الدور، لكن بصيغة أخرى حيث يقول: "ففي المناطق التي يغلب عليها العنصر اللغوي (القبائل، الأوراس...) كان الجزائريون المتحدون ضد فرنسا يشعرون بعصبية قوية وولاء كبير نحو منطقتهم التي يعتبرونها وطنهم الصغير"[3] وعندما اتضح لقادة الاحتلال "أن الحرب في النصف الثاني من سنة: 1955 كانت أشد ضراوة، وذات دلالة في الجنوب القسنطيني(الأوراس) حسب تعبير العقيد: هنري لومير"[4]، وبدلا من أن تبحث القيادة السياسية في السلطة الاستعمارية عن صيغة أخرى لإنهاء الصراع بحل مشرف والاعتراف بحق الشعب الجزائري في العيش الكريم في وطنه والخروج من المستنقع الذي وجدت نفسها تتخبط فيه، وأمام جشع

---

(1) خصومات تاريخية (مرجع سابق) ، ص: 348-349.

(2) ملحمة الجزائر الجديدة -الجزء الأول- للمجاهد: عمار قليل، ص: 231.

(3) الثورة الجزائرية سنوات المخاض (مرجع سابق) ، ص: 103.

(4) ابن بولعيد والثورة الجزائرية (مرجع سابق) ، ص: 907.

الكولون وأطماع أصحاب رؤوس الأموال من المستثمرين، بعد أن أدت الأبحاث إلى اكتشاف النفط في الصحراء، وسعيا إلى إرضاء الحقد الصليبي المتجذر في النفوس، راحت هذه السلطات تتمادى في مواصلة العمليات الحربية لإرهاق الثورة ظنا منها أن ذلك سوف يؤدي إلى الحسم العسكري، وراحت تركز على القواعد الخلفية للثورة لأن سقوطها يعني جفاف الموارد التي تتغذى منها الثورة فكانت هذه القوات بعد كل معركة طاحنة تنتقم من السكان أفظع انتقام وأشنعه، وهي تعتقد بهذا السلوك الذي يتنافى مع كل الشرائع والقوانين الدولية أنها سوف تؤثر على معنويات السكان فيلتزمون الحياد أو يظهرون التراجع عن مساندة الثورة، وتعتبر الانتقامات الدنيئة من أولياء المجاهدين بالقتل والتعذيب ومصادرة الممتلكات وانتهاك الحرمات نكاية بمن تصفهم بالمتمردين، والصورة التي اخترتها هي واحدة من عشرات الصور التي تمثل مأساة شعب ظلت معاناته تتكرر طوال سبع سنوات كاملة.

فقد قام جنود الاحتلال بمساعدة عناصر عميلة بملاحقة عائلة المجاهد: رمضان حسوني في ناحية: أمشونش جنوبي الأوراس، وفي أثناء عملية التمشيط ألقي القبض على بعض المدنيين، ولغرض إشباع رغباتهم الجامحة وإطفاء نيران الأحقاد المتأججة في صدورهم، قاموا بإضرام النار في إحدى البيوت، فلما اشتد لهيبها وارتفعت ألسنة النيران في الهواء راحوا يلقون بهؤلاء المدنيين المقبوض عليهم وسط السّعير وهم أحياء أمام مرأى أطفالهم ونسائهم"[1] وهناك جرائم أخرى وما أكثرها! ارتكبها أحفاد "بيجو" و"روفيقو" و"بيليسي"... تعجز الأقلام عن وصفها، إن ما كانت تأمله السلطات الاستعمارية من خلال عمليات القمع والقتل والتعذيب الوحشي قصد إرهاب الأهالي وحملهم على الإذعان، كان يغذي في نفوس السكان كراهية المستعمر والحقد على العملاء والرغبة في الانتقام، فيقبلون على التطوع في صفوف المقاومة دفاعا عن شرف الأمة وكرامة الوطن وفرارا من الأعمال الوحشية التي ترتكبها قوات الاحتلال ضد السكان العزل بسبب أو بدون سبب.

---

(1) مصطفى بن بولعيد والثورة الجزائرية (مرجع سابق) ، ص: 875.

ولعل تأملات الرئيس: دوغول، تكون قد كشفت له عن الحقيقة، وقد عبر عنها بوضوح، عندما قال "إن منبت الأسرة الإسلامية ودينها وطرق معيشتها ومعاملتها ردحا طويلا من الزمن كفئة دنيا مهملة مهزومة جعلها تتمتع بشخصية قوية جدا ومؤلمة جدا بحيث لا تدع أحدا يمزق كيانها أو يسودها"[1] وهذا الاعتراف من الرئيس: دوغول، لم يمنعه من أن يقول بصراحة بأن مصير فرنسا يتوقف دائما على نشاط جنودها"[2]، ونشاط جنودها هو انعكاس لإرادة قادتها. وإرادة قادتها من إرادة الكولون "هذه لي وهذه للدبّوس".

لاشك أن الاختلال في الموازين بين القوتين سببه أسلحة العدو المتطورة والإمدادت التي كانت تتدفق على وحداته بانتظام إذ لولاها لأمست الأوراس منطقة محررة منذ أواخر سنة 1955، إذ لم يعد الوضع بعدها مجرد تمرد محلي أو اختلال للوضع الأمني كما يصفه "باتريك إيفينيو" في حرب الجزائر، إنما هي حرب حقيقية، اعترف بها "جاك سوستيل" وهو في قمة الغضب، عندما دعي خلال أحداث 20 أوت 1955 إلى مائدة مستديرة للبحث عن إجراءات للتهدئة، فأجاب بنرفزة "إنها الحرب ويجب أن نخوضها" واعترف بها العقيد: هنري لومير في نفس الفترة، عندما قال: "بأن الحرب أشد ضراوة وذات دلالة في الجنوب القسنطيني" -أشرنا إلى المرجع- هذا الاعتراف من قبل: عقيد شارك بنفسه في العمليات القتالية في الأوراس دليل على حدة الصراع وقوة الثورة في منطقة صنفت منذ البدايةكأهم بؤرة للتوتر في الوطن وبما أننا لا نستطيع أن نحصي عدد المعارك التي خاضها جنود جيش التحرير في الأوراس لكثرتها ففي كل جبل معركة بل معارك وفي كل منعرج وفي كل خناق كمين... بل كمائن، ولو أقيمت لهذه المعارك وهذه الكمائن معالم ولوحات تذكارية لازدان بها أديم الأرض وظهرت كأنها انعكاس لأجرام السماء.

ولما لم تكن الأحداث في محيط (أوراس-النمامشة) بنفس الحدة، ونظرا للحشود المتتالية التي ظلت تتدفق على المنطقة فكرت قيادة الثورة في نقل الثورة إلى المناطق المحيطة بالأوراس،

(1) مذكرات: الأمل (مرجع سابق)، ص: 54.

(2) نفس المرجع.

وبما أن عملية إثارة الحس الوطني لدى السكان تتطلب وقتا طويلا، كان على القيادة أن تعالج الوضع على الساخن على حد تعبير الأستاذ: محمد عباس وأن تنقل إلى المناطق المجاورة فصائل من خيرة جنودها لفتح جبهات جديدة، ومناوشة القواعد الخلفية لجنود الاحتلال فترغمه على التراجع لحماية قواعده وممرات عبوره. وهكذا تم إرسال عدة فرق إلى: أم البواقي، سطيف، بريكة، المسيلة، الصحراء، حيث وصلت بعض الفلول منها إلى تخوم الجلفة والأغواط، ولعل شواهد قبور أبطال أوراسيين كانوا يعتبرون أنفسهم كفاتحين لمناطق ظلت هامدة بعد اندلاع الثورة خير دليل على ما ندعيه، فقد استشهد محمد بوتغريين في سطيف وقبره معلوم هناك، واستشهد محمد الشريف بن عكشة برفقة العقيدين: سي الحواس وعميروش بجبل ثامر ببوسعادة واستشهد مصطفى أرعايلي في ناحية: بوسعادة، ورمضان حسوني في جبل بوكحيل، ومحمد بن بلقاسم عثماني في عين الملح، وبلقاسم حامدي في الجلفة، ومحمد الطاهر نوري في الأغواط، ومحمد بخوش (الولاية الثالثة) بدون تعيين للمكان، والعايش بادسي –الصحراء– بدون تعيين، ومحمد بن أمحمد عثماني في جبل لفجوج بأم البواقي والقائمة الطويلة(*)...

(*) اقتصرنا على ذكر قادة الفصائل والوحدات دون ذكر للجنود.

الفصل السادس

- إمارة "بارلنج" في الأوراس
- نتائج مؤتمر الصومام تعمق الصراع
- زيارة عميروش -كوسيط- إلى الأوراس
- هل لهذا السقوط نهاية؟
- تجدّد الحملات ضد الأوراس
- تضحيات بلاحدود
- عملية أرياج على الأوراس
- عملية المذراة على الأوراس
- صدى الأوراس في الشعر العربي
- خاتمة المطاف
- مراجع الكتاب
- الفهرس

إمارة بارلانج :

المؤكد أن عجز القوات الفرنسية على القضاء على الثورة في الأوراس هو الذي دفع بالجنرال بارلانج الذي استقدم من المغرب وأسندت إليه مهمة القيادة الموحدة للعمليات العسكرية والمدنية في الأوراس إلى التفكير في البحث عن مكائد أخرى ينهي بها الصراع بأقل تكلفة، ومهما يكن فهي تدخل ضمن اختصاصاته.

أراد "بارلانج" أن يدغدغ مشاعر الأوراسيين بمنحهم الاستقلال الذاتي على أن يتم ذلك وفق إجراءات وترتيبات تقوم بها مصالحه للشؤون الأهلية أو الفرق الإدارية المتخصصة: اختار بارلانج الأوراس بالذات لأنه يعلم أنه إذا أطفئت الجذوة الرئيسيّة فلن تكون هناك شرارات ولن تكون هناك ثورة. هذه اللفتة الذكية الماكرة من: بارلنج لن تنسي الأوراسيين موقف الحكومات المتعاقبة التي تتبنى أسلوب "القمع أولا ثم الإصلاحات بعد ذلك"[1] ولما كان القمع متواصلا على أشده فما جدوى التفكير في البحث عن حل جزئي لقضية لا تقبل القسمة إلا على نفسها، وهي الاستقلال الكامل الناجز للوطن الجزائري من أقصاه إلى أقصاه، وسر السياسات الفرنسية المتعاقبة أنها لا تقبل التفاوض مع طرف يكون ندا لها بل تبحث دوما عن شريك ضعيف حتى تتمكن من أن تملي عليه إرادتها، ويلخص ذلك الجنرال: دوغول في مذكراته -الأمل- بقوله: "أنني قلت بالطبع لهؤلاء الجنود الذين يعرضون حياتهم للخطر وأحيانا يضحّون بها في سبيل شرف الجيش الفرنسي بأنَّ النضال لم ينته بعد وأنه مازال مستمرا، ويجب البحث والخصم والتغلب عليه وإلحاق الهزيمة به"[2] وحالما تحس القيادة الفرنسية بأن الخصم قد أنهكه التعب تراوده عن الخذلان والخيانة، لأنه لم تعد له القدرة على الاستمرار في التحدي وتقايضه كرسيًّا بدون كرامة وحرية بلا طعم وعلما بلا سيادة.

---

(1) الثورة الجزائرية، سنوات المخاض (مرجع سابق) ، ص: 29.

(2) مذكرات: الأمل (مرجع سابق) ، ص: 98.

اختار الجنرال: بارلانج ظرفا مناسبا -اشتداد الحملات وتعاقبها على الأوراس بالموازاة مع الضغوط المسلطة على السكان في المحتشدات للقيام بهذه المناورة، مناورة: منح الحكم الذاتي للأوراس، واختار عناصر التمثيلية بعناية فائقة:

* زوجة علي معلم -فرنسية الأصل- موظفة في مصالح بارلانج القائد العام للقيادة الموحدة -المدنية والعسكرية- بالأوراس بحكم الانتماء وقابلية التأثر كفرنسية والقدرة على التأثير على الزوج بحكم العلاقة بأهمية المشروع.

* علي معلم أستاذ: محامي معروف بباتنة لم يذكر (المرجع) إشكالية القيادة انتماءه السياسي والذي يكون قد أظهر الاستعداد للقيام بدور الوسيط. وقد ورد ذكره في كتاب مهندسي الثورة للسيد: عيسى كشيدة باسم "عياش" الصفحة:57.

* محمود الواعيو من أعيان المنطقة مثقف، واع بالموضوع التحق بالثورة سنة: 1957.

* عمر بن بولعيد شقيق الزعيم: مصطفى بن بولعيد، كان قد استقر في جبل أوستيلي المطل على مدينة باتنة في الأوراس الغربي خلال السنة الأولى من الثورة لم تسند إليه أية مسؤولية خلال فترة وجود شقيقه، فكان عضوا شرفيا في القيادة يحضر بعض الاجتماعات مع العناصر القيادية، غير أنه أظهر حماسا شديدا في استخلاف أخيه بعد أن ألقي عليه القبض في تونس وصدرت ضده ثلاثة أحكام متتالية أخفها السجن المؤبد، فاعتقد عمر، كما اعتقد غيره أن عودة مصطفى إلى قيادة الثورة أبعد من نجوم السماء، فراح يفتعل أسبابا ويبحث عن ذرائع لإزاحة القيادة المستخلفة من قبل أخيه عندما غادر مركز القيادة أواخر جانفي 1955.

مؤشرات الصراع على القيادة ليست بمنأى عن مصالح: بارلانج التي سوف تعمل على استغلالها بذكاء لتعميق الشرخ بين المسؤولين على الثورة، وهي تعد ضمن اختصاصاتها.

جاءت البداية من الجنرال: بارلانج في شكل تلميح صادر عن الحكومة الفرنسية باستعداد هذه الأخيرة في إجراء محادثات (فرانكو-جزائرية) بهدف منح الحكم الذاتي للأوراس مع العناصر التي ورد ذكرها متى شاءت على أن يكون عمر ابن بولعيد هو رئيس هذه الإمارة (إمارة الحكم الذاتي)... كل عبارة وكل كلمة تصدر عن الفرق المتخصصة وعن ضباط المكتب الخامس لها أكثر من دلالة وتحتاج

إلى أكثر من قراءة... فالحرية الممنوحة للخصم في اختيار الوقت المناسب، إنما أريد منها تأزيم الموقف أكثر، واختيار شخص عمر على رأس الإمارة كان لغرض تعميق حدة الصراع بين المسؤولين في الأوراس الغربي حيث يتمركز عمر والشرقي حيث يستقر خصومه، وهذا يؤثر سلبا على المقاومة.

لم يذكر صاحب "الإشكالية" مرجعنا الأساسي في الموضوع تاريخ صدور هذا النداء من قبل قيادة العمليات الموحدة في الأوراس حتى نتمكن من تشخيص الوضع خلال تلك المرحلة بناء على معطيات وحقائق ميدانية.

فالجنرال: بارلانج، أسندت إليه مهمة القيادة الموحدة كوال على الأوراس من أفريل 1955 إلى غاية مارس 1956، وتعد هذه الفترة أخصب فترة من حيث المردود العسكري الذي حققته المقاومة في الأوراس، ففيها أرغمت القوات الفرنسية على اخلاء عديد من مراكزها العسكرية في وسط وشرق الأوراس، وخلال هذه الفترة تم إيفاد عدة فصائل إلى المناطق المجاورة لتوسيع نطاق العمليات الحربية، وفي هذه الفترة بالذات راح الشباب يتهافتون في الانضمام جماعيا إلى الثورة وكان المجاهدون في الأوراس يتحركون كالحوت وسط الماء"[1] على حد تعبير محمد حربي، ويكفي أن يعترف الخصم بذلك، حيث يصف الجنرال الطيار: ميشال فورجي الوضع في الأوراس، فيقول "إن الأوراس كانت بحق عظيمة، لكنها سيئة المعشر، والاستقبال الذي حظينا به كان أبعد من أن يكون وديا... ومتمردي الأوراس يعدون من بين المقاتلين الأشداء الذين جابهناهم، نظرا لميزاتهم القتالية" ويضيف في فقرة أخرى "كتلة الأوراس هي النواة الصلبة ومهد التمرد الذي سيكون المسرح المفضل لعملياتنا، كما كان حتى الآن وكما يظل حتى النهاية"[2].

(1) الثورة الجزائرية، سنوات المخاض (مرجع سابق)، ص: 32.

(2) شاهد على الثورة في الأوراس (مرجع سابق)، صفحة: 305.

ويبدو أن الطعم المسموم من قبل بارلانج لم يحقق مجمل أهدافه ولم يصل إلى ما كان يأمله من إثارة الفتنة بين القيادات ثم بين الوحدات إلا أنه تمكن من زرع فيروس فتاك ظهرت أعراضه فيما بعد يقول العقيد: عمارة بوقلازة في تشخيص عارض عن وضع الولايتين الأولى والثانية اللتين راحتا تحاولان احتواء منطقة سوق أهراس وهو يصف الوضع في الأوراس، إذ يقول: "أما الأوراس فكان قد انهار خلال نفسه الفترة (صائفة 1956) تحت ضربات الجنرال: بارلانج إلى درجة أن مؤتمر الصومام أوفد عميروش إلى هذه المنطقة لإعادة تنظيم الولاية"[1].

هل هو السقوط أم مجرّد تعثر؟ :

لم يكن الوضع في الأوراس منهارا على حد تعبير العقيد: بوقلازه خلال هذه الفترة بالذات، إلا أنه لم يكن مريحا على أي حال، وهذا الانهيار أو السقوط، كما يصفه بوقلازة لم يكن شاملا للأوراس -كولاية- إلا أنه كان قد مس أجزاء هامة منها، وكان أكثر هذه الأجزاء أو المناطق تضررا المنطقتان الثانية: ناحية: أريس، والسادسة: ناحية: تبسة.

أسباب الانهيار أو السقوط لا تتعلق بمنهجية العمل ولا بمناطق النفوذ ولا بالاستراتيجية المتبعة في القتال، غيرأنه، وبعد مؤتمر الصومام الذي لم تحضره المنطقة الأولى (أوراس-النمامشة)، زعم بعض رؤساء الوحدات أن ثمة انحرافاً وقع حول المبادىء التي تبناها قادة الثورة في بيان أول نوفمبر، فأظهروا نوعا من الامتعاض ثم تبنوا فكرة الرفض بعد أن وجدوا الدعم والمساندة بل التحريض من بعض الزعماء في الخارج، مع أنهم يعلمون في قرارة أنفسهم بأن لا أحد منهم يضاهي ابن مهيدي في وطنيته ولا في ذكائه وهو الذي ترأس المؤتمر، وأن لا أحد منهم يقارن بزيغوت عضو جماعة -22- وقائد الولاية الثانية آنذاك ولا كريم ولا عبان ولا أوعمران.. غير أن أطرافا أخرى لعبت بمشاعرهم الوطنية واستغلتهم في تحقيق طموحاتها التي لا تريد التصريح بها، فراحت تزعم أن المؤتمر قد انحرف عن مبادىء أول نوفمبر وأدخل الثورة في فلك العلمانية، وأهمل الدين ومسائل أخرى، فانخدع هؤلاء القادة

(1) مجلة أول نوفمبر (مرجع سابق) ، السنة: 1989، ص: 16.

مع سذاجة أفكارهم وضحالة تكوينهم بهذه المزاعم، وسار على أثرهم قادة الفصائل، وبدأ مؤشر الصراع يلوح في الأفق، وبعد أن اجتمع معارضو المؤتمر في تونس في 15 ديسمبر 1956 وخرجوا بتوصيات تدعو إحداها إلى مقاتلة المصادقين عن المؤتمر والمؤيدين له، فكانت هذه المزاعم القطرة التي أفاضت الكأس، فبوادر الصراع ومؤشراته كانت قد ظهرت منذ أن تم القبض على الزعيم ابن بولعيد في الحدود التونسية الليبية حينها شعر بعض القادة بوجود فراغ في منصب القيادة، بالرغم من أن القائد ابن بولعيد كان قد استخلف: شيحاني بمعية كل من: عجول ولغرور كنائبين له، غير أن أطرافاً أخرى كان من أبرزهم "عمر" أخو القائد ابن بولعيد الذي راح يعبر عن طموحاته في تقلد منصب القيادة على رأس المنطقة (الولاية) خلفا لأخيه الأسير راحت تعبر عن رغبتها في تبوإ منصب القيادة. ولما لم يكن "عمر" في نظر الكثير من القادة يحظى بنفس الشهرة التي كان يحظى بها أخوه مصطفى تحفظ منه الكثير، راح عمر يترصد الأخطاء التي ترتكبها عناصر القيادة، ويفتعل أخرى مثل: إهمال الناحية الغربية من الأوراس للتشهير بها، ويبحث في نفس الوقت عن عناصر معادية لعجول خاصة لتوفره على مجموعة من المؤهلات تحجب عنه (عمر) منصب الخلافة فوجد ضالته في عائسي مسعود الذي يُكِنُّ لعجول العداوة والبغضاء وفي عناصر أخرى أقل شهرة... فراحت تمارس الضغط على القيادة الفعلية... حاول شيحاني الذي شعر بخطورة المسألة استرضاء عمر في عدة جلسات عقدتها قيادة الثورة في مقر القيادة في الأوراس، فأسند إليه منصب رئيس الجمهورية حسب رواية عجول في استجواب أجرته معه جمعية أول نوفمبر لتخليد وحماية مآثر الثورة (ابن بولعيد ص: 374) حيث أيده حسب رواية عجول دائما، الطاهر أنويشي، وحسين برحايل، وعايسي مسعود، وهؤلاء يعدون من أتباع عمر، لاحبا في عمر، لكن نكاية بعجول.

وهناك رواية أخرى تقول بأنّ "شيحاني" قد أسدى إلى عمر رتبة "جنرال"، وهذه المغريات (إن صحت) التي أراد بها شيحاني استرضاء عمر للحد من طموحاته لم تزده إلا لهفة وإصرارا لغرض الوصول إلى مركز القرار (قيادة الولاية)

إذ شعر بعد هذه الترقيات المجانية أنه الشخص المؤهل فعلا لقيادة الثورة في الأوراس، فازداد تعنتا وعنادا، فساد التشنج العلاقات بين مجموعة من القادة أدت إلى ظهور تكتلات تطبع العلاقات بين المسؤولين، وعندما لم يتسن لشيحاني إيجاد نوع من الوفاق بين القياديين، انتقل إلى ناحية "تبسة" للإطلاع على الأوضاع هناك ومعالجة وتسوية بعض النزاعات بين قادة محليين كان ابن بولعيد قد بحث بشأنها رسالة إلى مركز الولاية عندما كان يعبر تراب الناحية "تبسة" ويبدو أن القائد بالنيابة شيحاني بشير غير مرتاح للوضع بسبب هذه النزاعات فاستبدل الطاقم الإداري بعناصر أخرى من مجاهدي ناحية خنشلة، ثم قام بنقل مقر القيادة إلى القلعة -جنوب خنشلة- غير بعيد عن منطقة نشاط عباس لغرور الذي يكن له الاحترام والولاء قبل أن يتحول على إثر ظهور مستجدات أخرى إلى غريم.

أصداء هذا الصراع بالرغم من أنه قد احتدم بين القياديين، غير أن أمواجه كانت تصل إلى المسؤولين الصغار وإلى الجنود، وحتى إلى المناضلين، فتنال من عزمائهم وتضعف من قدراتهم القتالية، كما كانت تصل إلى الفرق الإدارية المتخصصة (SAS) عن طريق العملاء وتدفع بهم إلى البحث عن وسائل أخرى لإثارة المزيد من الفتنة بين الاخوة الأعداء ودفعهم إلى التصادم، وهو ما حصل فيما بعد.

بدأت مؤشرات التصادم تلوح في الأفق بين من كانوا يوصفون بالمتطوعين، وكان معظمهم من أتباع عمر اقتداء بقائدهم: أحمد عزوي ثم رابحي الشريف بعد استشهاد الأول في 7-7-1957 وبين المؤيّدين للمؤتمر أو الجبهويين وقبل أن تتدهور الأوضاع إلى ما هو أسوأ يتمكن القائد ابن بولعيد من الهروب من سجن الكدية بقسنطينة بتاريخ: 11-11-1955، واستطاع بعد سفر شاق اللحاق بالأوراس، ولم يكن ذلك منتظرا من قبل القادة الخصوم، وقد دفعت هذه المفاجأة بعض العناصر إلى الشك في هروبه، واعتقدوا أن ذلك كان بتواطؤ مع مصالح الاستعلامات الفرنسية مقابل وعود من القائد ابن بولعيد، كما تفاجأ ابن بولعيد نفسه مما آل إليه الوضع نتيجة الصراع على السلطة بين عدة أطراف راحت تبحث عن نفسها

وأطراف أخرى ظلت تتمسك بالشرعية وصفة التمثيل، خمدت جذوة الصراع فجأة وطأطأ الجميع رؤوسهم، بالرغم من التحفظ المعلن الذي صدر عن كل من: عجول ومحمد بن مسعود بلقاسمي وأقوال أخرى ذات مصادر مجهولة، وتنسب إلى لغرور "سجن الكدية ليس إصطبل زيزه بنت عيشة... بخنشلة"، هذه الأحاديث كانت تثير امتعاض ابن بولعيد، فيتألم، لكنه كان يتغاضى عنها من أجل المصلحة العليا للثورة ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[1] فكان هروب ابن بولعيد حدثا بارزا "لأن هروبه حسب محمد عباس" يعني تجدد فعالية الأوراس رأس حربة الثورة الجزائرية بل إعطاء نفس جديد للثورة في الجزائر كلها"[2].

ازداد الوضع في الأوراس تأزما بعد تعرض قائد الثورة بالنيابة لعملية الاغتيال والتي كثرت حولها الأحاديث المستنكرة للأفعال المنسوبة لشيحاني، والمنددة بفعل الاغتيال، مع ظهور مؤشرات التمرد من قبل القياديين مثل: عمر بن بولعيد وعائسي مسعود... غير أن القائد: ابن بولعيد رجل المهام الصعبة كان واثقا من نفسه ومن قدرته على التغلب على هذه الحزازات التي ظهرت نتيجة الإفراط في حب السلطة وضعف القيادة وتراكم المشاكل مع ضعف وسائل الاتصال والإمدادات... تمكن ابن بولعيد خلال أربعة شهور من السعي الحثيث من القضاء على أهم المشاكل في سلسلة من الاجتماعات كان يعقدها مع قادة النواحي ومسؤولي الوحدات، كان آخرها اجتماع وادي عطاف بـ/ كيمل أيام: 13-14-15 مارس 1956 حضره مسؤولو الناحية الشرقية لأوراس-النمامشة من سفوح الأوراس الجنوبية الشرقية إلى سوق أهراس.

(1) الآية 134 من سورة آل عمران.

(2) نصر بلا ثمن (مرجع سابق)، ص: 100.

أعيد في هذا الاجتماع ترتيب بيت القيادة من جديد، وانطوى الطامحون في الترقية بلا عمل على أنفسهم في انتظار ظهور مستجدات أخرى، وانطفأت جذوة الصراع إلى حين.

انتقل ابن بولعيد إلى الجبل الأزرق لعقد اجتماع ثان لمسؤولي الناحية الغربية من الأوراس من المعاضيد بحدود الولاية الثالثة إلى آريس بالوسط، وقبل أن يكتمل الجمع ويحصل اللقاء الذي كان سيعد أكبر تجمع لقادة الثورة في المنطقة لو حصل، جيء بالجهاز اللغم إلى ابن بولعيد، فلما أحضرت البطاريات، وبمجرد أن سرى التيار في الجهاز انفجركما كان مخططا له، فاهتزت الدار وسقطت على من فيها، فمات ابن بولعيد ومات معه الأمل في توحيد الكلمة وجمع الشمل، واندلع الصراع من جديد على أعنف صوره، وأضيفت إلى التهم المتبادلة من قبل تهمة من اغتال ابن بولعيد، صرفت التهمة إلى عناصر من قادة الثورة في المنطقة دون حجة بالغة أو سند موضوعي، فالصراع هذه المرة سوف يكون أشد ضراوة لأن مصطفى بن بولعيد لن يعود مرة أخرى ليتصدر الأحداث.

قطبا الصراع هذه المرة * عاجل عجول وعباس لغرور من جهة و* عمر بن بولعيد وعايسي مسعود من جهة أخرى ولم يلبث عباس لغرور أن اعتزل في جبال النمامشة وتفرغ للقتال وسجل ملامح وبطولات كان لها صدى خاصا شهد له به الأعداء قبل الأصدقاء، وازداد الشرخ اتساعا عندما انشقت المنطقة السادسة- تبسة- وأعلنت الانفصال منذ جويلية 1956، فاختل توازن القيادة الشرعية الممثلة في شخص: عجول ولغرور، ولم تعد قادرة على السيطرة على الوضع، وانقطعت الاتصالات بالمنطقة الأولى ناحية -باتنة- حيث المجاهد: الحاج لخضر الذي يصعب النيل منه، وبموت ابن بولعيد بدأت مناورات المعارضين تأخذ أبعادا أخرى أكثر مأساوية حين بدأ عمر وعايسي يوزعان المناشير للتشهير بالسلطة الشرعية والتنديد بتصرفاتها واتهامها باغتيال شيحاني بشير ثم مصطفى بن بولعيد، وبالرغم من منافاة هذه التهم للحقيقة فإن انتشارها كان واسعا وسرعة التصديق بها كانت كبيرة وانعكاس آثارها على وحدة الثورة في الأوراس كان سيئا.

نتائج مؤتمر الصومام تعمق الصراع:

انعقد مؤتمر الصومام دون مشاركة المنطقة الأولى -الولاية الأولى- بسبب عدم التبليغ أو بسبب الخلاف الحاد بين القادة بعد استشهاد ابن بولعيد (اختلفت الروايات)، ويبدو أن أعضاء المؤتمر الذين أدرجوا إسم ابن بولعيد على رأس قائمة أعضاء المجلس الوطني للثورة الجزائرية في محضر الاجتماع لم يبلغوا فعلا باستشهاده.

يقول الدكتور: سعيد سعدي "غياب ابن بولعيد عن المؤتمر أقلق الحاضرين، لكنهم أرجعوه في أول الأمر لصعوبة التنقل، علما بأن التطويق العسكري لمنطقتي الأوراس والقبائل سنة 1956 بلغ مرحلة جد متقدمة، وما إن مضت أيام من انطلاق المؤتمر حتى بلغ خبر استشهاد القائد الكبير ينتشر بين المشاركين، وبمجرد أن تأكد النبأ أحس مسؤولو جبهة التحرير بالإحباط، ودبت في نفوسهم الحيرة لأنهم يعرفون قيمة الرجل والخسارة التي يمثلها رحيله للوطن والصعوبات التي سيجدونها لتعويضه"[1]... فبعد خمسة أشهر كاملة من موت القائد ابن بولعيد يصل خبر استشهاده إلى أقرب ولاية للأوراس، والتي تشترك معها في الحدود، ولم يكن ذلك بسبب التكتم الذي تعاهد عليه القياديون الذين شهدوا الفاجعة حتى لا يثير ذلك الفزع في نفوس المجاهدين الذين هللوا لعودته إلى قيادة الثورة في الأوراس، إنما كان بسبب الصراع الذي احتدم بين القياديين المحليين فيمن سيخلف مصطفى ابن بولعيد، وقد حال هذا دون مرور عناصر موفدة من قبل القيادة المستخلفة من قبل القائد قبل السفر إلى تونس، وظلت تمارس مهامها إلى غاية استشهاده... فقد أجمعت عدة مراجع على أن عمر أخو القائد ابن بولعيد كان قد تنقل إلى الولاية الثالثة في زيارة لم يكشف عن مضمونها -بعد موت أخيه- وهناك سلمت له الدعوة لحضور المؤتمر وشارات عقيد، على أن يسلمهما لأخيه مصطفى، فلما عاد من الولاية الثالثة، علق شارات عقيد، وزعم أنه عين على رأس قيادة الثورة في الأوراس...

(1) عميروش: حياة موتتان وصية للدكتور: سعيد سعدي، ص: 97.

تكتم عن استشهاد أخيه، ولم ينبس بكلمة حول موته فكان همه الحصول على الترقية عن طريق المناورة،فحصل على الشارات لكنه لم يحصل على الترقية التي يسعى من ورائها.

شعر قادة المؤتمر بوجود خلاف بين المسؤولين في الأوراس وخصومات حول من سيخلف الشهيد: ابن بولعيد بعد شغور منصب القيادة، وقد تولدت نتيجة هذه المساعي من قبل عمر حساسيات بينه وبين أطراف لم تستسغ ولايته لأنه يفتقد لمواصفات القيادة التي كان يتحلى بها أخوه. راحت هذه الحساسيات تمتد كالعدوى إلى الوحدات ثم إلى الفصائل وتحوّلت بسرعة إلى قناعة لدى معظم الجنود واعتقدوا عن إيمان راسخ أن الثورة في خطر، وأن المؤتمرين حرفوا بيان أول نوفمبر وأدخلوا الوطن في فلك العلمانية وتنكروا للإسلام وللمبادئ والقيم التي وردت في البيان، فاستباحوا بهذا الاعتقاد دماء المؤيدين لقرارات المؤتمر ومقاتلتهم (راجع السطور الثلاثة الأخيرة في المحضر قبل توقيعات معارضي المؤتمر في اجتماعهم المنعقد بتونس بتاريخ: 15 ديسمبر 1956) ومن الطبيعي أن تتطور الحساسيات المتبادلة في ظل الانسداد التام لقنوات الحوار بين أطراف تدعي شرعية السلطة (عجول ولغرور) وأطراف تنازعهما هذه الشرعية وتتّهِمُهما بالتقصير في الأداء والتسيير وتسعى إلى إِزاحتيهما من منصبيها لتحل محلهما، والدارس لما آل إليه الوضع في الأوراس خلال هذه المرحلة بقدر من الموضوعية والحياد الإيجابي، يجد أن لا علاقة لهذا الصراع بالتسيير أو بالمردود العسكري للمقاتلين أو بالتموين والتجهيز ولا علاقة للموضوع بقرارات الصومام... فالرصيد التاريخي لواضعي قرارات مؤتمر الصومام لا يعادله الرصيد التاريخي لهؤلاء القادة أجمعين، ولا الرصيد التاريخي لابن بله ومحساس اللذين ألهبا حماس هؤلاء القادة، واستغلّا فيهم وطنيتهم الخالصة ومستوياتهم الفكرية الضحلة وأوهموهم بأن الثورة التي يحملون مشعلها في خطر!... فالمسألة إذن مسألة صراع على السلطة بين عناصر لا تحكم ضمائرها، لكنها تخضع لعواطفها، ومثيروا هذ الصراع في الولاية الأولى بعد مؤتمر الصومام أربعة وهم على التوالي :

1-عاجل عجول، ماض سياسي مشرف وتجربة لا بأس بها في التسيير بعد أسر ابن بولعيد.

2-عمر بن بولعيد يتباهى بالمجد التاريخي لأخيه وأراد أن يتشبه به فأساء إليه.

3-مسعود عايسي مناضل في الحركة الوطنية أسندت إليه أمانة المالية فرفضها تكونت لديه حساسية اتجاه عجول بسبب التسيير، وربما لأسباب أخرى لاتمت إلى التنظيم بصلة.

4-الأزهر شريط... مجاهد في جيش التحرير التونسي رفض تسليم سلاحه بعد إيقاف القتال في تونس، دخل إلى الجزائر، واعتصم مع جماعة من أتباعه بالجبل الأبيض ناحية -تبسة- انضم إلى الثورة خلال ربيع 1955، وفي جويلية من سنة: 1956، زعم كما فعل عمر قبله إهمال القيادة للناحية الشرقية، وطالب بالمشاركة في التسيير، وطرد ممثل السلطة الشرعية في الناحية -بشيرورتان- المكنى بـ/ سيدي حني.

يمثل عجول السلطة الشرعية ويمثل الثلاثة الآخرين المعارضة، وعندما شعر بعض المسؤولين المحليين مسؤولي النواحي والوحدات بضعف السلطة وعجزها عن السيطرة على الوضع، راحوا ينشطون خارج نظام السلطة بل يرفضون الانصياع لقراراتها، فانسلخ عنها 1- أحمد عزوي في الناحية الغربية من الأوراس بصفته قائد للمتطوعين أكثر من 300 جندي، ويعد من أتباع "عمر" 2- مسعود عائسي بجيش لا يقل عن 200 جندي شكل حاجزا بين عجول وعمر يمتد على طول شريط(أحمر خدو-شليا). عائسي لا يطمح إلى السلطة لكنه مناوئ عنيد لعجول. 3-محمد أمزيان (ملولي). انفصل عن عائسي بجيش لا يقل عن 100 جندي شكل حاجزا بين المنطقة التي يصفها الرائد: هلايلي بـ/ سكتور عجول وبين ناحية خنشلة حيث يتحرك الحليف الشرعي لعجول -عباس لغرور- 4- محمد الصغير تيغزة على رأس فصيلة يزيد عدد أفرادها عن 40 جنديا في ناحية شيليا، وعندما حوصر من قبل القوات النظامية ارتمى في أحضان العدو في إيشمول. 5- محمد الصالح شنخلوفي، وقد انضوى تحت مسؤوليته ما لا يقل عن 70 جنديا ظل يتحرك في نفس القطاع الذي تسيطر عليه القوات النظامية التابعة لسلطة: عجول- لغرور استسلم بدوره للعدو... وهناك فصائل ووحدات أخرى أقل شأنا خرجت

عن إرادة السلطة وصارت تشكل خطرا عليها، كجماعة: عبد الرحمن العمراني في تامزة، وجماعة: محمد عبدلي ومصطفى بن عمر بأحمر خدو في السفوح الجبلية الجنوبية للأوراس، وهي تابعة للولاية السادسة بعد ظهور هذه الولاية. هذه الجماعات المنشقة عن جبهة التحرير الوطني تدعي أفضلية جيش التحرير الوطني عن جبهة التحرير الوطني، وتزعم أن فكرة الأولويات التي نادى بها المؤتمر تشكل خطرا على الثورة (أولوية السياسي على العسكري)، مع أنهما وجهان لعملة واحدة كحركة سياسية ثورية إطارها جبهة التحرير الوطني وذراعها العسكري جيش التحرير الوطني، وأن الذي ترأس المؤتمر-ابن مهيدي-أحد الأعضاء المؤسسين لجبهة التحرير الوطني، وجيش التحرير الوطني، فالصفة العسكرية ملازمة لكيليهما سواء كانوا جنودا مقاتلين أو ممن ينشطون في الإطار السياسي وتوزيع المهام تم بين العناصر بشكل كيفي أحيانا وحسب الاستعدادات والقدرات أحيانا أخرى، وليس لأحدهما امتياز أو فضل على الآخر.

أوجدت هذه الأوضاع تصدعا كبيرا أساء إلى سمعة الثورة في الأوراس طوال سنوات 1956-1960 أدى إلى انهيار العلاقات، وقطع الاتصالات بين المراكز والوحدات، فانعدم التنسيق بين المقاتلين وبين مراكز التموين، ولم يلبث هذا التشنج أن تحول إلى قطيعة ثم إلى عداء. كانت بدايته الحيلولة دون مرور عناصر الاتصال وسجن بعض الأفراد، ثم تخريب لمراكز التموين وإعدام للمناضلين من قبل من يوصفون بالمتطوعين وتجريد للعناصر المتفردة من السلاح ثم إلى تبادل للاغتيالات فإلى معارك طاحنة. ما فتىء المجاهدون يتحدثون عنها بامتعاض، فقد روى لي مجاهد أن معركة عنيفة جرت بين الجبهويين والمشوشين حسب المصطلحات المتداولة خلال تلك الفترة في ناحية وادي الطاقة -بوحمار سابقا- فبلغ ذلك القوات الفرنسية فأرسلت مروحيات خفيفة للاستطلاع، فراحت تحلق فوق رؤوسنا للتصوير والمتابعة، وعندما كانت المروحية تحلق فوق المكان الذي كنت أتحصن به ألمحني أحد جنود المروحية فأشار إلي إشارة تحية وتقدير عبر نافذة المروحية منوها بعملية الاقتتال التي تجري بين الإخوة الأعداء... فهذا الوضع المؤلم

الذي انجر عن الطموح المفرط لقادة انتهازيين تسبب في إراقة أنهار من الدماء ذهبت هدرا لم يحل دون ممارسة هذه الفصائل المتشرذمة للقتال مع الوحدات العسكرية الفرنسية في شكل عمليات استعراضية كمناوشة المراكز المستقرة، واعتراض سير القوافل العسكرية، ونصب الكمائن في انتظار عودة الاستقرار وتوحيد الجيش مرة أخرى.

محاربون في حيرة من أمرهم :

هذا العنوان مقتبس من مذكرات اللواء: حسين بن معلم الذي رافق الرائد: عميروش إلى الأوراس موفدا من قبل لجنة التنسيق والتنفيذ "باسم المؤتمر" لتبليغ قرارات مؤتمر الصومام من جهة ومحاولة إيجاد صيغة للوفاق بين القادة المحليين. حسين بن معلم عاش في الأوراس مدة شهرين كاملين اطلع خلالها عن كثب عن أوضاع الثورة في الأوراس خلال تلك الفترة الممتدة، حسب تقرير: عميروش من 1 سبتمبر إلى نهاية أكتوبر 1956، حيث حاور المسؤولين على اختلاف مستوياتهم بصفته كاتب لعميروش وكان يحضر الاجتماعات بهذه الصفة، كما حاور الجنود على اختلاف مهامهم، فأوجز ذلك في كتابه: مذكرات اللواء: حسين بن معلم، مبديا أسفه العميق عند قوله: "كان مؤسفا، وأيضا مضرا للكفاح المسلح أن تعرف تلك المنطقة الماجدة وضعية عدم استقرار وهشاشة بسبب الصراعات بين الإخوة وبسبب الانفصالات، لقد تراجع عجول إلى منطقته في كيمل معلنا عن استقلاليته، كان مسعود بن عيسى يفرض قوانينه في جبل شليا. حيث اكتشف محاربون في جيش التحرير الوطني مسجونين عنده من بينهم: محمد الطاهر بوزغوب الموقوف أثناء مهمة أسديت إليه من طرف عجول، ومن بينهم أخيرا عبد الرحمن العمراني الذي التجأ ولاذ بجبل: تامزه قرب خنشلة، كانت الاتصالات والروابط مع باقي الولاية الأولى ومنها: النمامشة وجنوب الأوراس قد انقطعت كلية... تراجع عدد العمليات ضد الجيش الفرنسي بشكل ملحوظ كانت هذه الأخيرة (الجيوش الفرنسية)، دقيقة الإطلاع على تلك النزاعات، قد لاذت بمعسكراتها مكتفية

بعمليات متقطعة تركت قصدا مطلق الحرية لتصفية الحسابات والصراعات الأخوية بالطبع بقي هناك محاربون مخلصون، وكان عددهم كبيرا يشكلون الأغلبية كانوا في حيرة من أمرهم، بالطبع كانت معنوياتهم ومعنويات السكان معهم في المستوى الأدنى... لم يتردد بعض الإطارات المستائين من تلك الأجواء المقيتة في انتقادها صراحة، فاتهموا بعدم الانضباط وتعرضوا للعقوبات على غرار: الصالح نزار وعبد القادر عزيل (البريكي) الذين عرض حالهم على عميروش، بعد أن استمع هذا إليهم، فحولهم إلى الولاية الثالثة... هناك أبلوا بلاء الأبطال الحقيقيين على رأس وحدات مقاتلة"[1] هذا الوصف المجمل كان يعكس حالة الأوراس آنذاك ولغرض إصلاح الأوضاع أوفدت لجنة التنسيق والتنفيذ العقيد: زيروت يوسف والرائد: إبراهيم مزهودي، فسقط الأول شهيدا بينما كان يتأهب للسفر إلى الأوراس ومرّ الثاني على عجل بالمنطقة السادسة ودخل إلى تونس.

الرائد :عميروش في مهمة وساطة بالأوراس :

وبعد أن علمت لجنة التنسيق بسقوط العقيد: زيروت وهو يتأهب لتنفيذ المهمة، أوفدت بعده، الرائد: عميروش قائد منطقة القبائل الصغرى ليتولى مهمة المصالحة بين الإخوة الفرقاء، فحسب أمر التكليف بمهمة الممنوح للسيد: مزهودي المؤرخ بتاريخ 20 أوت 1956، والذي يقول اللواء: حسين بن معلم بأن الأمر نفسه منح للعقيد: زيروت يوسف الذي عاد إلى منطقة نشاطه (المنطقة الثانية) وعند كان يهم بمغادرتها لتنفيذ المهمة سقط شهيدا، وبمراعاتنا للتسلسل الزمني للأحداث بالنظر إلى الوثائق والمراجع المتوفرة تعترضنا تناقضات من الصعب التسليم بها.

* فالتكليف الذي منح للرائد: مزهودي (أسفله) مؤرخ بتاريخ 20 أوت، تاريخ بداية أشغال المؤتمر، والذي يقول حسين بن معلم في مذكراته بأن نفس التكليف منح من طرف المؤتمرين للمسؤولين المتوجهين إلى الأوراس لغرض تسوية الأوضاع، وهم :

---

(1) مذكرات اللواء: حسين بن معلم(مرجع سابق) -الجزء الأول- ، ص: 80-81.

MISSION CONFIEE A BRAHIM MEZHOUDI

FRONT DE LIBERATION NATIONALE
-:-:-

ARMEE DE LIBERATION NATIONALE
-:-:-

Quelque part en Algérie, le 20 Août 1956

PROCURATION

Les responsables de l'Oranie, de l'Algérois et du Constantinois (à l'exception des responsables des Aurès-Nementchas), réunis quelque part en Algérie,

Donnent procuration pour parler et agir en leur nom à f. Brahim Mezhoudi

Le frère f. Brahim Mezhoudi est habilité pour expliquer et communiquer aux frères responsables des Aurès-Nementchas les décisions prises au cours de cette réunion nationale. Il est en outre chargé d'étudier et de régler les problèmes particuliers à la Zône des Aurès-Nementchas et d'appliquer toutes les décisions prises lors de cette réunion historique.

Le Comité de coordination et d'éxécution, organisme qui détient les pouvoirs du C.N.R.A. (Conseil National de la Révolution Algérienne) durant les intersessions de cet organisme, sera tenu au courant d'une façon trésdétaillée des résultats de la mission confiée au frère sus-nommé.

Le C.C.E. espère et compte sur le patriotisme des frères des Aures-Nementchas pour voir la Zône des Aurès-Nementchas, à l'exemple des cinq autres Zônes, se soumettre à l'autorité centrale, et ce dans l'intérêt suprême de l'unité de la Révolution Algérienne et de la Patrie Algérienne.

ZIROUT Youçef — SI CHERIF
BENTOBAL Lakhdar — OUAMRANE
KRIM Belkacem — BENMEHIDI
ABBANE

نموذج وكالة مسلمة من طرف المؤتمرين للمسؤولين
المتوجهين إلى الولاية الأولى بعد المؤتمر نفس
الوكالة سلمت إلى عميروش

1-العقيد: زيروت يوسف قائد المنطقة الثانية.

2-العقيد: عمار أوعمران قائد المنطقة الرابعة.

3-على ملاح المعين حديثا على رأس الولاية السادسة.

منح أيضا للرائد: عميروش بعد سقوط زيروت يوسف في 23 سبتمبر 1955، واعتذار أوعمران عن تنفيذ المهمة، نظرا للأوضاع غير المستقرة في الولاية الرابعة التي يشرف عليها والتي تتطلب منه بذل مساعي حثيثة لمعالجتها.

* فحسب التقرير الذي حرره الرائد: عميروش بعد أن أنهى مهمته في آخر أكتوبر 1956 والذي أشار فيه إلى تاريخ مغادرته لمنطقة نشاطه بالقبائل الصغرى ودخوله إلى الولاية الأولى وكان ذلك حسب التقرير في الفاتح من سبتمبر 1956، وراح بعدها يستعرض الأحداث التي عاشها في الأوراس حسب تسلسلها الزمني... وفي الثامن والعشرين من سبتمبر 1956 -حسب التقرير- كان قد وصل رفقة الوفد الذي كان قد التقى به عند حدود الولاية الثالثة بقرية القصر إلى شيليا القلعة الشامخة في عمق الأوراس.

* وإذا علمنا أن العقيد: زيروت الذي ناب عنه في أداء المهمة لم يسقط في ميدان الشرف خلال هذه المدة، وكان موته بالضبط بتاريخ: 23 سبتمبر 1956"[1] نجد أن هذا التقاطع في التواريخ يثير لدينا كثيرا من الشكوك وأنا استبعد أن يكون دخول الرائد: عميروش إلى الولاية الأولى بتاريخ الفاتح من سبتمبر لأن أشغال المؤتمر امتدت إلى غاية الخامس من سبتمبر من: 20 أوت إلى 05 سبتمبر، فلا يصح أن يغادر جلسات المؤتمر وأن لا يحضر الجلسات الختامية والمصادقة على التقارير العامة، علاوة على أنه الشخص المسؤول الذي استضاف المؤتمر، وهذا الأمر يعني أيضا العقيد: أوعمران والرائد: مزهودي... ذلك أن مدة سفر العقيد: زيروت يوسف إلى الشمال القسنطيني تساوي أو تتجاوز هذه المدة... ولابد أن يكون قد اتخذ بعض الإجراءات التنظيمية بعد تبليغ المسؤولين المحليين القرارات والتوصيات التي صادق عليها المؤتمرون، وبالتالي

(1) نصر بلا ثمن (مرجع سابق)، ص: 172.

فإن تاريخ استشهاده في الثالث والعشرين من سبتمبر 1956 يكون ثابتا، وفي هذا التاريخ كانت لجنة التنسيق والتنفيذ قد انتقلت إلى العاصمة. ان عامل الزمن مهم جدا في تدوين الأحداث، ومثل هذا التناقض أو التقاطع الناتج عن عدم الاحتراز سوف يثير الشكوك ي نفوس القراء حول مجريات هذه الأحداث جملة وتفصيلا.

زيارة عميروش إلى الأوراس:

تعد زيارة عميروش إلى الأوراس موفداً من قبل لجنة التنسيق والتنفيذ حدثا بارزا في تاريخ الثورة التحريرية ، لأنها جاءت في فترة حرجة ومرحلة حساسة أعقبت شغور منصب قائد الولاية، بعد استشهاد مصطفى بن بولعيد (22 مارس 1956) واحتدام الصراع بين قادة محليين حول من سيخلفه في هذا المنصب، وكانت مؤشرات الصراع قد بدأت عندما كان ابن بولعيد يقبع في زنزانات الكدية في قسنطينة، غير أنها إنطفأت بمجرد ظهوره على الساحة، وعندما تأكد هؤلاء القادة من موته هذه المرة، اندلع الصراع من جديد وقد أكد هؤلاء القادة المحليون من خلال هذه السلوكات عدم أهليتهم للقيادة لافتقارهم للمرونة والحوار الهادىء كأسلوب حضاري بدل التطاول واللجوء إلى العنف والاعتداد بالماضي أو بالعشيرة... وقد تكون السيدة: جيرمان تيون خلال مقامها بالأوراس كباحثة في الأنتروبولوجيا خلال سنوات (1934-1940) قد اكتشفت فيهم هذه الظاهرة من خلال دراساتها القيمة لطباع وتقاليد المجتمع الأوراسي، نقلها عنها الدكتور: سعيد



عميروش رفقة حارسه الشخصي عبد الحميد مهدي بالأوراس
1956

سعدي في كتابه، عميروش: حياة موتتان وصية تقول السيد: جيرمان تيون عن المجتمع الأوراسي "بأنه مجتمع غير متجانس وقد مر على مراحل تاريخية مضطربة، لم يعرف للأسف كيف يعبر عن معاناته سوى بأعمال العنف والتناحر"[1] هذه الملاحظة مستوحاة من كتابات عالمة في طباع البشر لا تخلو من حقائق يدركها الإنسان لأول وهلة عندما يتعايش مع سكان المنطقة لتأثرهم بالبيئة، والتأزم الدائم للعلاقات بين الأسر والقبائل بسبب التنافس على الحيازة وعلى استغلال الموارد الطبيعية... ولكونه كذلك يقيم في منطقة تصنف ضمن مناطق الطرد البشري، وقد عانى سكانها من اضطرابات حادة على مر العصور.

تقييم مختصر لرحلة عميروش إلى الأوراس في نظر المؤرخين:

لا يكون التقييم موضوعيا ونزيها إلا إذا صدر عن عناصر تلزم نفسها الحياد الإيجابي ولا تتأثر بالأحداث، تصف الأحداث دون أن تكون طرفا فيها لأسباب علائقية أو جهوية، وتبدي قدرا كبيرا من الشجاعة في الطرح، مهما تكن نتائج البحث الذي سوف تتوصل إليه على اعتبار أن التاريخ ذاكرة أمة وموروث شعب ينتقل من جيل إلى جيل، وليس من حق أي كان أن يحتكره أو يحرفه بدعوى أنه من صنع فصوله أو سجل ملاحمه ويكتبه وفق هواه، والزيف الذي يطبع الكتابات التاريخية بالمبالغة المفضوحة تعبير عن الشعور بالنقص لأن الكامل لا يبحث عن الكمال... والمؤسف أن العناصر التي كانت لها مساهماتها في صنع الأحداث هي من يعمل على تحريف الوقائع لغرض البحث عن الشهرة أو الخلود... بعض المراجع التي نتبناها في معالجة الموضوع نعتبرها مهمة جدا لأن الرواة أو الكتاب بتعبير أوفى للغرض عاشوا الحدث كشهود، وكانوا كذلك حسب شهادات كثير من الكتاب ومن المؤرخين ومن المجاهدين الذين أدلوا بتصريحات، أو في شكل استجوابات لجمعيات مهتمة أو مع كتاب ومؤرخين، وسنحاول معالجة الموضوع دون أن نتطرق للتفاصيل.

لعل أهم مرجع لدينا حول هذه الزيارة التي استغرقت مدة شهرين كاملين هو تقرير الرائد عميروش نفسه الذي بعث به إلى لجنة التنسيق والتنفيذ بعد أن أنهى

(1) عميروش: حياة موتتان (مرجع سابق)، ص: 108.

رحلته وعاد على عجل إلى الولاية الثالثة إثر سماعه لإشاعة كاذبة عن موت العقيد: سي ناصر، قائد الولاية الثالثة... التقرير تم تحريره من قبل كاتبه الشخصي حسين ابن معلم الذي رافقه إلى الأوراس وعاش الأحداث كشاهد، نستشف من تقرير عميروش ما يؤكد وجود محاضر للجلسات التي كان يعقدها مع القادة المحليين في الأوراس وأن التقرير المرسل إلى لجنة التنسيق والتنفيذ هو خلاصة لهذه المحاضر، ومن خلالها أيضا نتأكد من مشاركة كاتبه الخاص -حسين بن معلم- في هذه الجلسات واطلاعه على جميع الحيثيات... وهو ما أشار إليه اللواء: ابن معلم في مذكراته، حيث يقول: "في زوال الغد "دون ذكر للتاريخ" اجتزنا رفقة عبد الرحمن وخالد مرحلة طويلة إلى غابة قرية بوحمزة، وجدنا فيها عميروش صدفة، لم نحدّد للقائنا أي موعد خصصت ذلك الوقت كله لتحرير محضر المهمة التي قمنا بها إلى الأوراس، اقتنينا آلة راقنة صغيرة تعلمت استعمالها ميدانيا"[1]... وبما أن الأطراف التي رافقت عميروش في هذه الرحلة الطويلة من حدود الولاية الثالثة إلى أعالي جبل عالي الناس جنوبي: خنشلة، وحضرت معه جلسات كثيرة ذات أهداف مزدوجة "تبليغ وشرح قرارات الصومام"، ومحاولة تقويم وتشخيص الوضع عموما في المنطقة لتحديد أسباب الاضطرابات التي تهز المنطقة، وأغراض أخرى تتعلق بالهيكلة والتنظيم، عزل بعض المسؤولين ممن كانوا السبب في هذه الاضطرابات مثل: عائسي وعجول، وتعويضهم بعناصر أخرى وردت أسماؤهم في التقرير ومسائل أخرى كشفت عنها اللقاءات مع المسؤولين المحليين، بعض القادة ممن رافقوا عميروش في هذه الرحلة من بدايتها إلى نهايتها، عاشوا بقية الثورة خارج الحدود وشهدوا الاستقلال، أذكر من بينهم: الطاهر أنويشي، الحاج لخضر، صالح قوجيل، عمر بن بولعيد... لم يصدر عنهم أي تصريح في الجرائد اليومية أو في شكل استجوابات كالتي أجرتها جمعية أول نوفمبر لتخليد وحماية مآثر الثورة -بباتنة- مع

(1) مذكرات اللواء: حسين بن معلم(مرجع سابق) ص: 95.

العديد من إطارات الثورة شملت عناصر كانت على دراية بالموضوع مثل: عاجل عجول، غير أنه لم يكن طرفا مستقلا أو حياديا. والعنصران الوحيدان اللذان أدليا بحديث مطول في الموضوع يتعلق بمحاولة اغتيال: عاجل عجول من قبل عناصر موفدة من قبل عميروش حسب الرائد: هلايلي، هما: الصالح قوجيل والرائد: هلايلي... في كتابه: شاهد على الثورة في الأوراس.

فقد جاء في مذكرات الرائد: مصطفى امراره نقلا عن المجاهد: الصالح قوجيل وصف لعملية تبادل إطلاق النار بين عجول وجنود من أتباع عميروش... كما تعرض كشاهد مسؤول رفقة محمد بوعزة (عرعار) في وادي غسكيل إلى ما صدر من سلوكات من عجول نحو جنود كانوا قد انفصلوا عنه، حديث المجاهد: الصالح قوجيل منسجم ولا يشوبه أي غموض ويمكن أن يعتبر عنصرا حياديا، لم يبد أي طموح أو رغبة في المسؤولية. وقد تناول الرائد: هلايلي الموضوع كذلك بشيء من التوسع مُبديا تأثره بشكل واضح بما يصفه بالمؤامرة، وكان أحد ضحاياها الناجين، فباستثناء الثغرة التي لمسناها في أول التقرير والتي أشرنا إليه من قبل وتتعلق بتاريخ بدء الرحلة في الفاتح من سبتمبر وأن هذه الرحلة وقعت بعد استشهاد زيروت يوسف دون تحديد للتاريخ وقد أشرنا إلى تاريخ استشهاده وأن ذلك كان بعد رحلة عميروش إلى الأوراس. رحلة الرائد: عميروش تخللتها سلسلة من الاجتماعات مع القادة المرافقين لعمر. ولا شك أنه يكون قد صدم بعد الاستجوابات التي أجراها مع هؤلاء القادة على انفراد بعمق المأساة التي آت إليها الثورة في الأوراس، بعد استشهاد قائدها ابن بولعيد، كما ثبت له زيف الإدعاء الذي راح يتبجح به "عمر" الذي يزعم أنه منح تفويض من قبل قادة الثورة في الأوراس ليتولى مهمة قيادة الولاية بعد شغور المنصب على إثر وفاة قائدها، تحريات عميروش مع القادة أكدت له بطلان هذه الدعوة بل كشفت له عن تجاوزات أخرى خطيرة صدرت عن "عمر" منها حسب التقرير.

أ-تقرير "جبالي" مبعوث "عجول" بأن عمر قد حجز البريد الذي كان يحمله معه، كما أخبره أيضا بأنه كان مصحوبا بـ/ بلعقون مسعود، لكن عمر أوثقه وسجنه بعين التوتة.

ب-قيام عمر بتحرير رسائل بختم ولاية القبائل (حسب منطوق التقرير) وبأسماء كريم بلقاسم وأوعمران وعميروش.

جـ-تلقى (عمر) مراسلة من علي معلم أستاذ "محامي" بباتنة الناطق الرسمي باسم السيد: باي مدير عام السياسة الجزائرية موجهة إلى مصطفى بن بولعيد، وقد ورد فيها ما يلي :

"له أن يختار بكل حرية يوم المفاوضات الفرانكو/ جزائرية"

د- مراسلة أخرى موجهة إلى أحمد بن بلة من طرف عمر في شهر ماي يدعوه فيها إلى موافاته بتقرير عن كل النشاطات التي قام بها.

يقول التقرير بأن هذه المراسلات تم ختمها بختم القبائل حسب تصريح أدلى بها الكاتب الخاص لسي عمر بن بولعيد "دباش عبد الرحمن".

ولإثبات هذه الإدعاءات والتأكد من صحة هذه المزاعم، حاور عميروش عمر في الموضوع، فأنكر أن يكون قد كتب رسالة إلى الأستاذ: علي معلم محامي بباتنة... غير أنه تراجع على هذا التصريح وأكد ذلك أمام أشخاص رأوه"[1].

مثل هذه السلوكات لاشك أنها كانت تثير الأسف والحسرة ليس عند عميروش وحده لكن عند جميع القادة الذين رافقوا عمر في رحلته إلى الولاية الثالثة كممثل لولاية الأوراس الأشم... ولم تكن هذه المسائل مدرجة ضمن برنامج الزيارة لموفد لجنة التنسيق والتنفيذ، واصل عميروش خط سيره في اتجاه سيدي علي بـ/ كيمل، حيث سيلتقي بعاجل عجول أبرز قادة الأوراس آنذاك بعد استشهاد ابن بولعيد مرورا بجبل: "شيليا" الذي سيصادف فيه كتيبة من الجنود شاردة لا تخضع لأية تنظيم ولا لأية قيادة، وتفتقد لجميع مواصفات الجيش النظامي، تقوم بتجاوزات خطيرة تسيء إلى سمعة الثورة، أعاد الرائد: عميروش-حسب التقرير- تنظيم هؤلاء الجنود بعد أن استفسرهم عن أسباب تشردهم، وانصرفوا لأداء مهامهم.

دراسة حالة عايسي مسعود :

وفي سيدي علي(اسم مكان) اتصل عميروش حسب منطوق التقرير ولأول مرة بعائسي مسعود، كان هذا بتاريخ: 1 أكتوبر 1956... وفي اليوم الموالي حسب

(1) تقرير عميروش عن شهداء الأوراس، الجزء الرابع، ص: 646.

عميروش دائما تم عقد اجتماع موسع حضره أغلب القادة ذكر التقرير أسماءهم ومناطق نشاطهم. دست خلال هذا الاجتماع أهم النقاط التي كانت تثير قلق المسؤولين وتقرر في آخر الاجتماع توقيف: عائسي مسعود الذي ثبت عجزه عن القيادة -حسب منطوق التقرير- وتحرير كل المسجونين الذين أوقفهم، ثم طلب منه تسليم المالية والخاتم وكذا الأسلحة التي كان قد حجزها ففعل، ولم يبد أي اعتراض عن القرار.

دراسة وضعية عاجل عجول:

وقد توصل عميروش في أول لقاء جمعه بعجول مساء يوم: 2 أكتوبر 1956 إلى إقناع عجول بضرورة التخلي عن المسؤولية التي أنيطت به ومرافقته إلى تونس عبر المنطقة السادسة -ناحية النمامشة-، وهذه لمصلحة البلاد، فقبل بذلك دون أية مواجهة مع الآخرين"[1] هذا الرد الإيجابي من عجول يكون قد أوهم عميروش بإمكانية حل المعضلة عن طريق حوار هادىء مع العناصر المعنية، وتعيين قيادة جديدة للولاية تحظى بثقة الجميع أو بثقة الأغلبية على الأقل، تعيد الطمأنينة إلى النفوس بإمكانية استعادة الأوراس لدورها الريادي.

اعتقد عميروش أن مقترحه يكون قد اقترن بالحل السليم، سيما وأن عجولا قد قبل به... فعرض عليه مرافقته إلى تونس عبر جبال النمامشة حيث تقيم عناصر موفدة من قبل لجنة التنسيق للتحري معه في موضوع التهمتين اللتين نسج حولهما خصومه جملة من المشاكل أدت إلى تضعضع مركز القيادة وهما: اغتيال: بشير شيحاني ثم ابن بولعيد، فراحت الحلقة تضيق من حوله حتى لم يبق له إلا ما اصطلح عليه الرائد: اهلايلي بـ/ سكتور عجول فكان لا يستطيع تجاوز جبل: عالي الناس والمرور إلى النمامشة، كما أنه لا يستطيع تخطي رأس "السراء" بالهارة اتجاه الأوراس الغربي، قائد بلا قيادة ومسؤول بلا مكانة ولا وزن ولا اعتبار، بعد أن كان على عهد "شيحاني" قائد بالنيابة يمتد نفوذه من أقصى نقطة في الولاية بجبال المعاضيد وبوسعادة إلى الحدود التونسية فخير لعجول أن يقدر الموقف الذي يمر به

(1) المرجع السابق، ص: 648.

حق قدره، وأن يرحب بمقترح عميروش وأن ينسحب من الميدان بشرف، وهو ما سيفعله، غير أن الرياح تجري بِمَ لا تشتهي السفن، كما يقول المثل... سافر عميروش وبرفقته عجول وبعض القادة لم يذكر تقرير عميروش أسماءهم، عدا "عمر" الذي ذكر التقرير أنه رفض مرافقة عميروش لوجود عجول معه، فصرفه عميروش عبر طريق وسار الوفد الذي يضم عميروش وعجولا في طريق أخرى على أن يلتقيا في النمامشة، يقول الرائد: هلايلي في شاهد على الثورة في الأوراس "سلك عجول وعميروش والحاج لخضر وآخرون طريق الجنوب، بينما سلك عمر بن بولعيد وآخرون طريقا مغايرا، ويضيف "انطلقنا في الرحلة الأولى من غابة بني ملول قاصدين "برقة"... ثم انطلقنا في الرحلة الثانية من تاغليسيا إلى جبل عالي الناس وبينما كنا نهيء أنفسنا للشروع في قطع مسافة الرحلة الثالثة انطلاقا من مركز أولحاج نحو مركز القلعة... بكل أسف قبل الانطلاق بدأنا نتلمس بعض معالم المؤامرة على عجول، ذلك أنه بمجرد خروج الدورية المكلفة باستطلاع الطريق عاد أحد أفرادها حاملا رسالة إلى عميروش، وهي عبارة عن ورقة من كناشة جيب كتب عليها بخط رديء جدا (لا يمكنك يا عميروش المرور وعجول بصحبتكم) ادعى صاحبها أنها مرسلة من مجموعة النمامشة، وهو ادعاء باطل إذ لا وجود لمجموعة النمامشة في تلك الجهة التي يسيطر عليها عجول، والحقيقة أن الرسالة كانت صادرة عن بعض مرافقي عميروش نسبت تمويهاً لجماعة النمامشة"[1] قد لا يكون من حقنا أن نطعن في رواية شاهد على الثورة في الأوراس، سيما وأنه كان أحد أفراد الجماعة التي رافقت الوفد ويعرف رجالاتها بالاسم بالإضافة إلى معرفته الجيدة بالأماكن التي اجتازتها الدورية. فليت الشاهد ذكر المتهمين في تزييف المراسلة بالاسم، كما ذكر اسم: عميروش وعجول والحاج لخضر -أفراد الدورية- فالتلميحات والإشارات والرموز في مسائل خطيرة كهذه لا تقنع القارىء، ولا تزيل الغموض التي يكتنف القضية من أساسها.

(1) شاهد على الثورة في الأوراس (مرجع سابق) ، ص: 281-282.

الرائد: هلايلي لم يتعرض لمسار الدورية، بعد أن انصرف عجول عائدا إلى قطاع كيمل بإذن من: عميروش الذي منحه رخصة مرور إلى الولاية الثالثة، لو فعل ذلك لانكشفت له مسائل أخرى، فإلى أي جماعة ينتمي جنود عبد الرحمن العمراني الذين تخلو كدلائل عن عناصرالدورية في أماكن جد خطيرة ثم منعوهم من اقتفاء أثرهم وإلا أطلقوا عليهم النار، فانسدت الطريق أمام الدورية واضطرت للعودة إلى "شليا" أليس هؤلاء هم من كتبوا الرسالة؟!... أكثر من نصف قرن يمرّ على الحادثة، كانت كافية بالنسبة للرائد: هلايلي المتأثر بهذه الأحداث، وكانت له وجهة نظر تختلف كثيرا عن وجهة نظر عناصر أخرى مسؤولة عاشت الأحداث بدورها مثل: عميروش في تقريره، وحسين بن معلم في مذكراته -الجزء الأول- والصالح قوجيل في روايته التي نقلها عنه الرائد: مراردة مصطفى في مذكراته... يشير الرائد: هلايلي في الصفحات الموالية من كتابه عن الشخص الذي سلم الرسالة لعميروش، ويذكره بالإسم، وأنه المعروف بـ/ أحمد بن الحاج التيفورغي المنسوب إلى قبيلة تيفورة المجاورة لأولاد عبيد فرع من النمامشة الذين ينفي وجودهم في هذه المنطقة التي يسيطر عليها -حسبه عجول-.

ليس غرضنا هنا الكشف عن الحيثيات التي أدت بعجول إلى الاستسلام في ظروف كانت جد حرجة ساد فيها التطاول بين عناصر مسؤولة، وامتد إلى الوحدات وإلى قواعد الإمداد، مما أدى إلى تفكك وانفصام عناصر الوحدة بين المحاربين، وظهور وحدات تقاتل بأسماء رؤسائها (جيش مسعود بن عيسى، كتيبة بن ناجي، جنود رابحي الشريف...) أو بأسماء القبائل التي ينتمي إليها قادتها أو معظم جنودها، فقلَّ المردود العسكري للوحدات ولم تعد الأوراس التي كانت مهدا للثورة تشكل خطرا حقيقيا على الوجود الاستعماري في الأوراس، كما كانت في بداية الثورة، بعد أن سقطت هيبتها.

اعتقد عميروش الذي غادر ناحية شيليا منطقة التوتر بعد أن علم باستشهاد العقيد: سي ناصر (أمحمدي السعيد) قائد الولاية الثالثة على عجل، بعد أن فوض الأمر لمجموعة من القادة المحليين كإجراء يسمح باستمرارية الثورة في حالة التزام هؤلاء القادة بهذا التنظيم، وقد فوض قبل مغادرة المنطقة الأمر لـ/ محمد لعموري باستكمال

بقية التنظيم على مستوى المنطقتين المضطربتين خاصة دون تعيين للمنطقتين، والراجح أنه يعني بهما المنطقتين اللتين تموجان بالاضطرابات، وهما المنطقة الثانية ناحية: آريس والمنطقة السادسة ناحية: تبسة، ودعا عميروش في الأخير قبل مغادرته للأوراس مسؤولي الولاية الأولى إلى حضور لقاء يجري ببلاد القبائل لاستكمال بقية الإجراءات المتعلقة بالهيكلة والتنظيم يقول اللواء: حسين بن معلم في مذكراته" والذي كان مؤكدا أنه إذا استثنينا "عمر بن بولعيد، وانفصالي العمراني، ومسعود بن عيسى، فقد استجاب كافة مسؤولي الأوراس، وليسوا بالهينين لدعوة عميروش... قبل أن يغادر الأوراس في عجالة، كان في تقديره أن من الضروري القيام بمواجهة أخرى للأوضاع مع مسؤولي الأوراس... وقد ضم اجتماع "موقة" بالقبائل كافة الذين رافقونا في أثناء مقامنا بالأوراس، أضيف إليهم مسؤولون آخرون لتلك الولاية"[1].



صورة تذكارية لمجاهدي الولايتين الأولى والثالثة تخلد ذكرى زيارة عميروش إلى الأوراس خريف 1956

(1) مذكرات اللواء: حسين بن معلم (مرجع سابق) ، ص: 100.

عميروش ولعموري ينتقلان إلى تونس :

ولم يلبث لعموري المفوض من قبل ممثل لجنة التنسيق والتنفيذ الرائد: عميروش بمواصلة عملية التنظيم وإعادة الهيكلة داخل المنطقتين أن غادر بدوره الأوراس عبر الولاية الثالثة رفقة الرائد: عميروش إلى تونس بطلب من لجنة التنسيق والتنفيذ التي دعت عميروش للتوجه إلى تونس قصد مواصلة مهمة المصالحة بين قادة الولاية الأولى، وكانت المجموعة التي انطلقت من الولاية الثالثة –حسب حسين بن معلم– مشكلة من الرائد: عميروش، عبد الحميد مهدي، والطيب موري ومني أنا كاتبه (حسين بن معلم) وكذا من مسؤولين مرموقين في الولاية الأولى (منهم) الطاهر أنويشي ومحمد لعموري"[1] فمرافقة لعموري لعميروش إذن كان بنية مواصلة مهمة المصالحة بين قادة الولاية الأولى... في القسم الشرقي لهذه الولاية التي كان مسؤولوها السامون مسجونين في تونس من بينهم: أشريط لزهر، عباس لغرور، وعبد الحي"[2].

وقد لحق بهم العقيد: أوعمران موفدا من قبل لجنة التنسيق والتنفيذ يحمل أمرا بإيقاف على محساس الموفد من قبل: أحمد بن بله لتحريض قادة الولاية الأولى والقاعدة الشرقية على رفض قرارات مؤتمر الصومام، والمشاركة في الحوار مع قادة الولاية الأولى لإنهاء الصراع الذي احتدم من أجل السلطة في الأوراس، مما أثر سلبا على المقاومة المسلحة وأساء إلى سمعة الثورة في الأوراس.

استقدمت هذه اللجنة التي تشكلت في تونس قادة معينين ممن يرفضون العمل بمقررات الصومام، وممن أظهروا قلة الانضباط داخل الأوراس... وبعد سلسلة من الاتصالات عاد هؤلاء المسؤولين من تونس بانطباعات قاتمة بعد أن تعرضوا حسبهم لإساءات من طرف هؤلاء القادة -أعضاء لجنة المصالحة- عبروا عنها بعبارات مختلفة."اللي يأكل اللحم ما يحكم في اللي ياكل تالغودة"[3]" إن كانت حركتكم يمثلها هؤلاء الذين تحادثت معهم في مدينة تونس، فإننا لن نلتقي بعد اليوم إلا على قمم الجبال وأن الحوار لن يكون إلا بلغة الرصاص تردد أصداءه جبال الأوراس"[4].

---

(1) المرجع السابق، ص: 105– 106.

(2) نفس المرجع، ص: 105.

(3) إشكالية القيادة في الثورة الجزائرية (مرجع سابق) ، ص: 352.

(4) نفس المرجع، ص: 315.

كان هذا منطق المنشقين"إذا لم تكن معي فأنت ضدي" وقد عزم هؤلاء القادة رغم قلة عددهم على إخضاع بقية المسؤولين في الولاية لإرادتهم برفض مقررات الصومام والطعن فيها بحجج واهية، فممثلوا لجنة التنسيق والتنفيذ الذين تحاور معهم أحمد عزوي ومسعود عائسي وغيرهم من المدعوين موفدين من قبل هيئة عليا للثورة انبثقت عن المجلس الوطني للثورة الذي انبثق بدوره عن المؤتمر الذي لم تحضره الولاية الأولى -بسبب هذه الخلافات- فإذا كان هؤلاء القادة يرفضون الاعتراف بهذه الهيكلة جملة وتفصيلا والتي أجمع عليها بقية قادة الولايات في الوطن، فقد خرجوا عن الإجماع، وللقيادة الحق في محاربتهم.

فقد أساءوا بها عملوا وتركوا بصمات غائرة في تاريخ الأوراس الأشم لن تندمل أبدا، عاد هؤلاء القادة إلى الأوراس، بعد لقاءات ساخنة مع لجنة معينة من قبل لجنة التنسيق والتنفيذ لتندلع الحرب على أشدها بين هذه الوحدات وبين الوحدات النظامية التي تعمل في ظل الشرعية أو من كانوا يوصفون بالجبهويين، واختلت الأوضاع الأمنية نتيجة تعدد جبهات الصراع، وامتد هذا الصراع إلى قواعد الإمداد، وشلت حركة الاتصالات بين الوحدات وبين النواحي والمناطق، فوجد المناضلون والمجاهدون أنفسهم في حيرة من أمرهم.. يقول اللواء، حسين بن معلم في مذكراته، وقد عاش جزءا من مأساة الاوراسيين "تراجع عددا لعمليات ضد الجيش الفرنسي بشكل ملحوظ، كانت هذه الأخيرة (القوات الفرنسية) دقيقة الإطلاع على تلك النزاعات، فلاذت بمعسكراتها مكتفية بعمليات متقطعة، تركت قصدا مطلق الحرية لتصفية الحسابات والصراعات الأخوية"[(1)] هكذا، بعد أن وجدت من ينوب عنها... وقد ظلت فكرة العداء مترسبة في قلوب بعض العناصر من المنشقين مسيطرة على عواطفهم... ففي إحدى القرى بالأوراس كان أحد المجاهدين من هؤلاء المنشقين يعمل منظفا في مستوصف القرية، فكان كلما جمعه لقاء وسط جماعة من الناس بمجاهد آخر يعمل حارس غابة -وكنت أعرف الاثنين

(1) مذكرات اللواء: حسين بن معلم (مرجع سابق) ، ص: 81.

معرفة جيدة- يذكره بالمعارك التي خاضوها معهم في... وبالهزائم الساحقة التي ألحقوها بهم وبعدد قتلاهم وأسراهم فكان الثاني (من الجبهويين) يكتفي في ردّه بعبارة واحدة، ولمن كان النصر في الأخير؟ كانت الحرب بين المجاهدين مؤلمة جدا، وكان ذلك يثير الشعور بالخيبة والألم في قلوب المواطنين الذي وجدوا أنفسهم في حيرة من أمرهم، فقد يلتقي أحيانا هؤلاء الإخوة الأعداء على غير موعد في مركز للتموين فيتبادلون إطلاق النار أمام مرأى السكان وحتى وسط المركز، وقد يسقط من بينهم قتلى وجرحى، فيحز هذا في قلوب السكان، لكنهم يلتزمون الصمت ويظلون أوفياء للثورة رغم المحن...

لا نستطيع أن نتصور حدة المعارك التي وقعت بين الطرفين في: الزقاق وفي المحمل وفي خنقة أمعاش، وفي وادي الطاقة، وفي شيليا... وفي أماكن أخرى... اضطرت الحاج لخضر، عندما كان قائدا للولاية بالنيابة (1958-1959) إلى طلب المساعدة من الولايتين الثالثة والرابعة للقضاء على حركة المشوشين التي استنزفت طاقات من المجهود العسكري للثورة وأسقطت هيبة الثورة في الأوراس وأخلت بالنظام العام بشكل مثير للحيرة والألم، حيث أصبح الجنود في حيرة من أمرهم، بعد أن اتضحت لهم نوايا القيادات.

هل لهذا السقوط نهاية؟ :

من المؤسف أن يستمر هذا الصراع طويلا، فقد ظهرت بوادره عندما وقع ابن بولعيد في الأسر فيفري 1955، فراح بعض القادة يتطلعون إلى الصعود إلى مركز القرار، غير أن هؤلاء صدموا عندما ظهر القائد: ابن بولعيد فجأة وسط المجاهدين نوفمبر 1955، فانطفأت جذوة التنافس على القيادة وعاد كل متطاول إلى حجمه، إلا أن هذا الصراع تجدد بحدة أكثر عندما سقط ابن بولعيد شهيدا إثر انفجار جهاز لاسلكي مفخخ ليلة 22-23 مارس 1956، واستمر طويلا، ولم ينته بصفة رسمية إلا بعد سقوط أو إبعاد جميع العناصر التي كانت تغذي هذا الصراع بالموت أو الإبعاد أو بالعودة إلى جادة الصواب. ولم تستعد الأوراس عافيتها وتنتظم جيوشها تحت قيادة واحدة إلا في مطلع سنة: 1960، وقد سعى جميع قادة الولاية الأولى

بالنيابة (إذ أن قائد الولاية أصبح مستقرا في تونس)، وصارت تُسيَّر عن طريق اللاسلكي، كما هو الحال بالنسبة للولاية الخامسة على الحدود الغربية إلى بذل قصارى جهدهم لإنهاء التمرد ومن بينهم (علي النمر، الحاج لخضر، مصطفى مراردة، على أسوايعي). محاولات كثيرة بذلت لإقناع قادة هذه الوحدات المنشقة بالعودة إلى النظام والعمل في ظل الشرعية، غير أنهم ظلوا يرفضون ذلك بالرغم من المغريات التي كانت تعرضها قيادات الولاية على رؤساء هذه الوحدات كالمحافظة على الرتب الحالية أو الترقية إلى رتب أعلى، إسداء مناصب في الإدارة... كما حدث بالنسبة لرابحي الشريف على عهد: مصطفى مراردة قائد ولاية بالنيابة... فقد اهتزت الثقة بين الطرفين وتزعزعت بقوة لدى الوحدات المنشقة وأمسى من الصعب إقناع مسؤوليها بالإنضمام إلى الجبهويين الذين كانوا يكنون لهم العداوة والبغضاء... غير أن نوعا من اليأس بدأ يدبّ في أوساط الجنود ورؤساء الأفواج وراحوا يبحثون عن سبيل يوصلهم إلى قيادة الولاية للتعبير عن نيتهم في الرجوع إلى النظام، وما لبث أحد جنود عائسي أن قام باغتياله، فانفرط العقد وراح جنوده يبحثون عن الوحدات النظامية لينضموا إليها، كما أقدم جنود محمد أمزيان أملولي بتصفيته وولوا أمرهم: عمار الرَّفال وتوغلوا بعيدا في جبال النمامشة بعد أن ارتكبوا مجزرة رهيبة في حق 117 مجندا جديدا"[1]. وراحت بقية الوحدات تتلاشى بالتدريج حتى مطلع 1960.

الحركات المناوئة للثورة في المناطق الأخرى :

هذه المحنة التي ابتليت بها الولاية الأولى، ابتليت بها ولايات أخرى في الوطن لكن بأشكال أخرى، فقد ظهرت في الولاية الرابعة عدة حركات مناوئة زعمت أنها تمثل الجيش الوطني الشعبي الحقيقي، وأن ما يوصف -حسبها- بجيش التحرير الوطني هم جماعات من الأفاقين والشيوعيين (باستغلال مسألة الشيوعية التي يمقتها المسلمون) كان من أبرز هذه الحركات وأشدها خطرا على الثورة *الحركة الوطنية الجزائرية بقيادة محمد بللونيس وقد ظهرت في البداية على حدود الولايتين الثالثة

---

(1) إشكالية القيادة في الثورة الجزائرية (مرجع سابق)، ص: 399-340.

والرابعة، وتتمثل خطورتها في استغلالها للمشاعر الوطنية للسكان في منطقة متميزة بنضالها داخل الحركة الوطنية المتشبعة بالفكر المصالي وقد استمر نشاطها حتى بعد مقتل قائدها الجنرال: محمد بللونيس جويلية 1958 وقد تأكدت علاقتها بالجيش الفرنسي من خلال التصريحات التي أدلى بها عدة مسؤولين فرنسيين، جاك سوستيل، لاكوست...

*حركة جان سيرفي، في جبال زكار، وتمثل هذه الحركة حلقة أخرى من حلقات الصراع مع الاستعمار، فقد استغل هذا الباحث ضعف التكوين السياسي لمواطني ناحية: زكار وكون جيشا تجاوز عدد أفراده الألف حركي، وظل يقاتل في شكل تنظيم مستقل عن جيش الاحتلال الذي يمده بانتظام بالدعم اللوجيستيكي عند الضرورة طوال سنوات (1955-1956-1957-1958)، وبعودة دوغول إلى الحكم قرر إدماج جميع الوحدات داخل الجيش النظامي، وأحيل الباحث جان سيرفي إلى مهام أخرى، حيث أسندت له مهمة إعداد إطارات ما بعد الاستقلال في الولاية العامة.



بلونيس على يمين الصورة مع بعض قيادات الجيش الفرنسي

*حركة بلحاج جيلالي، وهو مناضل سابق خريج مدرسة: شرشال العسكرية، تم ترويضه، بعد أن ألقي عليه القبض عندما اكتشفت المنظمة الخاصة في 18 مارس 1950 أطلقت الاستعمار سراحه سنة 1955 بعد أن ضمنت ولاءه، فأدار ظهره للحركة الوطنية التي ناضل كإطار بين صفوفها، فانضم في البداية إلى الحركة المصالية مستغلا سمعته القديمة كإطار في الحركة الوطنية وقام بتجنيد عدد كبير من سكان منطقة الشلف، وكون جيشا أسماه الجيش الوطني الحقيقي ليوحي

للمواطنين ولجنوده خاصة بوجود جيش وطني آخر مزيف، قامت قوات الاحتلال بإمداده بأسلحة قديمة من مخلفات الحرب العالمية الثانية... معظم جنوده كانوا يجهلون نواياه ويعتقدون عن سذاجة أنهم يقاتلون من أجل تحرير الوطن، غير أنهم راحوا يتساءلون بعد مدة قصيرة عن عدم مهاجمته للقوات الاستعمارية وعن عدم مهاجمة هذه القوات نفسها لجنوده... اتخذ اسم "كوبيس" كنية له وقد عرف بها فيما بعد... ولم تلبث عناصر جيش التحرير أن استغلت هذه الحيرة لدى جنود "كوبيس " لتخترق صفوفه وتستميل عناصر من جنوده، واشترطوا عليهم للتعبير عن حسن نيتهم اتجاه جيش التحرير الوطني تصفية "كوبيس" وحمل رأسه إلى قيادة الناحية كشاهد إثبات ودليل سخط وغضب من قبل جنود غرر بهم ودنس سمعتهم، فلم يتردد هؤلاء الجنود المغرر بهم في تنفيذ مخطط قائد الناحية ليلة: 27–28 أفريل 1958 والتحقوا بجبال: "عمرونة" حاملين معهم رأس كوبيس.

* حركة السعيد بوعلام باشاغا وهو عميل تقليدي للاستعمار تعلق بركاب سلطة الاحتلال منذ أن وجد، أسندت إليه وظيفة الباشاغا كمكافأة فأخلص في خدمة الأسياد، كون مع بداية الأحداث في المنطقة جيشا من العملاء غربي الونشريس، حيث يوجد عرشه بنوبودوان.

حاول عرقلة حركة نشاط جيش التحرير الوطني في هضبة الونشريس وفي الناحية الغربية منها خاصة... شعر جيش التحرير بخطورة الحركة فسعى إلى إضعافها والقضاء عليها عن طريق الاختراق كما حصل مع حركة "كوبيس" في جبال: زكار، ظهرت بين جنوده عناصر وطنية فحاولت تصفيته. وعندما شعر بأن الجبهة جادة في التخلص منه فر إلى العاصمة وهناك واصل مشواره في الخيانة، بعد أن اندمج في منظمة الأقدام السوداء، أما حركته فقد شلت بعد أن تخلى عنها مؤسسها تحت ضغط جيش التحرير الوطني.

* حركة الشريف بن سعيدي، وقد ظهرت هذه الحركة شمالي الولاية السادسة تزامنا مع تشكيل هذه الولاية، بعد مؤتمر الصومام الذي أعاد النظر في تنظيم التراب الوطني... الشريف بن سعيدي ضابط سابق في القوات الفرنسية كان في حالة

إجازة عندما اتصل به جنود جيش التحرير الوطني لاستيثارة عواطفه الوطنية واستمالته للانضمام إلى الثورة، فأظهر الرضى وأضمر الخديعة، فانضم إلى الثورة قصد الإيقاع بها، وتظاهربالإخلاص التام للقضية الوطنية، وراح يجند من يثق في ولائهم من أتباعه وعشيرته الأقربين إلى أن شكل كتيبة انفرد بها، وراح يتحرك بمفرده دون تنسيق مع بقية الوحدات ويخطط للاستيلاء على الولاية السادسة بالعمل على تصفية العناصر القيادية واحدا تلو الآخر بواسطة عمليات غدر كان يخطط لها بإحكام دون أن تتفطن له هذه القيادات وذلك باستدراج قادة الولاية إلى كمائن تنصبها قواته، فيعتقد هؤلاء أنهم وقعوا في كمين للقوات الفرنسية، فاغتال في الواحد والثلاثين من مارس 1957 قائد الولاية علي ملاح، وبعده بأسبوع واحد نصبت قواته كمينا لنائبه الرائد: الروجي الذي استدرج للكمين بأولاد عائد... وهكذا استطاع أن يتخلص من معظم إطارات الولاية السادسة، فخلاله الجو وأعلن عن نفسه قائدا للولاية وسط عصابة من أقاربه... شعرت قيادة الولاية الرابعة بخطورة الموقف فقررت تصفية عصابة ابن سعيدي، فتحرك الرائد: عز الدين من قيادة الولاية الرابعة على رأس كومندوس: علي خوجة لمواجهة هذا المتآمر بهدف القضاء عليه، فلما علم ابن سعيدي بتحرك هذه القوات وشعر بأن مواجهتها لن تكون مجدية ارتمى في أحضان القوات الفرنسية التي تطوع لخدمتها.

هذه الحركات مجتمعة أو متفرقة كانت تناصب العداد لجيش التحرير الوطني وتعمل على ملاحقته وإلحاق الهزيمة به لإرضاء سلطة الاحتلال، وقد يبدو للقارىء أن هذا الموضوع لا ينسجم مع مضمون الكتاب الذي تعرض لموضوع المد والجزر الذي عاشته الثورة في الأوراس، وإنما كان غرضنا هو الإشارة إلى الصعوبات التي كانت تعانيها وحدات جيش التحرير الوطني التي كانت تقاتل على أكثر من صعيد وأكثر من عدو، وهذا في معظم الولايات التاريخية، وأشدها ضررا الولايات (الأولى، الرابعة، السادسة) فإذا كانت البلية التي أصابت الولايات الرابعة والثالثة والسادسة كانت نتيجة قناعات خاطئة تكونت لدى أطراف أخرى تدعي الوطنية مثل: حركة: بللونيس أو أطراف أخرى باعت ضمائرها واستكانت

لعدوها مثل: حركة: بلحاج جيلالي "كوبيس" أو أخرى تبحث عن الشهرة وتأكيد الولاء للسلطة الاستعمارية مثل: حركتي بوعلام باشاغا والشريف بن سعيدي في الولايتين الرابعة والسادسة... فهي في الأوراس أعظم وأشنع لأن القناعة واحدة، فالجميع يقر بوحدة القضية وبأن العدو مشترك وأن الكفاح المسلح هو الوسيلة الوحيدة الممكنة لاستعادة الكرامة الضائعة.

فهذه قناعة الجند والقادة على السواء، وهي قناعة كل مواطن، فهؤلاء جميعا كانوا لا يجيدون استقراء الأحداث ولا يدعون قراءة ما بين السطور فمستوياتهم التكوينية واحدة والفروق الفردية التي كانت تميز بعض العناصر هي الأسبقية في النضال داخل الحركة الوطنية، عندما كان هذا العمل الوطني يوصف بالرّعونة فقد تطوع الجميع لخدمة الثورة أولا وأخيرا، وليس من بين هؤلاء من كان يأمل في أن يشهد الاستقلال، بل كان من بينهم من يستعجل الاستشهاد... فقد انتقلت العدوى بسرعة من القادة إلى الجنود وأصيبوا بنوع من الانفصام مع الماضي، وتكونت لديهم قناعات أخرى جعلتهم يعتقدون أنهم يقاتلون من أجل المبادىء وضد تحريف الخط الأيديولوجي لبيان "أول نوفمبر"، وما إلى ذلك، وهذه الإدعاءات أو هذه الهراءات حيكت بعناية لغرض تحفيزهم على القتال ضد عناصر قبلت بمقررات الصومام، وبالتالي إسقاط من يزعمون أنهم اختطفوا منهم الزعامة وتربعوا على كرسي القيادة.

هذه النكسة أصابت الأوراس في الصميم وأضعفت قوتها وقللت من مردودها "بعد أن كانت مركز ثقل الثورة المسلحة بدون منازع طوال العام الأول من عمرها"[1] كانت القوات الفرنسية من جهتها تتابع مجريات هذه الخلافات بحذر شديد وتعمل بوسائلها الخاصة على تغذيتها وتوسيع الشرخ بين القادة عن طريق العملاء، أو بواسطة رسائل تبعث بها إلى المسؤولين لتوهمهم بوجود عناصر عميلة تنشط وسط وحدات جنود جيش التحرير الوطني...

---

(1) خصومات تاريخية (مرجع سابق)، ص: 140.

وقد ظلت الأوراس تخيفها ولن تطمئن لعثرتها أو حتى لسقوطها، ولضمان تحييدها سوف تعد لها حملات تلو حملات تسابق بها قادة الثورة الذين راحوا يحاولون إعادة ترتيب هياكلها لتستعيد دورها الريادي.

تجدد الحملات ضد الأوراس:

بالرغم مما آلت إليه الأحداث في الأوراس، نتيجة الصراع على الزعامة بين بعض مسؤولي المنطقة ممن يتظاهرون بالوطنية الخالصة والدفاع عن المصلحة العليا للثورة، ويسعون في نفس الوقت إلى إشاعة الفرقة وتغذية روح الكراهية وبعث النعرات الطائفية بين المقاتلين، وهذا ما كانت تسعى إلى تحقيقه مكاتب الشؤون الأهلية والفرق الإدارية المتخصصة (SAS) فقد جاء في مذكرات اللواء: حسين بن معلم "كان مؤسفا، وأيضا مضرا أن تعرف هذه المنطقة الماجدة وضعية عدم استقرار وهشاشة بسبب الصراعات بين الإخوة، وبسبب الانفصالات (تفكك نظام الوحدات)[1].

بالرغم من هذه الوضعية التي يصفها اللواء: ابن معلم بالهشة فإن القوات الفرنسية ظلت متخوفة من احتمال تجدد نشاط المقاومة الذي لم يتوقف أبدا لكنه لم يكن بنفس الفعالية التي كان عليه خلال السنة الأولى من الثورة وامتد إلى غاية 1956 ومع مجيء الرئيس: دوغول إلى الحكم -نهاية 1958 -بمشروع مترابط الحلقات، كانت أولى مراحله العمل على سحق الثورة نهائيا... تجددت الحملات العسكرية بصورة أعنف في إطار تطبيق برنامج "شال" الرهيب على ربوع الوطن من أقصاه إلى أقصاه، طبقا لمخطط الرئيس: دوغول الذي صرح عند عودته إلى الحكم بأنه "كان يقتضي أن يربح جيشنا المعركة كي نحتفظ بكامل حريتنا في قراراتنا وتصرفاتنا"[2] وفي هذا الإطار، وعلى ضوء النتائج المستخلصة من الهزيمة المذلة التي انتهت إليها الحرب في فيتنام، وخشية تكرار نفس الهزيمة، درس دوغول خلال

(1) مذكرات اللواء: حسين بن معلم (مرجع سابق) ، ص: 80.

(2) مذكرات: الأمل (مرجع سابق) ، ص: 130.

صائفة 1958 آفاق الخيار السياسي مستعينا بأدمغة الجيش الفرنسي... وذلك بتشريح الحرب الدائرة في الجزائر منذ أربع سنوات من جميع جوانبها، وانتهى إلى الحل العسكري، ونظرا لشساعة التراب الوطني اختار حسب مخطط "شال" حسم المسألة مع وحدات جيش التحرير الوطني في الولايات الواحدة تلو الأخرى، وقد لخص "موريس شال" برنامج مخططه الذي يحمل اسمه، مع تغيير أسماء الحملات على الولايات في العبارات التالية :

1-مزاحمة الثوار في المكان والزمان المفضلين لديهم أي "الليل والجبل".

2-الاستعانة بالجزائريين على اعتبار أن الفرنسي المسلم (الحركي) أفضل قناص للفلاقة.

3-تأسيس نظام بديل لجبهة التحرير الوطني.

4-إخراج الثوار من الميدان الذي ألفوا العيش فيه ومحاصرتهم وتشديد الخناق عليهم في مناطق غير مألوفة لديهم.

5-تسليط وحدة كومندوس على كل كتيبة من كتائب جيش التحرير الوطني ومراقبتها مراقبة شديدة.

فكان حظ الأوراس من هذه الحملات التي ابتدأت من هضبة "فرندة" بأقصى الغرب ثلاث حملات متعاقبة لإعادة بعث مشروع: تطهير جبال الأوراس الذي كان قد تعهد به الوالي العام: روجي ليونار مطلع سنة: 1955، وقد جرت هذه الحملات على النحو التالي :

* حملة الشرارات أو عملية "إينستال" وقد مست جبال الحضنة المتصلة بالولاية الثالثة لمنع تسرب مجاهدي الولاية الثالثة إلى الولاية الأولى، وامتدت فيما بعد إلى جبال: بلزمة بالأوراس الغربي أو ماكان يعرف في التنظيم المحلي بالمنطقة الأولى.

انطلقت هذه الحملة خلال شهري جويلية-أوت، من سنة 1959، وما لبثت أن مست جميع مناطق غرب الأوراس، وكانت في الحقيقة امتدادا لعملية: التوأمان (القبائل الصغرى والكبرى) التي ضربت الولاية الثالثة بعنف بداية من 22 جويلية 1959، وقد أشرف عليها الجنرال: شال نفسه، وقد حظيت بزيارة تشجيع من قبل الجنرال: دوغول شخصيا الذي انتقل إلى مركز الجنرال: شال بـ/ "شلاطة" وفي هذه

الزيارة ومن هذا الموقع ألمح الرئيس: دوغول إلى إمكانية الحديث عن تقرير مصير الجزائريين بعد أن حقّقت قواته حسب التقارير التي كانت تصله كل ما كان يتوخاه.

فعملية الشرارات في الواقع كانت امتدادا لعملية التوأمان "بنية تعقب الثوار الذين يعتقد أنهم سوف يلجأون إلى هذه المناطق من الولاية الأولى أو بعبارة أخرى منع تسلل جنود الولاية الثالثة للاحتماء بالولاية الأولى التي لم تصل إليها الحملة بعد.

وقد أورد ذلك الجنرال: دوغول في مذكراته -الأمل- حيث يقول: "وقد بدأت الحملة بتسرب عميق مفاجىء في هضبة الحضنة الشاسعة حيث كان ثوار منطقتي القبائل يتنقلون من قمة إلى قمة ومن دار إلى دار ومن غابة إلى غابة، ويتصلون بالثوار الكامنين في جبال: أوراس وفي جبال: النمامشة، وبهذه العملية أصبحت قلعة القبيلة في المعركة"[1]، وقد كانت حصيلة هذه العملية عملية الشرارات التي مست غرب الأوراس حسب تقارير جيش الاحتلال القضاء على 50 % من مقاتلي المنطقة الأولى غرب الأوراس البالغ عددهم 600 مقاتل. بينما أشار نفس التقرير إلى أن خسائر القوات الفرنسية لم تتجاوز ربع خسائر الثوار، وهذه التقديرات ممكنة لأن الثوار منعوا من طرف قياداتهم من اعتراض هذه القوات لعدم وجود أدنى قدر من التكافؤ إلا عند الضرورة القصوى كما أمروا بالانتشار في شكل جماعات صغيرة في أماكن لا تحوم حولها الشبهة...

❋ عملية أرياج على الأوراس، وهي تدخل ضمن مخطط "شال" الرهيب كذلك غير أن "دوغول" كان قد نقله إلى مهام أخرى في أوروبا قبل تنفيذها وعين مكانه الجنرال: "كريبان" الذي قام بتنفيذ الحملة على ضوء المخطط الذي كان قد أعده "شال" قبل تحويله.

انطلقت هذه الحملة مع نهاية شهر سبتمبر 1960 بهدف القضاء المبرم على الثورة في الأوراس أو تطهير جبال الأوراس المنيعة حسب تعابير القادة العسكريين الفرنسيين، وقد أطلق قائد هذه الحملة الجنرال: "ديكورنو" الموصوف ببطل الهند

---

(1) مذكرات: الأمل (مرجع سابق) ، ص: 83.

الصينية في لقاء جمعه بالصحفيين بباتنة خلال شهر سبتمبر شائعة روج لها الإعلام عن قصد، حين قال: "الأوراس: مهد التمرد وستكون قبرها"[1]، واتخذ من هذه العبارة شعارا لحملته العنيفة على الأوراس، وهو الشخص المعول عليه في حسم الصراع مع المتمردين -كما يصفهم- وحسب العقيد: الزبيري الذي كان قد حل بالأوراس كقائد ولاية، فإن قيادة الولاية تلقت برقية سرية في شهر سبتمبر في شكل إشعار وتحذير تحصلت عليه وزارة التسليح والمخابرات عن طريق التنصت في إطار التعامل مع أجهزة الإرسال والاتصال للعدو، وقد أعطى هذا التحذير فرصة للقيادة العسكرية بالولاية بإتخاذ مجموعة من التدابير للتخفيف من حدة تأثير العملية على الولاية، وبما أن القوات الفرنسية كانت تسيطر على الموقف نظرا للإمكانات الهائلة التي تتوفر عليها إذ كانت قد شرعت في الإعداد للحملة منذ بداية سبتمبر حسب المعلومات التي تلقتها قيادة الولاية عن طريق برقية تفيد باستعداد القوات الفرنسية بشن حملة واسعة النطاق على الأوراس في خطة محكمة متكاملة الحلقات تنتهي حسب المخطط بالسيطرة الكاملة على المنطقة. وقد قسمتها إلى ثلاث مراحل.

* المرحلة الأولى: وتتعلق بالتعرف وتحديد تضاريس المنطقة ومسالكها، وأماكن تمركز وحدات جيش التحرير الوطني، وتعيين مجالات تحركها وتسليحها وقدراتها القتالية، كما حاولت الحصول على معلومات استخباراتية حول مقر القيادة (قيادة الولاية) والمرافق الملحقة بها، كوسائل الإتصال، والمستشفى، ومراكز التموين... وعلى ضوء المعلومات التي كانت تستقيها من مصادرها الخاصة سوف تنفذ مخطط الهجوم.

* المرحلة الثانية: بعد أن تكون القوات المهاجمة قد استكملت استعداداتها، وبالتنسيق التام بين قيادات العمليات للقواتين البرية والجوية وبين الوحدات الميكانيكية التي تقوم بشق الطرقات أمام وسائل النقل البرية، تقوم هذه القوات مجتمعة بشن هجوم صاعق على مناطق محددة بحيث يثير الهلع والفوضى وسط

---

(1) مذكرات العقيد: الزبيري (مرجع سابق)، ص: 294.

"الثوار"فيفقدون القدرة على تنظيم وحداتهم من أجل الدفاع أو الانسحاب، فتفقد قيادتهم السيطرة على الوضع، وهذا أحد أهداف مخطط الهجوم في مراحله الأولى، وكان لطائرات الهيليوكبتر ذات الإقلاع العمودي والتحليق المنخفض مما يسمح لها بالنزول والإقلاع من أي مكان منبسط، وبمراقبة حركة المقاتلين "الثوار" في حالتي الدفاع أو الانسحاب فقد كان لهذه الطائرات الدور الفعال في إدارة العمليات في أغلب المعارك، فهي طائرة شحن وطائرة مراقبة وقتال في آن واحد.

* أما المرحلة الثالثة، فتتمثل حسب مخطط القيادة العسكرية لجيش الاحتلال في صيانة السلم، بعد أن تكون هذه القوات قد قضت على أغلب المقاتلين -الثوار- وذلك بالإبقاء على الوجود العسكري لقوات الاحتلال في الجبال والغابات لمدة تزيد عن ثلاثة أشهر، وهي كافية في اعتقاد هذه السلطة لموت هؤلاء المتمردين أو استسلامهم ولمنع العناصر المشردة منهم من إعادة تنظيم صفوفهم.

وبالموازاة مع هذه المراحل الثلاثة تعمل قوات الاحتلال على شق الطرقات وفتح المعابر وسط الجبال والغابات لتمكين القوات البرية من الحركة بواسطة الآليات الحربية كالدبابات والمدفعية بالرغم من السيطرة الكاملة للسلاح الجوي.

تضحيات بلا حدود :

تحت هذا العنوان يصف العقيد: الزبيري في مذكراته: آخر قادة الولاية الأولى التاريخيين زحف القوات الفرنسية على الأوراس، بالرغم من أن وحدات جيش التحرير لم تؤخذ على غرة "فقد كانت المعلومات تصل إليها تباعا من عدة جهات، تؤكد توافد حشود عسكرية ضخمة إلى المدن والقرى المحيطة بالأوراس حسب الزبيري الذي اعترف قائلا: "ولم يكن بإمكاننا تغيير المركز (قيادة الولاية) إلا بعد تحرك قوات العدو باتجاه معاقلنا، إذ أعطينا أمرا بتشديد الحراسة، في حين تواصلت التحضيرات لإطلاق عملية ضخمة لإبادة مجاهدي الأوراس أطلق عليها اسم "الحربة"[1] ويستطرد العقيد: الزبيري فيقول: "وفي الرابع من أكتوبر 1960، شرعت القوات الفرنسية الضخمة في عملية هجوم كاسح على الأوراس من عدة

---

(1) قطعة حديد حادة توضع عند فوهة البندقية تستعمل في القتال عند التلاحم.

جهات، بدءا بإنزال المظليين فوق قمم الجبال والمرتفعات لضمان السيطرة الكاملة على الميدان بمنع جنود جيش التحرير الوطني من ترصد حركة القوات البرية لجيش الاحتلال ومعرفة اتجاهاتها وعندما اتضحت الخطوط الأولى لعملية الهجوم، قمت بنقل مركز قيادة الولاية المستهدف من قبل الجيش الاستعماري من كيمل إلى "إيسبذ"، كما اتخذت إجراءات سريعة لضمان انسحاب الكتائب السبعة التي كانت تتمركز بالأماكن المستهدفة إلى أماكن أخرى أكثر أمنا، وأغلق المستشفى في حين تم إخفاء الجرحى في أماكن معدة مسبقا تتوفر على التهوية اللازمة غير أن هذه الإجراءات السريعة لن تحول دون انكشاف بعض المراكز ودون حدوث صدامات مع جيش الاحتلال الذي لم يسبق للأوراس أن شهد مثله، فقد كانت هذه القوات عازمة بالفعل على إبادة جيش التحرير الوطني في المنطقة حسبما صرح بذلك قائد الحملة الجنرال: ديكورنو يقول العقيد الزبيري "توغل الجيش الفرنسي وسط غابات كثيفة الأشجار تتقدمهم فرق من الحركى لتدلهم على الطريق حتى لا يتيهوا بين الأدغال"[1] .

غير أن هذا الانسحاب التكتيكي من قبل جيش التحرير الوطني لم يحل دون حصول تصادم مع القوات الفرنسية التي راحت تبحث عن المجاهدين وسط الأدغال وفي الفجاج وبين الصخور كمن يبحث عن إبرة وسط كومة من التبن.

وبعد يومين فقط من توغل القوات الفرنسية في الغابات التي يصفها "شال" بالحليف الطبيعي لجيش التحرير الوطني، يقع أول صدام بين قوتين غير متكافئتين، يقول عنه الزبيري الذي عاش الحدث كمقاتل وقائد "بعد يومين من انطلاق عملية: "الحربة"[*] وبينما نحن نتحرك بسرعة للخروج من الطوق... نفاجأ بوجود قوات للعدو أمامنا، ولم ندر مصير الدورية التي كانت تسبقنا لِإستكشاف الطريق، وأطلق عساكر الاحتلال النار علينا، فأصابت الرصاصات الأولى الرائد: علي

---

(1) مذكرات آخر قادة الأوراس التاريخيين (مرجع سابق) ، ص: 251.

(*) قطعة حديد بطول 30سم توضع عند فوهة البندقية تستعمل في القتال عند تلاحم الجيشين.

أسوايعي في إحدى ركبتيه فأخفيناه في إحدى الشعاب بعد أن أصبح غير قادر على مواصلة السير"[1] وبسرعة تحول هذا الصدام المفاجىء إلى اشتباك والاشتباك إلى معركة، سيما وأن كل الوسائل متوفرة للطرفين، فبالنسبة لقوات الاحتلال كانت تتوفر على التغطية الجوية والمدد المتواصل من الرجال والسلاح، وإرادة البحث عن الخصم وإلحاق الهزيمة به بل والقضاء عليه. أما بالنسبة لجنود جيش التحرير الوطني، فهم يفتقرون إلى هذه الوسائل مجتمعة لكنهم يتوفرون على إرادة القتال لأنهم مخيرين بين الحياة والموت، ولأنهم كذلك صاروا يصيبون أهدافهم بكل سهولة ويستمتعون بذلك لأن جنون العظمة والغرور كان يدفع بجنود هذه الفرق بالزحف على المكشوف أو السير وقوفا والرصاص ينهال عليهم، مما يجعلهم عرضة للطلقات المتقطعة من جانب جيش التحرير... فكان المجاهدون والمواطنون عامة يصفون الجنود الفرنسيين في هذه الحملات "بالحلف الأطلسي" لكثرة عددهم وإصرارهم على إلحاق الهزيمة بالخصم (جيش التحرير الوطني)، فكانوا يتحركون كالجراد من منطقة إلى أخرى ثم يعودون إلى الأولى، حتى أن هذه الحركة التي لا تتوقف وهذا الزحف المتواصل والتحليق المستمر للطيران والقصف المدفعي الذي لا يعرف النهاية للأماكن المشتبه فيها كان يثير الفزع لدى الحيوانات المتوحشة نفسها، فتفر هاربة في كل اتجاه تطلب النجاة من هذا الدمار الشامل لمظاهر الحياة في الطبيعة ومما ظل عالقا في ذاكرة العقيد الزبيري، فأورده في مذكراته "أن معركة نشبت في بني ملكم الكباش بالمنطقة الثانية استعملت فيها فرنسا "قنابل النّابّالم" المحرمة دوليا فهرب اللاجئون المدنيون القاطنون بالغابة من جحيم النيران، ولهول الواقعة وضعت إمرأة حملها قبل الأوان، وحملت مولودها

(1) مذكرات آخر قادة الأوراس التاريخيين (مرجع سابق)، ص: 251.

في حجرها دون أن تقطع له الحبل السري وراحت تجري به بحثا عن أي مكان تنقذ فيه نفسها ومولودها من هذا الجحيم"[1].

هذا الحديث الموجز لا يعكس كل ما جرى من أحداث مهولة خلال هذه الحملة التي استغرقت أكثر من شهرين أظهرت القوات الفرنسية فيها إصرارها وعزمها على القضاء على الثورة في الأوراس التي ظلت تؤرقها بتحدياتها عبر عنها كل مسؤول بصيغة خاصة.

ولولا الإجراءات التكتيكية التي لجأت إليها قيادات الوحدات بحل الكتائب إلى أفواج صغيرة مع إصدار الأمر بتجنب المواجهة إلا عند الضرورة القصوى لكان لمسار العمليات شأن آخر، ولكي تؤكد هذه الأفواج وجودها وتعبر عن تحدياتها المستمرة للقوات الاستعمارية، وبأمر من قيادة الولاية راحت تناوش باستمرار أبراج المراقبة في شكل عمليات استعراضية، والمراكز الثابتة والمراكب التي كانت تنقل الجنود إلى هذه المراكز.

وقبل أن تستكمل القيادات الفرنسية خطتها في سحق الثورة في الأوراس، تندلع المظاهرات في بعض المدن الكبرى بسبب الاستفزازت التي كانت تقوم بها التنظيمات المناهضة لحق الشعب الجزائري في الحرية والاستقلال كان أعنفها مظاهرات 11 ديسمبر 1960 في الجزائر العاصمة، فتراجعت القوات الفرنسية عن هجماتها المنسقة فجأة لحماية المراكز الإدارية في المدن والمساهمة في عمليات القمع التي أوكلت إلى الفرقة العاشرة -نخبة الجيش الفرنسي- بقيادة "ماسو".

وقد جرت معظم المعارك والعمليات القتالية التي ذكرناها باختصار شديد في المنطقة الثانية حيث يوجد مركز الولاية المستهدف بالدرجة الأولى من قبل القوات

(1) مذكرات آخر قادة الأوراس التاريخيين (مرجع سابق)، ص: 251.

المهاجمة استنادا إلى مذكرات العقيد: الزبيري بصفته مسؤول وشاهد، ولاشك أن ما جرى في المناطق الأخرى من الولاية لا يختلف عن هذه المنطقة.

نتائج حملة: أرياج على الأوراس :

يقول العقيد: الزبيري أنه، وبعد انتهاء عملية "أرياج" عقدت اجتماعا لمسؤولي المنطقة الثانية في الخامس عشر من شهر فيفري 1961... وناقشنا في هذا الاجتماع نتائج المعارك التي خاضها جيش التحرير الوطني مع الجيش الفرنسي، حيث استشهد في هذه المعارك (ألف مجاهد ومدني) من بينهم الرائد: علي اسوائعي، والضابط الثاني: عبد المجيد عبد الصمد، والملازم الثاني: عبد الحميد شعباني مسؤول الناحية الرابعة، أما الجانب الفرنسي فقد تم إسقاط عشر طائرات حربية وإحراق العشرات من الدبابات وقتل ما يتراوح بين 700 و800 جندي فرنسي"[1] ولم يرد من الجانب الفرنسي ذكر للخسائر التي لحقت بالطرفين في عملية "أرياج" كما حصل في الحملات التي شنتها على الولايات الأخرى، غير أنها كانت بالنسبة لجيش التحرير ثقيلة مما دفع بقائد الولاية إلى إصدار أمر لقادة النواحي بفتح أبواب التجنيد التي كانت موصدة بسبب نقص التسليح.

عملية المذراة:

لم تكد قيادة الولاية تستكمل مهامها في إعادة بناء الهياكل النظامية التي تزعزعت بسبب حملة أرياج العنيفة، ولم تكد تمر على هذه الحملة الشرسة أكثر من ستة أشهر حتى ظهرت طلائع حملة أخرى عرفت بحملة "المذراة" والتسمية تغنينا عن البحث عن القصد والغاية من هذه الحملة، فمصالح الاستخبارات الفرنسية اليقظة باستمرار كانت تتابع الوضع باهتمام كبير، ولابد أن تكون قد شعرت بأن النتائج التي حققتها الحملة السابقة لم تكن في المستوى المنتظر، فكانت الحملة عندها

(1) مذكرات العقيد: الزبيري (مرجع سابق) ، ص: 257.

بمثابة محرار لقياس مدى قدرة الثورة على الصمود، ولما لم يتحقق هدفها، قررت إعادة الكرة على الأوراس خاصة كامتياز، لأنها كانت تعتقد حسب مقولة "بيجار" "إن القضاء على الثورة في الأوراس يعني القضاء على الثورة في الجزائر كلها"[1]، وقبل أن تتمكن وحدات المقاومة من إعادة تنظيم هياكلها وبعث نشاطاتها، ومع حلول شهر ماي من سنة 1961، وقبل إيقاف القتال بعشرة أشهر فقط، تعيد القوات الفرنسية الهجمة من جديد على الأوراس مستهدفة كعادتها مركز الولاية، لأنها كانت واثقة من أنها إذا تمكنت من القضاء على عناصر القيادة تفرقت بقية العناصر في غير نظام وهامت في الغابات بدون قيادة وبدون توجيه، فيسهل اقتناصها. تبنت قيادة الحملة "المذراة" نفس الخطة التي اتبعتها حملة "أرياج" السابقة، وهي :

1-مهاجمة الأماكن التي تم تحديدها كنقاط تمركز المجاهدين في الغابات وفي الجبال.

2-احتلال هذه الأماكن أطول مدة ممكنة لمنع المجاهدين من العودة إليها.

3-تشتيت قوات المقاتلين من المجاهدين وبعثرتهم في مناطق مختلفة، بحيث يصعب عليهم التواصل والحصول على الإمدادات والتموين.

4-مزاحمتهم في استغلال حليفيهم الطبيعيين "الليل والجبل".

فقد كان الجيش الفرنسي يضع فرقا خاصة للاستطلاع والمراقبة بمختلف الوسائل في قمم الجبال وفي المرتفعات لترصد حركة جنود جيش التحرير الوطني، بينما تتولى فرق أخرى يتقدمها الحركى والمرتدون من جنود جيش التحرير بتعقب فلول المجاهدين لمعرفتهم بالأرض من جهة ولأن موتهم لا يكلف فرنسا شيئا من جهة ثانية، راحت هذه القوات تقوم بعمليات توغل داخل الغابات وتمشيط دقيق للأودية والشعاب ولكل الأماكن التي تعتقد أن المجاهدين سوف يتخذونها

(1) إشكالية القيادة في الثورة الجزائرية (مرجع سابق)، ص: 177.

ملاجىء أو محميات للتستر بها، فكانت حملة المذراة هذه عملية تذرية حقيقية للمناطق المشبوهة في الأوراس.

معظم الناجين من هذه العملية كانوا قد توزعوا في أفواج قليلة العدد ولجأوا إلى ضواحي القرى والمدن غير بعيد عن الثكنات العسكرية الفرنسية حيث لا تحوم الشبهة باحتمال تحصنهم بتلك الأماكن، وتسلل بعضهم عبر الأسلاك الشائكة إلى داخل القرى المطوقة، لكنها حالات استثنائية وكثيرا ما وجد المتمركزون في القمم المحيطة بالثكنات أنفسهم عرضة لقصف عشوائي - وقائي- ساعات المساء خاصة، فكان عليهم أن يتخذوا الإجراءات الاحترازية قبل حدوثه "فقد مكث الجيش الفرنسي حسب الزبيري في غابات الأوراس ثلاثة أشهر متواصلة، وقد أصر على القضاء على أي أثر لجنود جيش التحرير الوطني بالأوراس الذي كان يتحرك في عصابات قليلة العدد من غابة إلى غابة ومن جبل إلى جبل لتفادي الاشتباك مع العدو إلا إذا أملته الضرورة حتى لا يستنفدوا كامل ذخيرتهم التي يصعب تعويضها في مقاومة جيش عساكره كالجراد، فجيش التحرير في الولاية الأولى كان يقدر مجموعه بما لا يفوق خمسة آلاف مقاتل في مواجهة ما يربو عن (30) ثلاثين ألف عسكري فرنسي"[1].

فقد كانت الهجمتان أو الحملتان (أرياج-المذراة) امتحانا عسيرا زعزع وبقوة كيان الثورة في الأوراس وحتى في بقية الولايات وقضى على جزء لا يستهان به من جيشها، وأقصى جزءا آخر منه بالأسر أو العطب، وهكذا فلا يمكن أن نحكم العاطفة وحدها، بعد أن انتهت الحرب وأصبحت شيئا من الماضي، وأن ندعي الفشل المطلق لهذه العمليات حسب ما أورده العديد من ضباط جيش التحرير ممن أدلوا بشهاداتهم وآرائهم في الموضوع" أو نجاري العقيد: الحاج لخضر في تصريحيه

---

(1) مذكرات العقيد: الزبيري (مرجع سابق)، ص: 260.

الذين قلل فيهما من أثر هذه الحملات على الثورة عندما قال: "لا يكفي لهزيمتنا تكوين جيش مثل جيشنا" "أو لا جديد في مخطط شال يمكن أن يؤثر علينا"[1] فهذه الأقوال مجرد أقراص منعشة لساعات أو أيام، لكنها لا تعوض الفارق في التعداد أو في التسليح أو في التكتيك الحربي المتبع في القتال، فهي مجرد جرعات منشطة لتقبل عنف الصدمة عند حدوثها فمخطط "شال" أو مخطط دوغول بالأحرى حتى وإن لم يتمكن من سحق الثورة نهائيا فقد هز كيانها بعنف شديد، في وقت أخذت فيه مصادر التموين تضعف بل وتنعدم، نقص في التسليح، نقص في التجنيد كون العنصر البشري القادر على حمل السلاح أصبح قليلا، ضعف في الموارد بصفة عامة.

حدة هذه الحملات المتعاقبة على الأوراس تكشف بوضوح عن النوايا الاستعمارية في تحطيم المنارة التي أضاءت منذ سنوات قليلة بشعاعها درب الحرية والكرامة في الجزائر سواء كان ذلك عن طريق الصمود الأسطوري داخل الأوراس أو عن طريق إرساليات من المتطوعين الذين كانت تبعث بهم إلى مختلف مناطق الوطن لإشاعة الروح الوطنية في النفوس ومناوشة القواعد الخلفية لقوات الاحتلال لتخفيف الضغط على الأوراس، وكان لعنف ردود أفعال السلطة الاستعمارية مازاد من غضب السكان فأظهروا التحدي والعناد، رغم ضعف التكوين وانعدام الإمكانات، وفي هذه السلوكات المنافية للقواعد المتعارف عليها ما يؤكد قول الفيلسوف الفرنسي: "جان بول سارتر" بأن الاستعمار هو الذي يخلق الوطنية في قلوب المستعمرين"[2] والخلق الذي يعنيه الفيلسوف: سارتر لا يتم عن طريق التكوين والتوعية أو الترقية السياسية للمجتمع المستعمر (بالفتح) لكن

---

(1) الثورة الجزائرية أمام الرهان الصعب –للمؤلف–، ص: 541.

(2) معالم بارزة في ثورة نوفمبر 1954(مرجع سابق) ، ص: 173.

بالتعسف والاضطهاد والتشريد، وهكذا تتولد في النفوس عن طريق الآلام العظيمة الأعمال العظيمة، فتعيد للمجتمع كرامته وللوطن عزته.

إن طبيعة الحملات التي شنتها القوات الفرنسية على الأوراس لا تختلف من حيث الأهداف عن بقية الحملات التي شنتها على بقية ولايات الوطن غير أن ما يميز العمليات التي استهدفت الأوراس بالذات هي الكثافة ومدة مكوث القوات الفرنسية في الأماكن التي تعتقد أنها معاقل للثوار، فقد أصرت عن طريق هذه العمليات على القضاء على المتمردين وتطهير (حسب العبارات المتداولة) جبال الأوراس، ولم يكن هذا موقف القادة العسكريين وحدهم، بل كان موقف الرئيس: دوغول أيضا الذي جاء لصيانة السلم! فقد صرح بعد زيارته للوحدات وهي تخوض المعركة في الولاية الثالثة أيام، من: 3 إلى 7 مارس 1960، قائلا: "ذلك أنني قلت بالطبع لهؤلاء الجنود الذين يعرضون حياتهم للخطر، وأحيانا يضحون بها في سبيل شرف الجيش الفرنسي، إن النضال لم ينته بعد، وإنه مازال مستمرا، ويجب البحث عن الخصم والتغلب عليه وإلحاق الهزيمة به"[1] وعلى ضوء هذه التوصيات كانت القوات الفرنسية تؤدي مهامها وبكل وحشية، وقد عبر الرئيس دوغول في موضع آخر عن نشاط هذه القوات بصيغة أخرى عندما قال: "إن مصير فرنسا يتوقف دائما على نشاط جنودها... ويجب الآن أن يبقى الجيش مخلصا لواجبه، وقد أبدى هذا الإخلاص وله في ذلك شرف عظيم"[2].

إذ لاشك بأن التقارير التي كانت تصل الرئيس: دوغول من قادة الفرق العسكرية تؤكد له السيطرة المطلقة للقوات الفرنسية على الميدان، وعلى ضوء نتائج هذه التقارير التقويمية التي قد يكون دوغول مقتنعا بجدواها وقد عبر عنها بعبارات مفعمة بالتفاؤل والأمل في عدة مناسبات خلال وبعد الحملات منها قوله:

---

(1) مذكرات: الأمل (مرجع سابق)، ص: 98.

(2)مذكرات: الأمل (مرجع سابق)، ص: 138.

"أصبحنا سادة ميدان" "أصبحنا سادة أرض كلفتنا الكثير" "انتصرنا عسكريا" "تحقق كل ما كنا نتوخاه..." وعلى ضوء هذه النتائج قرر الرئيس: دوغول فتح باب الحوار مع جبهة التحرير، بعد أن أيقن أن الجبهة أمست في موقف ضعف بعد هزيمة جيشها، ولن تستطيع بعد الآن إملاء إرادتها أو التصلب في مواقفها خلال المفاوضات.

صدى الأوراس في الشعر العربي:

لقد تفاعل الشعراء والأدباء مع الثورة منذ اندلاعها، وأشادوا بالأوراس كمهد للثورة ومنارة للحرية، وقلعة شامخة للصمود والتحدي، فأظهروا إعجابهم وتأييدهم لصمود الشعب في الأوراس، وراحوا يشيدون بالبطولات التي كان يبديها أمام جحافل من جيش العدو، فلم يخر ولم يستسلم، بل راح يبدي من المقاومة والصمود ما يفوق إمكاناته ويثير إعجاب الاصدقاء والأعداء على السواء.

وقد نوه الشعراء والأدباء بأوراس الثورة، أوراس المجد والكرامة في قصائد شعرية تعد بالعشرات بل بالمئات، تغنوا بالثورة وبجبال الأوراس التي انطلقت منها الثورة، واقترن اسمها بهذه المنطقة الشامخة، وحق للشعراء أن يكونوا روادا للثورة إلى جانب المجاهدين وأن يشيدوا بأوراس الكرامة رمز الثورة في الجزائر بـ/ شيليا، بجبل أحمر خدو، بالجبل الأزرق، بجبل الشلعلع، وبخنقة: معاش التي جرت فيها أول مواجهة عسكرية على المباشر بين المجاهدين وبين القوات الفرنسية بقيادة العقيد: "ديكورنو" الموصوف ببطل الهند الصينية في التاسع من نوفمبر 1954، حدث هذا قبل أن تستفيق بعض المناطق عن وقع الأحداث في الوطن. فراحت أصداء هذه المعركة والمعارك التي تلتها تصل تباعا في شكل أمواج صاخبة متعاقبة إلى أحرار هذا الوطن وإلى الوطن العربي من أقصاه إلى أقصاه فيشيدون بالأوراس المكافحة ويشنعون بالأفعال الإجرامية والهمجية التي ترتكبها السلطات الاستعمارية، فيحرك هذا مشاعر وعطف القراء في البلدان العربية ويهيج النعرة القومية

لدى الشعوب العربية والمتعاطفة مع الشعب الجزائري، مما يدفع بالحكومات في هذه البلدان إلى انتهاج سياسة قومية معادية للاستعمار ومساندة للشعب الجزائري المكافح جهارا نهارا، سرا وعلانية، فكان أن أبدت بعض البلدان العربية على إثرها مواقف جديدة بالتنويه مثل: مصر، العراق، سوريا، ليبيا... ثم تلتها بقية الدول العربية والاسلامية... ولسنا ندري كيف تنبأ أمير الشعراء: محمد العيد آل خليفة بأن الأوراس تكون منطلق الثورة ببعض سنوات قبل أن تندلع، وذلك في قصيدة مطلعها:

بباتنة رعد البشائر لعلعا فأطرب أوراسا بها والشلعلعا[1]

مع اندلاع الثورة المسلحة وانتقال صدى المعارك عبر أمواج الأثير إلى الشعوب المحبة للحرية والعدل والسلم وجد الشعراء فيها مادة خصبة للتعبير عن مشاعرهم وأحاسيسهم ومساندتهم للشعب الجزائري المكافح، وكانت لفظة الأوراس التي تتردد كثيرا في القصائد الشعرية تعني الثورة بكل صورها وأشكالها لأنها ارتبطت بها واقترن اسمها بذكرها باعتبار ها مركز إشعاع، منها تفجرت وامتد لهيبها الذي عم أرجاء الوطن بسرعة، فكانت كلمة الأوراس في السنوات الأولى مصدر إلهام لهؤلاء الشعراء ورمزا للجزائر المكافحة كلها، وبما أن المجال لا يتسع لذكر جميع القصائد اكتفى بذكر بعضها نظرا لكثرتها.

ومن بين الشعراء الجزائريين الذين جادت قرائحهم بأشعار حماسية حماسة الثورة والثوار، ورفعوا أصواتهم عالية مدوية من قمم الأوراس، الشاعر: الصالح خرفي الذي اتخذ الأوراس منبرا لقصائده الشعرية، وفيها يقول:

من منبر الأوراس حي المجمعا فالضاد والرشاش قد نطقا معا
فانظر هنا تجد البطولة منبرا وترى البطولة في الجزائر مدفعا[2]

(1) إسم جبل قرب مدينة باتنة.

(2) عن مجلة التراث(مرجع سابق) ، العدد: 3، ص: 61.

والأوراس عند صالح خرفي يرمز أيضا إلى مجد البلاد وإلى مستقبلها الذي تشيد أسسه وتصنع معالمه في ربوعه، فيقول :

مجـــد الـــبلاد تـــشيـــــده أوراس والنـار في نهـــج العـــــلا نبــــراس

ويتردد ذكر الأوراس في كثير من قصائد شاعر النضال والثورة: مفدي زكرياء، منها :

وأوراس يشـــهد يـــوم الـــوغى بأنا جهزنا عـــــــلى المعتديـــــن

أما الصالح خباشة فيخاطب المستعمرين ليعرفهم بحقيقة الأوراسيين وببطولاتهم الفذة وبشجاعتهم وحسن بلائهم في المعارك فيقول :

نعـــرفكم بنـــي الأوراس مـــن همـــو ومن يرمـــي فلا يخـطىء الشـؤونا
مـــن الأوراس قـــد لـــن يذوبـــوا متى ذابت ثلـــوج الألـــب لـــــينا

وفي أوراس أغبـــــط كـــــل رام يسـدد للعـدو رصــاص حـــــتف
وفي أوراس راعـــــتني اللـــواتي زحفـن مـع البـــواسل أي زحـــف

وقد انتقل صدى الثورة في الجزائر من الأوراس بالذات إلى أصقاع العالم العربي فاهتز له الشعراء وتجاوبوا معه، فهذا الشاعر العراقي: حميد فرج الله يقول :

هيـا اضرمـي النـار في أوراس صـافية أنـا الجـــزائر يغـــــلي في بـــــركان
لي مـن بنـي ليـوث لا تطاولهـــــم عنـد الملـــــمات في بـاريس ديـدان

فيرد عليه شاعر عراقي آخر، هو: خضر عباس الصالحي فيقول :

هـــذه الجزائـــر عـــبر النـــار ثائـــرة كـأنها الحـــرب في أوراســـها سقـــــرد
فإنهــا تتـــحدى كـــــل عاصفـــة بذكر أبـطالها كـــم غنـــت السيـد

وتتوالى صيحات الشعراء من كل الأقطار العربية تمجد الأوراس وتنوه به، فهذا محمد راضي جعفر الوافي يقول في مطلع قصيدة له :

ســلي أوراســا كــما قطعــت رؤوســا وطـأن هضـــابها وبقــرت بطونـا...

فحركت هذه القصائد مشاعر الأدباء والشعراء في سوريا الشقيقة، فأبدعوا وأفردوا قصائد كاملة تشيد بالأوراس وتتغنى به، فهذا أحمد الرجاء في قصيدة طويلة تحمل عنوان: سلام على الأوراس، يجعل من الجبل الأشم منارة تشع بنور مبادىء الثورة التي يهتدي بها كل ثائر، في قصيدة مطلعها :

يا منارا من هام أوراس يعلو   منه بالنور يهتدي كل سائر

وله أيضا قصيدة أخرى تحت عنوان: الأوراس بركان

ولنا على أوراس   تنور يفور
حمم تلظن والسفوح   الخضر بركان يفور

ولم يتوان الشاعر: مصطفى ملوحي في أن يستجيب لنداء الضمير فينشىء عن الأوراس قصيدة تزيد عن 35 بيتا منها هذه الأبيات :

حي الأوراس رمز من مجد البلاد   قد يحيا في المجد بعض الجماد

....

حي أوراس مريض الصيد فيها   مثلما الغاب مريض الآساد

....

تلك أوراس حرة أنشأت أحرارا   عربا ثاروا على الأصفاد

....

أية أوراس أي أحضان صخر   لك ترعى فلائذ الأكباد

....

أية أوراس أن تكوني ببعد   فخيالي مقرب الأبعاد

وقد اشتد الأسى والحزن بالشاعر "سلمان العيسي" الذي أصيب باليأس والإحباط من الواقع العربي، وعندما ضاق صدره واشتد أسفه لجأ إلى الأوراس ليسكب فيه همومه، وفيه يقول :

السنديان على الأوراس ما برحت جذوره في دمي خضراء في كبدي

....

وجئت أبحث يا أوراس عن جسدي تقاسمتني الرياح السود فانتزعي

....

سل الأوراس... يا بطلا غريبا بخاصرتي وبمعنى في اغتصاب

....

وقد ظلت الأوراس رمزا للتحدي والرجاء ومصدر إلهام للشعراء يلوذون بها في كل ملمة تصيب الجزائر، وعند كل نكبة تتعرض لها.

فهذا الشاعر حميد فرج الله يطالعنا مرة أخرى بقصيدة عن المؤامرة التي يحيكها عملاء الاستعمار وأعوانه للجزائر سنة: 1962، ويطالب باقتلاع جذور الخونة، فيقول :

إيه جزائر كأس النصر طيبة لكنها قد تضر الكأس أحيانا
مازال في الحية الرقطاء وإن قطعت ذيل تحركه سرا وإعلانا
عصابة راحت الأحقاد تأكلها وراعها حين لاح الفجر مزدانا
فشددي الحذر من سوداء باغية واستأصلي بثبات جذور من خانا
تيقظي واجعلي أوراس أجمعها عينا على البغي والصحراء آذانا

....

وكان للمرأة العربية دورها ومساهمتها.

فهاهي الشاعرة: جليلة رضا، تشيد بثورة نوفمبر... ثم تتحدث عن الأدباء الفرنسيين والمفكرين الذين راحوا يشيدون بالحرية وبالعدل والمساواة، لكن أفكارهم لم تتجاوز حدود بلادهم، فاحتلوا الجزائر، ولكن لن يطول لهم البقاء فيها، لأن الشعب الجزائري ورمزه الأوراس قد حقق النصر، فتقول :

وتفـــرين وتبـــقى أمـــة الأوراس حـــــــية
تكتـــب النصرـــ وراء النصرـــ بـــالروح القوميـــة
والتحـــيات لهـــا مـــن كـــل أرض عربـــــية

وقد ظلت الأوراس رمزا للجزائر كلها وظل صدى صمودها يعم الأرجاء، ويجيء الاستقلال فتعم الفرحة كل الأحرار، فيغنون ويرقصون وينشدون للأوراس رمز النضال والكفاح في الجزائر، وفي مقدمة الشعراء الشاعر: التهامي من مصر فقد حركت مشاعره الفرحة الكبرى يوم أن انتصرت الجزائر، وأقيم لذلك حفل كبير في القاهرة، وألقى الشاعر بالمناسبة قصيدة رائعة مخاطبا ومحييا الأوراس الذي هبت منه نسمات الصباح في يوم مشرق جميل رفرف فيه العلم الوطني خفاقا فوق ربوع الجزائر نقتطف من مطلع قصيدته هذه الأبيات:

تـــنفس الصـــبح في الأوراس وابتســـما — وقبـــل الأرض لمـــا أن رأى العـــلما
لمـا رآه قـد امتـــــــــدت غلالتـه — وظلـــت بحـــماها السـفح والقمـــما
وكـبرت في سـماء المجـــد صـــائحة — فيـك الجزائـر قـد أرسـت لهـا قـدما

وقد أتيح لهذا الشاعر أن يزور الجزائر في منتصف الثمانينات، بعد أن استجدت أوضاع كثيرة وتغيرت ملامح مجتمع كان نموذجا في الفداء والتضحية، فاشتكى إلى الأوراس هذه المرة بحرقة وألم شديدين، وجاءت تعابيره مفعمة بالغضب، إذ لم يبق له سوى هذا الجبل الأشم يشكو إليه همه ويبثه أحزانه فقال في حسرة وألم.

إلى متـى تعظـم البلـوى ونحتـــمل — أوراس لم يبـــق إلا أنـــت والأمـــل
دعـي إلى الهامـة الشـــتاء يغمـــرها — مـن حرقتـي وهـواي الـدمع والقبـل

إنه، وبالرغم من التشاؤم الذي يبديه الشاعر، فهو يأمل في المستقبل في أوراس المجد الذي أمسى مثالا للدفاع عن الكرامة،

فالجهاد الذي انطلق منه سوف يشحذ العزائم مرة أخرى، فأنشأ قصيدة جاء فيها.

أوراس إنه في الدنيا معلمنا	فمن رحابك دوما تلمع المثل
كانت أعاديك أطوادا مسلحة	تطغى وليس لمخلوق بها قبل
وكانت زمرة أفراد مبعثرة	لكنها بسيوف الحق تشتمل
لم ترهب الموت بل مارسته هدفا	تسعى إليه وتدعوه وتبتهل
أعطيته باقة المليون باسمه	كأنها بلقاء الموت تحتفل
فأصبح الموت في كفيك صاعقة	ذابت جنودهم فيها بما حملوا
شلت مدافعهم وارتد صاعقها	لما طواها ذراع مده بطل

استاء الشاعر لأوضاع الأمة العربية، وراح يندب حظها، ولم يجد من يشكو إليه ألمه غير الأوراس عله يعيد الأمل إلى النفوس والبسمة إلى الشفاه فهاهو يخاطبه ويناشده، لعل في مناشدته بعض العزاء يخفف عن الشاعر آلامه، ولعل في أوراس المجد بقية عهد تعيد للأمة العزة والكرامة.

أوراس هذه دروس منك بالغة	أبناؤك الصيد للدنيا بها رسل
جئناك يشرب من مغناك ظامئنا	ليلقى فيك من علو ومن نهلوا
في حضنك الدوح أغصان مجنحة	ونحن ممن عليه الدوح يشتمل
فليس بدعاء إذا جئناك في أمل	أوراس لم يبق إلا أنت والأمل

إننا لا نكاد حصر عدد القصائد الشعرية التي أشادت بالأوراس واعتبرته مفخرة للجزائر ورمزا من رموز التحدي والنضال المسلح، فقد تحمل أعباء القتال وحده، وتصدى للحملات الشرسة التي كانت تشنها نخبة الجيش الفرنسي تحت قيادة ضباط مرموقين نالوا أوسمة الشرف العسكري أمثال: شاريير، وديكورنو، وبيجار قرابة سنة وحده... فنال إعجاب الأصدقاء والأعداء على السواء، وهذه الأبيات الشعرية التي اقتطفناها من قصائد شعرية كثيرة امتلأت بها دواوين الشعراء صورة من صور هذا الإعجاب.

خاتمة المطاف

وماذا عسانا أن نقول في الأخير لمن يجحد الدور البطولي الذي لعبه الأوراس منذ فجر التاريخ في مقاومة الغزاة والفاتحين على السواء، بالرغم من الدلائل الواضحة التي تثبت ذلك، ومنها تلك التحصينات الرومانية التي جعلت من الأوراس معتقلا كبيرا تحيط به أبراج مراقبة من كل الجهات ولازالت رغم صروف الدهر ماثلة للعيان، وهي تمثل صورة م[illegible]سور الحصار المفروض على الأوراس - المتمرد على الاستعمار- منذ أن وجد. وبصرف النظر عن فهم الأوراسيين لأهداف الفاتحين العرب، فالمقاومة التي أبدتها الملكة: الكاهنة، والقائد: كسيلة لم تحدث في أي منطقة أخرى في شمال إفريقيا، وكتب التاريخ لم تنكر ذلك.

وخلال فترة الاستعمار الفرنسي للجزائر، تواصلت المقاومة دون توقف، رغم النكسات المتعاقبة التي كانت تلحق المقاومة، نتيجة الاندفاع وسوء التنظيم والتخطيط وضعف الإمكانات، غير أن إرادة المقاومة ظلت تتجدد في قلوب السكان.

وعلى الرغم من الطابع العشائري الذي يسود العلاقات الاجتماعية بين السكان، فإن الضغوط الخارجية كانت تتطلب منهم أن يتوحدوا لدرء الخطر المشترك، فاتحدوا، وكانوا عند الفاتح من نوفمبر 1954، على أتم الاستعداد لتحمل أعباء الثورة لمدة سنة فتحملوها عن جدارة، بل وساهموا في نشرها في مناطق أخرى بالسلاح وبالرجال، وكانت لهم مَلاحِم وبطولات خالدة تؤكدها أسنمة القبور في كل المناطق التي عملت فيها هذه الإرساليات... أما بعد :

فهل كان أشقاؤنا في الدول العربية أعلم بنا منا، فاعترفوا بالدور الريادي للأوراس منذ الانطلاقة الأولى، وسخروا أقلامهم للإشادة به في قصائد رائعة لا يخلو منها ديوان.

فلندع الشعراء وقصائدهم، لنعيد النظر بإمعان بعد أن نتجرد من كل عاطفة في رسالة والي قسنطينة السيد: دو التي بعث بها إلى الوالي العام بالجزائر سنة 1920 قبل اندلاع الثورة المسلحة بأكثر من ثلاثين سنة يقول فيها: "إن الأوراس مهد كل الثورات التي أحزنت المنطقة يجب أن نعتني بها ونراقبها، كما يجب أن نطفىء أي

بؤرة تنذر بوشوك الثورة"[1]، كان هذا رأي الوالي: دو، فما رأي الوالي العام "ليتو". لم يتردد الوالي العام "ليتو" في التأكيد أمام النواب أن ثورة الأوراس كان ينتظرها الألمان"[2].

ومما يروى عن ابن باديس أنه كان مرة وسط جماعة من أنصاره ومريديه، فقال لهم: "عاهدوني"، فلما أعطي له العهد بالمصافحة، قال :"إنني سأعلن الثورة على فرنسا عندما تشهر عليها إيطاليا الحرب" وروى تلميذ آخر من تلامذته أنه كان يريد الخروج على فرنسا إلى جبال الأوراس ليعلنها ثورة على فرنسا لو وجد رجالا يساعدونه"[3]. فلما اختار ابن باديس جبال الأوراس بالذات وجبال كتامة من حوله أكثر مناعة وأوفر مددا.

كان هذا قبل أن تندلع الثورة وتتأكد الحقائق جلية أمام مرأى ومسمع كل المتشككين ويأتي الاعتراف من أعلى مسؤول في الدولة الاستعمارية من خلال تصريح أدلى به في أثناء زيارته للجزائر سنة 1958، ودونه في مذكراته-الأمل- يقول الرئيس: دوغول... "توجهت عن طريق سطيف وتليرغمه (تلاغمة) إلى جبال أوراس مهد الثورة وقلعتها"[4]. لا شك أن هذا الإقرار من قبل الرئيس: دوغول لم يأت جزافا، إنما كان ذلك نتيجة دراسة وتحليل عميق للوضع السياسي الساخن في البلاد وتقويم شامل للعمليات العسكرية في الميدان. ولكي نقترب أكثر من الحقيقة نحيل الكلمة في الموضوع إلى رجال عسكريين عايشوا الأحداث عن كثب وعبروا عن آرائهم بكل حرية، ومن بينهم:

الجنرال "ديكورنو" وهو من الضباط السامين الذين حازوا على أوسمة الشرف العسكري، يوصف ببطل الهند الصينية، قاد الحملات الأولى مع الجنرال: شاريير في الأوراس، خاض أول معركة ضد جيش التحرير الوطني في خنقة أمعاش قرب فم الطوب في التاسع من نوفمبر 1954.

---

(1) ثورة الأوراس 1916 إنتاج ك جمعية أول نوفمبر (مرجع سابق) ، ص: 523.

(2) مجلة الأصالة (مرجع سابق) ، ص: 23-24.

(3) الشيخ عبد الحميد بن باديس فلسفته وجهوده في التربية والتعليم (مرجع سابق)، ص: 233.

(4) مذكرات: الأمل (مرجع سابق) ، ص: 146.

عاد إلى الأوراس، وهو الرجل المعول عليه ليقود أعنف حملة تشن في السنتين الأخيرتين من الثورة بنية استئصال جذور المقاومة، عرفت باسم عملية "أرياج" سبتمبر... ديسمبر 1960، أدلى بتصريح خطير في مدينة باتنة أمام الصحفيين ضمنه تهديدات خطيرة وإصرار على القضاء على الثورة في الأوراس، حين قال: "الأوراس مهد الثورة وسيكون قبرها"[1].

وثانيهما، الجنرال: الطيار، ميشال فورجي الذي كان مكلفا بالمراقبة الجوية للمناطق المحرمة التي خرجت عن سيطرة القوات البرية الفرنسية فقد كتب الجنرال: الطيار يقول: "إن كتلة الأوراس كانت بحق عظيمة، لكنها سيئة المعشر، والاستقبال الذي حظينا به فيها كان أبعد من أن يكون وديا... ومتمردي الأوراس يعدون من بين المقاتلين الأشداء الذين جابهناهم"... ويواصل في فقرة أخرى "كتلة الأوراس هي النواة الصلبة ومهد التمرد الذي سيكون المسرح المفضل لعملياتنا، كما كان حتى الآن وكما سيظل حتى النهاية"[2].

فلنترك تصريحات و أقوال العسكريين لنستأنس بآراء الكتاب والمؤرخين، فقد جاء في كتاب: الثورة الجزائرية –سنوات المخاض– لـ/ محمد حربي وهو يتحدث عن انطلاق الثورة في الوطن، الصفحة: 32 من الكتاب المرجع، مايلي: "في جبال الأوراس، كان انضمام السكان جماعيا، وكان المجاهدون كالحوت وسط الماء"[3] وفي آخر نفس الصفحة من الكتاب يقول: "بعض التقارير العسكرية التي أعدتها قيادة منطقة... تفيد أنَّ مجموعات من الفلاحين تقوم بمطاردة المقاومين وإيقافهم"[4] فكيف نفسر هاتين العبارتين؟ وكيف ننكر بعدها احتضان الأوراسيين للثورة؟... ولم يكن محمد حربي وحده هو الذي أقر بهذه الحقيقة، فقد أوردها كثيرون غيره، نكتفي بذكر ما جاء في ملحمة الجزائر الجديدة للمجاهد: عمار قليل.

(1) مذكرات العقيد: الزبيري (مرجع سابق)، ص: 249.

(2) شاهد على الثورة في الأوراس (مرجع سابق)، ص: 305.

(3) الثورة الجزائرية سنوات المخاض (مرجع سابق)، ص: 32.

(4) نفس المرجع.

يقول المجاهد: عمار قليل في ملحمة الجزائر الجديدة -الجزء الأول- ما يلي: "لقد خطط قادة الثورة منذ البداية على أن يكون الأوراس معقل الثورة ومهدها الأول... وبالفعل، فقد تحمل مناضلو الأوراس عبئا كبيرا في الحفاظ على شعلة الثورة حتى تعم أرجاء الوطن بنفس القوة والزخم،بالإضافة إلى الأوراس فإن منطقة القبائل كانت في مرحلة البداية تمثل الشق الثاني للرحى، بحيث تحملت هي الأخرى العبء في حمل راية الثورة في مراحلها الأولى[1].

نكتفي بهذه الأقوال والتصريحات الصادرة عن شخصيات مرموقة بصفتهم: قادة سياسيين أو عسكريين أو كتاب مؤرخين، ونعتقد بأنها كفيلة بإزالة ما كان قد اعتري القائلين بخلاف ذلك من غشاوة فالتبس عليهم الأمر، وهنا تتجلى الحقيقة.

* نعتذر للقراء عن إعادتنا لبعض الأقوال التي وردت في المضمون في الصفحات الثلاثة الأخيرة، حرصا منا على تكوين انطباع عند القارىء.

(1) ملحمة الجزائر الجديدة (مرجع سابق)، الجزء الأول، ص: 231.

مراجع الكتاب

1-ثورة الأوراس-1879-: الدكتور: عبد الحميد زوزو.

2- الثورة الجزائرية: العماد: مصطفى طلاس.

3- الثورة الجزائرية (سنوات المخاض): محمد حربي.

4- ملحمة الجزائر-الجزء الأول: المجاهد: عمار قليل.

5- الثورة الجزائرية- أمام الرهان الصعب: للمؤلف.

6- نصر بلا ثمن: الأستاذ: محمد عباس.

7- تاريخ الجزائر القديم والحديث: الشيخ: مبارك الميلي.

8- تاريخ الجزائر العام -الجزء الأول-: الأستاذ: عبد الرحمن الجيلالي.

9- مذكرات -الأمل-: للجنرال: دوغول.

10- الثورة في عامها الأول: للدكتور: العربي الزبيري.

11- مذكرات آخر قادة الولاية الأولى التاريخيين: العقيد: الطاهر الزبيري.

12- مذكرات الشيخ: **محمد خير الدين -الجزء1-:** الشيخ: محمد خير الدين.

13- مذكرات اللواء: **حسين بن معلم**: اللواء: حسين بن معلم.

14- شاهد على الثورة في الأوراس: للرائد: محمد الصغير هلايلي.

15- عميروش: **حياة موتتان، وصية**: الدكتور: سعيد سعدي.

16- المختصر في تاريخ الجزائر: للدكتور: صالح فركوس.

17- خصومات تاريخية: الأستاذ: محمد عباس.

18- حرب الجزائر- ملف وشهادات: باتريك ايفينيو وجان بلانشايس.

19- إشكالية القيادة في الثورة الجزائرية: المجاهد: محمد زروال.

20- الأصالة العدد: **29**: وزارة الشؤون الدينية.

21- الأصالة العددان: **62-63:** وزارة الشؤون الدينية.

22- الأصالة العددان: **60-61:** وزارة الشؤون الدينية.

23- مجلة الثقافة العدد: 29: وزارة الاعلام والثقافة.

24-ثورة الأوراس: إنتاج جمعية أول نوفمبر بباتنة (1916-1917).

25-مصطفى بن بولعيد والثورة الجزائرية: انتاج جمعية أول نوفمبر لتخليد وحماية مآثر الثورة.

الفهرس

الفصل الخامس

الفصل السادس





مسعود عثماني من مواليد بلدية تيغانمين - دائرة آريس - ولاية باتنة، في 28 جويلية 1946م، درس في الكتاتيب القرآنية كبقية أبناء الريف وفيها حفظ القرآن الكريم.

عاش أحداث الثورة عن قرب وتفاعل معها وإن لم يساهم فيها لصغر سنه.

دخل الجندية في سن مبكرة وعمره لم يتجاوز 18 سنة، غير أن ذلك لم يحقق حلمه، فانصرف إلى الحياة المدنية من جديد واستأنف الدراسة في مدارس حرة، وما لبث أن تحصل على شهادة الأهلية أتاحت له فرصة الانتساب إلى سلك التربية والتعليم، فانخرط معلما مساعدا ثم مدرسا فمعلما متخصصا ومستشارا تربويا، ثم دخل أخيرا المعهد الوطني لتكوين إطارات التربية وتخرج منه بترتيب مشرف.

عمل مفتشا للطورين الأول والثاني في ولاية بسكرة مدة تقارب 10 سنوات، وبعد استيفائه للمدة المنصوص عليها في قانون التقاعد الجديد سنة 2000. اختار التقاعد وتفرغ للكتابة والبحث في التاريخ الوطني الحديث والمعاصر

نشرت له – دار الهدى:

- كتابا في النصوص بعنوان: المفيد في المطالعة.
- كتابا حول السيرة الذاتية لشخصية الزعيم ابن بولعيد أعيد طبعه للمرة الرابعة.
- كتابا في التاريخ والاجتماع بعنوان: أوراس الكرامة.
- كتابا في أصول التدريس تحت عنوان: الرافد في التربية و التعليم.
- الثورة التحريرية أمام الرهان الصعب.
- رجع الصدى.
- من اغتال ابن بولعيد.
- الأوراس مهد الثورة.

ومجموعة من القصص والمسرحيات موجهة لأطفال التعليم الابتدائي.

المؤلف

الأوراس مهد الثورة



ISBN978994726958-2

السعر: 600 دج